

## الاراميون فى العهد القديم

للدكتور خالد الدسوقي

كلية البنات — جامعة عين شمس

هناك عبارة غامضة فى سفر عاموس ( ٩ : ٧ ) ترجع أصل الآراميين الى مكان يسمى قير الذى يحتمل أن يكون بالقرب من عيلام (١) وذلك على الرغم من أن هذا المكان قد ذكر فى سفر عاموس ( ١ : ٥ ) والملوك الثانى ( ١٦ : ٩ ) باعتباره المكان الذى قدره الرب ليكون منفى أرامى دمشق • وتوحى العبارات التى وردت فى سفر عاموس بأنه بعد ما يقرب من خمسمائة عام من اقامة الآراميين فى سوريا ، كانت لا تزال توجد رواية متداولة عن هجرة الآراميين تشبه الى حد كبير قصة خروج الاسرائيليين من مصر أو الفلسطينيين من كافتور (٢) كما تشير أيضا الى ما قد يؤدى اليه سلوكهم المعوج من نتائج وذلك بارجاعهم الى موطن أجدادهم • ليس هذا التهديد الا أثر من آثار ذكرى التهديد الذى وجه الى الاسرائيليين العصاة بارجاعهم ثانية الى مصر (٣) •

ومن ناحية أخرى فهناك مصدر خاص بأسفار موسى الخمسة ( التوراه ) ذكر أن مكان اقامة الآراميين الأول هو «أرض بنى المشرق»

---

(١) قارن ، اشعيا ٢٢ : ٦ •

(2) Cf.. C.H. Gordon, JBL 74 (1955), p. 289.

(٣) قارن ، تثنيه ٢٨ : ٦٨ ، هوشع ٨ : ٣١ •



( تكوين ٢٩ : ١ ) حيث يتقابل يعقوب مع لابان ، وعلى ذلك تعبر العبارة « أرض المشرق » بوجه الدقة فى العهد القديم عن الصحراء الواقعة الى الشرق من فلسطين وهى الصحراء السورية •

وتضع « قائمة الأمم » التى ذكرها العهد القديم ( تكوين ١٠ : ٢٢ - ٢٣ ) آرام الجد الأول للآراميين فى عداد أبناء سام مع عيلام وآشور مبينة بذلك ازدياد أهمية الآراميين فى الشرق الأدنى القديم منذ الثلث الأول من الألف الأول قبل الميلاد • كما تذكر نفس القائمة أربعة أبناء لآرام هم : عوض وحول وجاثر وماسين الذين لا نعرف شيئاً عن شخصيتهم ولا عن مواطنهم • ولكن « لفائف قمران »<sup>(٤)</sup> تحدد موطن هؤلاء « فيما وراء الفرات » • ولكن فى سلسلة أنساب ناحور ( تكوين ٣٢ : ٢٠ - ٢٤ ) نجد أن آرام يعتبر حفيداً لناحور وابناً لقموئيل من ذرية زوجة ناحور وليس من محظيته وبهذا تضعهم فى بلاد النهرين وليس فى جنوب سوريا<sup>(٥)</sup> • كما أصبح آرام هنا أيضاً مجرد ابن شقيق لعوص وليس أباً له •

ويصل العهد القديم آباء العبرانيين الأول بالآراميين ، فلم يذكر فقط أن ابراهيم شقيق ناحور بل أن اسحاق ويعقوب قد تزوجا ابنتى أبناء عمومتهما بتروئيل ولابان الآراميين ( تكوين ٢٥ : ٢٠ ، ٢٩ : ٢١ ) • ويؤكد العهد القديم آرامية لابان اذ يعزى اليه العبارة الآرامية « يجر يهدوثا » والتى ترادف العبرية « جلييد » والتى تعنى « رجم الشهادة » ( تكوين ٣١ : ٤٧ ) • كما جاء فى سفر التثنية ( ٢٦ : ٥ ) أن يعقوب الذى كان يطلق عليه اسرائيل لقب مرة « الآرامى القائه »<sup>(٦)</sup>

---

(4) Qumran Saroll II. 10.

(٥) انظر التعليقات على سفر التكوين فى :

H. Mazar, BA 25 (1962), 99.

(6) Cf. L. Koehler and W. Baumgartner, Hebraisches und Aramaeisches Lexikon zum alten Testament, 3rd ed. (Leiden, 1967), p. 2 b.



هذا بجانب أن أصل الاسمين اللذين يطلقان على ذلك الشعب قد اشتقا من آرام وعبر وقد نقل كلا من الاسمين متجاورين فى القوائم الخاصة بأبناء سام .

لقد تأثر كثير من المحدثين بما جاء فى العهد القديم ونادوا بانعدام وجود فوارق واضحة بين الآراميين والعبرانيين من ناحية الأصل أو المصدر الذى جاءوا منه ويؤكدون احتمالا أن الجنسيتين امتزجا على الحدود منذ البداية حينما كانت تعيش كل جماعة منهما عيشة الرعى فى الصحراء نفسها ، حتى أن القبائل الشمالية مثل « نفتالى » استطاعت أن تتحول من اسرائيلية الى سورية . وبجانب هذا يعللون الصلة القوية بين آباء العبرانيين والآراميين بأنهم يستطيعون ترسم ميلا آراميا واضحا فى قصة إبراهيم وأسرته الذى أتى من حران الآرامية — على قولهم قبل أن تكون دمشق كذلك بزمان طويل (٧) .

ولكن اذا رجعنا الى المصادر الأخرى خارج العهد القديم لوجدنا أنه لم يكن لظهور الآراميين شأن كبير فى بلاد الرافدين والتي تشمل نهر الخابور وكلا ضفتى الفرات فى أقصى الغرب . وفى العهد القديم كانت هذه المنطقة تسمى « آرام — نهرايم » ( آرام — النهرين أى الفرات ورافده الخابور ) ولكن اذا رجعنا الى المصادر الأخرى التى يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر حتى القرن الثانى عشر قبل الميلاد نجد أن هذه المنطقة كان يطلق عليها اسم « نهرايم » فقط بينما

---

(٧) نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٢



فى النصوص المصرية كانت تسمى « نهارينا » وفى الأكديمة « ناخرىما  
أونارىما <sup>(٨)</sup> » •

وهكذا نجد أن ظهور الاسم المركب « آرام — نهارايم » وكذلك  
العلاقة المقترحة بين الآراميين وآباء العبرانيين يحتويان على مفارقة  
تاريخية حدثت تحت تأثير استيلاء القبائل الآرامية على منطقة الجزيرة  
فى زمن لاحق أى فى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد <sup>(٩)</sup> • بجانب هذا  
فإن جميع الآراء التى نادت بأن آباء العبرانيين الأول يرجعون فى  
أصلهم الى الآراميين قد لاقت الآن معارضة قوية <sup>(١٠)</sup> •

كما نجد فى العهد القديم أن آرام أو آرام — نهارايم كانت  
الموطن الأصلى لكوشان — رشعتايم أول من عادى اسرائيل أيام  
القضاء ( قضاء ٣ : ٨ ، ١١ الذى يؤرخ فى حوالى عام ١٢٠٠ ق م )  
أوبلعام الأقدم منه عهدا ( تثنيه ٢٣ : ٤ ) • وهنا أيضا توجد مفارقة  
تاريخية حيث أن موطن أسلاف بلعام هو مدينة فتور التى تقع على

---

(٨) من أجل هذا الاسم وظهوره فى العهد القديم وفى المصادر الأخرى  
أنظر :

R. T. O'Collaghan, Aram Naharaim (Rome, 1948), pp. 131 ff.;  
J. J. Finkelstein, JNES 21 ( 1962 ), 73 ff; Cf. Kraeling, Aram and  
Israel, pp. 20 ff.

(9) Cf. B. Mazar, JNES 28 (1969), 78.

(١٠) كان أول من نادى بالأصول الآرامية لآباء العبرانيين الأوائل  
M. Noth

أنظر كتابه

Die Ursprunge des alten Israel im Lichte  
neuer Quellen ( Koeln-Opladen, 1961 ).

وللآراء المعارضة ، أنظر :

D. O. Edzard, ZA 22 (1964 ), 142 ff; M. Wagner VT Supplement,  
16 ( 1967 ), 355 ff.



بعد حوالي ٢٠ كم جنوب قرقميش على الضفة الغربية للفرات • لقد أصبحت هذه المدينة في حوزة الآراميين في القرن العاشر أو في النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد كما تدل عليه حوليات الملك شلمنصر الثالث خاصة السنة الثالثة من حكمه أي عام ٨٥٧ ق.م « أن مدينة أنا — آشور — أوتير — أصبات التي يسميها شعب خاتى ( أي السوريون ) بيترو ( فيتور ) والتي تقع على نهر ساجور على الجانب الآخر من نهر الفرات ومدينة موتكينو على هذا الجانب من الفرات اللتين أقامهما سلفى تيجلات — بيلزر واللذين استولى عليهما ملك أرض آرام بالقوة في عهد آشور — رابى ( ١٠١٠ — ٩٧٠ ق.م ) ملك آشور ، هاتين المدينتين قد أرجعتهما الى حالتها السابقة » (١١) •

### آرام — صوبه والحرب مع داود :

في حوالي عام ١١٠٠ ق.م انتشرت القبائل الآرامية في سوريا بل توغلت مثل الاسرائيليين في شمال شرق الأردن • ولم يكن هناك بد من قيام الاشتباك بين الجارتين الكبيرتين ، اسرائيل والدويلات الآرامية خاصة بعد قيام ملكة اسرائيل وعلى رأسها الملك شاول ( ١٠٢٠ — ١٠٠٠ ق.م ) الذي حارب ملك آرام — صوبه ( صمويل الأول ١٤ : ٤٧ ) وليس لدينا أية بيانات عن الحرب التي قامت بين شاول وملك صوبه واذا كان العهد القديم لم يذكر بقية أمراء المنطقة من الآراميين فغالبا ما كانوا خاضعين لملك صوبه • لقد أصبحت مملكة صوبه في مركز يسمح لها بزعامة الآراميين في جنوب سوريا وكانت صوبه عاصمة هذه المملكة وكانت تستمد ثورتها بما اشتهرت به من مناجم النحاس (١٢) •

---

(11) ARAB I, p. 603.

(١٢) والجدير بالملاحظة أن كلمة صوبه مشتقة من صهوبه بمعنى أحمر أو نحاس ويظن أن موقعها هو كالسييس أو عنجر الحديثة جنوبى رحلة في البقاع ، أنظر : Kraeling, Op. Cit. p. 40. وكانت كالسييس ( والكلمة يونانية معناها نحاس ) فيما بعد عاصمة أبطوريا ( المذكورة في انجيل لوقا ٣ : ١ ) وهى مملكة عربية .



وفى بداية حكم داود ( ١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م ) بلغت مملكة آرام — صوبه ذروة قوتها بقيادة هدد — عزر بن رحوب ( صمويل الثانى ٨ : ٣ ) والذي كان مواطنا من آرام — بيت — رحوب والذي يبدو أنه قام بتوحيد هذه المملكة مع صوبه • ويبدو أن آرام — بيت — رحوب كانت تقع فى وادى لبنان الجنوبى بينما كانت آرام — صوبه تقع فى الشمال ممتدة شمال شرق جبال لبنان الداخلية داخل الصحراء السورية تجاه تدمر • وهكذا وضع هدد — عزر تحت يديه ممتلكات شاسعة تكونت منها امبراطورية ذات كيان سياسى مركب ضمت اليها فيما ضمت آرام — دمشق ودويلات أخرى تابعة مثل مملكة آرام — بعكه فى الجولان الأعلى وأرض طوب فى شمال شرق الأردن ( صمويل الثانى ١٠ : ٦ ) أخبار الأيام الأول ١٩ : ٦ - ٧ ) أما فى الجنوب فقد وصل نفوذه حتى عمون بينما فى الشمال الغربى كانت توجد مملكة حماه التى كانت دائما تناصبه العداء ( صمويل الثانى ٨ : ٩ - ١٠ ) •

ويعكس لنا نص شلمنصر الثالث السابق ذكره ذلك التوسع الذى أحرزه هدد — عزر فى الشمال الشرقى حتى نهر الفرات بل فيما وراء هذا النهر ( صمويل الثانى ٨ : ٣ ، ١٠ : ١٦ ، الأخبار الأول ١٩ : ١٦ ) • فقد جاء فى هذا النص ما يفيد أنه تحت حكم آشور — رابى الملك الآشورى المعاصر لهدد — عزر أن « ملك آرام » استولى على مدينة بتر و مدينة موتكنو وهى مناطق تقع على ضفتى الفرات جنوب قرقيش • وفى نص مماثل فى حوليات آشور — دأن الثانى ( ٩٣٤ - ٩١٢ ق.م ) نجد أن الأماكن التى استولى عليها الآراميون تقع فى مناطق مختلفة ولكن يبدو أنها توجد شمال منحرج الفرات الأعلى ، أى المنطقة التى احتلتها فيما بعد قبيلة بيت — أدبنى الآرامية (١٣) •

(13) Cf. Weidner, AFO 3 (1926), 151 ff ; E. Forrer, RLAI, 291.



فلو صح أن الملك الآرامى فى كلا الحوليتين هو هدد — عزر —  
فيمكن أرجاع فتوحاته على طول نهر الفرات بين اعتلاء آشور — رابى  
العرش ( ١٠١٢ ق م ) وحروب هدد — عزر ضد الملك داود التى حدثت  
فى أوائل القرن العاشر قبل الميلاد •

لقد وضع انتصار داود على هدد — عزر وحلفائه نهائية  
للامبراطورية الآرامية فى سوريا بحيث أصبحت جميع ممتلكاتها تخضع  
للإدارة الاسرائيلية • وفى الامكان إعادة ترتيب وقائع هذه الحرب  
زمنيا على الوجه التالى : —

١ — حرب اسرائيل الأولى ضد القوات العمونية والآرامية المتحالفة  
التي كانت قد وصلت الى سهل مؤاب ( صمويل الثانى ١٠ : ٦ وما  
بعدها اخبار الأيام الأول ١٩ : ٦ وما بعدها ) •

لقد كانت القوات الآرامية تتكون من قوات من آرامى « بيت —  
رحوب » و ٢٠ ألف رجل من آرامى صوبه و ١٠ آلاف رجل من  
معكه و ١٢ ألف رجل من طوب • وتحرك جيش داود الاسرائيلى وعلى  
رأسه « يواب » ضد تحالف عمون و آرام • ودارت المعركة تحت أسوار  
« ربه » عاصمة العمونيين ( عمان الحالية ) • وانتظم العمونيين فى  
معركة بالقرب من الباب بينما عمل آراميو « صوبه » ورحوب وأهالى  
طوب ومعكة على القيام بحملة قوية وعلى ذلك كان جيش اسرائيل  
أن يقاتل فى جبهتين • وقد كان يواب ماهرا فوزع قواته الى قسمين •  
تقدم هو بنفسه لمواجهة الآراميين على رأس جماعة من المختارين بينما  
رأس خوه ابيشاي الفرق العمونية الأخرى • وجاء فى العهد القديم  
ما يلى ( صمويل الثانى ١٠ : ١١ — ١٤ ) : وقال ( يواب ) أن قوى  
آرام على تكون لى منجدا وأن قوى عليك ( أى على أخيه ) بنوعمون  
أذهب لنجدتك • تجلد ولنشد من أجل شعبنا ومن أجل مدن الهنا  
وليضع الرب يهوا ما حسن فى عينه • فتقدم يواب والشعب الذى معه



لمحاربة آرام فهربوا من أمامه • ولما رأى بنوعمون أنه قد هرب آرام هربوا من أمام ايشاي وأتى الى اورشليم » •

## ٢ - معركة حيلام :

( صمويل الثانى ١٠ : ١٥ وما بعدها ، أخبار الأيام الأول ١٩ : ١٦ وما بعدها ) :

ولم يستطع الآراميون الاستمرار فى الحرب • فقرّر هدد - عزّر ابن رحوب ملك صوبه أن ينزل المعركة وشارك معه الآراميين من الجانب الآخر لنهر الفرات أى آراميو الرافدين • وهكذا تحرك آراميو الشمال و آراميو الجنوب ضد اسرائيل وكان شوباك قائد جيش هدد - عزّر على رأس كل هذه الفرق ، فنظم مركباته الحربية ومترجلته واصطف الآراميون للقاء داود وحاربوه وقابلهم عند حيلام ( فى مكان ما شمال شرق الأردن ) وهزم داود أعداءه وفقد الآراميون ٧٠٠ مركبة وأربعين ألف رجل وقتل شوباك فى المعركة • وذكر العهد القديم فى هذا الشأن بالاضافة الى ما سبق أن أشرنا اليه ما يلى : « فلما رأى جميع الملوك عبيد هدد - عزّر أنهم أنكسروا أمام اسرائيل صالحوا اسرائيل واستعبدوا لهم وخاف آرام أن ينجدوا بنى عمان بعد » ( صمويل الثانى ١٠ : ١٥ - ١٩ ) •

## ٣ - توغل داود داخل سورية :

ويقص العهد القديم غزوة أخرى لداود ضد الآراميين ( صمويل الثانى ٨ : ٣ - ١٠ ، أخبار الأيام الأول ١٨ : ٣ وما بعدها ) إذ فكر هدد عزّر بن رحوب ملك صوبه أن « يذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات أى ليثبت سيطرته على آرامى ما بين النهرين • وكان قد تلقى من تلك الأقوام عوناً عسكرياً فى الحروب السابقة ، غير أنه يرغب الآن أن يقيم من الفرات الى الأردن اتحاداً من الدويلات الارامية من الفرات حتى الأردن وكان يعمل على أن تكون صوبه عاصمة تلك الامبراطورية



الارامية • ولكن قضى داود على أحلامه وهزمه فأخذ منه » ١٧٠٠ فارس وعشرين ألف رجل وعرقب داود خيل جميع المراكب وتبقى مائة مركبة » وبالإضافة الى ذلك أخذ منه الدروع الذهبية التى كانت مع عبيد هدد عزر وقضى داود على آرامى دمشق المتحالفين مع هذا الملك فقتل منهم ٢٢ ألف رجل وأقام فى معسكرات فى آرام دمشق • ويبدو أن هذه الهزيمة التى الحقت بقوات آرام — دمشق حدثت أثناء تغيب هدد عزر فى منطقة الفرات • وبذلك اضطر الآراميون الى الخضوع لداود ودفعوا له الجزية • وكان من ضمن الأسلاب التى استولى عليها داود كميات من النحاس الذى اشتهرت به مملكة صوبه ( كما فعل الآشوريون فى زمن لاحق حينما انتصروا على آرام — دمشق ) أخذها من ثلاث مدن سورية كانت تابعة لهدد عزر وهى طبحه وخون وبيروتاي (١٤) ( صمويل الثانى ٨ : ٣ — ١٠ ، أخبار الأيام الأول ١٨ : ٣ وما بعدها ) • وأشار نفس المصدر الى أن « توعى » ملك حماه كان عدوا لهدد عزر ملك صوبه فلما علم بهزيمته أرسل يورام ابنه الى الملك داود ليسأل عن سلامته ويباركه لأنه حارب هدد عزر وضربه » وقدم له أوانى من فضه وذهب ونحاس • وقد وضحت عداوة ملك حماه لملك صوبه لأن هذا الأخير كان يعمل على احتلال المنطقة بينه وبين الفرات • وبارسال توعى هدايا الى داود اعتبره هذا الأخير مواليا له وقد تبين له أن حماية ملك اسرائيل له أقل خطورة من جاره القريب • بهذه الحروب الثلاث استطاع داود القضاء على قوة « صوبه » وهكذا اختفت هذه المملكة من مسرح الأحداث لتحل محلها مملكة آرام — دمشق • ولكن يظهر اسم صوبه بعد ذلك على لبنات من حماه منقوش عليها باللغة

---

(١٤) مدينة بيروتاي هى اليوم بريتان جنوبى بعلبك .



الآرامية ولكن يبدو أنه يشير الى منطقة داخل مملكة حماه (١٥) كما يظهر كاسم لولاية آشورية ( صوباتو ) فى أواخر القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد بعد سقوط مملكتى آرام — دمشق وحماه .

### قيام مملكة آرام — دمشق :

هناك احتمال فى أن الآراميين قد استقروا فى أرض « أوبى » (وعاصمتها القديمة دمشق ) خلال أو عقب الارتباك الذى نشأ بسبب الثورة الفلسطينية ضد مصر فى أخريات عهد اخناتون ثم اغارة الحيثيين على ميتانى وتقويض دعائم ملكها وكذلك عند تقدم العبرانيين نحو فلسطين وكانت الحدود بين العبرانيين والآراميين من ناحية شرق الأردن هى اليرموك وأما من ناحية الغرب فكانت الى الشمال فى أعلى وادى الأردن حتى الجبال حيث مقاطعة « أشير » التى تحاد الشاطيء الفينيقي (١٦) .

لقد تأسست مملكة آرام — دمشق فى الأيام الأخيرة من حكم سليمان ( ٩٦٠ — ٩٣٠ ق.م ) على يد رزون بن اليداع الذى استخلص دمشق من السرائيل واتخذها عاصمة له ( الملوك الأول ١١ : ٢٣ وما بعدها ) وهكذا أصبحت الدويلة الآرامية الرئيسية فى سوريا خلال القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد . وعن نشأة هذه المملكة ورد فى العهد القديم عنها ما يلى : « وآثار الرب ملك صوبه . فجمع اليه رجالا وصار رئيس غزاه عندما كان داود يدمرهم فانطلقوا الى دمشق وأقاموا بها وملكوا فى دمشق . فصار فاتنا فى اسرائيل كل أيام سليمان » ( الملوك الأول : ٢٣ ٢٥ ) . ولقد تسلمت دمشق من هذا التاريخ زعامة العالم الآرامى فى سوريا وقادت الصراع ضد

---

(١٥) قارن « حماه — صوبه » التى تغلب عليها سليمان فى أخبار الأيام الثانى ٨ : ٣ .

(١٦) نجيب ميخائيل ابراهيم ، المرجع فى سابق ج ٣ ص ٤٨٨ .



العبرانيين حتى أنه جاء فى النصوص الآرامية القديمة إشارة الى ملك دمشق كان يطلق عليه لقب « ملك آرام » فقط وكان رزون هذا الآرامى السورى العدو الأكبر لاسرائيل • وقد امتدت مملكته من الفرات الى اليرموك جنوبا على حساب العبرانيين كما تاختت الأراضى الآشورية فى الشمال واستطاعت أن تبسط سلطانها على سوريا الداخلية الى الشرق من لبنان وكذا على سوريا الشمالية وباشان فى بداية الألف الأولى وظل ملوكها يسيطرون على الاثنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم وأفلحوا فى مقاومة ما كان يبذله الآشوريون من جهود لاختضاع سوريا لحكمهم (١٧) •

وكثيرا ما كان يشار الى هذه المملكة باسم « دمشق » أو « آرام » بصفة خاصة فى العهد القديم وفى المصادر الآشورية والنصوص الآرامية القديمة ( كما فى شاهد بار — هدد وزاكير ) (١٨) • وتشير وثائق العهد الآشورى الحديث الى هذه المملكة باسم « ( شار ) أيرى — شو » أى ( أرض ) حميره (١٩) وبالرغم من أن هذا الاسم قد تبادل مع اسم دمشق ، الا أنه يحتمل أنه يشير الى المملكة فى حد ذاته •

ولقد كانت هذه المملكة من أول الأمر آرامية ، فملوكها كانوا آراميين اتخذوا من دمشق مركزا لاشعاع حضارتهم يستطيعون منها أن يسهموا فى توجيه السياسة الدولية المعاصرة • ولعل دمشق تدين لموقعها بهذه الميزة • ذلك لأن وضعها الجغرافى استطاع أن يزود عنها بعض الوقت أطماع آشور من ناحية كما يسر لها الاتصال المباشر بالحضارات القريبة منها عن طريق الوديان والسهول وهى فى الوقت

---

(١٧) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ١ •

(١٨) أنظر

F. M. Cross, BASOR 205 (1972), 36 ff.

(19) Cf. F. M. Tocci, RSO 35 (1960), 125 ff.



نفسه مركز هام لطرق القوافل الى الصحراء السورية وهى بذلك وسيط مباشر بين التجارة العربية والبابلية من ناحية وتجارة سوريا وفلسطين من ناحية أخرى • لقد جعل منها الآراميون دولة استطاعت أن تفرض نفسها منذ القرن العاشر ق.م على ما كان يجرى من أحداث وأن تقف على قدم المساواة مع غيرها من الدول بحيث أصبحت تستطيع أن تعدل من القوى حين كانت نحاوز الى أحد الجانبين وبحيث اكتسبت احترام جيرانها بفضل ما أظهرته من منعة وقوة وما وصلت اليه من مركز حضارى مرموق •

### مملكة آرام — دمشق وموقفها من يهوذا واسرائيل وآشور :

لقد ساعد انقسام مملكة اسرائيل على قيام مملكة آرام — دمشق التى استغلت الى حد كبير المنازعات المستمرة بين يهوذا واسرائيل لصالحها ، كما أن التنافس بين المملكتين العبرانيتين قد أفسح الطريق أمامها لانجاز مشروعاتها العمرانية الكبيرة • ويعطينا العهد القديم ( الملوك الأول ١٥ : ١٨ — ١٩ ) صورة واضحة عن هذا الموقف •

فها هو أسا ملك يهوذا قد وقع فى خلاف مع ملك اسرائيل بعشا ( فى الفترة من ٨٩٠ — ٨٨٠ ق.م ) فيعتدى على أرضه ، ثم يعتمد على ملك دمشق الآرامى طالبا منه العون ضد عدوه • وكان ملك دمشق فى هذا الوقت هو « بنهدد بن طبريمون بن حزيون » • وقد أرسل أسا اليه الهدايا ومعها هذه الرسالة : « بينى وبينك تحالف وبين والدى ووالدك وهأنذا أرسل اليك هدية من الفضة والذهب ، اذهب واقطع علاقتك مع «بعشا» ملك اسرائيل لكى يتوقف عن حملى مالا أطيق » ( الأخبار الثانى ١٦ : ٣ ) • والظاهر أن ملك دمشق قد وقع عهدا مع مملكتى يهوذا واسرائيل فى وقت واحد • وهكذا يخبرنا العهد القديم عن تسلسل أفراد الأسرة الذين حكموا آرام — دمشق ( والاحتمال كبير فى أن يكون حزيون هو رزون مؤسس المملكة المذكور



آنفا ( ٢٠ ) كما يخبرنا أيضا عن المحالفات التي تمت فى ذلك الوقت •  
 فالمحالفه الأولى كانت بين طبرمون ووالد آسا المدعو أبيجا ملك يهوذا  
 والمحالفه الثانية بين بنهدد (٢١) وبعشا ملك اسرائيل وأخيرا التحالف  
 العسكرى بين بنهدد ويهوذا والذي تبعه حملة آرامية تمكنت من  
 الاستيلاء على الجليل الشرقى من اسرائيل « فسمع بنهدد للملك آسا  
 وأرسل رؤساء الجيوش التى له على مدن اسرائيل وضرب عيون ودان  
 وآيل المياه وجميع مخازن مدن نفتالى ( أخبار الأيام الثانى ١٦ : ٣ —  
 ٤ ، ملوك أول ١٥ : ٢٠ ) ، ومعنى ذلك كل شمال مملكة اسرائيل • عند  
 ذلك توقف بعشا عن الضغط على يهوذا ومضايقتها • وقد حفظ لنا  
 العهد القديم قصة نعمان قائد جيش « ملك آرام » ( أى ملك دمشق )  
 وكان قد مر به بعض البأس ، اذ أصيب ببرص فتوجه الى السامرة  
 طالبا الشفاء على يد النبى اليسع صانع العجايب ( ملوك الثانى ٥ )  
 وتدل هذه القصة على مدى ما وصل اليه نفوذ مملكة دمشق فى اسرائيل  
 • • وهكذا استطاعت دمشق فى عهد بنهدد أن تصبح على رأس الدويلات  
 السورية • وقد جاء اسم ملك دمشق هذا على لوح كشف عليه بالقرب  
 من حلب وقد صور على أعلى اللوح الاله الفينيقي « ملقارت » ومعه  
 النص الآرامى « لوح وضعها بن هدد بى طبريمون بى حزيون ملك  
 آرام ، من أجل ربه ملقارت ، لوح كرسه من أجله لأنه سمع صوته » •  
 وهناك احتمال كبير أن يكون ملك دمشق قد توغل فى إقليم حلب ، أما

---

(20) Cf. B. Mazar, BA 25, p. 104, N. 12.

الذى يعتقد أن حزيون هو الاسم الشخصى للملك بينما رزون لقبه  
 الملك حيث أن الكلمة العبرية « رزن » تعنى « حاكم ، أو امير » • وقارن  
 أيضا :

I. J. Gelb, Glossa 2 (1968), 101.

(٢١) كلمة بنهدد أو بن هدد فى العبرية تقابلها بارهدد (أى ابن هدد)  
 فى الآرامية •



كحليف أو كعدو لببيت اجوزى كما فعل ملك صوبه أيام حكم داود حينما قام بحملة الى الفرات ليعيدها لحكمه (٢٢) .

وفى أيام عمرى ملك اسرائيل ( ٨٨٥ - ٨٧٤ ق . م ) ازداد الضغط الارامى على شمال اسرائيل حتى انه هدد وجودها نفسها . وفى العهد القديم فصله تشير عرضا الى أن والد بنهدد الثانى ( بدون شك هو بنهدد الأول بن طيريمون ) قد أخذ مدنا من والد اخاب أى من « عمرى » واخذ منه الحق فى اقامة أسواق فى السامرة عاصمته ( الملوك الأول ٣٠ : ٣٤ ) ونرى عمرى انه رغم ازدياد قوة اسرائيل وازدهارها الا انه هزم امام دمشق . وكان النزاع مستمرا بين الدولتين وذلك بسبب مشاكل الحدود خاصة فى المنطقة الممتدة من شمال عبر الاردن الى ريموث - جلعاد فى الجنوب والتي كانت تعتبر منطقة فاصلة يسكنها شعب خليط من الاسرائيليين والآراميين ( قارن ، اخبار الأيام ٢ : ٢٣ ، ٧ : ١٤ ) فكثيرا ما تغيرت ملكية هذه المنطقة أثناء حكم أسرة عمرى فى اسرائيل ، هذا بالاضافة الى الأمور السياسية والاقتصادية ، اذ أن حكومة آرام - دمشق كانت تسعى لأن يكون لها منافذ تجارية فى اسرائيل .

ولما تولى آخاب الحكم ( ٨٧٤ - ٨٥٣ ق . م ) بلغ النزاع اوجه ، ففي عام ٨٥٧ ق . م دخل بنهدد الثانى الى فلسطين بجيش كبير العدد وكان يصحبه اثنان وثلاثون ملكا . لقد اتحدت فيما يظهر الأحزاب فى اتحاد كبير ضم جميع الأسر الآرامية صغيرة وكبيرة . وحوصر آخاب فى عاصمته السامرة ولم يستطع أن يجهز الاحامية بسيطة فلم يستطع المقاومة وقبل ما فرضه عليه ملك دمشق من جزية من الفضة والذهب وتمادى ملك دمشق فى طلباته من اسرائيل ففرض عليه أن يسلمه زوجاته وأطفاله . عندئذ رفض آخاب وعزم على عدم



تحقيق الرغبة الأخيرة • وفى وقت الظهيرة وبينما كان الآراميون يأخذون قسطا من الراحة ويتناولون الشراب فى مخيمهم باغتتهم الاسرائيليون وقتلوا منهم الكثير وانهزم الآراميين وفروا وتركوا خيولهم ومركباتهم وفر بنهدد على فرس مع نفر من خياله ( الملوك الأول ٢٠ : ١ - ٢١ ) وهكذا نجح اخاب فى صد الهجوم الآرامى عن عاصمته •

لقد استاء ملك آرام - دمشق من تلك الهزيمة ، وفى العام المقبل جمع جيشا جديدا واتجه نحو فلسطين وتقدم اخاب هذه المرة لمواجهة عدوه ، فتقابل الاثنان عند « افيق » فى الجولان الجنوبية وقد جاء فى ( الملوك الأول ٢٠ : ٢٢ - ٣٤ ) « فنزل هؤلاء تجاه سبعة أيام • ولما كان اليوم السابع التحمت الحرب فقتل بنو اسرائيل من الآراميين مئة ألف رجل فى يوم واحد • وهرب الباقون الى افيق ، وحاصر بنو اسرائيل هذه المدينة واحتلوها سريعا • أخذ بنهدد يهرب من بيت الى بيت • أما عبيدة فشدوا مسوحا على متونهم وجاءوا الى ملك اسرائيل وقالوا : ان عبدك بنهدد يقول : اتوسل أن تستبقى نفسى • فقال اخاب : احى هو بعد ؟ انما هو اذى • فاستبشر بنهدد خيرا واستسلم • فاصعده اخاب على مركبته وقطع عهدا قال فيه بنهدد المدن التى أخذها أبى من أبىك اردها عليك وتجعل لك أسواقا فى دمشق كما فعل أبى فى السامرة فقال : وانا اطلقك بهذا العهد • وقطع له عهدا واطلقه • وهكذا اعيدت الى اسرائيل المدن التى فى عبر الاردن التى كان بنهدد الأول قد استولى عليها كما منح التجار الاسرائيليون امتيازات فى دمشق كتلك التى كان يتمتع بها الآراميون فى السامرة • لماذا كان اخاب رحيفا مع عدوه الخطير ؟ فالاسرائيليون دائما أصحاب منفعة ولا بد انه كان وراء الصفح أهداف • وفى هذا الوقت كانت تجرى فى الشمال أحداث خطيرة • فقد



تولى شلمنصر الثالث الحكم بعد وفاة والده آشور — ناصر — ابلى  
الثانى وتمكن من القضاء على دويلة بيت ادين الآرامية ومن حالفها من  
الدويلات الأخرى كما سبق أن اشرنا ، فكان ذلك ايذاناً بقرب الخطر  
الآشورى من آرام — دمشق ومن اسرائيل على حد سواء • ففى آرام  
— دمشق بدأ بنهدد الثانى يستعد لملاقاة الآشوريين فأعاد تنظيم جيشه  
ومملكته كما انه حول الدويلات التابعة له الى مجرد ولايات ( قارن  
الملوك الأول ٢٠ : ٢٤ — ٢٥ ) معززا بذلك امبراطوريته (٢٣) • أما فى  
اسرائيل فقد شمل الذعر ملكها اخاب الذى أخذ يتقرب من بنهدد الثانى  
ملك دمشق •

ولواجهة هذا الخطر الآشورى ، تكون تحالف من اثنى عشر ملكا  
كان منهم ارخولينى ملك حماه واخاب ملك اسرائيل ومؤاب وآدوم ويهذا  
والولايات الفينيقيّة الشماليّة الى الشمال من جبيل عمون وقوى ( أو  
قيليقيا ) ووضع هذا التحالف تحت قيادة بنهدد الثانى ( ربما هو نفسه  
اداد — ادرى المذكور فى المصادر الآشورية ) • وكان أول لقاء بين  
المتحاربين عند قرقر عام ٨٥٣ ق • م فى أرض حماه • وكان الجيش  
الذى يقوده اداد — ادرى يتكون من ١٣٠٠ عجلة و ١٢٠٠ من الفرسان  
و ٣٠ ألف من المشاه ، بينما الجيش الذى يقوده اخاب يتكون من ٢٠٠٠  
عجلة وعشرة آلاف من المشاه والذى بقيادة ارخولينى من ٧٠٠ عجلة  
و ٧٠٠ فارس وعشرة آلاف من المشاه (٢٤) • ومن المحتمل أن القوة التى  
كانت تحت قيادة اخاب كانت تتضمن قوات مساعدة من قبل يهوشافاط  
ملك يهوذا ( قارن الملوك الأول ٢٢ : ٤ ، والملوك الثانى ٣ : ٧ ) • وكان  
بعشا بن رحوب الملك الآرامى الآخر الذى اشترك فى هذه المعركة وكان  
من أرض اوجبل امانا والذى يغلب على الظن انها جبال لبنان الداخلية

---

(23) Cf. Mazar, BA 25, 609 ff ; and JBL 80 (1961), 25 f.

(24) ANET, p. 278



والتي ذكرت في العهد القديم بهذا الاسم • وحيث أن بعشا يحتمل أنه قد ضم لحكمه منطقتين منفصلتين هما آرام بيت — رحوب والمنطقة الجبلية الى الشرق منها ، فقد أوكلت اليه فرقة واحدة من المشاة فقط • هذه هي موقعة قرقر الشهيرة على نهر العاصي التي تعد احدى المواقع الحاسمة تم خلالها اندحار حلف من اثني عشر ملكا تكتلوا جميعا للوقوف في وجه قوات العاهل الآشوري شلمنصر الثالث ولكنهم لم يفلحوا بل حاقت بهم جميعا الهزيمة •

ولعل المعركة التي ذكرت في سفر الملوك الأول (٢٢) بين اخاب وبنهدد عند راموث جلعاد غير محتمل حدوثها بعد وقت قصير من معركة قرقر حيث أن حلف ملوك الغرب يبدو انه ظل قائما ليقابل شلمنصر الثالث مرة ثانية في عام ٨٤٩ ، ٨٤٨ ، ٨٤٥ ق.م<sup>(٢٥)</sup> • ولكن الخيبة أصابت شلمنصر في هذه الخطة لاختضاع سوريا واستطاعت آشور أن تدرك انها بغير اخضاع دمشق لا تستطيع أن تثبت أقدامها في سورية ولم يكن من اليسير بالنسبة لواحدة من هذه الولايات أن تظهر ميلا لآشور لأن هذا كان يعنى بالضرورة تعرضها لقسوة دمشق وحزمها •

لقد كان حزائيل هو الذي قضى على اسرة بنهدد بعد أن اغتاله وتولى مكانه على عرش دمشق ( الملوك الثاني ٨ : ٧ — ١٥ ) ربما بمساعدة آشور لتسنده في اعتلاء العرش ولكن حالما أصبح ملكا على دمشق ظل على مقاومة آشور بأمل تثبيت مركزه واطهار قوته • لقد غير حزائيل سياسة دمشق تجاه اسرائيل فأخذ يناصبها العداء وذلك أيام ملكها يورام بن اخاب ( ٨٥٢ — ٨٤٢ ق.م ) لأن حزائيل ملك دمشق كان يريد إعادة راموث جلعاد • لقد حدث الاشتباك بين الطرفين عند راموث جلعاد عام ٨٤٢ ق.م ( الملوك الثاني ٨ : ٣٨ وما بعدها )

---

(25) Cf. A. Jepsen, AFO 14 (1942), 154 ff. ; J. M. Miller, JBL 85 (1966), 441 ff.



ومن المحتمل أن الحرب التي وقعت عند راموث جلعاد • بين اخياب  
وبنهدد تعكس هذا الاشتباك الأخير • لقد جرح يورام أثناء المعركة  
واجبر على العودة الى يزرعيل تاركا لقواده الاستمرار في المعركة ضد  
الآراميين • ولم يذكر العهد القديم شيئا عما حدث لمدينة راموث جلعاد،  
ولكن من المحتمل أن حزائيل ملك دمشق قد استولى على هذه المدينة  
ولكن يبدو أن يورام قد نجح أخيرا في الاستيلاء على راموث جلعاد  
لأنه لدينا إشارة بعد ذلك بفترة طويلة تقول « وكان يورام محافظا على  
راموث جلعاد » ( الملوك الثاني ٩ : ١٤ ) وقد دافع عنها ملك دمشق  
الجديد •

كان شلمنصر الثالث يتابع تطور الحوادث عن قرب وقد شغلته قوة  
الملك الجديد فقرر أن يضربه ضربة قوية خاصة بعد أن انفرط عقد تحالف  
ملوك الغرب • فقد قام في عام ٨٤١ ق.م بحملة جاء وصفها في الكتابات  
الآشورية : « في سنتي الثامنة عشرة من الحكم عبرت للمرة السادسة  
عشرة الفرات • وقد اطمأن حزائيل ( صاحب ) اقليم دمشق الى جموع  
فرقة وعبأ وحداته في عدد كبير • واتخذ جبل سانيرو ( جبل حرمون )  
الذي يشرف على لبنان حصنا له ، فحاربته وانتصرت عليه وقتلت  
بالسلاح ٦٠٠٠ محاربا و ( أخذت ) ١١٢١ من مركباته و ٤٧٠ من خيله  
وفي نفس الوقت أخذت خيامه ( أى ثكناته ) وحتى ينقذ حياته هرب  
فتبعته وحاصرتة حيث كان يقيم في دمشق وقضيت على بساتينه وذهب  
حتى دخل حوران فهدمت مدنه التي لا حصر لها ، اتلفت واحرقت وأخذت  
منها غنيمة كثيرة وتقدمت حتى جبل « بعال — راسي » ( بعز القمة الذي  
يحتمل أن يكون جبل الكرمل ) واقمت هناك شاهدا يحمل صورتي كملك •  
وفي نفس الوقت تسلمت الجزية من السوريين والصيداويين ومن يهو  
ابن عمري » • وفي عام ٨٣٨ ق.م جرد حملة جديدة ضد اسرائيل :  
« في السنة الحادية والثلاثين من حكمي ، عبرت للمرة الحادية  
والعشرين الفرات وتقدمت نحو مدن حزائيل صاحب دمشق واستوليت



على أربع من مدنه وتسلمت الجزية من الصوريين والصيداويين  
والجلبيين» (٢٦) . هكذا هزم شلمنصر الثالث آرام — دمشق وملكها  
حزائيل الذى وقف وحيدا فى عام ٨٤١ و٨٣٨ ق.م بعد أن شق  
الآشوريون طريقهم نحو دمشق مباشرة واضطر حزائيل الى الدفاع  
عن نفسه فى عاصمته بل توغلوا فى حوران والجليل حتى جبل الكرمل .  
لقد قاسى حزائيل أثناء هاتين الحملتين ضربات كبيرة ولكن لم يستطع  
شلمنصر أن ينجح فى الاستيلاء على العاصمة ، ولم يتضح تماما ان كان  
قد حاول من جديد أن يعمل شيئا ضد دمشق حتى نهاية حكمه ، اذ يبدو  
أن آشور اضطرت بعد ذلك أن تعدل عن محاولة تحقيق أهدافها . وأيا  
ما كان الأمر فقد استفاد حزائيل من هذه الفترة التى زال فيها الضغط  
الآشورى ، فأصلح من أمره وجدد قوته وسعى الى استرداد اسرائيل .  
فتوجه ضد اسرائيل واستولى على عبر الأردن حتى نهر ارنون الذى  
يصب فى البحر الميت ( الملوك الثانى ١٠ : ٣٢ — ٣٣ ) . ولما أصبح  
ملك دمشق سيدا على الاردن كله ، اتجه الى غرب اسرائيل بقصد  
الاستيلاء على طرق التجارة مع مصر والجزيرة العربية فاستولى على  
جث فى اقليم فلسطين وبعد ذلك هدد بيت المقدس . وامام هذا الخطر  
اشترى يهواش ملك يهوذا سلامته بالذهب والفضة فاقتنع حزائيل  
وعدل عن دخول اورشليم ( الملوك الثانى ١٢ : ١٧ — ١٨ ) . لقد قاست  
مملكة اسرائيل كل هذه المخاطر ولاقت اذلالا كبيرا . ولم يذكر العهد  
القديم حوادث تلك الفترة بالتفصيل ولا نعرف الا ما حدث فى عهد  
يهواحاز الذى جاء بعد ياهو عام ٨١٤ ق.م ولم يكن فى جيش اسرائيل  
سوى « خمسين فارسا وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل لأنه أبادهم  
ملك آرام وجعلهم مثل التراب الذى يوطأ » ( الملوك الثانى ١٣ :  
٧ ، ٢٢ ) .



لقد استطاع آراميو دمشق أن يحافظوا على مركزهم في عهد بنهدد الثالث ابن حزائيل (الالوك الثاني ١٣ : ٣) الذي استطاع أن يكون حلفا كبيرا ضد زاكير ملك حماه ولعش • وكان زاكير قد اغتصب حماه ثم احتل منطقة لعش (وهي منطقة بين حماه وحلب) ثم استولى على مدينة حزرك التي غالبا ما كانت عاصمة لعش وبذلك اختلت القوى في الدويلات السورية نتيجة اطماع زاكير • فتحالفت ضده الدويلات الآرامية الأخرى والدولة الحيثية الجديدة تحت زعامة ملك آرام أي ملك دمشق • لم تتمكن الامبراطورية الآشورية من التدخل في الفترة الضعيفة التي مرت بها وكان الصراع في هذه الفترة قائما على قدم وساق بين الدويلات المختلفة في سوريا • اجمع المتحالفون على مهاجمة زاكير في حزرك فحاصرها الأعداء وكاد زاكير يستسلم أمام هذا الحصار لولا أن الهه حفظه (٢٧) • ولكن سرعان ما فتر نشاط الآراميين مرة أخرى حينما جدد اداد — نيرارى الثالث ملك آشور (٨١٠ — ٧٨٣ ق م) حملاته ضد الآراميين في سوريا عام ٨٠٥ — ٨٠٢ ق م مبتدئا بدمشق وملكها «مارى» (وهي كلمة آرامية تعنى «سيد» ومن المحتمل انها تشير الى بنهدد الثالث) الذي تلقى هجمة آشورية جديدة فاضطر للتسليم بعد حصار دمشق • وعلى شاهد عثر عليه حديثا في تل الرماح سجل لنا اداد — نيرارى الثالث الجزية الكبيرة التي أخذها من آرام — دمشق والتي كانت تتكون من فضة ونحاس وحديد وأقمشة مختلفة الألوان وأقمشة من كتان واسرة من عاج ومقاعد من العاج المطعم بالذهب والمرصع بالأحجار الكريمة • كما سجل على نفس الشاهد حملة قام بها الى البحر المتوسط عام ٧٩٦ ق م أو حملة ضد منطقة مانصوتى (في وادى لبنان) عام ٧٩٦ ق م • ومن بين الذين دفعوا الجزية للملك الآشورى «اواسو السامرى» أي الملك

(٧) عبد الحميد زايد: المرجع السابق ص ٣٥٩ — ٣٦٠ •



يهواش ملك اسرائيل الذى يذكر لأول مرة فى المصادر الآشورية (٢٨) •  
ولعل لقب هذا الملك « السامرى » يوحى بأن مملكته كانت فى بداية  
الأمر مقصورة على منطقة السامرة فقط نتيجة للغزوات الآرامية •

انتهز يهواش ملك اسرائيل (٧٩٨-٧٨٢ ق م) فرصة ما حاق بدمشق  
على يد الآشوريين وبدأ يستعد للهجوم عليها • وجه يهواش الى بنهدد  
الثالث ثلاث ضربات متوالية تمكن بعدها من استعادة المدن التى كان  
الآراميون قد استولوا عليها من أبيه يهواحاز ( الملوك الثانى ١٣ :  
١٩ ، ٢٥ ) •

واصل يروبعام الثانى ( ٧٨ - ٧٤٣ ق م ) سياسة والده يهواش  
العدائية تجاه الآراميين الذين ازدادوا ضعفا على أثر الحملة التى  
وجهها شلمنصر الرابع ( ٧٨٢ - ٧٧٣ ق م ) ضد دمشق عام ٧٧٣ ق م  
لقد نجح يروبعام فى استعادة كل شرق الاردن فארضا السيطرة  
الاسرائيلية على دمشق وذلك فى عهد تب ايل الذى تشير اليه نصوص  
التوراة كأنما هو اب رصين ( اشعيا ٧ : ٦ ) وتقدمه تحت اسم طبيئيل  
( الملوك الثانى ١٤ : ٣٥ ، ٢٨ ) •

وما أن تولى تيجلات - بيلزر الثالث عرش آشور ( ٧٤٤ - ٧٢٧  
ق م ) حتى كان أول عمل قام به هو مهاجمة أورارتو والقوات الآرامية  
الأخرى فى أرباد وميليد وكركم وكموخ وقد هزم الآشوريون هـذا  
الحلف الذى تزعمه سردور ملك أورارتو وحاصر تيجلات - بيلزر الثالث  
مدينة أرباد ثلاث سنوات حتى سقطت عام ٧٤٠ ق م وأصبحت هـذه  
البلاد مقاطعة آشورية وجاء بقية ملوك آرام مقدمين فروض الولاء  
والجزية للآشوريون وهم ملوك دمشق وصور وكموخ وقى

---

(28) S. Page, Iraq 30 (1968), 139 ff. ; J.A. Soggin, VT 20.

( 1920 ) 366 ff.



وقرقميش وكركم • ولكن اتحدت الدويلات السورية الأخرى ونظم  
ازريو ، الذى اغتصب عرش شمال ، حركة العصيان ضد تيجلات بيلىز  
عام ٧٣٨ ق.م ، الذى لم ينتظر طويلا وانقض عليه واحتل كثيرا من  
المدن على شاطئ فينيقيا الشمالى وفى بلاد حماه وأمر باعدام ازريو  
وأعاد الى العرش الملك الشرعى بنمو الثانى الذى سجل ابنه بر —  
ركب هذه الأحداث فى نقشين له وهكذا دخلت سماء فى نطاق النفوذ  
الآشورى • وان ما وجد فى شمال من بقايا أثرية لهلاك بالنار وانقطاع  
كل ذكر لها فى مصادرها ، يدلان فيما يبدو على انها لقيت نهاية فاجعة قبل  
مرور زمن طويل (٢٩) • وهكذا امتد سلطان تيجلات — بيلىز الثالث من  
فيليقيا الى صور والسامرة ودمشق حتى البلاد العربية •

لقد شهدت مملكة آرام — دمشق آخر ومضات مجدها فى عهد  
آخر ملوكها المدعو رصينى الذى كان واحدا من الموالى الذين دفعوا  
الجزية لتيجلات — بيلىز الثالث عام ٧٣٨ ق.م ولكن سرعان ما يقوم  
بثوره ويغزو شرق الاردن حتى راموث جلعاد جنوبا كما اغار على ايلات  
( الملوك الثانى ١٦ : ٦ ) • بعد ذلك أجبر بكاح ملك اسرائيل على أن ينضم  
الى صفه ثم أخذ يضغط على يوثام ملك يهوذا وابنه أحاز الذى استتجد  
بآشور حسبما ورد فى سفر الملوك الثانى ( ١٥ : ٣٧ ، ١٦ : ٦ ، ٧ :  
وما بعدها ) « انا عبدك واينك فاصعد وخلصني من يد ملك آرام ويد ملك  
اسرائيل القائمين على » فهاجمهما وفى حملتين متتاليتين هزم تيجلات  
— بيلىز الثالث بكاح فى السامرة عام ٧٣٣ ق.م ثم حاصر آرام —  
دمشق وملكها حتى أصبح مثل « عصفور فى قفصه » وأخيرا سقطت  
دمشق نفسها عام ٧٣٢ ق.م ونقل أهلها وفقد رصين عرشه بل دفع  
حياته ثمنا لدفاعه عن مدينته ( الملوك الثانى ١٦ : ٩ ) • وقد تفاخر  
العاقل الآشورى بانه دمر ٥٩١ مدينة فى ست عشرة مقاطعة تابعة

(٩) موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ١٧٩ .



دمشق » وهدمها حتى أصبحت مثل الكتبان التي يتركها السيل » (٣٠)  
وفى نقش عثر عليه حديثا فى نمرود يقول تيجلات بيلزر الثالث بعد هذه  
الحروب المنتصرة » استعدت الى ممتلكات آشور ( ارض بيت — )  
حزائيل بأكملها من جبال ( لبنان ) حتى مدينة ( راموث — ) جلعاد  
التي تقع على حدود ارض بيت عمرى ، وعينت عليها موظفين من جانبى  
كحكاهم » (٣١) • وهكذا خضعت سوريا لسلطان آشور ما دامت أقوى  
أقاليمها قد غدت خاضعة لها •

لقد قسمت آرام — دمشق بعد ذلك الى ولايات آشورية (٣٢) ،  
دمشق فى الوسط وهوران وقارنينى ( كارنايم فى العهد القديم )  
وجلعاد فى الجنوب ومانصواتى فى الغرب وصوباتو فى الشمال •  
لقد نشبت ثورات بعد ذلك فى دمشق عام ٧٢٠ ق م وفى غيرها من  
المدن مثل السامرة واربادة وحماه وربما سمأل أيضا ولكنها أخمدت كلها  
على يد سرحون الثانى الآشورى • وهكذا اختفت دويلات سوريا  
الآرامية ، كما اختفت فى القرن السابق دويلات الآراميين فى بلاد  
الرافدين •

لقد ترك تخريب مملكة دمشق التى شهدت عصرا زاهرا بالامس  
القريب أثره فى نبوءات عاموس ( ١ : ٣ — ٥ ) واشعيا ( ١٧ : ١ — ٣ )  
وارميا ( ٤٩ : ٢٣ — ٢٧ ) (٣٣) •

---

(30) ARABI, p. 777.

(31) D. D. Wiseman, Iraq, 17 (1956), 120 ff ; H. Tadmor, IEJ 12 (1962), 114 ff.

Cf . B. Oded, JNES 29 (1970), 177 ff.

(٣٣) وعن النبوءات ضد آرام خاصة بنوءات عاموس ، انظر تعليقات  
مؤرخى العهد القديم مثل :

J. A. Soggin, Near Eastern Studies in Honor of W. F. Aleright  
(Baltimore, 1971), pp. 433 ff.







## الاختصارات

AFO : Archiv Für Orientforschung.

ARAB : D.D.Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, 1926.

BA : The Biblical Archaeologist.

BASOR : Bulletin of the American Schools of Oriental Research.

IEJ : Israel Exploration Journal.

JBL : Journal of Biblical Literature.

JNES : Journal of Near Eastern Studies.

RLA : Reallexikon der Assyriologie.

RSO : Rivista de gli Studi Orientali.

VT : Vetus Testamentum.

ZA : Zeitschrift für Assyriologie.



## REPORT

Submitted to the Board of Directors of the  
American Red Cross  
for the year ending 1918

Submitted by the  
Executive Committee of the American Red Cross

For the year ending 1918

Submitted to the Board of Directors of the

American Red Cross

for the year ending 1918

Submitted by the

Executive Committee of the American Red Cross

for the year ending 1918



## قواعد الدبلوماسية البيزنطية

الدكتور رافت عبد الحميد محمد

استاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية آداب — جامعة عين شمس

أمام كل باحث فى التاريخ البيزنطى •• علامة استفهام كبيرة ،  
تقف بارزة بين التمرينات ••

علامة استفهام فرضتها أحداث التاريخ ••

فعلى امتداد ألف ومائة من السنين ، عاشت الامبراطورية  
البيزنطية ، وهى من هذه الناحية فقط ، وبغض النظر عن حضارتها  
الزاهرة ، التى هذبت بها أخلاق الشعوب القليلة النازحة الى منطقة  
البلقان ، وهدت بها خطى الحائرين عند الدانوب والبحر الأسود ،  
الى الحد الذى يتنافس فيها المتنافسون الآن ، من الروس واليونان ،  
يدعى كل منهم أنه الوارث الشرعى لها ، الضمين الحقيقى على تراثها !!  
نقول •• انها من ناحية الامتداد الزمنى فقط ، عبر أحد عشر قرنا من  
الزمان ، ما بين الرابع الى الخامس عشر ، تبرز كل لداتها من  
الامبراطوريات التى عرفها التاريخ عبر العصور •

الا أن هذه القرون الطويلة ، لم تكن نغما موسيقيا حالما ، عزفه  
البيزنطيون على قيثارة السلام ، ليقدّموا للعالم فى زمانهم ومن بعد  
حضارة متميزة ، بل كان عليهم — كما تقول المؤرخة ج. م. هسى  
J. M. Hussey فى كتابها « العالم البيزنطى »



The Byzantine World أن يواجهوها فى صبيحة كل يوم بما يحتمه عليهم الموقع الجغرافى ، جيرانا تختلف طرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم ، عما كان عليه البيزنطيون •

كانت الحدود الطويلة للامبراطورية البيزنطية ، التى راحت تتآكل مع الزمن ، بفعل ما يقضمه منها أولئك الجيران ، تفرض عليها مجاورة شعوب لها جذوره الحضارية كالفرس ، أو حضارتها القائمة الراسخة كالمسلمين • وشعوب ضاربة فى التخلف كالقبائل الجرمانية العديدة ، والهون والأفار والصقالبة ، والبلغار والمجيار ، والغز والكومان والبشناق •

كان هناك طامحون •• طامعون فى الوصول الى مركز الثقل الحضارى آنذاك •• البحر المتوسط ، أولئك هم الفرس ، وآخرون يقاتلون ، فيقتلون ويقتلون من أجل الاستقرار على الأرض الرومانية ، والتمتع بقطوف خيراتها الدانية •• وأولاءهم الجرمان •

جماعات تطمح الى القفز على القسطنطينية نفسها ، كالنورمان • وأخرى يأكل الحقد قلبها وتود اسقاط الامبراطورية كلها •• كاللاتين •• وقبائل انقلبت الى دول تدعى وراثة بيزنطة ، وبيزنطة بعد على قيد الحياة •• كالبلغار •• الذين قاد ملكهم سيمون Symeon جيشه فى أوليات القرن العاشر ضد القسطنطينية ، وادعى فى جرأة حمل اللقب الامبراطورى ، ولم يكن هدفه اقامة مملكة منافسة لبيزنطة ، أو بديلة عنها ، بل أن يرفع نفسه على عرش القسطنطينية امبراطورا رومانيا • بل والصرب ، الذين سمى ملكهم ستفن دوشان Stephen Dusan

نفسه فى أربعينيات القرن الرابع عشر (١٣٤٥) « سيد كل الامبراطورية الرومانية تقريبا »!! بعد أن راودته الأحلام حول امكانية خلع الامبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس Ioannes V Palaeologus وداعبته الآمال فى اعادة مجد روما القديم على يديه ، وكيف لا وهو يرى نفسه يسيطر



الى جوار المناطق التى كانت تحتلها القبائل الصربية أصلا ، على ألبانيا  
وابيروس وتساليا ومقدونيا ، بينما أمست بلغاريا تدور فى فلكه !

ومن قبل .. فى القرن الثانى عشر ، كاد فردريك بربروسا  
Frederick Barbarossa ملك ألمانيا وامبراطور الامبراطورية  
الرومانية المقدسة ( ١١٥٢ — ١١٩٠ ) ، يعتبر نفسه خليفة قيصر  
وأوكتافيانوس أوغسطس وقسطنطين العظيم وجوستنيان ، رغم أصله  
الجرمانى ودولته القبلية ! ولذا نراه فى عام ١١٧٦ ينتهز فرصة  
الهزيمة التى لحقت بالامبراطور الرومانى فى القسطنطينية على يد سلطان  
قونية السلوجى ، عند ميريوكفالوم Myriocephalum فى آسيا  
الصغرى ، ليكتب بكل التشفى والاحتقار الى عاهل الرومان ذاك ،  
مانويل كومنينوس Manuel Comnenus ( ١١٤٣ — ١١٨٠ ) رسالة  
يجرده فيها من صفته الرومانية الشرعية ، ويصفه بأنه ملك اليونان  
Rex Grecorum وأنه هو ومملكته اليونانية Regnum Grecia  
جزء من امبراطوريته الرومانية !! أى امبراطورية فردريك بربروسا .

هكذا تبدو علامة الاستفهام كبيرة لأعين الدارسين للتاريخ  
البيزنطى ، اذا أضفنا الى ما سبق ، البابوية فى روما ، والتى ما فتئت  
تعمل للسيطرة على القسطنطينية ، كنيسة ودولة ، بحجة أنها بيعة مارقة  
وامبراطورية مهرطقة . كيف استطاعت الامبراطورية البيزنطية اذن أن  
تعمر كل هذه القرون ، وسط كل هذه الأخطار المحدقة ، التى تتهددها  
صبيحة كل يوم ؟!

ولا مندوحة عن القول ، ان الامبراطورية البيزنطية كانت تتمتع  
لفترات طويلة باستقرار سياسى بعيد عن التقلبات ، واستقرار اقتصادى  
بعيد عن الهزات ، وعملة ذهبية لها وضعها ومكانتها فى السوق التجارى  
العالمى ، وتحظى بجهاز ادارى كفؤ ، كان عوناً كبيراً للسلطة الامبراطورية  
فى ادارة شئون الدولة ، فى ظل حكومة مركزية صارمة ، يجلس على



رأسها امبراطور ، يمثل فى الفكر السياسى الرومانى ، « نائب المسيح »  
Vicarious Christi على الأرض ، ويتبعه جيش كبير من  
الموظفين فى العاصمة ومختلف الولايات • ورغم ما كان يعترى هذا  
الجهاز من التعقيد ، الا أنه لم يفتقد المرونة • ولعل الكتاب الذى وضع  
فى منتصف القرن العاشر الميلادى بقلم امبراطورى « عن الادارة  
الامبراطورية » De Administrando Imperio دليل واضح  
على ما يمكن أن تحققة الادارة الناجحة من خدمات •

والى جانب هذا كله كانت الامبراطورية تتعم بتوافق يكاد يكون  
مستمرا بين السلطتين الزمنية والروحية ، بعد ن أمست الكنيسة فى  
بيزنطة دائرة من دوائر الحكومة ، وغدا أسقفها موظفا كبيرا لدى  
الامبراطور ، على عكس ما كان عليه الحال فى الغرب الأوروبى ، من  
الصراع السافر بين البابوية والامبراطورية ، حول السيادة العالمية ،  
والذى انتهى فى ستينيات القرن الثالث عشر ، بتوجيه الضربة القاضية  
للامبراطورية ، عندما سيق الملك الصبى كونرادينو Conradino  
آخر سلالة أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen الحاكمة فى  
ألمانيا ، الى الاعدام فى نابولى ، بايعاز من البابوية (١) •

ولا يغيب عن الذهن فى اطار هذه العوامل الايجابية ، ما شهدته  
بيزنطة طوال عصرها من استتباب النظام السياسى ، منذ رفع منه  
قسطنطين العظيم ( ٣٠٦ — ٣٣٧ ) القواعد فى القرن الرابع الميلادى ،  
بحيث لم تشهد ثورة حقيقة تستهدف قلب نظام الحكم ، وتغيير قاعدة  
النظام السياسى بشكل جذرى ، الا مرة واحدة ، هى التى حدثت فى

---

(١) راجع فى ذلك بحثنا اعنون : « السمو البابوى بين النظرية  
والتطبيق » ، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ، القاهرة  
١٩٨٥ •



عام ٥٣٢ فى القسطنطينية (٢) ، وان كنا قد شهدنا حركات تمرد متعددة ،  
الا أنها كانت موجهة ضد شخص الجالس على العرش ، ولم تكن  
تستهدف العرش نفسه .

ولنضع الى جوار هذا كله .. القسطنطينية ، العاصمة  
الامبراطورية ، باحتلالها لذلك الموقع الاستراتيجى الممتاز ، حيث تطورتها  
المياه بأذرع ثلاثة البسفور وبحر مرمره والقرن الذهبى ، فتوفر لها  
حماية طبيعية ، ضمنت لها والامبراطورية الأمن العسكرى والبلغار  
والنورمان واللاتين ! لقد جاء زمان لم يبق فيه من بيزنطة الامبراطورية ،  
الا بيزنطة العاصمة ، كان هذا فى عام ٦٢٦ عندما حاصرها الآفار من  
الغرب ، وراح الفرس يشعلون نار ربهم على الشاطئء الأسىوى  
للبسفور قبالة القسطنطينية ، والجيوش البيزنطية تعمل فى الخارج  
تحت زعامة هرقل Heraclius ( ٦١٠ - ٦٤١ ) فى أرض فارس  
نفسها ، وأفلحت العاصمة فى الافلات من هذا الحصار ، بمناعة  
موقعها ، وقوة تحصيناتها ، ودبلوماسية ساستها .

اذن .. فالاستقرار السياسى فى الداخل والخارج ، والعمل  
الادارى الناجح ، والازدهار الاقتصادى ، وتأمين الطرق العالمية ،  
وضمان السيادة للعملة البيزنطية ، وتوجيه السياسة الاقتصادية فى  
السوق العالمى ، والتأييد المادى والمعنوى للجهود التى تبذلها الكنيسة  
الأرثوذكسية لنشر المسيحية بين شعوب البلقان الوثنية ، والتى تمهد  
تلقائيا لبسط النفوذ السياسى للامبراطورية على جيرانها ، كل هذا يحتاج

---

(٢) تعتبر هذه الثورة التى اندلعت ضد الامبراطور جوستينيان فى  
عام ٥٣٢ من أخطر الثورات فى تاريخ بيزنطة ، اذ شارك فيها السفناتو  
والحرس الامبراطورى وحزب الزرق والخضر وأصحاب الديانات المختلفة  
من الوثنيين والمسيحيين على تعدد مذاهبهم وجموع الناس فى العاصمة ،  
وكادت أن تطيح فعلا بالنظام السياسى القائم . للمزيد من التفاصيل عن  
هذه الثورة — راجع بحثنا .. « الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢ »  
المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ — القاهرة ١٩٨٥ .



بلا ريب الى قوة عسكرية رادعة قادرة على تحقيقه ، ودبلوماسية  
ماهرة •

من هنا كان طبيعيا أن يوجه الأباطرة اهتمامهم الكامل الى  
الجيش ، ويعنون بتدريبه وتنظيماته وأسلحته ، وخطته العسكرية ،  
ولا غرابة اذن أن نجد جل أباطرة بيزنطة من العسكريين ، وأن معظمهم  
قادوا جيوشهم بأنفسهم • ووضع بعضهم رسائل تحتوى على دراسة

قيمة عن الجيش فى زمانه ، مثل الامبراطور موريس Mauricius  
فى القرن السادس • وحتى هؤلاء المدنيين منهم ساهموا بفكرهم فى  
الاهتمام بالجيش البيزنطى ، فوضع ليو السادس Leo VI الحكيم  
فى أوائل القرن العاشر الميلادى ، كتابه عن « التاكتيكات » العسكرية ،  
وخلف ابنه قسطنطين السابع آخر عن « الثغور » •

لقد كان الجيش بحق — كما يقول المؤرخ البيزنطى الذى عاش فى  
القرن الحادى عشر الميلادى ، ميخائيل بسللوس Michael Psellus  
هو مصدر القوة الحقيقية للامبراطورية ، بينما يعبر عالم الدراسات  
البيزنطية ، نورمان بينز N. Baynes عن ذلك فى عبارة بليغة بقوله :  
« ليس تاريخ روما الا تاريخ الجيش الرومانى ، ولا يصدق اعتبار بيزنطة  
وريثة روما فى شىء ، بقدر ما يصدق فيما يختص بسياستها العسكرية •  
لقد بنيت الامبراطورية وأمنت بفضل كتائبها » • وهذا ستفن رنسيمان  
Stephen Runciman يؤكد قائلاً : « كان النظام الادارى بيزنطة مرتبطاً  
ارتباطاً وثيقاً بقواتها العسكرية ، فالأعداء يحيطون بالامبراطورية من  
كل جانب •• ولم يحدث قط أن الحكومة أحست لحظة واحدة أنها غير  
معرضة لخطر الغزو الأجنبى ، بل ان وجودها فى حد ذاته كان متوقفاً  
على ضبط الشعوب المحيطة بها الضبط الصائب • وهذا يتوقف على  
جيش وأسطول يتصفان بالكفاية والاستعداد الدائم ، وعلى سياسة  
دبلوماسية يقظة لا تهدأ لحظة عن العمل ••• لقد قضت الضرورة على



البيزنطيين أن يصوغوا أنفسهم فى الوقت المناسب على أسس عسكرية ، وأن يولوا هذه الشؤون العسكرية كل التفاهم وعملهم • وكان ذلك كله فى مصلحتهم » • ويضيف • • « لقد كانت بيزنطة طوال العصور الوسطى بلدا تدرس فيه أدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية بعناية كاملة ، وأخرجت بيزنطة سلسلة متصلة الحلقات من الكتاب العسكريين ذوى الاقتدار ، كما أن كثيرا من مؤرخيها كانوا يأخذون بطرف من الاهتمام بالشؤون العسكرية ، ومنهم نستطيع أن نتعقب تطور تاريخ العسكرية البيزنطية » •

وقد يصبح الاعتماد على الجيش أمرا طبيعيا لبعض زمن ، وقد يطول ، لكن أن تظل الدولة فى حالة تعبئة عسكرية كاملة لزمن طويل ، خاصة اذا امتد هذا الزمن الى ألف ومائة من السنين ، فان هذا يعد ضربا من المستحيل ، وحرثا فى بحر ، لخزانة لا بد أن تعلن افلاسها ، وروح معنوية لا بد أن تنهار ، ومعين لا بد أن ينصب من الموارد البشرية ، لقد ظل الامبراطور جوستنيان ( ٥٢٧ — ٥٦٥ )

خمسا وعشرين سنة متصلة يحارب فى الغرب الامبراطورى ، ومن أجل استرداد الولايات الرومانية الضائعة والواقعة فى قبضة الشعوب الجرمانية ، ويدفع خلالها جزية سنوية ضخمة لفارس ، فترك فى النهاية خزانة خاوية ، وولايات مقفرة خربة فى ايطاليا وأفريقيا ، وأخرى على شفا الثورة والضياح كمصر وسوريا ، وجيشا ممزقا ، ورغم أن جوستنيان كان دبلوماسيا بارعا !! وهذا هو باسل الثانى Basilius II

( ٩٧٦ — ١٠٢٥ ) يشغل من القرن الحادى عشر سنواته الأولى حتى الثامنة عشرة ، فى حرب مع المملكة البلغارية ، ويذهب فى التاريخ بشهرة « سفارح البلغار » Bulgaroctonos حتى اذا قضى نحبه بعد ذلك بسبع سنين ، هوت بيزنطة دفعة واحدة ، ولم تقم لها من بعد قائمة ، وان ظلت موجودة فى سجلات التاريخ حتى منتصف القرن الخامس عشر ، ولم تكن السنوات المائة ( ١٠٨١ — ١١٨٥ ) التى حكمها



آل كومنينوس Comnenos الأبريقا •• ومضى •• ومضى !!  
وعندما أمنت السيادة في آسيا الصغرى Asia Minor  
للاتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر بعد ما تركت عام ١٠٧١ ،  
فقدت بيزنطة الى حد كبير معينها الرئيسي في تجييش الجيوش ، وراحت  
تولى وجهها شطر الغرب باحثه عن المرتزقة من الجنود •

في مثل هذه الظروف •• وغيرها •• كان لابد لبيزنطة أن تستخدم  
سلاحا آخر الى جانب القوة العسكرية ، كان له مضآؤه وتأثيره البعيد ،  
أعنى الدبلوماسية • وقد برعت بيزنطة في استخدام هذا السلاح خلال  
العصور الوسطى ، حتى أصبح علما عليها ، وغدت هي بحق أستاذة في  
هذا الفن ، بعد أن وضعت له قواعد ومبادئه ، والتزم أباطرتها جميعا  
— مع المرونة المطلوبة — بهذه القواعد ، حتى أحلها قسطنطين السابع  
في القرن العاشر مكانا مقدسا ، فوق منضدة مذبح أيا صوفيا  
Hagia Sophia وأوصى ابنه وهويغظه أن يدخل في روع الشعوب  
التي يتعامل معها ، أن هذه القواعد قررتها العناية الالهية منذ عهد  
قسطنطين الأول في القرن الرابع • وعلى هذا النحو ، كان طبيعيا أن  
يتحقق لبيزنطة بدبلوماسيةيتها ، الى جانب كل ما عرضنا له من عوامل  
القوة ، بقاؤها عبر هذه القرون الطويلة من الرابع الى الخامس عشر •

لقد كان ضروريا — على حد قول دفورنيك<sup>(٣)</sup> Ovornik

— أن تعلم بيزنطة الكثير عن الشعوب المجاورة لها ، حتى يمكنها التعامل  
معهما من الناحيتين السياسية والعسكرية ، لذا كانت الدبلوماسية تعتبر  
الحماية الحقيقية ضد أية مفاجآت قد تحدث ، خاصة وأن القوة  
العسكرية للامبراطورية ، كانت تسير دائما ، منذ نهاية الربيع الأول من  
القرن الحادي عشر نحو التدهور • ومما لا شك فيه أن التوافق بين  
العسكرية والدبلوماسية كان كفيلا بانقاذ الامبراطورية خلال أشد

---

(3) Ovornik, Origins of intelligence Services, pp. 165-166.



فقراتها تأزما إبان القرنين السادس والسابع ، على سبيل المثال •  
وساعد الأباطرة ليس فقط فى التغلب على كثير من الأزمات ، بل فى  
إعادة إحياء مجد الامبراطورية خلال القرنين العاشر والحادى عشر •

لقد سارت الدبلوماسية البيزنطية جنبا الى جنب مع القوة العسكرية  
فى خطين متوازيين ، يعملان معا ، وقد يسبق أحدهما الآخر أحيانا ،  
لكنهما يمثلان جناحا السياسة البيزنطية الخارجية ، وكثيرا بل دائما ،  
ما عوضت الدبلوماسية النقص الذى كان يعتور القوة العسكرية فى  
معظم الأزمات ، ذلك أن الحدود الطويلة والتهديدات المستمرة من جانب  
أعدائها ، كما تقول المؤرخة « هسى »<sup>(٤)</sup> لم تكن تسمح لإدارة الخارجية  
البيزنطية الا بوقت قليل تسترد فيه أنفاسها اللاهثة • ومن ثم كانت  
الدبلوماسية سلاح بيزنطة التقليدى المحبب اليها ، والذى أثبت فعاليته  
فى مناسبات عديدة • هى ان شئنا اذن بتعبير « أوبلنسكى »<sup>(٥)</sup>  
Obolensky واحدة من أشهر ما خلفته الامبراطورية البيزنطية من  
سمعة فى التاريخ الأوروبى • ويضيف فى موضع آخر<sup>(٦)</sup> قائلا :  
« ليس هناك شك فى أن الدبلوماسية البيزنطية كانت بشكل عام ويقىنى  
• ناجحة • ولم لا • • وقد أنقذت الامبراطورية فى مواطن كثيرة من  
الغزو والدمار ، وجذبت جموعا من الوثنيين الى دائرة ضوء الحضارة  
اليونانية الرومانية ، وأضافت الى عالم المسيحية مساحات واسعة  
من الأراضى فى البلقان الى الشمال عند البحر الأسود • لقد كانت  
الدبلوماسية البيزنطية عاملا من أهم العوامل فى التاريخ الأوروبى ،  
يرى أثره بصورة واضحة فى الميراث الثقافى ، فشعوب أوروبا  
الشرقية نلقت الكثير من مبادئ السياسة الخارجية على يد ساسة  
بيزنطة ، وتعلم حكام هذه المنطقة فى العصور الوسطى الشئ الكثير من

---

(٤) العالم البيزنطى ، تأليف ج.م. هسى ترجمة دكتور رافت  
عبد الحميد ، ص ٢٤٩

(5) C.M.H. IV, 1, p. 473.

(6) The principles and methods of Byzantine diplomacy, p. 61.



سادتهم ، بينما انتقلت بعض تقاليد الدبلوماسية البيزنطية ، عن طريق البنادقة ، الى الغرب الأوروبى •

ومن الغريب •• أنه على الرغم من هذا الدور الحيوى الذى لعبته الدبلوماسية البيزنطية فى السياسة الامبراطورية ، الا أنها كما يقول مؤرخنا سالف الذكر أوبلنسكى ، ما زالت ميدانا بكرا فى حاجة الى كثير من الجهد والدراسة • والمحاولات التى جرت فى هذا السبيل رغم أهميتها ، قليلة ، نخص منها بالذكر ما جاء ضمن كتابات « شارل ديل » عن الامبراطور « جوستينيان » ، و « رنسيमान » عن ( رومانوس لكابنوس ) و ( رامبوا ) عن « قسطنطين السابع » ، و « جيناكوبلوس » عن ( السياسة الغربية لميخائيل الثامن ) • وما كتبه « أوبلنسكى » نفسه عن « الدبلوماسية البيزنطية » ، والذى قصر الحديث فيه عن السياسة البيزنطية تجاه الشعوب الواقعة على الحدود الشمالية للامبراطورية فى مناطق القوقاز وشبه جزيرة القرم ونهر الدانوب ، خلال القرن العاشر الميلادى ، مع دراسة للخلفية التى ارتكزت عليها هذه الدبلوماسية (٧) •

وفى ضوء هذه النقطة الأخيرة ، فانه مما يثير الانتباه ، أن أحد أباطرة بيزنطة الأدباء فى عصرها الذهبى ، ابان القرن العاشر ، أعنى قسطنطين السابع •• الأرجوانى المولد Constantius VII Porphyrogenitus أى المولود فى الأرجوان ، قد ترك ضمن ما ترك من مؤلفات ، كتابه الذائع « عن الادارة الامبراطورية » De Administrando Imperio وقد وضعه حوالى بين عامى ٩٤٨ — ٩٥٣ ، ووجهه الى ابنه الأمير الشاب رومانوس Romanus ( الثانى فيما بعد ) يهدف به الى تعليمه كيف يمكن أن يصبح حاكما أريبا ، وذلك بأن يضع بين يديه من خلال هذا الكتاب ، معرفة كاملة بالشعوب المجاورة للامبراطورية ،

---

(7) Id. ; Ibid. p. 46.



وكيفية التعامل معها ، « ... لأن المعرفة بهذه الشعوب ستكون دائما ذات فوائد عظيمة لك يا طفلى الحبيب ، وستنفعك عندما تجد نفسك فى حاجة اليها ، فمن الصواب أن لا تكون جاهلا ، بل أن تكون لديك المعرفة الدائمة بالأجزاء التى تشرق عليها الشمس ، فكلها كانت فى وقت ما خاضعة للرومان » (٨) .

ويمضى قسطنطين السابع قائلا : « ... أى بنى .. يجب أن تعلم الاختلافات القائمة بين كل شعب وآخر ، وكيف تعامل كلا منهم ، كيف تستميلهم وكيف تحاربهم ، انهم سوف يرتعدون أمامك لفرط حكمتك ، ويهربون كما يفرون خوف النار ! وسوف تطبق من الخوف شفاهم ، وتجرحهم كلماتك كالسهم فتؤدى بهم الى الموت » (٩) .

كان قسطنطين السابع حريصا على أن ينقل الى ابنه خبرته السياسية التى كونها وهو بعد فى الظل قبل أن يغدو امبراطورا (١٠) ، فقد أريد له أن يظل قاصرا حتى الأربعين من عمره !! ولم تكن هذه السنوات الطوال التى قضاها تحت وصاية صهره القائد البحرى رومانوس لكابنوس Romanus Le Capenus لهوا وعثا ، كما كان

(8) D.A.I. XLIII.

(9) Ibid. XLVII.

(١٠) أريد لقسطنطين السابع أن يظل طفلا قاصرا لفترة طويلة ، اذ وقع بعد وفاة أبيه ليو السادس تحت وصاية القائد البحر الشهير رومانوس لكابنوس ، الذى جعل من نفسه الامبراطور السيد وأنزل قسطنطين الامبراطور الشرعى الى مرتبة الامبراطور الشريك ، وهو النظام الذى كان سائدا فى بيزنطة خلال فترات كثيرة ، خاصة زمن الأسرة المقدونية . بل انه رفع أبناءه أيضا الى هذه المرتبة ، وظل يسير دفة الدولة ربع قرن ( ٩١٩ — ٩٤٤ ) وكف أيدى قسطنطين طوال هذه السنوات . وفى عام ٩٤٤ دبر أيناؤه مؤامرة ثم فياه القبض عليه ، فاستغل الامبراطور قسطنطين هذه الفرصة ، ولم يسمح لولدى رومانوس لكابنوس بأن يفرضوا عليه من جديد سلطة أبيهما ، وأيده فى ذلك أهالى القسطنطينية الذين كانوا يتعلقون به ، فأعدمها عام ٩٤٥ . وهكذا تولى زمام السلطة وهو فى سن الأربعين !!



يتوقع الوصى ويتمنى ، لكنها كانت فترة تأمل وصمت ودراسة ، شغل نفسه خلالها بالوقوف على تفصيلات كل صغيرة وكبيرة لكل ناحية من نواحي الإدارة ، بصورة لا تعرف الملل ، وفى كل ما دق من أمور البلاط ، وبلغت سمعته مرتبة عالية فى المجال الخارجى فى ميدان الدبلوماسية ، وعلى الصعيد الداخلى فى النواحي الثقافية ، وأبدى اهتماما زائدا بالفن والأدب والتاريخ والآثار ، يصفه المؤرخ جنكنز Jenkins (١١) فى دراسة مقارنة ، بعبارات بليغة بقوله : « ورث عن أبيه حب العلم والمعرفة ، فغدا بحق ابنا لوالده المثقف ليو السادس الحكيم ، ومثقفا من طراز فوطيوس (١٢) Bardas Photius أحب الكتب وهام بها وراح يجمعها من كل مكان من الامبراطورية وربما من خارجها • كان واحدا من اليزنطيين القلائل الذين أدركوا جيدا أسلوب ومعنى النشر الكلاسيكى • لقد كان على النقيض تماما من جده باسل الأول Barilius I X الذى لم يكن يستطيع الكتابة على الاطلاق ( كان مجرد سائس للخيول قبل أن يغدو امبراطورا ) ، وأبيه الذى كان يكتب بحذقة ، وحفيده باسل الثانى الذى أوتى بسطة فى الجسم ، بينما لم ترق كتابته الى أبعد من مستوى صبي غر » •

واذا كانت منجزاته فى ميدان الثقافة تعد شيئا رائعا ، فان حمايته لمختلف الفنون تفوق الوصف ، واذا كان لا بد من الحديث عن شيء ،

---

(11) D.A.I., general introduction by Jenkins, p. 7.

وراجع له أيضا Byzantium, the imperial centuries, p. 265

(١٢) يعتبر أعظم رجالات القرن التاسع فى بيزنطة والغرب الأوروبى علما ومعرفة ، وقد عمل أولا أستاذا بجامعة القسطنطينية ، واتخذ من بيته ناديا أدبيا وعلميا ، ودون خلاصة ما كان يقرأه فى النادى من المؤلفات ، فترك بذلك مؤلفه الشهير الذى عرف بسم « المكتبة » Bibliotheca وقد أصبح بطريركا للقسطنطينية على عهد الامبراطور ميخائيل الثالث العمورى ( ٨٤٢ — ٨٦٧ ) ، وحاز شهرة واسعة أيضا من موقعه هذا بخلافه فى الراى مع كنيسة روما حول الروح القدس فى الثالث •



فليكن حول تشجيعه للتعليم والبحث • لقد كان متضلعا من الدراسات الكلاسيكية ، وتفهم ذكاؤه المفاهيم النظرية والتطبيقية للمعرفة ، المعرفة فى حد ذاتها ، والتي تعد ضرورة لمقدرة الرجل العملى للوصول الى القرار الصواب فى مختلف شئون الحياة • وفى هذه الناحية والتي تتضمن بصورة رئيسية دراسة التاريخ ، نجد أن قسطنطين أعطاهما اهتماما خاصا • فمن بين خريجي جامعة القسطنطينية ، التي كان هو المؤسس الثانى لها بعد القيصر برداس<sup>(١٣)</sup>

اختار موظفيه المدنيين ورجال الإكليروس • وقد أخضع ابنه رومانوس لمثل هذه الدراسة العملية • وإذا كانت هذه المعرفة ضرورية للفرء العادى فى ممارسة حياته اليومية ومتطلباتها ، فهى بالأحرى أشد ضرورة لمن سيمصب حاكما • ولا شك دفعه وساعده على ذلك أن بيزنطة بلغت فى عهده أوج مجدها السياسى والعسكرى ، وقمة رقيها الثقافى ، وأروع آياتها الفنية<sup>(١٤)</sup> •

لا غرابة إذن أن يتمخض عن هذا كله انتاج فكرى ضخم ، ينم عن شخصية موسوعية متكاملة ، تمثلت فى كتابه الهام جدا « عن الثغور »  
De Thematibus ومؤلفه الراقى « عن المراسم —  
De Cermoniis aulae Byzantinae الذى يعد وصفا دقيقا لما كان

عليه البلاط البيزنطى ، ويعتبر — كما يؤكد قسطنطين السابع نفسه فى مقدمته ، المظهر الخارجى والتجسيد المرئى للتنظيم والانسجام فى الداخل ، ونظاما للطقوس العامة ، يرفع من قدر العظمة الامبراطورية ، ويحدد أطر ومظاهر الحياة اليومية فى الدوائر الامبراطورية البيزنطية،

---

(١٣) هو خال الامبراطور ميخائيل الثالث ومستشاره ، قام بدور بارز فى اعادة تنظيم جامعة القسطنطينية ثانية ، بعد أن امتدت اليها يد الاهمال لفترة طويلة من الزمن بفعل الظروف العسكرية الخارجية التى تعرضت لها الامبراطورية •

(14) D.A.I., general introduction, by Jenkins, pp. 7-9.



ويقدم أنموذجا يحتذى لبلاط الملوك والأمراء الآخرين<sup>(١٥)</sup> . أما كتابه « عن الإدارة الامبراطورية » De Administrando Imperio فهو عمل رائع فى فن السياسة ، ومقال خطيرة فى أصول الدبلوماسية ، وتصور دقيق لوجهة نظر القسطنطينية تجاه العالم المحيط بها ، سماه صاحبه ببساطة « من قسطنطين الى ابنه رومانوس » وعرفه التاريخ باسم « عن الإدارة الامبراطورية » ، ومن ثم فقد كان من وجهة نظر الامبراطور عملا بالغ السرية top Secret ، وليس مسموحا بتداوله خارج القصر ، بل كان غير مسموح الا لعدد محدود جدا من الدبلوماسيين بالاطلاع عليه<sup>(١٦)</sup> . ويمكن تقسيم هذا العمل الى أقسام أربعة ، أولها مفتاح للسياسة الخارجية البيزنطية ، خاصة فى المنطقة المضطربة عند الحدود الشمالية ، والثانى درس فى فن الدبلوماسية ، والثالث وهو أطولها ، مسح شامل لمعظم الشعوب التى تحيط بالامبراطورية ، بدءا بالعرب فى الجنوب الشرقى ومن يحيطون بحوض البحر المتوسط والبحر الأسود ، وانتهاء بالأرمن على الحدود الشرقية . والرابع ملخص عن التاريخ الداخلى السياسى والادارى على حدود الامبراطورية<sup>(١٧)</sup> .

والكتاب على هذا النحو يفصح عن الهدف الذى من أجله أقدم الامبراطور قسطنطين السابع على وضعه ، فهو يحاول أن يقدم لابنه خلاصة فكره وتجاربه وقراءاته فيما يتعلق بفن معاملة الشعوب ، التى كان على بيزنطة أن تحتك بها دائما ، راضية أم كارهة ، ونراه يلمح بصورة واضحة على أن يعى ابنه رومانوس خبرة هذه السنوات ، فيقول : « ... تفهم يابنى جيدا هذه الأمور ... وكن حكيما ، فقد تتولى زمام الحكم يوما ما ، وسوف أراعى فيما أقدمه لك من موضوعات أن تكون

(16) Jlnkins, Byzantium, p. 260.

(17) D.A.I., general introduction, p. 10.

(١٥) هسى . العالم البيزنطى ، ترجمة دكتور رافت عبد الحميد ، ص ٣١٢ ، ٣٧٥ .



مفيدة قدر الطاقة ، وما يخصك منها واضح وفيه الآن للجميع ، ومن خلاله تستطيع أن تدبر وتوجه شئون الحكم فى هذا العالم ، وسيكون حديثى سهلا وبأسلوب مبسط ، ولا غرابة يابنى فى ذلك ، فلست أدبيا لأقدم لك حديثا رائعا من طراز العصر اليونانى ، بأسلوب سام رفيع ، لكنه سيكون واضحا يصلح لكل حين • ومما أقدمه لك وأناقشه، سوف تتعلم الكثير من الأمور التى تنير لك الطريق • ان ما أقدمه — أى بنى — خلاصة خبرتى الطويلة ، يسهل عليك فهم الأمور وتدبر العواقب (١٨) •

ويجب أن لا ينصرف الذهن الى أن حديثنا الآن عما كتبه قسطنطين السابع ، يعنى أن الامبراطور قد ابتدع أساليب جديدة فى فن الدبلوماسية البيزنطية ، أو أضاف المزيد الى ما اتبعه الأباطرة الأسلاف، فقد كان العديد من أولئك الذين سبقوه ، وأولاء الذين من بعده أتوا ، أساتذة فى هذا الفن ، الى الحد الذى دفع مؤرخا مثل « أوبلنسكى » الى الحديث عن جوستتيان بقوله : ير ان هذا الامبراطور هو الذى أورت خلفاءه مفهوم الدبلوماسية باعتبارها علما معقدا وفنا رائعا ، بحيث يصبح الضغط العسكرى والذكاء السياسى والمهارة الاقتصادية والدعاية الدينية ، أسلحة قوية فى السياسة الدفاعية للامبراطورية (١٩) • كل ما نعنيه اذن ، أن قسطنطين استلهم أحداث التاريخ وتجارب السابقين ، وسجل ذلك بنفسه فى قوله لابنه وهو يعظه : ير يا بنى •• هذه هى الأحداث التى جرت فى أوقات مختلفة بين الرومان والأمم الأخرى ، وهى وقائع تستحق التسجيل ، وعليك قراءتها والعلم بها ، حتى اذا تصادف ووقعت مثلها أحداث فى ظروف مشابهة ، تصبح بمعرفتك السابقة قادرا على معالجتها » (٢٠) • ولا يعنى هذا أيضا التقليل من قيمة الدور الذى بذله قسطنطين السابع فى رصد هذه

(18) D.A.I. IV, p. 47.

(19) C.M.H. IV, p. 47.

(20) D.A.I. ,XLVI



القواعد وتصنيفها والتعامل معها بأسلوب فيه من الذكاء قدر ما به من الجدية ، فكفل لهذه القواعد البقاء ، وأحاطها بسياس من القداسة ، وإن كان قد سجل خلاصة تجاربه الشخصية إبان فترة حكمه ، مع الشعوب النازلة في المناطق الشمالية من الامبراطورية •

وكان طبيعيا اذن أن تحظى ادارة الخارجية البيزنطية برعاية تفوق بقية الادارات الأخرى في الجاهز الحكومي ، فعلى ما يتوافر لديها من معلومات ، تتوقف سلامة الدولة وأمنها • وكانت المعلومات التي تنقلها السفارات والبعثات والتجار وغير ذلك من الوسائل الأخرى عن الشعوب المجاورة ، تصب كلها لدى جهة أنشئت لهذا الغرض عرفت باسم « ادارة شئون البرابرة » *Scrinium barbarorum* وربما يعود تاريخ انشائها الى القرن الخامس الميلادي ، وتركزت مهامها حول مراقبة الأجانب المقيمين في العاصمة أو الوافدين إليها ، والاهتمام بالسفارات الخارجية القادمة الى القسطنطينية (٢١) • وقد ظل هذا الجهاز قائما حتى القرن الحادي عشر ، وإن كانت سلطاته نفسها قد انتقلت منذ منتصف القرن الثامن الميلادي ، في أخريات سني حكم الامبراطور ليو الثالث الايزوري ( ٧١٧ — ٧٤١ ) الى يد موظف عرف باسم *Logothete* راحت أهميته تزداد باطراد حتى أضحي منذ القرن التاسع أهم منصب وزارى في الامبراطورية (٢٢) •

واطلاق هذا الاسم بالذات ، « ادارة شئون البرابرة » على جهاز له خطورته وأهميته فيما يتعلق بالعلاقات السياسية الخارجية لبيزنطة مع الشعوب المجاورة ، أمر له دلالاته البعيدة ، فقد انطلقت الدبلوماسية البيزنطية من مبدأ أساسى قائم على ما استقر في الفكر الرومانى ، ارثا عن اليونان ، أن ما عداهم من الشعوب الخارجة عن نطاق نفوذهم

(21) Dvornik, op. cit., p. 174.

(22) Id.



السياسى وسلطانهم الحضارى ، وقبل هذا وبعده ، لسانهم ، محض « برابرة » Barbaroi . يجب أن ينظر اليهم من على • ولا يستثنى من هذه الشعوب الا الفرس والعرب فى بعض الأحيان ، فيحدثنا مؤرخ القرن الحادى عشر ميخائيل بسللوس ، والذي عمل وزيرا لخمسة من الأباطرة ، أن أحدهم وهو قسطنطين التاسع ، أمره أن يكتب الى المستنصر بالله الفاطمى فى القاهرة ، رسالة تفيض بالمودة ، وتظهر الخليفة المسلم فى صورة لا تقل عن الامبراطور البيزنطى مكانة بل لا مانع عنده من أن تعلوها حفاظا على مصالح بيزنطة السياسية والاقتصادية مع مصر ، ويعلق بسللوس على ذلك بقوله ، انه أبدى موافقته لى ذلك أمام سيده ، فلما خلا الى نفسه ليكتب الرسالة ، حرص على أن يجعلها فى صورة غير التى أرادها الامبراطور ، لأن أحدا — فى اعتقاده — لا يمكن أن يطاول الرومان منزلة (٢٣) •

لقد قر فى ذهن الرومان ، وبشئ من الاصرار ، أنهم الأمة المتحضرة الوحيدة فى هذا العالم ، وأن ما عداهم من الشعوب يجب أن يكون فى خدمة أهداف الامبراطورية ، خاضعين لسيادتها أو دائرين فى فلكها ، فمانعين بسيادة ملك الملوك Basileus باعتبارهم أغصالا ورعايا ، ذلك دورهم ، وتلك فى الوقت نفسه مهمة الدبلوماسية البيزنطية (٢٤) • ولم يكن ذلك غريبا على جوهر الفكر السياسى الرومانى ، الذى يؤمن أن حضارته تجمع أرقى ثلاثة عناصر ، التراث الرومانى بأحسن ما قدمه فى القانون والادارة ، والهلينية بأروع ما أبدعته فى اللغة والأدب والفلسفة ، والمسيحية بكل ما حملته من مبادئ • ومن ثم

---

(23) PSELL. Chron. VI 191.

وللمزيد من التفاصيل راجع للباحث : « ميخائيل بسللوس من خلال كتابه التاريخ الزمنى » Chronographia مجلة كلية الآداب — جامعة صنعاء ، العدد الثانى ١٩٧٩ ، ص ١٥١ — ٢٢٤ •

(24) Diehl, Byzantium, Greatnes and Decline, p. 54. XX



اعتقد البيزنطيون أن امبراطوريتهم فى جوهرها الحضارى تمثل « العالمية » Oikoumene . يجلس على عرشها امبراطور يعد « السيد » الشرعى الوحيد والقانون الحى<sup>(٢٥)</sup> . هذا المعنى حرص على ابرازه مؤرخ القرن السادس أجاثياس Agathias عندما يكتب قائلا : « ان سيادة الامبراطور تسع العالم كله »<sup>(٢٦)</sup> ويؤكد بعد قرون أربعة ، الامبراطور قسطنطين السابع فى كتابه « عن المراسم » عندما يقارن بين سلطان الامبراطور فى نسقه وانسجامه ، وحركة العالم فى تناغمه على يد خالقه<sup>(٢٧)</sup> .

بل ان قسطنطين السابع يدعم هذا المعنى ويزيده وضوحا وهو يخاطب ولده بقوله : « أى بنى .. ضع نصب عينيك كلماتى واحفظ جيدا ما أمرك به ، فتعدو فى الوقت المناسب قادرا على أن تستوحى من كنوز الأسلاف مدارج الحكمة ، ألا فلتعلم أن كل القبائل القاطنة فى الشمال قد طبعت على الشره للمال نفوسهم ، لا يقنعون أبدا ، تدور أعينهم وراء كل شىء نهما وطعما ، يرفعون عقيرتهم بقول واحد .. هل من مزيد ؟ ! لا يؤدون عملا الا لقاء ما هو أكثر منه مالا وأشد نفعا . مثل هذه الأشياء التى يلحفون فى طلبها ، ويدعوننا لأنفسهم فى قحة ، يجب أن يرد عليهم بقول معسول واعتذار مقبول ! »<sup>(٢٨)</sup> . ويستخدم قسطنطين السابع نعوتا قاسية فى وصفه لهذه القبائل بعد قليل ، حيث يصمها بـ « المراوغة » و « والدناءة » .

وهذه النظرة التى راح قسطنطين السابع يلح عليها بصفة مستمرة فى كل صفحات كتابه « عن الادارة الامبراطورية » فى منتصف القرن

(25) Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 52.

(26) Cited in, Ure, Justinian and his Age, p. 248.

(27) Cited in, Ure, Justinian an his Age, p. 248.

(27) Cited in, Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 53.

(28) D.A.I., XIII



العاشر ، والامبراطورية البيزنطية فى أوج مجدها ابان عصرها الذهبى  
 زمن الأسرة المقدونية ، نسمع رنينها فى القرون الأولى ، ويتسردد  
 صداها فى القرون التالية والامبراطورية تعالج سكرات الموت البطيء !  
 نجدها واضحة فى رسالة قسطنطين الأول التى كتبها الى مجمع صور  
 عام ٣٣٥ (٢٩) ، ورسالة ابنه قسطنطيوس Constantius سنة ٣٥٦ الى  
 الاسكندريين (٣٠) ، ورسالة جوليان Iulianus الى باسل أسقف  
 قيسارية كبادوكيا فى آسيا الصغرى عام ٣٦٣ (٣١) ، وجوستينيان  
 Iustinianus فى العديد من تشريعاته (٣٢) . ولم يكن المؤرخون  
 البيزنطيون أقل حرصا من أباطرتهم على إبراز هذا المفهوم الذى يعد  
 جوهر الفكر السياسى الرومانى ازاء هذه الشعوب ، ابتداء من يوساب  
 Eusebius القيسارى فى القرن الرابع (٣٣) ، ومرورا بالقرن  
 السادس عند بروكوبيوس Procopius (٣٤) وميخائيل بسللوس  
 فى القرن الحادى عشر (٣٥) والأميرة أنا كومنا Anna Commena فى  
 القرن الثانى عشر (٣٦) ونيقتاس الخونياتى Nicetas Chiniates  
 فى القرن الثالث عشر (٣٧) . وغير هؤلاء وأولاء كثير .

ولا شك أن هذه النظرة قد شكلت بصورة أساسية طبيعة العلاقات  
 بين الامبراطورية وجيرانها ، فالزواج السياسى مثلا ، كان أحد

(29) SOCRAT. hstoria ecclesiastica, I, 34.

(30) ATHANAS. apologia ad Costantium, 30.

(31) IUL. epistola ad Basilium, (BASIL. ep. XL).

(32) IUL. epistola ad Basilium, (BASIL. ep. XL).

(33) EUSEB. Vita Constantini, IV, 56.

(34) PROCOP. de bello Persico 11, V. 29.

(35) PSELL. Chronographia, III, 9-10; IV 75, 90-91, 95, 153;  
 VIII. 45, 63-67, 70.

(63) ANNA COMV. Alexiad, VIII. X.

(37) NICET. CHON. historia, pp. 757-763.

نقلا عن الدكتور اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص ٣٤٤



الدعائم الرئيسية للدبلوماسية البيزنطية ، رغم أنه استخدم فى نطاق ضيق تماما ، خاصة اذا كانت العروس بيزنطية • فقد جرى التقليد بمنع زواج أميرات البيت البيزنطى الجالس على العرش ، من أحد ملوك أو أمراء أو زعماء الدول والقبائل الأخرى ، حتى لا تختلط الدماء البيزنطية « النقية » بغيرها •• أقل منها نقاء ! وان كان مسموحا بزواج الأباطرة من أميرات أجنبيات ، سعيا لاكتساب ولاء هذه الشعوب ، أو تحريضها ضد عدو يتأبط شرا للامبراطورية •

وكان التوجيه الذى وجهه قسطنطين السابع لابنه فى هذا السبيل واضحا ، « ••• اذا أقدم أحد من هذه القبائل المراوغة الدنيئة القاطنة فى الشمال ، ( ويحددها هو بالخزر والأتراك والروس والسكيزيين ) ، على طلب عقد زواج مع امبراطور الرومان ، بغية التحالف ، فان هذا المطلب الرهيب الذى لا يليق ، عليك أن تردده قائلا : « ان تبعة مثقلة ألقيت على كواهل الأباطرة ، وتمثلت فى وصية لا مجال للشك فى صحتها ، حفرت على المنضدة المقدسة للكنيسة الجامعة فى أيا صوفيا ، بحيث لا يمكن لأى امبراطور رومانى أن يربط نفسه برباط الزواج ، مع أمة تختلف طبائعها وتقاليدها عما جبل عليه الرومان ، خاصة مع أولئك الوثنيين الذين لم يتناولوا سر المعمودية ، ويستثنى من ذلك الفرنجة وحدهم (٣٨) • واذا كان لا بد من الاجابة عن سؤال حول ••

---

(٣٨) كان الفرنجة هم الشعب الجرمانى الوحيد من بين الجرمان الآخرين ، الذى تحول منذ البداية الى المسيحية الكاثوليكية ، التى أقرها المجمع المنعقد فى نيقية سنة ٣٢٥ ، وكان هذا التحول على عهد ملكهم « كلوفيس » Clovis فى أوائل القرن السادس الميلادى ، بينما اعتنقت بقية الشعوب الجرمانية الأخرى ، المسيحية فى صورتها الأريوسية • وقد أدى اعتناق الفرنجة للمسيحية الكاثوليكية الى آثار بعيدة المدى فى علاقات مملكتهم مع البابوية ، بلغت أوجها بتتويج ملكهم شقارلمان امبراطورا بيد البابا فى ليلة عيد ميلاد عام ٨٠٠ • للوقوف على تفصيلات الخلاف العقيدى بين الأريوسية والنيقية ( الكاثونيكية ) راجع : دكتور رافت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الخامس •



لماذا هؤلاء بالذات ؟ .. فانه يمكن القول انه نتيجة لتلك الشهرة التقليدية التي حازتها تلك المنطقة ، والأصول النبيلة لهذه القبائل !! أما فيما عدا هؤلاء فانه ليس من سلطة أى امبراطور أن يقدم على مثل هذا ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، اذا يقع تحت طائلة الادانة باعتباره أصبح غريبا عن جماعة المسيحيين ، وتحق عليه الأناثيما ( اللعنة ) ، حيث اعتدى على قوانين الأسلاف والشرائع الامبراطورية » (٣٩) .

واذا كان قسطنطين السابع قد استثنى الفرنجة من بين هذه الشعوب ، لما يذكره من « أصولهم لنبيلة » ، والتي يخالف بها الحقيقة عمدا ، اذ هم قبيلة من بين القبائل الجرمانية العديدة ، التي التصقت بها صفة « البرابرة » التي خلعها عليهم جميعا الرومان . الا أن الشيء الذى لم يذكره قسطنطين السابع ، والذي يعد تبريرا حقيقيا لهذا الاستثناء ، هو أن ابنه رومانوس قد أقدم على الزواج فى عام ٩٤٤ من « برتا » Bertha ابنة « هيج » Hugh ملك ايطاليا ( ٩٢٦ — ٩٤٧ ) (٤٠) ، وبينما يخصص فصلا كاملا من كتابه (٤١) للعودة بنسب من أصهر اليه ، أعنى « هيج » الى الامبراطور شارلمان Carolus Magnus (Charlemagne) نجاهه ينحى باللائمة على سلفه الامبراطور الايزورى ، الذى زوج ابنه قسطنطين الخامس من ابنة خان الخزر ، رغم ما حققته الدبلوماسية البيزنطية من نجاح فى هذا السبيل ، اذ أدى هؤلاء الأصهار دورا كبيرا فى وقف تهديد المسلمين للحدود الشرقية للامبراطورية ، ليتفرغ الامبراطور لدرء الأخطار على الجبهة الشمالية . بل ان قسطنطين السابع لا يجد ما يحول بينه وبين خلع صفات وألقاب غي كريمة على ايو الثالث ، لما جلبه من « عار »

---

(39) D.A.I., XIII

(40) Jenkins, Commentary on D.A.I. vol. 2, p. 83.

C.M.H. vol. IIT, p. 139. راجع تفاصيل ظروف هذه الزيجة فى

(41) D.A.I., XXVI.



— حسب تعبيره — على نفسه والامبراطورية ، ويصفه بأنه لم يكن مسيحيا قويا ، بل هرطوقا محطما للايقونات<sup>(٤٢)</sup> ، ومن ثم لقي الحرمان الكنسى وقيد بقيود اللعنة ، لأنه « كيف يليق بالمسيحيين أن يربطوا أنفسهم برباط الزواج مع أولئك الوثنيات ، بينما الكنيسة تحرم ذلك وتعتبره شيئا نكرا » • ويمضى قسطنطين فى تساؤله : « ... بل كيف يمكن للإباطرة الرومان الأشهار وهم النبلاء الحكماء أن يقبلوا هذا الأمر ؟ ! »<sup>(٤٣)</sup> •

واضح تماما من عبارات الامبراطور المولود فى الأرجوان ، مدى تأصل الفكر الرومانى حول دونية هذه الشعوب المجاورة للامبراطورية ، خاصة عند حدودها الشمالية ، وهى المنطقة التى أضحت فى القرنين التاسع والعاشر ، تمثل مركز الأمن والتهديد لبيزنطة فى وقت واحد ، وتحظى بأهمية كبيرة لدى ادارة الخارجية البيزنطية • وكانت تمتد من

---

(٤٢) ذهب يو الثالث وابنه قسطنطين الخامس بشهرة واسعة فى التاريخ ، لتوليها زعامة حركة تحطيم الايقونات icons أو الصور المقدسة .. ووكانت هذه الصور التى تمثل العذراء والمسيح والقديسين والشهداء ، قد لقيت رواجاً فى دور العبادة المسيحية والأديرة والدور الخاصة ، حيث ازدانت تلك الأماكن ، لكن خطورتها عاثت فى أنها أضحت محور اجلال الى حد التقديس عند جموع المسيحيين ، وقد عد ليو الثالث ذلك ضرباً من الوثنية الجديدة تشوب المسيحية ، فأصدر أوامره بتحطيم الايقونات فى كل كنفاء الامبراطورية . وكان ابنه قسطنطين الخامس أعنف منه فى هذا الاتجاه فلقى يلاهما العنت والمقاومة من جانب البابوية فى روما ، التى كانت من أشد المتحمسين لتقديس الصور . وأخذت هذه المشكلة أبعاداً سياسية واقتصادية ، ونتائج عسكرية وادارية وفنية ابان القرنين الثامن والتاسع . انظر :

Hefele, history of the councils of the church, Vol. 5.

وأيضا

Percival, the Seven ecumenical councils (in Nicene and post  
Vicene Fathers, vol. XIV.

راجع كذلك ، دكتور أسد رستم : حذب فى الكنائس . بيروت ١٩٥٨

(43) D.A.I., XIII.



سهول هنغاريا حتى بحر قزوين ، وتشمل جبال الكربات ومراعى  
الاستبس الروسية والأراضى الواطئة الى الشمال من القوقاز ، وتصل  
شمالا الى أنهار « الدنيستر » و « الدنيير » و « الدون » ، وحتى  
منتصف الدانوب فى الغرب والفلجا الأدنى فى الشرق ، وتضم من  
بين ما تضم قبائل الآفار والصقالبة والبلغار والمجيار والروس  
والبشناق . ولا ريب أن هذه القبائل كانت ما تزال على وثنيتهما  
وبدايتها ، يباعد بينها وبين الامبراطورية البيزنطية ، الدين والحضارة ،  
وان أخذت تتحول تدريجيا على يد مبشرين بيزنطيين الى المسيحية  
الأرثوذكسية ، ومن ثم كانت نعمة « الرومانية » أو « الدولة الوحيدة  
المتحضرة فى العالم » ، عالية تماما فى كتابات قسطنطين السابع ،  
وهو يحدث عند هذه القبائل فى معرض الزواج السياسى ، « فكل قوم  
— حسب تعبيره — عاداتهم وتقاليدهم التى يتميزون بها عن غيرهم ،  
ونظامهم الخاص بهم ، وعليهم اتباع الأعراف السائدة بينهم واحترامها  
والحفاظ عليها ، فكما أن كل حيوان يحن الى فصيلته ، فان على كل  
أمة أن ترتبط عن طريق الزواج ، ليس من أولئك الذين يخالفونها الأصل  
واللسان ، بل مع من ينتمون اليها ويتحدثون لغتها ، حتى يسود الوئام  
والتفاهم بين من هم على شاكلة واحدة » (٤٤) .

وليس معنى هذا أن التقاليد البيزنطية كانت تحرم تحريما قاطعا  
مثل هذه الزيجات ، فقد كانت تسمح — فى اطار دبلوماسية بارعة —  
بالزواج من أميرات بيزنطيات لا ينتسبن الى الأسرة الجالسة على  
العرش ، كما حدث مثلاً من زواج أوتو الثانى Otto II ولى العهد الألمانى

---

(٤٤) Id. وللوقوف على خطورة الزواج من الأجانب كما تجسده  
التقاليد البيزنطية ، راجع تلك القصة التى يرويها قسطنطين السابع عن  
أهالى خرسون Cherson ( حالياً سباستبول فى أقصى جنوب غرب شبه  
جزيرة القرم ) وبسبور Bosphorus ( وهى حالياً كرش الواقعة على المضيق  
الذى يربط بحر آزوفى بالبحر الأسود ) . . وذلك فى الفصل الثالث  
والخمس من كتابه D.A.I.



والمرشح لاعتلاء عرش امبراطورية الرومان فى الغرب بعد أبيه ، من الأميرة البيزنطية ثيوفانو Theophano فى ستينيات القرن العاشر ، وزواج الأميرة ماريا لكابنا Maria Lecapena حفيدة الامبراطور رومانوس الأول لكابنوس من بطرس Petrus ملك البلغار . رغم أن هذه الزيجة الأخيرة كانت أكثر نفعا للامبراطورية بصورة مباشرة ، بعد اشتداد حدة العداء بينها وبين المملكة البلغارية على عهد ملكها سيمون ، إلا أن قسطنطين السابع أعلن امتعاضه وسخطه على هذا الزواج ، ووجدها فرصة سانحة للتشهير بصهره رومانوس ، الذى أبقى عليه — كما أسلفنا — قاصرا حتى الأربعين من عمره .

كتب قسطنطين مخاطبا ابنه . . « فان سألوك — يعنى القبائل النازلة فى الشمال — كيف سمح اذن الامبراطور رومانوس لنفسه ، أن يرتبط بعلاقة زواج مع البلغار ، معطيا يد حفيدته الى بطرس ملك بلغاريا ؟ ! فيجب أن يكون دفاعك : « لقد كان رومانوس امبراطورا شريكا (٤٥) وشخصا جاهلا ، ولم يكن أبدا فى يوم ما من بين أولاء الذين ولدوا فى الأراجوان ، ولم يرب على التقاليد الرومانية منذ كان ،

---

(٤٥) لم يكن رومانوس لكابنوس ينتمى للأسرة الجالسة على العرش ، وهى الأسرة المقدونية التى أسسها باسل الأول المقدونى عام ٨٦٧ . وقد توارث أبناء الأسرة الحكم على النحو التالى : باسل الأول ، ليو السادس وقسطنطين السابع ، رومانوس الثانى ، باسل الثانى ، قسطنطين الثامى ، زور وثيودورا . وفى خلال سن القصور الذى عاشه كل من قسطنطين السابع ورومانس الثانى وباسل الثانى ، قفز الى العرش كأباطرة شركاء أوصياء على الامبراطور الشرعى ، عدد من القادة العسكريين الذين ينتمون الى العائلات الأرستقراطية الزراعية والعسكرية فى الوقت نفسه ، خاصة فى منطقة آسيا الصغرى . وكان من هؤلاء القائد البحرى رومانوس لكابنوس ، ثم نقفور فوقاس Nicephorus Phocas ويوحنا تزيمنسكس Ioannis Tzimiscas وعرف هؤلاء بالأباطرة الشركاء ، وهو النظام السياسى الذى عرفتة بيزنطة كما أسلفنا . وقد تحقق لبيزنطة على يد هؤلاء الشركاء الكثير من الانتصارات العسكرية الحاسمة فى الخارج .



ولا ينحدر من أصول نبيلة ، ومن ثم فانه نتيجة هذا كله كان فى كثير من تصرفاته يتسم بالحماسة والاستبداد . وفى هذا الأمر بصفة خاصة لم يبال بما تحرمه الكنيسة ، ولم يتبع أمر ووصية قسطنطين العظيم ، لكنه بما جبل عليه من مزاج عنيف وطبع حاد ، وبعد عن الفضائل ، ورفض لاتباع ما هو حق وصواب ، وعدم التزام بالتعاليم التى خلفها لنا الآباء ، تجاسر على أن يقدم على فعلته هذى . . . . ومن ثم فان تلك التى أصبحت زوجة ( يعنى ماريا لكابنا ) لم تكن ابنة الحاكم والامبراطور الشرعى ، بل ابنة من يأتى تربيته الثالث ( يعنى طبعا بعد الامبراطور والامبراطور الشريك ) ، وما زال فى مرتبة أدنى ، ولم يشارك بعد فى السلطة ، ولم يمارس أى عمل من أعمال الحكم » (٤٦) . ثم يتحدث قسطنطين بعد ذلك عما أصاب الامبراطور رومانوس لكابنوس فى أخريات أيامه من المصائب ، حيث أمسى مكروها من السناتو والكنيسة ، وانتهى الأمر بمقتله » (٤٧) .

على أن دفاع قسطنطين على هذا النحو ، عن التقاليد الرومانية ، لا يخلو ، بل يمتلىء ، بالتحامل على رومانوس لكابنوس ، ذلك أن زواج ماريا لكابنا من بطرس البلغارى ، أنقذ السلام فى البلقان خمسة وعشرين عاما ، وكان هذا فى حد ذاته عملا سياسيا بارعا ، بل ان قسطنطين نفسه لم يجد أمامه مفر ، الا أن يلتمس العذر ، وان على استحياء ، لرومانوس فيما أقدم عليه ، لما تم نتيجة هذه الزيجة من اقتداء عدد من الأسرى ، بالاضافة الى أن البلغار كانوا قد تحولوا الى المسيحية . الا أنه يضع القاعدة الأساسية فى هذا الزواج السياسى باعتباره أحد عمد الدبلوماسية البيزنطية ، حين يؤكد بلا أى لبس أو غموض ، أنه حتى الاتفاق فى العقيدة « لا يبيح زواجهم من أية أميرة

---

(46) D.A.I., XIII.

(47) Id.



من الأسرة الحاكمة ، سواء كانت صلة قرابتها من الدرجة الأولى ، أو حتى أبعد من ذلك ، ومهما أدى هذا الزواج من خدمات للحكومة !! (٤٨) • • ومن الغريب أن يؤكد الامبراطور ذلك بالحاح ، بينما يبارك زواج أخته « أنا » Anna من لويس الثالث ملك إيطاليا ، وزواج ابنه رومانوس من ابنة الملك هيج • ولا شك أن هذه الزيجات الثلاث ، رغم ما يقوله قسطنطين ، كانت عملا من أعمال الدبلوماسية البارعة والحتمية آنذاك (٤٩) •

ولن تمضى على ذلك سنوات قلائل ، حتى يقوم حفيده الامبراطور باسل الثانى ، بنقض هذه القاعدة والخروج عليها ، عندما يتعرض فى سنة ٩٨٨ للفتنة الداخلية التى أشعلها ضده بارداس فوقاس Bardas Phocas فى الوقت الذى كان البلغار يهددون حدود الامبراطورية ، والخليفة الفاطمى العزيز بالله يعد أسطوله لمهاجمة السواحل البيزنطية ، فلم يجد باسل الثانى أمامه الا الاستعانة بالأمير الروسى فلاديمير Vladimir الذى سير اليه قوة عسكرية قوامها ستة آلاف جندي ، ساعدته فى الخروج من هذا المأزق ، وكان ذلك مقابل الزواج من الأميرة « أنا » Anna أخت الامبراطور • ورغم أن باسل حاول أن ينكص على عقبه ، التزاما بالتقليد البيزنطى ، بعد أن تم له القضاء على ثورة بارداس ، الا أن فلاديمير اضطره الى الوفاء بما عاهد عليه الأمير • وتم تعميم هذا العاهل الروسى وزواجه من الأميرة البيزنطية •

وفى القرن الثانى عشر ، أصهر الامبراطور يوحنا كومنينوس الى البيت الملك الهنغارى ، بينما كانت أزواج ابنه مانويل كلهن من الغرب ، وأولاهن « برتا » Bertha من سولزباخ Sulzbach أخت زوجة كونراد الثالث الملك الألمانى • بل ان الامبراطور مانويل كومنينوس هذا ، أقدم على وضع خطة دبلوماسية بارعة ، يستهدف بها ضم المجر الى

---

(48) Id.

(49) Jenkins, Byzantium, p. 262.



الامبراطورية ، وذلك بسعيه لزواج ابنته من الأمير « بيل » Bela  
ورث العرش الهنغارى • ولم يحل دون اتمام هذه الزيجة ، الا مولد  
ابنه ألكسيوس ( الثانى ) •

ومن الملاحظ أن عدد الزيجات السياسية قد ارتفع فى أعقاب  
الحملة الصليبية الأولى ، بين البيت الامبراطورى ، والعائلات الملكية  
الصقلية أو الغربية ، على خلاف ما كان سائدا فى القرون الأولى ،  
حيث كان التقليد البيزنطى مرعيا الى حد كبير من جانب الأباطرة •  
ويعود هذا بالطبع الى قدوم عدد من ملوك أوروبا وأمرائها الى الشرق  
مرورا بالقسطنطينية ، على رأس حملاتهم الصليبية ، وازدياد علاقتهم  
بالامبراطورية سلبا أو ايجابا ، فى الوقت الذى راحت فيه بيزنطية  
تحت الخطى نحو الانهيار ، ويزداد اعتمادها على الجند المرتزقة من  
الغرب الأوروبى خاصة الانجليز والاسكندنافيين بالاضافة الى  
الصقالبة ، ليشكل هؤلاء من بعد ، القوة الرئيسية للحرس  
الامبراطورى ، حتى عرفوا باسم « الورك » Varangians وأطلق  
ذلك أيضا على الطريق الذى كانوا يسلكونه الى القسطنطينية ، فذاع  
باسم « طريق الورك » Varangian route • وعلى ذلك نرى أنه على  
الرغم من أن المبادئ الأساسية للدبلوماسية البيزنطية بقيت دون تغيير  
•• الا أنها كانت غالبا ما تتسم بالمرونة عند تطبيقها ، لتتمشى مع  
الظروف المتغيرة • وليس أدل على ذلك من أنه خلال القرن الرابع عشر •

أقدم الامبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس Ioannes VI  
Cantacuzenus فى ظل الظروف السياسية المتدهورة فى الداخل، والصراع  
الدائر حول لعرش ، الى أن يعطى يد ابنته الى الأمير العثمانى المسلم  
أورخان Orchan ليحصل على عونه فى الحرب الأهلية الدائرة مع  
أسرة باليولوجوس Palaeologus

وإذا كان الزواج السياسى بما أداه من خدمات للامبراطورية ،  
كدعامة من دعائم دبلوماسيةيتها ، يعطينا صورة جلية عن أطر الفكر



الرومانى الرومانى حيال هذه الشعوب ، فان جانباً آخر من جوانب الدبلوماسية يدعم هذا الاتجاه ، ذلك أن الوفود الرسمية التى كانت تقدم على العاصمة الامبراطورية ، يأخذ بألبابها ثراء المدينة وبهاؤها ، وما كانت عليه من الترف فى الدور والقصور والكنائس والأبنية العامة ، اذا يعمد الوفد البيزنطى المرافق لهؤلاء القادمين ، الى المرور بهم عبر أجمل شوارع المدينة ، فاذا ما زاغت منهم الأيصار ، وبلغ بهم العجب مبلغه عند نهاية التطواف ، وجدوا أنفسهم وقد تمت استضافتهم فى قصر فخيم من القصور الامبراطورية . وقبل أن يفتقروا يخلع عليهم الامبراطور الخلع الثمين والهدايا (٥٠) وهذا هو أجاثياس Agathias يصف لنا قسطنطينية جوستينيان فى القرن السادس الميلادى بقوله ، انها كانت تزخر بالعديد من زعماء الشعوب المجاورة للامبراطورية ، تصحبهم نساؤهم وبنوهم وخاصتهم وخادموهم ، فتتمثل المدينة لأعين الرائيين معرضاً يضم أزياء الدنيا ، وألسنة الأمم جميعاً !! يلقون الترحيب على أكمل وجه ، وهم يسيرون وسط العاصمة وقد امتطوا صهوات جيادهم ، يحف بهم الفرسان من حملة الأعلام ونافضى الأبواق فى منظر يأخذ بالألباب » (٥١) .

ولا شك أن هذه المظاهر البوابة ، كانت تترك بصماتها واضحة على هؤلاء الذين سرعان ما ينقلون سفراء لبيزنطة لدى دولهم ، وليس أدل على ذلك مما تتناقله الروايات عن الأمير الروسى فلاديمير ، الذى قيل انه أرسل مبعوثيه الى الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، والأرثوذكسية فى القسطنطينية ، والمسلمين ، واليهود الخزر ، للوقوف على أى العقائد ينتهجون !! فلما عادوا وراحوا يقدمون تقاريرهم ، قال الذين جاءوا الى القسطنطينية ، « قادنا اليونان ( البيزنطيون ) الى الدور يعبدون فيها الله ، فلم ندر أفى السماء كنا أم على الأرض ؟ ! فاذا

---

(50) D.A.I., LIII.

(51) AGATH. historia, 172.



كانت الأخيرة ، فليس هناك ما هو أفخم ولا أعظم من ذلك ، ونحن أراءم عاجزون عن الوصف •• كل ما يمكننا قوله أيها الملك •• ان الله يقيم وسط هؤلاء الناس (٥٢) ولا يقل ما جاء فى تقرير ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona الذى قدم مبعوثا من قبل الملك اللومباردى هرنجار سنة ٩٤٩ ، فى رحلته الأولى الى القسطنطينية ، شيئا عن تلك الأسطورة !

ويفيض الكتاب الذى وضعه قسطنطين السابع « عن المراسم » De Cermoniis والكثير من فصول كتابه « عن الادارة الامبراطورية » بالصور الحية التى تصف استقبال القسطنطينية للعديد من وفود الدول الأجنبية والشعوب المجاورة التى كانت ترد اليها (٥٣) ، ومنها ندرى أن مظاهر الترحيب والاحتفال كانت تزداد مع القادمين من مناطق جديدة ترغب ادارة الخارجية البيزنطية فى كسب ولائهم ، من ذلك مثا ما حدث للأميرة الروسية أولجا Olga التى زارت القسطنطينية عام ٩٥٧ ، مصطحبة معها حاشية ضخمة وقسيسها جريجورى الذى كان يعلمها المسيحية فى « كييف » Kiev ، فقد دعيت لتتخذ مجلسها الى جوار الامبراطور ، وخلع عليها الكثير من الهدايا القيمة عند اجراء طقوس عمادها •

ومن الجدير بالذكر أن تعليمات ادارة الخارجية البيزنطية ، كانت صريحة بضرورة عدم السماح لأى سفير من هؤلاء ، أو قادم رسمى بالتجول فى المدينة وحده دون حرس أو وفد مرافق ، أو الاطلاع على شىء مما ترغب الحكومة فى اخفائه عن الأعين • ومن ثم كان لابد أن يخف بهم الحرس منذ قدومهم وحتى ارتحالهم عن القسطنطينية (٥٤) ،

(52) Dvornik, op. cit., p. 176.

(53) De Cermoniis, I, 89-90; II, 15, Cited in Dvornik, op. cit., p. 175.

(54) Dvornik. Loc. cit.,



مع الحرص على أن يبدو ذلك فى ظاهره نوعاً من التكريم ، وإن كان فى جوهره نوعاً من الرقابة الصارمة على تصرفات هؤلاء السفراء ، يزيد لها حدة ما كان يجرى من وضع عدد من الخدم تحت تصرفهم ، تنحصر مهمتهم الرئيسية الخفية فى الحصول على أى نوع من المعلومات عن الوفد المرافق للسفير . وقد عبر عن ذلك أحسن تعبير ، ليو تيراند ، سالف الذكر ، وذلك فى تقريره الذى كتبه عن زيارته الثانية للقسطنطينية ، مبعوثاً هذه المرة للملك الألماني امبراطور الرومان ، أوتو الأول . وكانت شكواه بصفة خاصة أيضاً مما لقيه عند مغادرته العاصمة الامبراطورية ، من تفتيش دقيق لكل ما يحمل من جانب موظفى الجمارك (٥٥) .

وقد درجت بيزنطة الى جانب استقبال هؤلاء السفراء ، الى استضافة أبناء الأمراء والحكام المجاورين ، وذلك فى البلاط البيزنطى ، واحاطتهم بهالة من مظاهر العظمة والفخامة ، والترحيب بضحايا الحروب الأهلية فى الدول الخارجية كلاجئين سياسيين يمكن الاعتماد عليهم عند الضرورة لمصلحة السياسة البيزنطية . بل ان بيزنطة كانت تلح فى بعض الأحيان على عدد من الزعماء لزيارتها ، من ذلك مثلاً ما جرى مع أمير طارون Taron (٥٦) .

وتتنوع وسائل الاغراء والترغيب لهؤلاء السفراء الأجانب ، حتى ينقلبوا — كما ذكرنا — ممثلين لبيزنطة لدى دولهم ، وكان الفسارق الحضارى الكبير بين الامبراطورية وهذه الشعوب المجاورة ، باستثناء الفرس والمسلمين كما قدمنا ، عاملاً هاماً وسلاحاً فعالاً فى نجاح هذا الأسلوب التأثيرى . فاستخدمت وسائل الترفيه والتسلية مع بعض

(٥٥) راجع نص التقرير فى مجموعة الوثائق الخاصة بالعصور الوسطى التى ضمها كتاب

Cantor, The Medieva World, New York 1968.

(56) D.A.I. XLIII.



الوفود (٥٧) ، وجرى الانعام على الموالين منهم بألقاب التشريف التى كان من أبرزها *Magister, Patricius, Hypatus* • الى الحد الذى دفع هؤلاء الزعماء الى التنافس فيما بينهم للحصول على المزيد من الهبات أو الأموال أو الألقاب من الامبراطور (٥٨) ويضرب قسطنطين السابع المثل على ذلك بأهالى خرسون *Cherson* ، حين أنعم عليهم بألف رتبة عسكرية من درجة « رماة السهام » ، مع التأكيد بدوام إرسال المنح اليهم بانتظام (٥٩) • وكيف لا يتنافس القوم ، وهذه الألقاب كانت تجعل منهم أنصاف رومان « بسلوك متحضر ووقار لاتينى » (٦٠) ، ولا فرق فى ذلك بين الأمير البربرى فى أى منطقة ودوج البندقية الذى كان شغوفاً لحمل لقب « بطريق » • كما كان الكثير من الأمراء حريصين على أن يتسلموا من يد الامبراطور شخصياً أشعة السلطة الملكية مثل التاج الذهبى والرداء الحريرى المطرز بالذهب ، والذى يظهر الأمير من وجهة نظره شبيهاً بـ « البازيليوس » *Basileus* أى الامبراطور البيزنطى (٦١) •

وكانت العبادة الأرجوانية الامبراطورية بصفة خاصة ، تمثل لدى هؤلاء الأمراء شيئاً رفيعاً ، ومن ثم فلا غرو أن نجدهم يتهافتون

(57) Ibid, LIII.

(58) Ibid, XLIII - XLIV, XLVI-L, LI.

(59) Ibid. LIII.

(60) Diehl, Byzantium, p. 56.

(٦١) يتحدث قسطنطين السابع عن البشناق ، ويصفهم بأنهم طماعون جشعون ، لا يؤدون خدمة لأى فرد دون مقابل ، ولا يخلون مى كثرة طلبهم للهدايا والأشياء التى يندر وجودها عندهم لأنفسهم وزوجاتهم • كما يطلبها الشخص ارافق للمندوب الامبراطورى ، لنفسه ، لقاء جهده فى مرافقته واستخدام دوابه • ويقول انه عندما يصل المندوب الامبراطورى الى بلادهم يكون أول سؤال يوجهونه اليه ، يدور حول هدايا الامبراطور لهم ، ثم يعودون فيسألونه عن هدايا زوجاتهم ووالديهم •

انظر D.A.I. VI, VII



للحصول على مثلها • لكن هذا كان يعد في نظر الرومان امتهاً للتقاليد  
الامبراطورية (٦٢) ، اذ أن هذه العبادة من حق الامبراطور وحده ،  
واذا كانت الدبلوماسية قد وجدت في هذه المظاهر ما يحقق لسانعيتها  
السيادة على هذه الشعوب ، الا أن ذلك يجب أن يظل في إطار معين  
لا يتعداه • كان من الجائز اهداء أردية قريية الشبه ، لكنها ليست  
مثل الأردية الامبراطورية تماماً ، وهذه الحقيقة لم يغفلها قسطنطين  
وهو يعظ ابنه بقوله • « اذا ما أقدم الخزر أو الأتراك أو الروس أو  
غيرهم من الشماليين والاسكيزيين Scythians على طلب ما اعتادوا  
عليه دوماً ، أعنى بعض الأردية الامبراطورية أو التيجان أو الثياب  
الرسمية ، لقاء بعض خدمات يؤدونها ، فليكن قولك ان هذه الثياب أو  
التيجان ، لم تصنعها يد انسان ، ولا زينتها فنون بشر ، بل تنبئنا  
قصص التاريخ أن الله عندما اختار قسطنطين العظيم امبراطوراً ، فكان  
أول امبراطور مسيحي (٦٣) ، أنعم عليه بهذه الثياب عن طريق ملاكه »

(٦٢) كانت الأشعرة والأردية الامبراطورية ، شيئاً خاصاً بالامبراطور  
نفسه دون غيره من الناس مهما علت مكانتهم أو سمت أصولهم ، ولا يسمح  
لأى انسان آخر بارتدائها ، لما في ذلك من اعتداء على الحقوق الامبراطورية  
.. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك ، ما حدث لبطريك القسطنطينية في القرن  
الحادى عشر ، ميخائيل كركولاريوس Michael Cerularius عندما أقدم  
على انتعال « الصندل » الامبراطورى ، منتهزاً فرصة ضعف السلطة  
الامبراطورية واضطراب الأمور على عهد اسحق كومننوس . وكان هذا  
يعنى مظهراً من المنافسة التدمجية للامبراطور في سلطانه ، لابد تتلوها  
خطوات أخرى كما كان يؤمل البطريك ، مما دفع الامبراطور الى الأمر  
بالقبض عليه وتقديمه للمحاكمة ، ولم ينقذه من ذلك سوى موت الامبراطور  
.. انظر PSELL. Chron VI

(٦٣) اختلف المؤرخون ولا يزالون ، حول مسحية قسطنطين ، منهم  
من رفعه مكاناً عالياً فجعله أحد حوارى المسيح ، وأولئك هم مؤرخو  
الكنيسة . وآخرون يجعلونه أول امبراطور مسيحي ، جعل المسيحية الدين  
الرسمى للامبراطورية . وبعض يجعله وثنياً مدافعاً عن عقيدة الرومان  
الأسلاف . وفريق رابع يجعله امبراطوراً بلا دين . عن كل هذه الآراء ،  
ورأينا في هذه القضية التاريخية الشائكة ، راجع كتابنا : الدولة والكنيسة ،  
الجزء الثانى : قسطنطين ، دار المعارف — القاهرة ١٩٨٢



وكذا التيجان ، وعهد اليه أن يضعها فى الكنيسة المقدسة العظمى ،  
أيا صوفيا . . . وعلى المنضدة المقدسة حفرت هذه العبارات . . . اذا  
ما سولت لأى اميراطور نفسه أن يعطى شيئا من هذه الثياب لغيره ،  
حلت به اللعنة كخضم الله وعدو ، واستوجب صدور قرار الحرم  
الكنسى » (٦٤) .

ويبين من حديث قسطنطين السابع مدى الاحساس بـ « القفوق »  
الرومانى ، الذى يصل الى درجة « الشعب المختار » ، وهى الفكرة  
التي يعود بها أو بلنسكى (٦٥) عند الرومان الى جذور يهودية مسيحية ،  
متناغمة مع « العالمية » الرومانية ، والثقافة الأصلية المستمدة من  
الهليينية ، وهذا كله كان بالطبع كفيلا أن يجعل من الرومان فى نظر  
أنفسهم ، بل وفى نظر بعض معاصريهم أيضا ، « سادة » العالم فى  
زمانهم بلا منازع ، بحيث لا يمكن لأى شعب من الشعوب الأخرى أن  
يطاولهم سمت الحضارة وعلو الهامة .

ويتصل بالهدايا والخلع والثياب والألقاب ، جانب آخر من أكثر  
العوامل تأثيرا واستخداما من لدن صانعى السياسة البيزنطية الخارجية  
ذلكم هو المال . . فقد كان الاعتقاد الرامخ لدى الرومان ، أن لكل  
اسان ثمنه ، سواء كان أميرا بريريا لقبائل الهون Hunni الآسيوية ،  
أو كان جودفرى البويونى Godfrey du Bouillon دوق اللورين  
أو بوهيمند Bohemund النورمانى ، وكلاهما من زعماء الحملة  
الصليبية الأولى المبرزين ! فالمال — على حد تعبير شارل ديبل — (٦٦)  
هو أسرع السبل وأقصرها طريقا للتأثير على هذه الشعوب المجاورة  
لبيزنطة ، ومن ثم كان ينظر الى المال من وجهة نظر الدبلوماسيين

---

(64) D.A.I. XIII.

(65) Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 56.

(66) Diehl, Byzantium, p. 55.



البيزنطيين ، على أنه سلاح لا يمكن مقاومته ، وأثبتت الأحداث فعلا صدق نظرتهم • ولقد دفعت الحكومة البيزنطية مبالغ طائلة من الأموال منذ عهد جوستينيان فى القرن السادس ، وحتى باسل الثانى فى القرن الحادى عشر ، بل وبعد ذلك بقرنين آخرين أيضا لضمان ولاء هذه الشعوب المجاورة ، أو لتنفيذ مآربها السياسية الخارجية ضد دول أخرى ، أو على الأقل — وهو كثير — لضمان سكوتها وحيدتها أبان حروبها مع أعدائها • ويكفى أن نقرأ ما كتبه مؤرخ القرن السادس الأشهر ، بروكوبيوس Procopius القيسارى فى كتابه «التاريخ السرى» Historia Arcana لنذكر حجم المبالغ التى أنفقها الامبراطور جوستينيان لاستمالة أمراء الهون والبربر والحبشة واللومبارد والجبيد والهيروليين والآفار الايريين • بل ان ما قدمه لخزانة الملك الفارسى يكاد يعدل ما قدم لهؤلاء جميعا !! ومن ثم لم يسلم من النقد اللاذع الذى وجهه اليه بروكوبيوس فى كتابه • وجرى نفس الحال مع المؤرخ نيقتاس الخونياتى عندما صب جام غضبه ولومه على الامبراطور مانويل كومنينوس ، للأموال التى بددها دون طائل على اللاتين فى ايطاليا والنورمان فى صقلية ، الى الحد الذى يحمله فيه نيقتاس مسئولية الكارثة التى حلت بالامبراطورية بعد وفاته بسنوات قلائد ، عندما تعرضت للسقوط فى أيدي اللاتين عام ١٢٠٤ بفعل جنود الحملة الصليبية الرابعة ، وفعال البابوية والبندقية والامبراطورية فى الغرب جميعا (٦٧) •

وقد استخدمت هذه الأموال فى كثير من الأحيان ، لايقاع الفرقة والانقسام بين القبائل المجاورة ، وأفلحت الدبلوماسية البيزنطية فى هذا الميدان وحقت نجاحا كبيرا باعتمادها على الأموال ، لتطبيق المبدأ الشهير الذى كان يؤمن به الرومان •• « فرق تسد » • وكان هذا أمرا

---

(٦٧) للوقوف على تفاصيل هذه الأحداث ، يمكن الرجوع الى المصدر المعاصر الذى تناولها وكتبه شاهد عيان وهو : روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ، ترجمة دكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٤ •



لا مندوحة عنه كي تستطيع الامبراطورية مواجهة التهديدات التي تحيق  
بها من جانب الجماعات القبلية العديدة التي هطلت عليها منذ القرن  
الرابع وحتى العاشر الميلادى •

ويعطينا قسطنطين السابع تصويرا واقعيا للدبلوماسية البيزنطية  
فيما يتعلق بما يجب على ابنه أن فعله ازاء القبائل المجاورة  
للامبراطورية فى زمانه ، وهو يعد من أهم ما جاء فى كتابه « عن  
الادارة الامبراطورية » • • • • • فبيزنطة تخشى البشناق Pechenegs الذين  
كانوا يقطنون المنطقة الممتدة من مصب نهر الدنيبر Danube متجهة  
غربا الى قم الدانوب Dnieper ، ويمثلون فى الوقت نفسه مفتاح  
العلاقات السياسيه لبيزنطة مع بلاد الخزر Chazaria والروس والبلغار  
والهنغاريين • والامبراطورية مع خشيتها من البشناق ، تخاف الروس  
والأتراك ، لكن خشيتها من البشناق تفوق خوفها من الآخرين ، لذا فان  
بقاء الامبراطورية على سلام معهم ، يضمن عدم تعرض الأراضى  
الرومانية لهجمات الروس والأتراك ، وعدم مطالبتهم بفدية ضخمة من  
الرومان لقاء السلام • واذا ازدادت العلاقات وثوقا بين البشناق  
وبيزنطة عن طريق استمالتهم بالهدايا ، وأمكن بسهولة للبيزنطيين القفز  
على أراضى الروس والأتراك ، واستعبد نساءهم وأطفالهم وتدمير  
أراضيهم — والحديث هنا لقسطنطين السابع — لذا كان ضروريا ارسال  
مندوبى الامبراطور ، الى البشناق محملين بالهدايا والأموال  
لتجديد الاتفاق معهم وضمان سلامة الإالة (٦٨) •

كان البشناق فى نظر قسطنطين السابع ، قادرين على خوض غمار  
الحرب ضد الروس والأتراك ، لذا وجب استرضائهم كل  
عام (٦٩) • وحتى • • • • • البيزنطية على هذا النحو تحت رحمة

(68) D.A.I. II-VI.

Ibid. VIII, XXXVII.



البشناق ، فانه يصبح من الضروري استمالة « الغز » Uzes الى جانب الامبراطورية ، لأنه بمقدور هؤلاء مهاجمة البشناق (٧٠) والخزر (٧١) على حد سواء . والدبلوماسية تؤدي دورها بنجاح كبير في هذا السبيل ، فتشجع الصرب Serbg ضد البلغار (٧٢) ، وتؤلب الخرسونيين على السارماثيين (٧٣) Sarmatians وتبحث عن حليف جديد تثیره ضد البشناق ، فتجده في المجيار ، فترسل اليهم سفارتين خلال عامي ٨٩٤ ، ٩٢٧ تهدف من ورائهما الى حث هؤلاء على مهاجمة البشناق (٧٤) .

ولم يكن قسطنطين السابع فيما أورده مبتدعا ، ولا واضعا لقواعد الدبلوماسية البيزنطية ، كما ذكرنا من قبل ، لكنه كان يرصد ويسجل تجارب السابقين من الأباطرة الأسلاف ، الذين وضعوا هذه القواعد موضع التنفيذ ، وبلغوا في تطبيقها مبلغا من النجاح كان كبيرا ، فها هو الامبراطور زينون Zeno في أخريات القرن الخامس الميلادي ، لا يرى أمامه سبيلا كي ينقذ القسطنطينية من ضربات قبيلة القوط الشرقيين Ostrogoths الموجهة ، الا أن يوجه زعيمهم ثيودوريك Theodoric صوب ايطاليا ، التي كانت قاعدة الامبراطورية الرومانية قديما ، والتي ضاعت منذ سنوات قلائل ( ٤٧٦ ) على يد القائد الجرمانى أودواكر

---

(70) Ibid. IX.

(71) Ibid. X.

(72) Ibid. XXXII.

(73) Ibid. LIII.

(٧٤) Ibid: XXXVIII-XL. ويمكن مراجعة أحداث هذه الفترة الهامة في تاريخ الدبلوماسية البيزنطية من خلال علاقات بيزنطية مع الشعوب المجاورة ، في

Obolensky, The Byzantine Commonwealth, London, 1971 ;

Ostrogirsky, History of the Byzantine State, Oxford, 1956;

asiliev, A history of the Byzantine Empire, vol. 2, Madison and Milwaukee, 1964.



Odoacer فـضـرب بـذلك العـنـاصـر الجـرمانـية ببـعضـها لتـخلـص لـهـ  
القـسطنـطينـية وأرباضها •

وقـد طـبق الـامـبراطـور سـتـتيان ، أسـتـاذ الدـبـلـومـاسـية البيزنطية  
مـلا مـنازـع ، هـذه السـياسـة ببـراعة كـبـيرة فـى المـناطـق الشـمالـية والشرقية ،  
فـراح رـجالـه يؤلـبـون القـبائل ضـد بـعضـها ، ويؤجـجون نـيران التـتـافـس  
الـذى يـصل الـى حـد الكـراهـية فـيـما بـينـهم ، فـيـسـتـبـقـون للـحـصـول عـلى عـون  
بيزنطة ضـد بـعضـهم بـعضـا ، ولبـس أيسـر مـن ذلـك لـضـمان خـضـوع شـعـوب  
هـذه المـناطـق (٧٥) • هـذا فـى الـوقـت الـذى حـرص فـيـه عـلى اسـتـرداد  
ولايـات الغرب الرومانى التى اسـتـولى عـليـها الجـرمان ، وأقاموا عـليـها  
ممالك لـهم ، وشـراء سـكـوت الفـرس ببـجزية سنـوية ضـخمة يؤدـيـها •  
وأفلحت أمواله وسائسـه ومـظـاهر العـظـمة البادية فـى عاصمته ، وجيوشه  
فـى اخـضاع المـناطـق الواقعة الى الشـمال مـن حـدود الـامـبراطورية ،  
لسـلطانـه ، واسـتـرداد أفريقيا وإيطاليا وأجزاء مـن اسبانيا •

وتـمدنا المـصادـر التاريخـية المعاصرة لتلك الفترة ، بمعلومات وفيرة  
عن السـياسـة التى اتبـعها جـوسـتـتيان تـجـاه القـبائل النـازلة الى الشـمال  
الشرقى مـن الحـدود الـامـبراطورية ، خاصة مـنـطقة شـبه جـزيرة القـرم  
والمناطق المحيطة بالبحر الأسود ونهر الدانوب ، فقد راح يؤلب بعض  
عشائر القوط ، الذين كانوا قد تحولوا الى المسيحية ، ضد الهون  
الوثنيين ، حيث استقبل منهم وافدا قدم الى القسطنطينية سرا ، وعهد  
اليهم القيام بتدبير الفتن والمؤامرات واقامة الاضطرابات فى صفوف  
الهون (٧٦) بل استخدم بطون الهون ضد بعضهم ، فأوعز الى جماعة  
أوتيجور Utigur بمهاجمة جماعات الكوتريجور Kotrigurs بحجة  
الحصول على كنوز الذهب التى استولى عليها الأخيرون من أراضى

---

(75) AGATH. historia, pp. 332-333.

PROCOP. de bell Gothic, VII, 273.



الامبراطورية ، وابتلعت الجماعة الأولى طعم الخديعة ، ونجحت الدبلوماسية هنا في الخلاص منها معا بأيديهما (٧٧) • وعلى جبهة الدانوب استقطبت الامبراطورية قبائل الأنطاي Antae وأغدوت عليهم الأموال لتوجههم ضد البلغار (٧٨) ولم يجد جوستنيان ما يمنعه من أن يستخدم قبائل الآفار Avars من بعد ضد الأنطاي أنفسهم ، عندما دعت الضرورة الى ذلك !! (٧٩) •

وقد انتهج الامبراطور موريس Mauricius في أواخر القرن السادس ، السياسة نفسها في تحريض ملك الفرنجة « شيلدبرت Childebert ضد اللومبارديين Lombards لقاء مبلغ ضخم من المال • ودارت المراسلات في القرن التاسع بين الامبراطور ثيوفيلوس Theophilus المعمورى ، وبابك الخرمى ، الذى أشعل نيران التمرد ضد العباسيين على عهد الخليفة المعتصم بالله ، وتم الاتفاق على اعلان الفتنة في الداخل بينما تتقدم جيوش البيزنطيين باتجاه الحدود الاسلامية ، ليقع المعتصم بين شقى الرحى • لكن المعتصم فطن الى هذه الخطة وفوت على الامبراطورية الفرصة ، حين بادر أولا بالقضاء على فتنة بابك الخرمى ، قبل أن تتصل قواته بقوات ثيوفيلوس • مما دفع الأخير الى تخريب بعض المدن الاسلامية في آسيا الصغرى ، ومن بينها « زبطرة » التى يقال انها كانت مسقط رأس المعتصم • وقد قام الخليفة العباسى بملاحقة جيوش ثيوفيلوس ودمر مدينة « عمورية » التى ينتسب اليها الامبراطور ، ليمتدحه شاعر العربية أبو تمام ببائيته الشهيرة •

---

(77) AGATH. historia, pp. 330-335.

MENEA, excer. Legat. Rom. p. 345.

وأىضا

(78) PROCOP. de bello Gothico, VII, p. 273.

(79) MENAN. excer. Legal. Rom. p. 344.

MALAL. Chron. p. 489.

واىضا

EVANG. historia ecclesiastica, p. 425.

وكذلك



وما فعلته الأسرة المقدونية بعد ذلك خلال القرن العاشر ، من استغلال الصراعات القائمة بين المسلمين ، خاصة خلافتي بغداد العباسية والقاهرة الفاطمية ، لضرب القوى الاسلامية التى كانت تهدد الحدود المصالح البيزنطية فى بلاد الشام ، شىء لا يمكن تجاهله • ولعل أبرزها ما كان حادثا بالفعل بين الحمدانيين والبيزنطيين ، بينما يقف العباسيون والفاطيون موقف المتفرج ، بل ويظهرون الرضى لتحطيم قووة الحمدانيين على يد البيزنطيين ، الذين أفلحوا آ طريق استغلال هذا الموقف فى الوصول بجيوشهم الى تخوم بيت المقدس •

وقد تعرضت الامبراطورية فى آخر سنى القرن الحادى عشر ، لكارثة خطيرة كادت تودى بها ، ممثلة فى الحملات الصليبية ، التى وضعت فى اعتبارها منذ البداية الاستيلاء على القسطنطينية • ولولا الدبلوماسية البارة التى مارسها آل كومنين الثلاثة ، ألكسيوس الأول Alexius I وابنه يوحنا وحفيده مانويل ، لتعرضت الامبراطورية للضياع منذ السنوات الأولى للحرب الصليبية ، كما حدث لها بالفعل من بعد سنة ١٢٠٤ • ويكفى أن نقرأ فقط ما كتبه الأميرة « أنا كومنا »

Anna Comnena ابنة ألكسيوس فى كتابها الـ « ألكسياد » Alexiad عن وسائل الدبلوماسية التى استخدمها أبوها مع زعماء الحملة الصليبية الأولى ، باغداق الأموال والهدايا ، والخلع والألقاب ، ومنح الاقطاعات •• والتقريب ، وتحريض بعضهم ضد بعض • وكان أبرز مثالين واضحين لذلك ، موقفه حيال كل من بوهيمند النورمانى ، وريموند أمير تولوز • وليس ببعيد عن ذلك ما فعله حفيده مانويل مع كل من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا ، اللذين قادا الحملة الصليبية الثاظة •

والى قلب أوروبا الغربية وصلت أصابع الدبلوماسية البيزنطية فى القرن الثانى عشر ، عندما ازدادت حدة التوتر بين الامبراطور البيزنطى مانويل كومننوس ، والملك الألمانى فردريك برباروسا ،



امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب ، بعد أن نظـر  
الأخير الى نفسه باعتباره الامبراطور الشرعى للرومان ، ضاربا عرض  
الحائط بالشرعية والحقوق التاريخية لأباطرة الرومان فى الشرق • ومن  
ثم دارت المراسلات بين كل من مانويل كومنينوس والأمير هنرى الأسد  
دوق سكسونيا ، والذي كان يعد أحد الأفضال الاقطاعيين لفردريك  
برباروسا ، ويحمل فى الوقت ذاته العداء التقليدى القائم بين عائلته  
« الولفيين » وعائلة « الهوهنشتاوفن » التى ينتمى اليها فردريك • ولذا  
فقد استقبل فى بلاطه فى سكسونيا ، سفراء من لدن الامبراطور  
البيزنطى ، من وراء ظهر الملك الألمانى ، ورفض موافقة سيده فى حملته  
الخامسة الى ايطاليا ، مما أدى الى هزيمة فردريك عند لبنان Legnano  
سنة ١١٧٦ على يد مدن العصبة اللومباردية (٨٠) • بل ان مانويل  
استخدم أمواله وسلاحه أيضا لاثارة النورمان فى صقلية ضد النفوذ  
الألمانى •

وحتى القرن الثالث عشر ، والامبراطورية البيزنطية العائدة على  
يد ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus ظلت سياسة  
« فرق تسد » ، تتصدر قائمة عمد الدبلوماسية ، فى وقت عانت فيه  
الخزانة النقص الكامل فى الموارد المالية ، فمنح الجنوية امتيازات  
ضخمة فى القسطنطينية ، ليضرب بهم المصالح التجارية والسياسية  
لجمهورية البندقية ، التى كانت سببا رئيسيا فى سقوط القسطنطينية  
عام ١٢٠٤ ، ونجح بذلك فى استعادة الامبراطورية • ولما وجد نفسه  
من جراء هذا فى مواجهة حلف كونه شارل كونت أنجو ، الذى احتل

---

(٨٠) راجع هذه الأحداث وتفصيلاتها فى

Brooke, A history of Europe from 911 to 1198, pp. 51-501-503.

وراجع أيضا للباحث : الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخابات فى  
العصور الوسطى ، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، المجلد  
الثانى ، ص ٢٤ — ١٢٧



صقلية بدعوة من البابوية للقضاء على بقايا أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية في الجزيرة ، ويضم هذا الحلف ، البابوية ، وبلدوين الثانى امبراطور القسطنطينية اللاتينية المخلوع ، وليم فيلهاردوان ، الذى كان قد هزم مؤخرا على يد ميخائيل فى المورة ، والبلغار • أدرك ميخائيل أن السلاح التقليدى للخارجية البيزنطية ، وهو الدبلوماسية البارعة ، خير وسيلة للافلات من هذا الخطر ، فوجه القبيلة الذهبية المغولية ضد البلغار ، وسلاحفة الروم والمجيار ضد الصرب ، وصلاف لوييس التاسع نفسه وهو الذى كان أخا لشارل كونت أنجو ، وأعان الصقليين ضد ملكهم الفرنسى • فانفرط عقد الحلف •

ولكى تصبح هذه الوسائل الدبلوماسية ناجعة ، كان لابد أن يدعمها صانعوها باقامة حائط بشرى دفاعى على امتداد حدود الامبراطورية ، بقى جسم الدولة الرئيسى نفسه مغبة هذه الهجمات التى لا تنقطع ، وتمثل ذلك فى حرص بيزنطة على وجود عدد من « الدول الحاجزة » فى المناطق التى تتعرض بصفة دائمة للاخطار ، فالفساسنة على الحدود الشرقية أدوا دورهم كاملا لزمان طويل ، دفاعا عن الامبراطورية ، فى مواجهة الاعتداءات الفارسية المستترة وراء دولة اللخميين المناذرة • وجماعات آلان Alan كانت تشكل قوة متقدمة لمراقبة ما يجرى فى المنطقة القوقازية ، وكان لهم فضل اطلاع بيزنطة على كثير من التحركات العسكرية الفارسية تجاه حدود الامبراطورية (81) • والقوط الغربيون Visigoths أمل بهم الامبراطور فالنز Valens فى سبعينيات القرن الرابع ، أن يشكلوا درعا واقيا يحمى منطقة انبلقان من غزو الهون الآسيويين • والبشناق والصرب والبلغار والأرمن ، قاموا جميعا بنفس الدور فى فترات التاريخ البيزنطى المختلفة • ولعل هذه الناحية تتضح أهميتها بصفة خاصة منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، عندما أهملت الامبراطورية سياسة اقامة الدول

---

(81) Dvornik, op. cit., p. 170.



الحاجزة ، بل وساهمت بنوع من قصر النظر السياسى عند بعض أباطرتها ، لتحقيق نفوذ أكثر اتساعا ، فى هذا الخسران ، عندما اجتاحت جيوشها أرمينيا وضمتها للإمبراطورية وحولت بلغاريا الى ولايتين بيزنطيتين ، فأصبحت الحدود البزنطية فى الشرق والشمال الغربى مكشوفة مباشرة لشعوب أخرى تقع خلف هاتين الدولتين ، وتتأهب للقفز على بيزنطة •

وفى إطار هذه السياسة الذكية ، كانت الدعاية الرئيسية فى الأعمال الحربية للإمبراطورية ، تتمثل فى حرص ادارة الخارجية فى القسطنطينية على تجنب الدخول فى حرب على جبهتين فى وقت واحد ، اذا كان ذلك يشكل خطرا مدلهما ، فمع تكاثر الأعداء الذين أحاطوا بالإمبراطورية من كل جانب ، كان يبدو مستحيلا مواجهة هؤلاء جميعا دفعة واحدة ، أو العمل على جبهتين بنجاح تام فى كل منهما ، لذا كان نجاح الدبلوماسية هنا كبيرا • فاذا كان عليها أن تحرك قواها العسكرية فى ناحية معينة ، كان عليها بالتالى أن تسخر جهودها الدبلوماسية لتحقيق نصر سياسى فى الناحية الأخرى ، ربما لا يقل عن النصر العسكرى •

وكان الامبراطور جوستنيان مثالا يحتذى فى تطبيق هذه القاعدة ، فمع طموحاته الواسعة لاسترداد الولايات الرومانية فى الغرب ، المتطابقة مع الفكر السياسى الرومانى القائم على عالمية الامبراطورية ووحدها وتوحيدها ، والتي عبر عنها بوضوح فى احدى تشريعاته بقوله : « لدينا أمل كبير فى أن يأذن الله لنا باسترداد أراضى الامبراطورية الرومانية القديمة التى من جراء التراخى ضاعت » (٨٢) • الا أنه لم يكن بغافل عن الأطماع الفارسية فى الولايات الشرقية من الامبراطورية ، فالفرس كان يعنيههم فى المقام الأول ، الى جانب التوسع السياسى والنفع الاقتصادى ، الوصول الى مركز الثقل الحضارى فى



العالم آنذاك ، أعنى البحر المتوسط ، وهو ما كانت الامبراطورية البيزنطية تعتبره حقا خاصا بها ، ومن ثم فانه لأهمية هذا الصراع الذى يتدو فى ظاهره سياسيا واقتصاديا ، وفى جوهره حضاريا ، حرص جوستينيان على أن لا يدع الفرصة للفرس كى يحققوا مآربهم •

لهذا •• نرى جوستينيان يقدم فى السنوات الأولى من عهده على تحريك قواته العسكرية على جبهة الفرات ، دون أن يبغى من وراء ذلك اكتساب أراضى جديدة ، بل فقط دفع الفرس الى الدخول فى مفاوضات للتوصل الى اتفاق يؤمن ظهره أثناء استدارته لحرب الجرمان • فكان على استعداد لدفع جزية سنوية ضخمة للفرس لقاء أن يدعوه وشأنه لتحقيق آماله فى الغرب الامبراطورى • ولم يكن ذلك يغيب عن بصيرة الفرس ، ولذا كثيرا ما نراهم يحركون مهماز جيوشهم على جبهة الفرات هم الآخرون ، ابتغاء مزيد من الأموال من الخزانة البيزنطية • بل ان أطرف ما يمكن أن يروى فى هذا السبيل ، ما ذكره برويوبىوس من أنه عقب انتصار جوستينيان على الوندال Vandals فى شمال أفريقيا ، واسترداد الولاية للسيادة الرومانية ، طالب ملك فارس بجزء من الأموال والغنائم باعتباره شريكا فى هذا النصر الذى تحقق لوقوفه على الحياد أثناء المعارك • وقد انصاع جوستينيان لمطالب الملك الفارسى من أجل استكمال مشروعاته فى الغرب ، وان كان قد اعتبر هذه الأموال نوعا من الهدية !!

ولعل هذه النظرة المتبادلة بين الجانبين تفسر لنا تجدد عقد «معاهدات السلام» بينهما أكثر من مرة ، وذلك فى أعوام ٥٣٢ ، ٥٤٥ ، ٥٦٢ • وفى المعاهدة الأولى كان على بيزنطة أن تدفع لفارس سنوية أحد عشر ألف رطل من الذهب • وفى الأخيرة والتي أمل الجانبان أن تستمر خمسين عاما ، دفعت بيزنطة مقدما مبلغ ثلاثين ألف رطل من



الذهب باعتباره أقساط سبع سنوات كاملة (٨٣) . وكان جوستينيان قد شغل نفسه ودولته وجيشه وخزائنه على امتداد خمس وعشرين سنة كاملة ، ابتداء من عام ٥٣٢ بالحرب فى محاولة لاسترداد النصف الغربى من الامبراطورية ، ولم يكن على استعداد أن يحارب الفرس والجرمان فى وقت واحد (٨٤) .

وفى عام ٦٢٦ تعرضت الامبراطورية لخطر مداهمة مزدوج ، فالفرس اكتسحوا الولايات الشرقية للامبراطورية ، ووقفوا قبالة القسطنطينية على الشاطئ الآسيوى للبسفور ، بينما ألقى الآفار حصارهم عليها من الناحية الأخرى ، بينما الجيوش البيزنطية تعمل تحت قيادة الامبراطور هرقل Heraclius على الأراضي الفارسية نفسها . . . والعاصمة من الجند خالية . على أن الذى يعنينا هنا ، أن هذا الحصار المزدوج كان اختبارا وتحديا حقيقيا للدبلوماسية البيزنطية لقهرها على التخلي عن قاعدتها الأساسية ، بعدم الحرب على جبهتين فى وقت واحد . وفى سبيل ذلك وصل الفرس صفوفهم بالآفار ، بعد الدرس العملى الذى لقنوه زمن جوستينيان . غير أن الدبلوماسية البيزنطية فوتت على الفرس هدفهم ، ونجحت فى عزل الآفار عنهم بوسائلها المعروفة ، واستخدمت الكروات لتحطيم شوكة الآفار (٨٥) .

---

(83) PROCOP. de bello, I, pp. 133-5.

MENAN. excer. Legat. Rom. pp. 359-363.

(٨٤) لدراسة نشاط جوستينيان العسكرية ، يفضل الرجوع ، بالإضافة إلى ما كتبه بروكوبيوس ، إلى المراجع الحديثة التالية .

Bury, history of the Later Roman Empire, Vol. 2. London 1931.

Jones, Later Roman Empire, Vol. I, Oxford, 1964. وأيضا  
وله كذلك

The decline of the Ancient World, London 1975.

وراجع كذلك

Holmes, The Age of Justinian and Theodora, 2 vols. London 1912.

(85) Dvornik, op. cit., p. 182.



وتتجلى براعة الدبلوماسية فى الوقوف على الأهداف الحقيقية  
لأعدائها ، ولنضرب على ذلك مثالا واحدا • ففى القرن الحادى عشر ،  
وقعت الامبراطورية بين شقى الرعى ، الأتراك السلاجقة من الشرق ،  
وذلك بعد انتصارهم بزعامة السلطان ألب أرسلان على الامبراطورية  
فى موقعة مانزكرت عام ١٠٧١ ، ووقوع الامبراطور دومانوس الرابع  
ديوجينيس Romanus IV Diogenes فى الأسر ، ومن الغرب كان  
النورمان • وأدركت ادارة الخارجية البيزنطية أن الخطر الحقيقى  
يتمثل فى هؤلاء الأخيرين ، على الرغم من أن آسيا الصغرى كانت تعتبر  
من الناحية العملية فى قبضة السلاجقة • لكن هؤلاء لم يكونوا قد  
وضعوا فى خطتهم حتى الآن ، فكرة القفز على القسطنطينية ، بل كانوا  
مشغولين باقامة امبراطورية اسلامية فى ظل السيادة العباسية ، ولم  
تأت الخطوة التالية بالاتجاه نحو الغرب الا على عهد سلطانهم الأشهر  
ملكشاه ووزيره نظام الملك • أما النورمان فقد دأبتهم الآمال تحت  
زعامة عائلة هوتفيل Hauteville ممثلة فى روبرت جويسكارد Robert  
Guiscard وبوهيمند Bohemund من بعد ، حول امكانية اقامة  
امبراطورية نورمانية عاصمتها القسطنطينية ، ولم يذهب هذا التفكير  
من مخيلتهم حتى قيام الحروب الصليبية • لذا لم يتردد البيزنطيون  
لحظة فى مهادنة السلاجقة ، وتوجيه قواهم كلها للتصدى للخطر  
النورمانى ، مستعينين فى هذا المجال بقوات سلجوقية (٨٦) •

ولو حاولنا أن نسير مع قسطنطين السابع فى عرض نماذج معينة  
لما تضمنه كتابه حول هذه القاعدة القاضية بعدم الحرب على جبهتين فى  
وقت واحد لاحتاج الأمر الى الكثير من الصفحات • فقد عرض لكثير  
من جوانب السياسة البيزنطية فى هذا السبيل ، وبوجه خاص فى

---

(٨٦) مطامح الجرمان ومشروعاتهم لاقامة امبراطوريتهم — راجع

Haskins, The Normans in European History, New York, 1966.



المنطقة الواقعة الى الشمال من الحدود البيزنطية ، والتي كانت تشكل  
بؤرة اهتمام القسطنطينية فى القرن العاشر (٨٧) .

والآن •• وقبل أن نطوى الصفحة الأخيرة من صفحات قواعد  
الدبلوماسية البيزنطية ، لا يمكننا أن نفض الطرف عن أحد أسلحتها  
الفعالة ، والتي لم يكن دورها يقل أهمية وبعد أثر عن الجوانب الأخرى  
التي تناولناها ، بل ربما فاق بعضها أحيانا ، نعى بذلك التبشير  
بالمسيحية بين هذه الشعوب المجورة ، خاصة وأن القسطنطينية كانت  
تعتبر نفسها درع الأرثوذكسية وقلعة المسحية الشرقية ، وآمن الأباطرة  
أن واجبهم ، باعتبارهم نواب المسيح على الأرض ، يحتم عليهم نشر  
العقيدة المسيحية بين القبائل الوثنية المحيطة بالامبراطورية • لهذا  
لقيت كنيسة القسطنطينية التأييد الكامل ، بل والحث من جانب الأباطرة  
فى هذا السبيل ، فقد كان امتداد النفوذ الروحى لكنيسة القسطنطينية  
فى منطقة ما ، يستتبع بالضرورة امتداد سلطان الدولة السياسى الى  
هذه المنطقة •

لقد سارت عملية التبشير جنبا الى جنب الغزو ، فالكاهن المسيحى  
كان يمهد الطريق تماما لرجل السياسة ، حيث يسبقه الى أراضى  
« البرابرة » ليعرض على الناس هناك ديانته ، ويسعى بصفة خاصة  
الى جذب النساء أولا ، حيث كان يستهوين غموض العقيدة الجديدة ،  
ويصبح من السهل بعد ذلك التأثير على الرجال من ذوى العقول  
البسيطة (٨٨) ، ولقد ضربنا على ذلك مثالا بمبعوثى فلاديمير الروسى  
وما قالوه عن القسطنطينية وكنائسها بين يدى زعيمهم • وقد شابههم  
فى ذلك القوط والقفجاق والكروات والصرب والموارافين والبلغار ،

---

(٨٧) الى جانب كتاب De Administrando Imperio راجع أيضا

Obolensky, The Byzantine Commonwealth, pp. 69-236.

(88) Diehl, op. cit, p. 59.



وغيرهم كثير • ولم يأخذ هؤلاء عن البيزنطيين دينهم فحسب ، بل عالمه كاملا من الأفكار المشاعر والعادات ومظاهر الحضارة بصفة عامة (٨٩) •

لقد كانت السياسة التبشيرية التي مارستها الامبراطورية البيزنطية بصورة لا تعرف الكلال ، تدور فى اطار « العالمية » Oikoumene التى يركز عليها الفكر الرومانى ، فالبيزنطيون يعتقدون أن التنظيم السياسى للعالم ، ان هو الا جزء من الغاية العالمية لله ، ويرتبط أساسا بفكرة « الخلاص » الانسانى • ومن ثم فان « عالمية » الامبراطورية الرومانية مهدت الطريق فى ظل العناية الالهية أمام انتصار العقيدة المسيحية على الوثنية • وعليه غدت مهمة الرومان ، حمل لواء الخدمة من أجل المسيح ، والتبشير بالانجيل بين كل شعوب الأرض (٩٠) ، فلا غرابة اذن أن يصبح مفهوم « السلام الرومانى » Pax Romana يعادل « السلام المسيحى » Pax Christiana وأن تتواكب اهتمامات الامبراطورية مع تعزيز الايمان المسيحى (٩١) • وبناء على ذلك كان للامبراطور البيزنطى السيادة الكاملة على كل الشعوب المسيحية بوصفة — كما قدمنا — نائب المسيح على الأرض • لقد ظل هذا المفهوم حيا فى الامبراطورية حتى أيامنا الأخيرة، ففي القرن الرابع عشر أبدى أسقف القسطنطينية تشجيعه الكامل لما فعله دوق موسكو من الاقدام على حذف اسم الامبراطور من سجلات الكنيسة الروسية ، اذ كتب الأسقف اليه يذكره بالالتزامات الواجبة عليه تجاه الامبراطور العالمى ، ويوضح له بما لا يدع مجالا للشك ، امتداد سلطان الامبراطور البيزنطى على روسيا ، قائلا : « أى بنى ••• لقد تم تعيين •• ملك الملوك » Basileus و « الحاكم

---

(٨٩) وأيضا. Bury, history of the Lat. Rom. Emp. II, p. 292.

(90) Obolensky, Byzantine diplomacy, p. 55.

(91) Id.



المطلق « Autokratn للرومان ، ليرعى المسيحيين جميعا (٩٢) • ولذلك فان هذا التمرد من جانب الدوق الروسى ضد القاعدة الأساسية « للعالمية » Oikoumene كانت مجرد استثناء لا أكثر ، اذ سرعان ما كتب ابنه وخليفته ، باسل ، الى الامبراطور قسطنطين الحادى عشر ، آخر أباطرة بيزنطة قائلا ، « لقد تسلمت سلطانك الامبراطورى العظيم ••• لاقرار المسيحية الأرثوذكسية فى مملكتك ، ولتقدم العون كل العون لنا دنيا ودينا » (٩٣) •

ويكفى أن نرتد على آثارنا قصصا ، عبر ألف ومائة من السنين ، هى الفاصلة بين قسطنطين الأول وسميه الحادى عشر هذا ، لنذكر أن هذا المفهوم عن سلطان الامبراطور « نائب المسيح Vicarius Christi و « عالمية الامبراطورية التى ظلت قائمة حتى القرن الخامس عشر ، كانت واضحة منذ البداية فى القرن الرابع ، تمثلها هذه العبارات التى وردت فى رسائل قسطنطين الأول ، رغم الشكوك حول مسيحيته ، والتى جاء فيها « لقد كنت عدة الرب التى اختارها وقد صلاحها لانقاذ مشيئته ، وعليه •• فانه ابتداء من المحيط البريطانى البعيد ، والأقاليم التى وفقا لقانون الطبيعة ، وتستتر الشمس فيها بالأفق ، وبمدد الهى ، أقصيت تماما وأزلت كل صنوف للشرسادات آملا ، وأداتيتى للرب كثير خطوى ، أن يرعى البشر ناموس الاله المقدس ويزدهر بهدى يديه المقتدرتين معتقدنا الطوباوى (٩٤) ويضيف « ••• بفضل جهدى ، ولأننى لله نعم الخادم ، آمن البرابرة بعبادة الرب ، وماذلك الا لأنهم أيقنوا أنه حافظى وحامينى فى كل خطو ودرب ،

---

(92) Ibid, p. 54.

(93) Id.

(94) EUSEB. Vita Constantini, III 57.



ولأنهم من خشيتنا أدخلوا الى المعرفة الحقة للاله الذى هم الآن  
بعبادته قائمون » (٩٥) •

وقد ساعد على نجاح السياسة البيزنطية فى مهمتها التبشيرية ،  
وبالتالى امتداد نفوذ الامبراطورية الى مناطق جديدة ، أن منطقة البلقان  
كانت تشهد بصفة مستمرة ، موجات اثر موجات من الشعوب الوثنية  
التي تتابعت على المنطقة ابتداء بالعناصر الجرمانية منذ القرن الرابع  
الميلادى ، وانتهاء بالقبائل لتركية والصقلية فى القرون من الثامن الى  
العاشر • وكان فتح المسلمين للولايات البيزنطية فى الشرق ، سوريا  
ومصر وأفريقية ، عاملا هاما جدا فى تخلص الامبراطورية — كارهة —  
من المناطق التي كانت بؤرة الخلافات العقيدية مع القسطنطينية • ثم  
جاء عدم تمكن المسلمين من اسقاط القسطنطينية خلال الحصار الذى  
فرضوه عليها سنة ٧١٧ للميلاد ، نجاحا كبيرا للسياسة التبشيرية  
البيزنطية فى منطقة البلقان ، التي كانت تموج آنذاك بالشعوب الوثنية ،  
التي تحولت تباعا الى المسيحية الأرثوذكسية على يد المشرين  
البيزنطيين • ولاشك أن الخسارة التي منى بها المسلمون أمام  
القسطنطينية الآن ، تفوق بكثير هزيمتهم بعد ذلك بسنوات قلائل فى  
أقصى الغرب على يد شارل مارتل Charles Martel فى موقعة  
بلاط الشهداء ( تور — بواتيه ) ، اذ لو تمكن المسلمون من فتح  
القسطنطينية آنذاك ، لوجدوا تربة خصبة للدعوة للإسلام فى منطقة  
البلقان ، على العكس من فرنسا فى الغرب ومن ورائها ايطاليا • كما  
أن الامبراطورية سرعان ما اجتازت أزمة الحروب الأيقونية التي شغلت  
معظمهم عهد أباطرة الأسرتين الأيزورية والعمودية ، لتنتقل بعد ذلك  
بكامل طاقاتها للتبشير بالمسيحية فى منطقة البلقان ، التي أمست من  
بعد عن طريق العقيدة ، داخله ضمن « عالمية » الامبراطورية ، أو الدوران  
فى فلك نفوذها •



وتجات خطورة الدبلوماسية البيزنطية فى هذه الناحية ،  
باستخدامها تلك المسألة العقيدية سلاحا رفعتة القسطنطينية فى وجه  
كنيسة روما ، التى حاولت أن تجد لها مكانا ، ولعقيدتها الكاثوليكية  
موطىء قدم فى تلك المنطقة • وبلغ الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية فى  
روما ، والكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية ، يساندها الأباطرة ،  
حدا بعيدا أضاف الى الرصيد العدائى بينهما بعدا جديدا ، حتى لقد  
وصل الأمر عند كل منهما الى حد تقديم تنازلات على  
حساب العقيدة أحيانا ولقوانين الكنيسة أحيانا أخرى ،  
لاسترضاء هذه الشعوب • لكن الجولة الأخيرة فى هذا  
الاضطراع كانت لصالح القسطنطينية (٩٦) • وليس أدل على ذلك من  
أنه خلال السنوات الأخيرة من عمر الامبراطورية ، وفى القرن الرابع  
عشر ، عندما خارت قواها ، وغلبها على أمرها أعداؤها ، خاصة السلطنة  
العثمانية الناشئة ، راح بعض من أباطرتها مثل يوحنا الخامس باليوجوس  
ومن بعده ابنه مانويل ، يتوجهون تلقاء الغرب وروما يطلبون العون  
العسكرى ، وكان الثمن فادحا ، يتمثل فى تخليهم عن الأرثوذكسية ،  
العقيدة التقليدية للامبراطورية ، وجوهر « العالمية » المسيحية  
لبيزنطة ، وتحولهم الى الكاثوليكية • رغم أن الغرب لم يقدم شيئا مطلقا  
سوى التمنيات الطيبة !! فى هذه الظروف الحالكة وقفت الكنائس  
البلقانية اتى تدين بالأرثوذكسية ، لترفض اتجاه الأباطرة هذا وتعلن  
تمسكها بعقيدتها التقليدية ، محافظة على التقليد الامبراطورى الجوهري •  
وعندما سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح العثمانى ،  
بدا لأعين الممالك الصقلية ، أن المسئوليات الامبراطورية الرومانية  
والمسيحية قد أُلقيت اليها ، وتزوجت صوفيا Sophia احدى أميرات  
أسرة باليولوجوس من ايفان Ivan الموسكوفى !! •

---

(٩٦) يمكن الاوقوف على تفاصيل هذه الأمور فى :

Ware, The Orthodox Church, Penguin book, 1967.



والآن •• يبدو أن علامة الاستفهام الكبيرة التى كانت تطرح نفسها فى أول الحديث ، قد وجدت لها الآن اجابة مقنعة ، فالدبلوماسية البيزنطية كانت تشكل بلا ريب ، القوة الرئيسية الى جانب الجيش فى الحفاظ على سلامة الامبراطورية طيلة هذه القرون • وكان تنوع أساليبها بين الزواج السياسى والاغداق بالمال والهدايا والألقاب والثياب والأموال ، واستقبال الوفود واستضافة أبناء الحكام الأجانب فى البلاط ، واستخدام الواقعية بين القبائل ، واقامة الدول الحاجزة على الحدود الطويلة للامبراطورية ، ولتبشير بالمسيحية بين الشعوب الوثنية ، دليلا عمليا على قدرة صانعى السياسة البيزنطية على التمكين للامبراطورية عبر ألف ومائة من السنين • ومع الحفاظ على قواعد الدبلوماسية فى جوهرها ، الا أن المرونة كانت أهم سماتها • واذا كان الجيش هو الذراع القوية للامبراطور البيزنطية ، فلا شك أن الدبلوماسية كانت ذراعها الطويلة !



## المصادر والمراجع

### أولا : المصادر

- AGATHIAS, Historia, ed. Dindrof, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn 1828.
- ANNA COMNENA, Alexiad, trans. by E.A.S.Dawes, London, 1967.
- ATHANASIUS, Apologia ad Constantium, in Nicene and post Nicene Fathers of the Christian Church, ed. by Philip Schaff and Henry Wace, Vol IV, Michigan 1891.
- CONSTANTINUS VII PORPHYROGENITUS,  
De Administrando Imperio, trans. by R.J.H. Jenkins, Budapest 1949.
- EUSEBIUS, Vita Constantini, in Nicene Fathers, Vol. I. pp. 481-559, Michigan 1891.
- EVAGRIUS, Historia Ecclesiastica, Londin 1854.
- IULIANUS, epistola ad Basilium, (Basilius, epp. XL) in Nicene Fathers, Vol. VIII, pp. 141-142.
- IUSTINIANUS, Novellae, trad. in Francias par Bereinger fils, Paris, 1811-1812.
- MALALAS, Chronographia, ed. Dindrof, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn 1831.
- MENANDRUS, Excerpta de Legationibus Romanorum, ed. B.G. Niebuhr, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn 1840.
- PROCOPIUS, — De Bello Gothico, trans. by H.B. Dewing New York 1914-1940.  
— Historia Arcana, trans. by G. A. Williamson, London, 1969.
- PSELLUS, Chronographia, trans. by E.R.A. Sewter, Penguin book 1966.
- EOCRATES, Historia Ealesiastica in Wicene Fathen Vol II, 1-178.



## ثانيا : المراجع

- Brooke (Z. N.), A history of Europe from 911-1198, London 1966.
- Bury ( J.B. ), History of the Later Roman Empire, 2 vols. London 1931.
- Cambridge Medieval History, planned by J.B. Bury in 8 vols. Cambridge 1964.
- Cantor (N.), The Medieval World, New York 1968.
- Diehl (Ch.), Byzantium, Greatness and Decline, New Jersey 1957.
- Dvornik (F.), Origins of intelligence Services, New Jersey, 1974.
- Haskins ( Ch. ) The Normans in European history, New York 1966.
- German in 5 Vols. Edinburgh 1972.
- Hefele (C.J.) History of the Councils of the Church, trans. from the German in 5 Vol. Edinburgh. 1972.
- Holmes (W.), The Age of Justinian and Theodora, 2 vols. London, 1912.
- Jenkins (R.) — Byzantium, The imperial centuries, A.D. 610-107. London 1966.
- Confrontation De Administrands Jones (A H M) Empire of the Decline & Ancient world London 1978.
- Later Roman Empire, 5 Vols. Oxford 1964.
- Obolensky (D.), — The Byzantine Commonwealth, eastern Europe, 500-1453, London, 1971.
- The principles and methods of Byzantine diplomacy, in Acts du Xlle Congrès international D'études Byzantines, Ochride 10-16 September 1961, Beograd 1963.
- Ostrogorsky (G.), History of the Byzantine State, trans. by Joan Hussey, Oxford 1956.



Percival (H.R.), The Seven ecumenical Councils, Nicene Fathers, Vol. XIV, Michigan 1891.

Ure (P.N.), Justinian and his Age, Penguin Book 1951.

Vasiliev (A.A.), A history of the Byzantine Empire, 2 vols. Madison and Milwaukee 1964.

- أسد رستم (دكتور) : حرب في الكنائس ، بيروت ١٩٥٨ •
- بيتر ( نورمان ) : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد • القاهرة ١٩٥٧ •
- رأفت عبد الحميد ( دكتور ) : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى وقسطنطين • القاهرة ١٩٨٢ •
- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب ، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط — العدد الثانى — القاهرة ١٩٨٣ •
- السمو البابوى بين النظرية والتطبيق ، مجلة ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، العدد الثالث — القاهرة ١٩٨٥ •
- الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢ ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ — القاهرة ١٩٨٥ •
- رنسيما ( ستفن ) : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٦١ •
- كلارى ( روبرت ) : فتح القسطنطينية ، ترجمة دكتور حسن حبشى القاهرة ١٩٦٤ •
- هسى ( ج.م. ) : العالم البيزنطى ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد القاهرة ١٩٨٤ •



## أسرة برينيوس

### ودورها فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية

د . فايز نجيب اسكندر

أستاذ تاريخ لعصور الوسطى المساعد

كلية الآداب — جامعة بنها

#### مقدمة :

أدت أسرة برينيوس Bryennios دورا بالغ الأهمية فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية . فقد سير أقطابها العديد من الأحداث التاريخية التى كادت تغير مجرى التاريخ البيزنطى وذلك خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى وأوائل القرن الثانى عشر .

وترجع شهرة هذه الاسرة الى ثلاثة من أقطابها . الأول : البطريق<sup>(١)</sup>

---

(١) « بطريق » Patrice من القاب الشرف الرفيعة . لم يكن لحامله وظيفة معينة ، أنعم به أباطرة بيزنطة على زعماء البرابرة مثل ادواكر Odoacre وثيرودوربك Théodoric وفى القرن الخامس الميلادى ، حاول ثيودوسيوس الثانى وزينون قصر استخدام هذا اللقب ، لكن جستنيان أرجعه الى سابق عهده . للتفاصيل انظر : Bréhier Les Institutions de L'Empire Byzantin, Paris, 1949, pp. 102-103; Bury, The Imperial Administrative System, London, 1911, pp. 20-36, 121-124.



برينيوس الذى ألحق الهزائم بالبشناك<sup>(٢)</sup> petchénegues  
فى ثلاثة مواضع ، ووضع بذلك حدا لاغاراتهم على الامبراطورية  
البيزنطية خلال عامى ١٠٥١ و ١٠٥٢م<sup>(٣)</sup> . ثم شارك بعد ذلك فى قتال  
الأتراك السلاجقة فى الشرق<sup>(٤)</sup> . الا أن نجمه الساطع أفل فى عهد

(٢) « البشناك » Petchenègues أجناس تركية ( انظر ابن  
خراداذبة : المسالك والممالك — نشردى غوية — ليدن ١٨٨٩ ، فى ٣١ )  
أقاموا شمال الامبراطورية البيزنطية . وفى سنة ١٠٤٨م ، عيروا الدانوب  
واغاروا على اقاليم الامبراطورية البيزنطية حتى أصبح لهم اثر كبير فى  
مصريها . وقد عرف البيزنطيون البشناك منذ القرن التاسع الميلادى حين  
استقرت جموعهم من الشعوب التركية فى الدانوب الأدنى وفى سهول جنوب  
روسيا الحالية ، وهكذا ، امتدت اراضيهم من الدانوب الأدنى حتى ضفاف  
نهر الدنيبر بل أحيانا اتسعت لتشمل ما وراء ذلك النهر . وكان البشناك  
يضطرون دائما الى الاتجاه غربا نتيجة ضغط قبائل رعوية أخرى من الغز  
والكومان وفى كتاب « ادارة الامبراطورية البيزنطية » الذى ألفه الامبراطور  
قسطنطين بورفيروجينيتوس ، ينصح الامبراطور البيزنطى ابنه وولى عهده  
رومانس بالحرص على العلاقات الودية السلمية مع البشناك ، ونستخلص  
أيضا من هذا المصدر الهام أن البشناك كانوا وسطاء فى العلاقات التجارية  
بين الأقاليم البيزنطية فى كريما Crimea — ثغر خرسون Cherson  
— ومع الروس والخزر وسكان البلاد المجاورة . ويتضح من ذلك أن البشناك  
كان لهم أهمية كبيرة للامبراطورية البيزنطية سياسيا واقتصاديا . انظر  
حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية — القاهرة ١٩٨٣ —  
ص ١٧٧ — ١٧٨ ، محمد عبد المولى : ينومرادس الكلابيون فى حلب وشمال  
الشام — الاسكندرية ١٩٨٥ — ص ١٢٨ ، حاشية رقم ١ . ولزيد من  
التفاصيل انظر :

Grousset, L'Empire des Steppes, Paris, 1939, pp. 238-242.

(3) Georgius Cedrenus Ioannis Scylitzae Opē Suppletus et  
emendatus, éd. Bekker,

II, C.S.H.B., Bonn, 1839, pp. 603-604; Michaelis Attaliotae Historia,  
éd. Bekker, C.S.H.B., Bonn, 1853, pp. 33-37.

(4) Sylitzes-Cedrenus, p 611. Cf. Schlumberger, L'époée By-  
zantine à la fin du Xe siècle, Paris, 1905, t. III, pp. 654-755.



الامبراطورة ثيودورا<sup>(٥)</sup> ( ١٠٥٥ — ١٠٥٦ ) ، اذ صادرت أملاكه ونفقه سنة ١٠٥٥م<sup>(٦)</sup> . ثم عاد ثانية الى مسرح الأحداث فى عهد خليفته ميخائيل ستراتيوتيكوس<sup>(٧)</sup> ( ١٠٥٦ — ١٠٥٧م ) Michel le Stratiotique الذى استدعته من منفاه ليضع حدا لاغارات الأتراك السلاجقة<sup>(٨)</sup> . لكنه سرعان ما انخرط فى صفوف رفاقه الثائرين على الامبراطور ميخائيل وذلك سنة ١٠٥٧م<sup>(٩)</sup> . وانتهى به المطاف بأن سملت عيناه ، وأرسل مقيدا بالاصفار الى العاهل البيزنطى<sup>(١٠)</sup> .

ثم يظهر بعد ذلك فى الافق ابنه نقفور<sup>(١١)</sup> Nicephore الذى تألق نجمه خلال عهد رومانوس الرابع ديوجينيس ( أول يناير

---

(٥) « ثيودورا » هى شقيقة زوى ، وابنه قسطنطين الثامن . حكمت من ١٠٥٥ الى ١٠٥٦م . للتفاصيل انظر :

Psellos. Chronographie, 9 16-1077, tr. E. Renault, Paris, 1928, t. I, pp. 107 sqq.

(6) Skyltzes-Cedrenus, p. 611. Cf. Bréhier, Le Schisme Oriental du XIe siècle, Paris, 1899, pp. 74-81; Vie et Mort de Byzance, Paris, 1969, p. 219.

(٧) للتفاصيل عن الامبراطور ميخائيل ستراتيوتيكوس ( ١٠٥٦ — ١٠٥٧م ) انظر : Skyltzes-Cedrenus, p. 612. Ioannis Zonarae epitomae Historiarum, libri XIII-XVIII, éd. T. H. Butner-Wobst, III, C.S.H.B., Bonn, 1897, XVII, p. 29; Psellos, Discours et Correspondance, éd. Sathas, B.M.A., 1874-1876, VI, bis, pp. 19-21. Cf. Schlumberger, III, 763-767.

(8) Skyltzes-Cedrenus, p. 616.

(9) Skyltzes-Cedrenus, pp. 619-621; Attaliates, p. 56. Cf. Bréhier, Le Schisme Oriental, pp. 254-255.

(10) Shylitzes-Cedrenus, p. 621.

(١١) لمزيد من التفاصيل عن نقفور انظر :

Anne Comnene, Alexiade, tr. Leib, Paris, 1937-1945, t. I, pp. 17-



١٠٦٨-٣٦ أغسطس ١٠٧١م)؛ حتى أن الامبراطور البيزنطي<sup>(١٢)</sup> اعتبره شقيقه بالتبني<sup>(١٣)</sup> ، وأسند اليه قيادة الجناح الايسر للجيش البيزنطي أثناء معركة ملاذكرد<sup>(١٤)</sup> في السادس والعشرين من أغسطس سنة

(١٢) توج القائد البيزنطي رومانوس ديوجينيس امبراطورا في يناير سنة ١٠٦٨م عقب زواجه من الامبراطورة ايدوسيا أرملة الامبراطور قسطنطين دوقاس . واعتبر تربيته على عرش الامبراطورية البيزنطية انتصارا لطبقة الارستقراطية العسكرية وهزيمة للبيروقراطية المدنية . وكان رومانوس قائدا بارعا ، اذ أكسبته انتصاراته في الحرب ضد البشناك في البلقان شهرة واسعة النطاق . لذا قال عنه المؤرخ نقفور برينيوس انه كان ثاملا نتيجة انتصاراته السابقة التي ملأته بالتكبر والغطرسة . انظر :

Bryennios, Les Quatre Livres des Histoires, tr. p. Gautier, Bruxelles, 1975, ch. XIII, p. 106; tr. H. Grégoire, ch. XIII, p. 488; Aristakès, Histoire des Malheurs de la Nation Arménienne, tr. M. Canard, Bruxelles, 1973, ch. XXV, p. 125 Cf. Rice, Byzantium, London, 1969, pp. 89 sqq.

(13) Aexiade, II, p. 196.

(١٤) سقطت ملاذكرد في قبضة الأتراك السلاجقة سنة ١٠٦٨م /

٤٦١هـ . ( للتفاصيل انظر : Matthieu

D'Edesse, Chronique, tr. Dulaurier, Paris, 1858, ch. LXXXVIII, pp. 101-102; Aristakès, pp. 85 - 86 ; Arisdaguès de Lasdiverd, Histoire D'Arménie, tr. Prud'homme, Paris, 1864, pp. 99-100.

وتقع ملاذكرد في أرمينية الى الشمال من بحيرة وان . وقد اختلفت تسميتها في المصادر الاسلامية اختلافا شديدا ( عن تسميتها في المصادر الاسلامية انظر : فايز نجيب اسكندر : البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد - الاسكندرية ١٩٨٤ - ص ٦٢ - ٦٣ ، حاشية رقم ٦٦ ، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة - الاسكندرية ١٩٨٣ - ص ١٩٢ - ١٩٣ ، حاشية رقم ٣٤١ ) . أما المصادر البيزنطية ، فقد أجمعت على تسميتها « منزيكرت » وأحيانا « منزيكيت » ( انظر

Psellos, II, p. 162; Attaliatès, p. 116. Zonaras, p. 697.

وإذا انتقلنا الى المصادر الأرمينية ، فقد أوردتها على شكل « منازكرت » انظر :

Mathieu, pp. 99-102; 163-167; 405 n. 2, Aristakès, pp. 6, 75-76; -81-83 ; 87, 126).



١٠٧١م (١٥) • وفي أكتوبر من عام ١٠٧٧م ، ترغم وثقيقه حنا الثورة على الامبراطور ميخائيل السابع دوقاس (١٦) (١٠٧١ — ١٠٧٨م) Michel Ducas ، الا أن الرياح أتت بما تشتهي السفن ، فبدلاً من تربعه على عرش الامبراطورية البيزنطية ، انتهت ثورته ، ولقى مصير والده بأن سـمـلت عيـناه (١٧) • أما شقيقه حنا ، فقد اغتيل بضربة خنجر (١٨) •

وقد أجمع المؤرخون المحدثون على اسم « منتزيرت » انظر :

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, 1958, II, p. 356; Brehier, Vie et Mort de Byzance, pp. 231-233; Cahen, La campagne de Mantzikert, dans Turcobyzantina, London, 1974, fasc. II, pp. 628-642.

(١٥) عن اختلاف المصادر والمراجع في تحديد تاريخ معركة ملاذكرد انظر :

Bryennios, tr. Gautier, p. 117, n. 9. Cf. Grousset, Histoire de l'Arménie, Paris, 1973, p. 628, Laurent, Byzance et les Turcs Seldioudes, Paris, 1919, p. 43, n. 10; Honigmann, Die Ostgrenze des Byzantinischen Reiches von 363 bis 1071, Bruxelles, 1935, p. 180.

انظر أيضا : فايز نجيب اسكندر : البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد ، ص ٩٩ ، حاشية رقم ١١١ •

(١٦) قام جيش نقفور برينيوس بتتويجه امبراطورا على الامبراطورية البيزنطية في تراجانوبوليس Trajanopolis في الثالث من أكتوبر سنة ١٠٧٧م ، للتفاصيل المطولة انظر :

Bryennios, III, 4-10, Skylitzes.

Cedrenus. p. 727; Zonaras, XVIII, p. 17; Alexiade, I, p. 4.

(17) Bryennios, IV, pp. 2-4 et 28; Attaliates, pp. 285 sqq. : Skylitzes-Cedrenus, pp. 735-737; Alexiade, I, pp. 4-6. Cf. Chalandon, Essai sur le règne d'Alexis Comnène, Paris 1900, pp. 36-37.

(18) Bryennios, IV, Ch. XVIII, p. 284.



ثم يأتى فى نهاية المطاف القطب الثالث والأخير ، القيصر المؤرخ  
 نففور برينيوس<sup>(١٩)</sup> ، مؤلف كتب التاريخ الأربعة<sup>(٢٠)</sup> *Historiaum*  
*Libri Quattuar* ، وزوج الأميرة آن كومنين ، ابنة  
 الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين ( ١٠٨١ — ١١١٨ م ) • وقد  
 انخرط نقفور الى جانب صهره فى العديد من المعارك<sup>(٢١)</sup> • وشاء القدر  
 أن يحول بينه وبين الوصول الى عرش الامبراطورية البيزنطية خلفا  
 لألكسيس كومنين ورغم استماتة آن كومنين ووالدتها ايرين دوكاينا  
*Irène Doukaina* فى اقناع الامبراطور بذلك • الا أنه عين ابنه  
 الاكبر حنا كومنين خلفا له<sup>(٢٢)</sup> •

---

|| (١٩) لمزيد من التفاصيل عن أسلوب المؤرخ برينيوس فى الكتابة  
 التاريخية انظر :  
*Segger, Byzantinische Historiker des Zehnten und elften Jahrhunderts. I. Nicephoros Bry-*  
*ennies. Eine philologisch-historische Untersuchung, Munich, 1888,*  
*pp. 59-82.*

|| (٢٠) تعد الترجمة الفرنسية التى أعدها العالم الفرنسى بول جوتيه  
*Paul Gautier* أفضل واكمل ترجمة لهذا المصدر التاريخى الهام  
 الذى يعد أهم مصادر تاريخ الامبراطورية البيزنطية فى الفترة من ١٠٧٠ الى  
 ١٠٧٩ م ( انظر :  
*Nicephore Bryennios, Les Quatres livres des Histoires Bruzelles,*  
*1975).*

وتأتى بعدها ترجمة أعدها العالم هنرى جويجوار • ولا شك أن بول  
 جوتيه استفاد كثيرا من ترجمة هنرى جريجوار ، الا أنه صحح الكثير من  
 الأخطاء الواردة بها وبغيرها .. انظر :

*Nicephore Bryennios, Les Quatre livres des Histoires, tr. Henri*  
*Grégoire, dans Byzantion, 23, 1953, pp. 469-530, livres I-II, et By-*  
*zantion, 27, 1957, pp. 881-926, livres III-IV.*

(21) *Alexiade, pp. 202, 205.*

(22) *Nicetae Choniata, Historia, éd. Bekker. C. S. H. B., Bonn,*  
*1835, p. 9.*



## المصادر التي أشارت الى أسرة برينيوس :

وبعد تسليط الأضواء السريعة على أهم أقطاب هذه الأسرة الشريفة ،  
نلاحظ أن المصادر أشارت الى أهميتها فى سياق حديثها عن تاريخ  
الامبراطورية البيزنطية • ويعد مصنف القيصر المؤرخ نقفور برينيوس  
أهم المصادر على الاطلاق ، اذ زودنا بالتفاصيل المطولة لمعركة ملاذكرد  
سنة ١٠٧١م نقلاً عن جده الذى كان من بين الذين نسجوا مع العاهل  
البيزنطى رومانوس الرابع خيوط الهزيمة الساحقة التى منى بها الجيش  
البيزنطى على يد لأتراك السلاجقة ، اذ كان جده — المدعو نقفور  
برينيوس ايضا — قائد الجناح الأيسر البيزنطى • لذا ، امتاز مصنف  
نقفور برينيوس بتزويدنا بتفاصيل التكتيكات الحربية وفنون الحرب  
لدى الطرفين المتصارعين (٢٣) ، فاضحت روايته أكثر حيوية من روايات  
غيره من المؤرخين المعاصرين مثل بسيللوس Psellos الذى اكتفى  
بتزويدنا بأسطر لا تتعدى أصابع اليد عن معركة فاصلة فى تاريخ  
العصور الوسطى عامة وتاريخ الامبراطورية خاصة (٢٤) • ومع ذلك  
يؤخذ على المؤرخ نقفور برينيوس انحيازه الى جانب جده اذ حاول  
جاهدا أن يبعد عنه كل الشبهات التى تسيء الى سمعته كقائد عسكرى  
عظيم • فعلى سبيل المثال لا الحصر ، ذكر كل من ميخائيل أطليلاس  
Michaelis Attaliotae والمؤرخ المكمل لحولية سيلتزر  
Skylitzes أن الامبراطور رومانوس أرسل القائد نقفور برينيوس  
لقتال كتيبة سلوجوقية بقيادة صندق ، لكنه لم يوفق فى عملياته الحربية ،

---

(٢٣) للتفاصيل التحليلية الدقيقة عن معركة ملاذكرد فى « كتب التاريخ  
الاربعة » انظر فايز نجيب اسكندر : البيزنطيون والاتراك السلاجقة فى  
معركة ملاذكرد ، ص ١٢ — ١٠٠ .

(٢٤) تحدث المؤرخ البيزنطى بسيللوس عن الامبراطور البيزنطى  
رومانوس الرابع أكثر من حديثه عن معركة ملاذكرد . انظر :

Psellos, II, pp. 161-162.



فمنى جيشه بهزيمة ساحقة وجرح هو أيضا أثناء القتال ، فأسرع بطلب  
نجدات من العاهل البيزنطى ، فأرسل اليه القائد نقفور بازيلاكس (٢٥)

Nicephore Basilakes ونصحبته كتيبة بيزنطية كبيرة •

فانقض بازيلاكس على الأتراك السلاجقة انقضاضا ، ونجح فى اجبارهم  
على الفرار • الا أن برينيوس سلك مسلكا سلبيا ، اذ لم يزحف بجيشه  
فى ركاب جيش بازيلاكس لىقاتلا معا الأتراك السلاجقة • وبذلك تخاذل  
عن قتال الأعداء ونجده بازيلاكس رفيقه فى السلاح (٢٦) • ازاء هزم  
الأحداث التى تلوث ثوب أحد زعماء الاسرة ، تعدد برينيوس خلط  
الوقائع رأسا على عقب • فأظهر بازيلاكس بمظهر القائد الذى منى  
جيشه بالهزيمة وأن نقفور برينيوس أسرع لنجدته (٢٧) •

على أية حال لم تكن أسرة برينيوس هى الأسرة الوحيدة التى  
حظيت بانحياز نقفور برينيوس ، فأسرة دوقاس نالت هى أيضا شرف  
هذا الانحياز • فعلى الرغم من اجماع كل من اطاياطس والمؤرخ المكمل  
لحوالية سكيلتز وزونوراس Zonaras على خيانة أندرونيك دوقاس أثناء

---

(٢٥) كان الماجسترون نقفور دوقا على ثيود وسيوبوليس ( انظر :  
Attaliates, p. 155; Skylitzes Continué, p. 154, Zonaras, p. 697).

وقد سقط أسيرا فى قبضة الاتراك السلاجقة أثناء معركة ملاذكرد  
انظر : Attaliates, p. 165; Skylitzes Continué, p. 152).

وثار فيما بعد على ميخائيل السابع ( ١٠٧١ — ١٠٧٨ م ) وعلى بوتانياس  
( ١٠٧٨ — ١٠٨١ م ) انظر :

: Attaliates, p. 155; Skylitzes Coninué, p. 154 :  
Zonaras, 697. Cf. Lauren, Byzance et les Turcs Seldjoucides, p. 62,  
n. 3.)

وللتفاصيل المطولة عن ثورته انظر :  
Bryennios, tr. Gautier, pp. 216, 284-287, 290-298.

(26) Attaliates, pp. 154-155, Skylitzes Cintinué, pp. 145-146.

(27) Bryennios, tr. Gautier, I, ch. XV, pp. 110-112; TR. H. Gré-  
goire, pp. 491-492.



معركة ملاذكرد ، اذ انه أشاع خبرا مفاده أن الامبراطور البيزنطي انسحب من ساحة الوغى ، بل أن اندرونيك أسرع بالانسحاب من ساحة القتال<sup>(٢٨)</sup> . على الرغم من هذه التصرفات المشينة ، لم يلصق نقفور برينيوس هذا الاتهام لاندرونيك ، لأنه يمت بصلة قرابة لأسرته ، لذلك عمل على ابعاد كل الشبهات عن آل دوقاس ، كما فعل تماما مع جده نقفور برينيوس ورفيق جده في السلاح جوزيف ترخانيوتس<sup>(٢٩)</sup> .  
Joseph Tarchaniotes

ولا يفوتنا في هذا المقام ذكر الاهمية البالغة « لكتب التاريخ الاربعة » بصدد ثورة نقفور برينيوس ، اذ يعد المصدر الأساسى الذى سلط الأضواء الساطعة على زعيمى الثورة نقفور برينيوس وشقيقه حنا ، غفاق فى سرده كافة المصادر البيزنطية الأخرى لصلة الدم التى تربطه بزعيم الثورة وكونه شاهد عيان ومعاصر لأحداثها<sup>(٣٠)</sup> .

وهكذا يمكننا القول أن مصنف نقفور برينيوس يعتبر أهم المصادر

---

(28) Attaliates, p. 161-162; Skylitzes Continué, pp. 148-149; Zonaras, p. 701.

(٢٩) فى جروسية Grousset جوزيف تراخانيوتس Trakhaniotes وصحتها ترخانيوتس Tarchaniotes (Histoire de : انظر : l'Arménie, p. 627. . وجوزيف ترخانيوتس كان من أصل كرجى ، وهو والد كتاكالون Katakalon وايلين تراخانيوتس : للتفاصيل عن هذه الاسرة انظر : Lemerle, Actes de kutlumis, Paris, 1945, p. 145; Gautier, Etude Prosonographique, R.E.B., 29, 1971; pp. 254-255, Polemis, The Doukai, Londres, 1968, p. 183.

وقد تخلى القائد العسكرى جوزيف ترخانيوتس عن مناصرة العاهل البيزنطى رومانوس عقب هزيمة ملاذكرد سنة ١٠٧١م وشغل منصب حاكم أنطاكية منذ عام ١٠٧٢ حتى عام ١٠٧٤م ( انظر :

Laurent. La Chronologie des Gouverneurs d'Antioche, Mélanges de l'université Saint-Joseph, 38/10, 1962, p. 249.

(30) Bryennios, III, ch, V, pp. 217 Sq.



البيزنطية على الاطلاق التي زودتنا بأدق التفاصيل عن احوال الامبراطورية البيزنطية فى الفترة من ١٠٧٠ الى ١٠٧٩م<sup>(٣١)</sup> الى جانب كونه المصدر الأساسى لدراسة سير أقطاب أسرة برينيوس • الا أن هناك مصادر بيزنطية أخرى زودتنا بمعلومات منصفة عن هذه الاسرة ولكنها أقل غزارة فى مادتها العلمية أهمها مصنفات أطيالطس والمؤرخ المكمل لحولية سكيلتز وزونوراس وآن كومنين زوجة نقفور برينيوس القيصر المؤرخ ، وان كان يؤخذ على آن كومنين هى أيضا انحيازها الكامل لأقطاب أسرة برينيوس •

### المراجع التى أشارت الى أسرة برينيوس :

هذا عن أهم المصادر البيزنطية التى تحدثت فى سياق سردها التاريخى عن اسرة برينيوس • واذا انتقلنا الى المراجع لغربية ، نلاحظ أنها لا تتعدى أصابع اليد هى أيضا • فقد زودنا المؤرخ الالماني سيجر Seger يبحث عن نقفور برينيوس المؤرخ عنوانه

«Byzantinische Historiker des Zehnten und elften Jahrhunderts. I.

Nicephoros Bryennies. Eine Philologisch-Historische Untersuchung Munich 1888.

اما المؤرخ الايطالى كاريل Carile ، فقد زودنا بثلاثة مقالات بعنوان

«Il problema della identificazione del Cesare Niceforo Briennio,

Aevum, 38 3 I-II, 1964, pp. 74- 83.»

تناول فيه مشكلة تحديد شخصية القيصر نقفور برينيوس من بين أشخاص يحملون نفس الاسم واللقب وينتمون لنفس هذه الاسرة • وبعد

---

(31) Vasiliev, Histoire de L'empire Byzantin, Paris, 1932 t. II. p. 147.



أن تمكن ( كاريل ) من تحديد شخصية القيصر نففور برينيوس تحدث عنه حديثاً مفصلاً في مقالين بعنوان

Il «Cesare Niceforo Brienio, Aevum, 423 V-VI, 1968. pp. 429-454; Aevum, 43, 1969, pp. 56-87.

ثم يأتي في نهاية المطاف بحث بالفرنسية لسوزان ويتك دي جونج Suzanne Wittek-De John. في صفحات لا تتعدى

الخمس ، عن « القيصر نففور برينيوس ، المؤرخ وأسلافه »

L'Historien et ses ascendants, «Le César Nicéphore Bryennios.

Byzantion, 25, 1953, pp. 463-468».

وبعد استعراضنا للمصادر البيزنطية والمراجع الاجنبية التي سلطت الأضواء على أسرة برينيوس ، نلاحظ أن المراجع العربية لم تتحدث عن أقطاب هذه الاسرة الا في سطور لا تتعدى أصابع اليدين ، وذلك عند عبورها العابر على ثورة نففور برينيوس سنة ١٠٧٧م ، بل أن الكثير منها مر على هذه الثورة مر الكرام ولم يشر اليها بكلمة واحدة . لذا ، تعتبر هذه الدراسة اضافة جديدة الى المكتبة العربية بصفة عامة ، ومكتبة التاريخ البيزنطى على وجه الخصوص .

مسقط رأس أسرة برينيوس :

وبعد لمحتنا السريعة عن أقطاب أسرة برينيس ، وأهم مصادر ومراجع هذه الدراسة التي سنفصلها ، نلاحظ اجماع المؤرخين البيزنطيين على أن هذه الأسرة قروية وعريقة في الأصل ، موطنها اصلى مدينة أدرنة في آسيا الصغرى فقد أشار أطلالطس الى أن القائد برينيوس الذى تزعم ثورة ١٠٥٧م كان من أدرنة (٣٢) . أما زونوراس ،

---

(32) Attaliates, p. 53.



فقد أشار هو أيضا عند حديثه عن بدايات هذه الثورة الى أن كانت  
 الموطن الأصلي لهذا التأثير (٣٣) • كذلك أورد خونيات Nocetae  
 Choniate فى مصنفه « التاريخ » Historia أن الامبراطور  
 البيزنطى الكسيس كومنين ( ١٠٨١ — ١١١٨ ) رفض تعيين « المقدونى »  
 — أى القيصر والمؤرخ نقفور برينيوس — خلفا له على عرش  
 الامبراطورية (٣٤) • وأخيرا ، أكدت المؤرخة آن كومنين — ابنة الكسيس  
 كومنين وزوجة المؤرخ نقفور برينيوس — أنه عشية حصار أدرنة على  
 يد الكومان (٣٥) فى أوائل عام ١٠٩٥م ، أسند الامبراطور البيزنطى  
 أمور الدفاع عنها الى مواطنيها • وكان أبرز هؤلاء كاتاكالون  
 ترخانيوتس (٣٦) Katakalon Tarchaniotes ونفور برينيوس (٣٧) •

### أسرة برينيوس فى القرن التاسع الميلادى :

على اية حال ، يرجع ذكر أسرة برينيوس لأول مرة فى المصادر  
 البيزنطية الى القرن التاسع الميلادى • اذ جاء فى سيرة القديس

(33) Zonaras, p. 716.

(34) Choniate, p. 9.

(٣٥) « الكومان » من القبائل التركية التى خدمت كمرتزقة فى الجيش  
 البيزنطى . انظر عن ذلك

Setton, History of the Crusades, Philadelphia, 1958, t. I, pp,  
 215, 261, 354, sqq.

(٣٦) « كاتاكالون ترخانيوتس » هو ابن جوزيف ترخانيوتس ( عن  
 جوزيف ترخانيوتس انظر حاشية رقم ٢٩ من هذا البحث ) . شغل منصب  
 حاكم انطاكية حتى اواخر عام ١٠٧٧م ، وزوج آنذاك شقيقته ايلين بابن  
 التأثير نقفور برينيوس ( انظر Bryennios, III, ch, VII, p. 224 )  
 ونجح فى رد هجمات الكومان عن أدرنة فى أوائل عام ١٠٩٥م انظر :

Alexiade, II, p. 194.

(37) Alexiade, II, p. 104. Cf. Chalandon, Alexis, pp. 151-154,  
 Bréhier, Vie et Mort de Byzance, pp. 251-252.



ايفارست (٣٨) Evariste أن أول من حمل لقب برينيوس كان في نهاية حكم الامبراطور ثيوفيل (٣٩) (٨٢٩ — ٨٤٢ م) وذلك حوالى عام ٨٤٠ — ٨٤١ م • لقد ورد في هذا المصدر أن الشاب سرج Serge البالغ ما يناهز العشرين عاما ، ذهب بصحبة والده الى القسطنطينية في السابع عشر من ابريل سنة ٨١٩ م • ولم يرد في سيرة ايفارست مبررات هذه الزيارة ، بل اقتصر النص على الاشارة الى أن الوالد وابنه قاما بزيارة كنائس وأديرة العاصمة البيزنطية ، وأنه أثناء اقامتهما بها ، أستضافهما أحد كبار الموظفين من النبلاء ويدعى برينيوس • وكان برينيوس هذا رجلاً مشهوراً ذائع الصيت ، تم تكريمه فيما بعد بأن أنعم عليه بلقب بطريق (٤٠) ، وكان على صلة قرابة بسرج ووالده (٤١) •

ويمرور الزمن ، عاد والد سرج الى داره في غلاطية (٤٢) Galatie ، تاركا ابنه في رعاية قريبه برينيوس الذى أعجب بذكائه وحسن سلوكه واستعداده الفطرى ، فحظى برعايته الخاصة وحبّه وتقديره له • وكافأه بأن جعله أول خادم فى بيته • وقد توافق هذا العمل مع ميول سرج بسبب تدينه الشديد •

---

(٣٨) كان القديس ايفارست ابن شقيق برينيوس • انظر :

Bryennios, tr. Gautier, p. 12.

(٣٩) أخطأ « بوليميس » حين قال أن برينوس هذا كان معاصرا لعهد الامبراطور البيزنطى ليون الثالث (٧١٧ — ٧٤١ م) • وصحة ذلك كما اثبتنا •

انظر : Polemis, The Doukai, p. 112.

(٤٠) عن لقب بطريق أنظر الحاشية الاولى من هذا البحث •

(41) C. Van De Vorst. La Vie de St. Evariste, dans An. Bollandiana, 41, 1923. p. 300.

(٤٢) عنها أنظر :

Bouillet, Dictionnaire Universel dlhistoire et de Géographie, Paris, 1871, p. 719.



وفى تلك الاثناء توفى الامبراطور ثيوفيل فى العشرين من يناير سنة ٨٤٢م ، وانتقلت مقاليد الحكم الى زوجته ثيودورا . فكلفت الامبراطورة برنينوس هذا بسفارة الى بلاد البلغار ، واضطر سرج أن يسير فى ركاب حاميه وعائله وقريبه . وهناك أعجب سرج بحديث الناس عن حياة الديرية والرهبة ، مما أيقظ شعوره الدينى وميله الى هذه الحياة . فضلا عن ذلك أهداه أحد سكان هذه البلاد أثناء الرحلة كتابا عن حياة القديس أفرايم السريانى <sup>(٤٣)</sup> Saint Ephrem le Syrien فتأثر الشاب تأثرا بالغا حين قرأ فصلا يتحدث عن يوم الحساب ، حتى أنه قرر هجرة أصدقائه وذويه والانضمام الى جماعة الرهبان المنعزلين فى الجبل المجاور <sup>(٤٤)</sup> .

لقد أحاطتنا المصادر البيزنطية علما بأنه باعلاء ثيودورا عرش الامبراطورية ، التجأ تزار بلغاريا Tzar de Bulgarie الى مناورة التخويف . فبمجرد علمه بأن عرش الامبراطورية تشغله امرأة ، أرسل الأمير بوريس Boris برسله الى الامبراطورة الجديدة يخبرها

---

(٤٣) هو أبو الكنيسة السريانية . ولد القديس افرايم فى نصيين حوالى عام ٣٢٠م وتوفى عام ٣٧٩م . له العديد من المصنفات الدينية خاصة تلك التى هاجم فيها معتقدات الهراطقة . كتب مؤلفات بالسريانية وترجمها الى اليونانية جيرار فوسيوس Gérard Vossius وذلك فى ثلاثة مجلدات مخطوطة بين أعوام ١٥٨٩ و ١٥٩٧م . ثم قام اسيمانى Assemani بترجمة مؤلفات القديس افرايم الى اللاتينية وذلك بين أعوام ١٧٣٢ و ١٧٤٦م . ثم ظهرت ترجمة فرنسية سبقتها أرمنية . للتفاصيل انظر :

Bouillet, Dictionnaire, p. 607.

(44) Van de Vorst, La Vie de St. Evariste, p. 300. Cf. F. Halkin, Un ermite des Balkans au XIV esiecle, dans Byzantion, 31, 1861, p. 129, n. 2.



بأنه سيناصبها العداء ، وسيعاود الحرب إذا لم تعلن خضوعها له • لكن  
ثيودورا رفضت بصرامة تهديدات العاهل البلغاري (٤٥) •

ثم يقابلنا بعد ذلك في القرن التاسع الميلادي أيضا شخصا ثانيا  
يحمل لقب برينيوس ، يشغل وظيفة ستراتيجوس (٦٤) *Stratège*  
ثيم دلماشيا (٤٧) *Dalmatie* • ولما كان هذا الثيم قد أنشأ في  
النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي فيما بين عامي ٨٥٦  
و ٨٩٩ م (٤٨) ، فمن المحتمل أن يكون برينيوس هذا هو البروتسباتير

---

(45) Theophane Continué, p. 162; Skylitzes - Cedrenus, p. 15 I, Zonaras, p. 387.

وقد أدرجت المصادر البلغارية هذه الاحداث تحت عام ٨٥٢م انظر :

Runciman. A History of the First Bulgarian Empire, Londres, 1930, p. 90.

(٤٦) الستراتيجوس هو قائد الاقليم الاداري والعسكري • وكان  
البيزنطيون يطلقون على كل اقليم اسم « ثيم » • وللستراتيجوس جنـد  
خاص به يشكلون حرصه الشخصي ، اطلق على هؤلاء « رجاله » •  
والستراتيجوس بمثابة نائب الامبراطور في اقليمه ، مسئول عن أمنه  
وادارته • وكانت الامبراطورية البيزنطية مقسمة الى ثيمات أسبوية في  
آسيا الصغرى ، وثيمات أوروبية في شبه جزيرة البلقان ( للتفاصيل انظر  
(Bréhier, Les Institutions, pp. 360 - 362) وإذا كان للثيم البيزنطي  
أهمية كبيرة ، كان يسمى قائده « دوق » بدلا من ستراتيجوس • انظر :

Guilland, Recherches sur les Institutions Byzantines, Berlin, 1967, t. I. p. 392; Oikonomides, L' Organisation de la Frontière Orientale de Byzance au XI e siècle CIEB, 14, 1971, pp. 73 - 90.

انظر أيضا نعيم فرح : تاريخ بيزنطه — دمشق ١٩٧٨ — ص ٢٢٤ •

(٤٧) عنها انظر :

Bouillet, Dictionnaire, pp. 491 - 492.

(48) Constantine Porphyrogenete, De Thematibus, éd. Pertusi, Cité du Vatican, 1952, pp. 40 - 43.



(الصدر الأعظم) Protospathaire ثيوكتست<sup>(٤٩)</sup> • Théoctiste

أسرة برينيوس فى القرن العاشر الميلادى :

( أ ) البطريق برينيوس :

الا أن آل برينيوس بعثوا من جديد ، وعادوا الى ماضيهم المشرق  
ثانية ، وذلك خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، اذ قاموا بدور بارز  
— كما سيتضح فيما بعد — فى تسيير مجرى الأمور فى الامبراطورية  
البيزنطية • ففى عام ١٠٥٠ م ، قرر الامبراطور البيزنطى قسطنطين  
مونوماك ( ١٠٤٢ — ١٠٥٥ م ) وضع حد لاغارات البشناك المستمرة على  
تراقيا • تحقيقا لهذا الهدف ، حشد جيشا من المرتزقة بلغ عشرين ألف  
مقاتل من الفرنج والورنك Varangues وفرسان من آسيا ،  
أسند قيادته الى البطريق برينيوس<sup>(٥٠)</sup> الذى اختار مدينة أدرنة مسقط  
رأسه لتكون قاعدة لعملياته الحربية • كذلك تم اسناد ادارة العمليات  
الحربية الى البطريق ميخائيل اكلوثوس Michel Akolouthos •  
وتمكن القائدان من سحق العصابات التى كانت ترتكب جرائم السلب  
والنهب والاختطاف فى جولويه Goloé ثم فى توبلتزوس  
Toplitzos بالقرب من أدرنة • وانتهى الأمر بانكسار جيش أعداء  
الامبراطورية فى خاريوبوليس Charioupolis • وكان الانتصار

---

(49) Bryennios, tr. Gautier, p. 14; Constantine Porphyrogenete  
De Administrando Imperio, éd0 Jenkins, ch. 50, p. 232, Ibidem, t.  
II, Commentary, pp. 185 - 186.

انظر أيضا محمود سعيد عمران : ادارة الامبراطورية البيزنطية —  
بيروت ١٩٨٠ — ص ١٨٥ — ١٨٦ وكذلك :

A. Bon, Le Péloponèses Byzantin Jusqu'en 1204, Paris, 1951,  
p. 47, n. 5 et p. 199.

(٥٠) Skylitzes - Cedrenus, p. 603 وعن الورنك انظر فايز نجيب  
اسكندر : أرمنية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .  
، حاشية رقم ٢٨٧ .



حاسما لدرجة أن هؤلاء البرابرة كفوا عن شن هجماتهم واغاراتهم خلال  
العامين التاليين ، أى خلال عامى ١٠٥١ و ١٠٥٢ م<sup>(٥١)</sup> .

ويظهر اسم البطريق بريننيوس للمرة الثانية فى عهد مونوماك فى  
نهاية عام ١٠٥٤ م ، اذ أسندت اليه قيادة كل الوحدات العسكرية  
المقدونية لقتال الأتراك السلاجقة فى الشرق<sup>(٥٢)</sup> . وحدث أنه عندما علم  
بنبأ وفاة الامبراطور البيزنطى قسطنطين مونوماك فى الحادى عشر من  
يناير سنة ١٠٥٥ م ، انسحب بكل قواته الى خريسوبوليس  
Chrysopolis ، وكان لرجوعه على أعقابها بغير أوامر صادرة اليه،  
آثاره الوخيمة على نجمه الساطع ، اذ تم تأويل تصرفاته هذه على أنها  
عصيان وتمرد على السلطة الامبراطورية . لذا ، قامت الامبراطورة  
ثيودورا التى تولت مقاليد الحكم عقب وفاة مونوماك ، بمصادرة أملاكه  
ونفيه<sup>(٥٣)</sup> . واستمر هذا العقاب أمدا قصيرا ، ففى السابع والعشرين  
من أغسطس سنة ١٠٥٦ م ، أصبح ميخائيل ستراتيوتيكوس  
Michel leStratiotique امبراطورا ، فاستدعى القائد بريننيوس  
من منفاه ، وأوكل اليه حكم قبدوقيا ، وعينه ستراتييجوس أوتوقراطور  
( أى له سلطان مطلق ) لفرق مقدونيا . وكلفه أيضا بوضع حد لاغارات

---

(51) S Kylitzes Cedrenus, pp. 603 - 604, Attaliates, pp, 33 - 37 .

والجدير بالملاحظة أن أطيالطس لم يزودنا باسماء القادة ، بل  
ونستخلص من روايته أن قائد الجيش البيزنطى كان أحد رؤساء اللاتين  
وكان قد سبق له تحقيق بعض الانتصارات . ففى صفحة ٣٣ سطر ١٢ ذكر  
أطيالطس أن اسم هذا القائد اللاتينى هو « هرفى » Hervé . أما  
القيصر برنييرس ، فقد أورد نصا جاء على لسان بوتانياتس ، أشار فيه  
الى اعتزازه بالنصر الذى حققه جده على البشناك . انظر : Bryennios,  
IV, Ch. III, p. 262. وعن تفاصيل هذه الحملة انظر :

A. Bon, Les Petchénègues au Bas - Danube, Bucarest, 1970.  
pp. 74 - 75.

(52) Bryennios, p. 15; Skylitzes - Cedrenus, p. 611.

(53) Skylitzes - Cedrenus, p. 611.



الأتراك السلاجقة • وانتهر برينيوس تلك الفرصة المواتية ليطلب من الامبراطور البيزنطى أن يعيد اليه أملاكه التى كانت ثيودورا قد صادرتها من قبل • لكن الامبراطور ميخائيل لم ير يرضخ لمطلبه ، فكظم برينيوس غيظه ، وانتهر الفرصة المواتية للانتقام<sup>(٥٤)</sup> • وسرعان ما وانتبه تلك الفرصة فى العام التالى • وفى عيد القيامة من عام ١٠٥٧ م ، تلقى القائد البيزنطى دعوة من القادة العسكريين فى آسيا الصغرى لينخرط فى صفوف الثورة التى ينسجون خيوطها ضد الامبراطور البيزنطى ميخائيل ، فوافق فى الحال على دعوتهم<sup>(٥٥)</sup> • وسار القائد فى ركاب رفاقه مسترجعا طريق الشرق ووبصحبته حنا ابوساراس Jean Oposaras • كان هذا فى يونيو عام ١٠٥٧ م • وبوصوله الى ثيم الأناضول ، ألقى القبض على حنا ابوساراس وكان مكلفا بحراسة رواتب الجند ، وقد سبق له الاعتراض على سخاء برينيوس وكثرة هباته • الا أن قائدا مجاورا يدعى البطريق ليكانثيس Lycanthes أخبر بمسلك برينيوس هذا ، فشك فى عصيانه ، وتقدم لقتاله على رأس كتيبتين • وهكذا تم القبض على البطريق برينيوس ، وسلم الى حنا ابوساراس الذى سمل عينيه فى الحال وأرسله مقيدا بالاصفاد الى الامبراطور البيزنطى<sup>(٥٦)</sup> • وكان لهذا الحادث عواقبه الطيبة ، اذ تم الافراج عن القادة العسكريين الذين كانوا قد انخرطوا فى هذه الثورة ، وأعقب ذلك العفو عنهم •

(54) Bryennios, P. 15; Skylitzes - Cedrenus, p. 616.

(55) Bryennios, p. 15; Skylitzes - Cedrenus, p. 620; Attaliates, pp. 53 - 54.

(٥٦) لمزيد من التفاصيل أنظر :

Skylitzes - Cedrenus, pp. 621 - 622; Attaliates, p. 54; Zonaras; pp. 657 - 658; Anne Comnène, II, p. 194. Cf. Wittek - de Jongh, Le César Nicephore Bryennios l'historien et ses ascendants, dans Byzantion, XXV, 1953, pp. 466 - 467.



والسؤال الذى يطرح نفسه هو : ما هو الاسم الشخصى لبرينيوس هذا ؟ لقد تجاهل الاجابة عن هذا السؤال كل من أطيالطس وزونوراس ، الا أن سدرينوس — الذى تحدث عن هذا القائد العسكرى — انفرد مرة واحدة فقط بتسميته البطريق نقفور برينيوس •

على أية حال ، اختفى هذا القائد بعد ذلك عن مسرح الأحداث •  
الا أننا نعتقد أنه عاش على الأقل بعض الوقت فى عزلة وحزن وعذاب •  
ومع ذلك ، فإننا نعلم أن زوجته آن ، والتي كانت لا تزال تعيش فى أدرنة حتى أوائل شهور عام ١٠٧٨ م ، كانت تحمل لقب قريلاطيسا<sup>(٥٧)</sup> Curopalatissa ، مما يؤكد بالضرورة أن زوجها قد رقى فيما بعد الى مرتبة قريلاط Curopalate • ويبدو أن هذه الترقية قد أنعم عليه بها الامبراطور اسحق كومنين ( ١٠٥٧ — ١٠٥٩ م ) ، والذى نجح فى اعتلاء عرش الامبراطورية عقب مشاركته فى ثورة القادة العسكريين • ومع ذلك ، فمن المحتمل أن برينيوس هذا لم يحمل لقبه نقفور ، لكن ابنه هو الذى حمل هذا الاسم الشخصى<sup>(٥٨)</sup> •

(ب) القائد نقفور ، قائد الجناح الأيسر للجيش البيزنطى فى معركة ملاذكرد :

أنجب البطريق ثم القريلاط برينيوس فيما بعد من زوجته آن

---

(٥٧) تنتمى آن الى اسرة فاتاتزس Vatatzes ( انظر :

( Bryennios, III, ch. VIII, p. 224, n.3 )

وقد ورد ذكرها فى مصنف برينيوس عند حديثه عن زواج ايلين من ابن شقيق برينيوس ، أى ابن حنا برينيوس • وتنتمى الى اسرة ترخانيوتسا Tarchaniotissa انظر Bryennios, III, ch. VII, pp. 224 - 225, n. 4.

(58) Bryennios, p. 16.



والتي تبدو أنها من أسيرة فاتتزيننا<sup>(٥٩)</sup> Vatatzina ، أنجبا ولدين على الأقل هما : نقفور وحنا<sup>(٦٠)</sup> . وكان الأكبر المدعو نقفور قد تعلم فنون الحرب والقتال — حسب عادة ذلك العصر — على يد والده ، وتلقى نجمه خلال عهد رومانوس الرابع ديوجينيس ( أول يناير ١٠٦٨ — ٢٦ أغسطس ١٠٧١ م ) . فقد ذكرت المؤرخة آن كومنين — زوجة المؤرخ نقفور برينيوس وابنة الامبراطور الكسيس كومنين — أن العاهل البيزنطي رومانوس كان يقدر ذكاء قائده نقفور وسلوكه الحميد ، حتى أنه قرر اعتباره شقيقه بالتبني<sup>(٦١)</sup> . وقد شارك القائد نقفور برينيوس<sup>(٦٢)</sup> في معركة ملاذكرد<sup>(٦٣)</sup> سنة ١٠٧١ م ، وكان آنذاك يحمل

---

(٥٩) أكد برينيوس ذلك في كتابه الثالث الفصل الرابع ( انظر  
Bryennios, III, ch. IV, p. 224.

وكذلك ذكر أطيالطس أن امرأة من أسرة فاتاتزس بذرت بذور الفوضى والاضطراب في رايدستوس Rhaideustos وذلك سنة ١٠٧٧ م . وكان زوجها ينتمي الى عائلة الثائر برينيوس ( انظر Attaliates, pp. 244 - 245 .  
ويبدو على حسب ما ورد في بعض الروايات البيزنطية أن آن كانت شقيقة حنا فاتاتزس Jean Vatatzès القائد المخلص لليون ترونيكس وقد أنجبت آن ولدين هما نقفور وحنا . انظر  
Skylitzes - Cedrenus, p. 564; Zonaras, pp. 630 - 631.

(٦٠) ذكر برينيوس في مصنفه أن حنا هو شقيق برينيوس ( انظر  
( Bryennios, III, ch. VI, p. 216.  
وعن نقفور ( انظر  
( Alexiade, I, pp. 17 - 28 . أما عن حنا فانظر Alexiade, I, p. 20.

(61) Alexiade, II, p. 196.

(٦٢) هو جد المؤرخ نقفور برينيوس ، وقائد الجناح الأيسر في معركة ملاذكرد . انظر  
Bryennios, I, ch XV, p, 110.

(٦٣) عن الدراسة المقارنة لمصادر معركة ملاذكرد انظر فايز نجيب  
إسكندر : البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد — الاسكندرية  
١٩٨٤ .



لقب ماجستروس<sup>(٦٤)</sup> ، وأسندت اليه مهام دوق كل الغرب<sup>(٦٥)</sup> .  
وبوصول الجيش البيزنطى الى قبدوقيا<sup>(٦٦)</sup> ، توسل نقفور الى  
الامبراطور رومانوس أن يتحصن فيها ، أو على الأقل أن لا يتخطى  
ثيدوسيوپوليس<sup>(٦٧)</sup> Thoédosiopolis ، وأن يظل فى الأراضى  
البيزنطية فى منطقة يتأقلم فيها الفرسان والمشاة . ولكن لم يؤخذ  
برأيه<sup>(٦٨)</sup> . وأثناء الاقتتال الذى خاض غماره فى ضواحي ملاذكرد ، لم  
يكن حسن بلاء نقفور أقل من شجاعته ومهارته الحربية<sup>(٦٩)</sup> . ففى خلال  
المعركة الحاسمة ، وكان ذلك فى السادس والعشرين من أغسطس سنة  
١٠٧١ م<sup>(٧٠)</sup> ( ١٤ من ذى القعدة سنة ٤٦٣ هـ ) ، أسندت اليه قيادة

---

(٦٤) « الماجستروس » من الوظائف الهامة فى البلاط البيزنطى ،  
وتتساوى مع وظيفة مستشار الدولة . فى بداية الأمر وجد ماجستروس  
واحد . لكى مع مرور الزمن ، وصل عددهم الى أربعة عشر . كذلك أعطى  
هذا اللقب الى قواد الجيش وخاصة قادة سلاح الفرسان والمشاة . وكان  
الماجستروس فى مرتبة تفوق مرتبة القربلاط . للتفاصيل انظر :

Arisdaguès, p. 10, n. 3; Aristakès, p. 6, n. 3.

(65) Bryennios, I, ch. XIII, p. 106. ومهام دوق كل الغرب  
La charge de Duc de tout L'Occident تساوى وظيفة « دمستق شولزا  
الغرب » Domestiques des Scholes d'Occident للتفاصيل انظر :  
Cuilland, Recherches, I, p. 430.

(٦٦) اعتبر اقليم قبدوقيا منذ عهد الرومان أفضل اقاليم رعى الخيل ،  
حيث وجدت فيه مراعى لتربية الخيل خاصة بالامبراطور البيزنطى . انظر  
وسام عبد العزيز : دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية —  
الاسكندرية ١٩٨٢ — ص ٣٣٩ ، حاشية رقم ٢٩ .

(٦٧) للتفاصيل المطولة عن ثيود وسيوبوليس موقعها وأهميتها  
ومختلف تسمياتها انظر فايز نجيب اسكندر : ملاذكرد ، ص ٥١ — ٥٣ ،  
حاشية رقم ٥٤ .

(68) Bryennios, I, ch. XIII, p. 107.

(69) Bryennios, I, ch XV, p. 112.

(٧٠) عن اختلاف المصادر فى تحديد تاريخ معركة ملاذكرد انظر  
حاشية رقم ١٥ .



الجناح الأيسر للجيش البيزنطى • وحاول آنذاك الاتجاه نحو الامبراطور البيزنطى لنجدته عندما علم أنه فى موقف لا يحسد عليه ، الا أنه كان محاطا بالأعداء السلاجقة احاطة الدائرة بمعصم اليد ، فاضطر الى الفرار من ساحة القتال • وكان لفراره هذا آثاره الطيبة ، اذ لم يسقط أسيرا فى قبضة السلطان السلجوقى الب أرسلان<sup>(٧١)</sup> ( ٤٥٥ — ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ — ١٠٧٣ م ) •

ويبدو أنه فى عام ١٠٧٤ م ، شعر الامبراطور ميخائيل دوقاس ( ١٠٧١ — ١٠٧٨ م ) أمام الأخطار المحدقة بربوع الامبراطورية البيزنطية سواء من الشرق أو من الغرب ، شعر أنه من الحكمة البحث عن شخص قادر على ارجاع الأمور الى مسارها الصحيح • ووقع اختياره على نقفور برينيوس الذى كان يقيم آنذاك فى أدرنة<sup>(٧٢)</sup> موطن رأس أجداده • وقد حظى هذا الاختيار بموافقة مستشارى الامبراطور ، الا أن قسطنطين<sup>(٧٣)</sup> ، نائب الاميرال البحرى<sup>(٧٤)</sup> drongaire وأحد اقرباء الامبراطور<sup>(٧٥)</sup> ، حذره من خطورة اتخاذ مثل هذا القرار ، ونجح دون

---

(71) Bryennios, tr. Gautier, I, ch. XVI, p. 114; tr. H. Grégoire, p. 491.

(72) Bryennios, III, ch. II, p. 210.

(٧٣) كان قسطنطين ابن شقيقة الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع دوقاس ( انظر Bryennios, III, ch. II, pp. 210 - 212 وسيزداد تقريبا منه عقب زواجه من ابنة عم مارى دالانى Marie d'Alanie زوجة الامبراطور البيزنطى .  
انظر :

Gautier, La curieuse ascendance de Jean Tzetzes, R.E.B., XXVIII, 1970. pp. 212 - 216.

(٧٤) لمزيد من التفاصيل عن وظيفة « درنجير » drongaire  
انظر : Guiland, I, pp. 563 - 587.

(75) Bryennios, III, ch. II, p. 210.



معاناة في أن يثنيه عن عزمه ويجعله يعدل عن رأيه<sup>(٧٦)</sup> • إذ — على حد قول المؤرخ نقفور برينيوس — كان العاهل البيزنطي خجولا ويرتاب من ظله<sup>(٧٧)</sup> •

وعقب ذلك ، قام الامبراطور ميخائيل باستدعاء نقفور الى القسطنطينية حيث عينه في وظيفة دوق<sup>(٧٨)</sup> بلغاريا<sup>(٧٩)</sup> • فشغلها طوال عامي ١٠٧٤ — ١٠٧٥ • ثم بعد ذلك عينه في وظيفة دوق دوراخيوم<sup>(٨٠)</sup> مع منحه لقب « بروودر »<sup>(٨١)</sup> proèdre • وفي عام ١٠٧٧ م ،

---

(76) Bryennios, III, ch. II, pp. 210 - 212.

(77) Bryennios, III, ch. II. p. 212.

(٧٨) لمزيد من التفاصيل عن وظيفة الدوق في القرن الحادي عشر الميلادي انظر :

Ahrweiler, Rechtes sur l'administration de l'empire Byzantin aux IX - XI esiecles, Bulletin de Correspondance He lenique, 84, 1960, pp. 61 - 63; T. Wasilewski, Les Titres de Duc, de Catépan et de pronietis dans l'empire Byzantin du IXe Jusqu'au XIIe siecles, dans actes du XIIe Congres international d'Etudes Byzantines, 11, Belgrade, 1964, pp. 233 - 239.

(٧٩) أي دوق على مقدونيا الغربية مع الإقامة في سكبي SKOPJE انظر :

Banescu, Les duches Byzantins de Paristrion et de Bulgarie, Bucarest, 1946, pp. 118 - 132 et 147 - 149.

(٨٠) أشار نقفور برينيوس في مصنفه الى أن دوراخيوم كانت عاصمة الليريا Illyricum انظر : Bryennios, III, ch. III, p. 212.

(٨١) في سنة ٩٦٣ م ، استن الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس لقب « بروودر » Proèdre ، أي رئيس ، وأنعم به على البراكيمومين Parakimomène باسيل Basile l'oiseau الابن الغير الشرعي لرومانوس ليكابينوس مكافأة له على مساندته لاعتلاء عرش الامبراطورية ( للتفاصيل انظر :

Léon le Diacre, Histoires, p. G., CXVII, III, 8, p. 732. Cf. Diehl, De la Signification du titre de proèdre, pp. 105 sqq. )

=



كان لا يزال يشغل هذه الوظيفة<sup>(٨٢)</sup> • ففي نفس هذه المدينة — أى فى دوراخيوم الواقعة على ساحل البحر الادرياتي — نسج القائد نقفور خيوط ثورته التى جعلته فى عداد المشهورين<sup>(٨٣)</sup> • الا أن مبررات ثورته فى أكتوبر سنة ١٠٧٧ م ليست واضحة المعالم<sup>(٨٤)</sup> ، ويكتنفها الغموض • فالمؤرخان اللذان تحدثا عنها ، وهما القيصر نقفور برينيوس والمؤرخ ميخائيل أطللياطس شاب كتابتهما الانحياز والبعد عن الحياد • فالأول يسرد الأحداث بانحياز كامل لزعيم الثورة بدافع صلة القرابة بينهما ، أما الثانى ، فقد كان مشايخا صريحا لنقفور بوتانياتس Nicephore Botaniate • أما بصدد علاقته بنقفور برينيوس دوق دوراخيوم والطرف الثانى فى الصراع ، فقد شابها الكره والبغض والاحتقار •

### ( ج ) حنا برينيوس ، شقيق القائد نقفور :

والسؤال الآخر الذى يفرض نفسه هو : ما هو دور حنا برينيوس — شقيق نقفور برينيوس — والذى يقال عنه انه الرأس المدبرة للثورة

وقد خصص الامبراطور قسطنطين بورفيروجنيتس فصلا من كتابه  
Le Livre des Cérémonies

للحديث عن شروط منح هذا اللقب الجديد ( انظر :

Le Livre des Cérémonies, tr. Vogt, 1935, I, p. 97. )

وفى سنة ١٠٢٥ م ، أنعم قسطنطين السابع بلقب « بروودر » على ثلاثة من الطواشية • وبذلك فقد هذا اللقب قيمته وهيبته خاصة وانه فى القرن الحادى عشر أصبح منتشرا بين بعض رؤساء الدواوين والأطباء • انظر :  
Diehl, op, cit., pp. 110 - 117.

(82) Bryennios, III, ch. III, p. 212.

(٨٣) للتفاصيل عن ثورة نقفور برينيوس انظر :

Bryennios, III, ch. V, pp. 217 - 218.

(٨٤) ذكر زونوراس أنه ثار عندما علم بقرار عزله عن القيادة انظر :  
Zonaras, p. 715.



والمعرض عليها؟<sup>(٨٥)</sup> لقد أشار الى دوره المؤرخ نقفور فقال ان حنة ونقفور بازيلاكس اتفقا على اعادة برينيوس من الليريا على وجه السرعة ، لتنصيبه على رأس مؤامرتهم<sup>(٨٦)</sup> . اذ أرسل اليه حنا خطابا يحثه فيه على الاسراع بالانخراط فى صفوف الثورة . الا أن نقفور تردد طويلا فى اتخاذ قراره رغم خطابات حنا المتلاحقة<sup>(٨٧)</sup> . ويبدو أن البروودر نقفور قد تخلى عن طموحاته فى اعتلاء عرش الامبراطورية البيزنطية ، فربما كان العرش مبعث طمع من قبل أشخاص آخرين . فقادة النصف الثانى من القرن الحادى عشر ومن بينهم نقفور ، كانوا دائمي الشكوى من الامبراطور البيزنطى لشدة بخله ، ونكرانه للجميل . فعلى الرغم من مصاريفه الشخصية الباهظة ، لم يكن يكفىء القادة العسكريين على أعمالهم الحربية البطولية . فعلى سبيل المثال ، تمكن الماجستروس حنا برينيوس من احراز نصر حاسم على السيث<sup>(٨٨)</sup> Scythes ، ورغم ذلك ، فقد خرج خالى الوفاض من حربه الظافرة ، علما بأنه طالب الامبراطور البيزنطى أن يكافئه على ما حققه من نصر وكان هذا مثار غضبه واستيائه<sup>(٨٩)</sup> . كذلك كان حال نقفور بازيلاكس<sup>(٩٠)</sup>

(٨٥) للتفاصيل انظر :

Bryennios, III, ch, IV - V, pp. 214 - 218.

(86) Bryennios, III, ch. IV, p. 216.

(87) Bryennios, III, ch. V. p. 218.

(٨٨) السيث Scythes شعب من أصل إيراني كان يسكن « سيثيا » التى تقع فى شمال أوروبا الشرقى ، وتمتد بين الدانوب ونهر الدون ، فى شمال البحر الأسود . انظر جوزيف رينو : الفتوحات الاسلامية فى فرنسا وايطاليا وسويسرا فى القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادى — تعريب اسماعيل العربى — الجزائر ١٩٨٤ — ص ١٦١ ، حاشية رقم ١٩ .

(89) Bryennios, III, ch. IV, p. 216.

(٩٠) كان الماجستروس نقفور بازيلاكس دوقا على ثيود وسيوبوليس.

( انظر )

Attaliates, p, 155; Skylitzes Cedrenus, p. 154, Zonaras, 697 )

=



الذى اشتهر بسالته فى خوض غمار الحرب ، مما دفع بالقائدين الى التآمر على العاهل البيزنطى البخيل (٩١) .

### ثورة نقفور وحنا على الامبراطور بوتانياتس :

على أية حال ، كانت المعارك التى خاضها برينيوس فى سبيل الوصول الى عرش الامبراطورية البيزنطية فى غير صالحه ، ومع ذلك ، فقد احتل المكانة اللائقة به . اذ تفوق على منافسه الشرقى بوتانياتس ، ذلك القائد الطاعن فى السن . ولكون برينيوس عسكريا متعطرسا ، وسياسيا يتميز بالرعونة ، لذا رفض الاعتراف بالأمر الواقع . اتضح ذلك جليا حين رفض لقب « قيصر » الذى عرض عليه ثمنا لاذعانه وطاقته . فلقد أورد المؤرخ نقفور برينيوس فى مصنفه « كتب التاريخ الأربعة » نص رسالة بوتانياتس التى جاء فيها : « ... سبق لى التعرف على والدك ، ذلك القائد الشجاع ، الذى أحرز العديد من الانتصارات على السيث . فقد كنت رفيقه فى السلاح وأعلم جيدا أنك خير خلف لخير سلف . لهذا ، وبما أن الله رفعنى على عرش الامبراطورية ، أود أن تكون ابنى بالتبنى ووريثى الشرعى . واتمنى أن أرى فيك ابنا مخلصا كريما وليس ابنا شرسا ، وسندا قويا لى بسبب

---

وقد سقط أسيرا فى قبضة الاتراك السلاجقة أثناء معركة ملاذكرد ( انظر Attalates p. 165; Skylitzes - Cedrenus, p. 152 )  
وثار فيما بعد على ميخائيل السابع ( ١٠٧١ — ١٠٧٨ م ) وعلى بوتانياتس ( ١٠٧٨ — ١٠٨١ ) انظر :

Attalates, p. 155; Skylitzes - Cedrenus, p. 154; Zonaras, p. 697, cf. Laurent, op. cit., p. 62, n. 3.

وللتفاصيل المطولة عن ثورته انظر :

Bryennios, pp. 216, 284 - 287, 290 - 298.

(٩١) عن تفاصيل اتفاق الثائرين انظر :

Bryennios, III, ch IV - V, pp, 216 - 218.



ضعفى نتيجة شيخوختى • واليوم ، تقبل منى لقب « قيصر » ، ذلك  
اللقب الذى يأتى بعد لقب الامبراطور مباشرة • وفيما بعد ، ستصبح  
خليفتى على عرش الامبراطورية » (٩٢) • لكن برينيوس — على حد  
قول المؤرخ نقفور — لم يقبل التخلّى عن مناصريه من قادة وجنود  
وأشراف ، واعتبر الموافقة على قبول لقب قيصر بمثابة طعنة مصوبة الى  
قلوب رفاقه ، وتصرف يتسم بالأنانية • لذا واصل قتاله (٩٣) • وكان من  
الممكن أن ينجح برينيوس فى التربع على عرش الامبراطورية اذا لم  
يستعن بوتانياتس بالقائد الشاب الكسيس كومنين (٩٤) الذى يتصف  
بالمكر والذكاء والدهاء • وقد استعاض الكسيس من قلة أعداد جيشه  
بأن استن نظم تكتيكات التحرش والكمائن والهجمات الخاطفة ، والتى  
أحسن التمرس عليها بحنكة بالغة أثناء قتاله ضد الأتراك السلاجقة (٩٥) •  
وهكذا أتت الرياح بما لا تشتهي السفن ، اذ انتهى الأمر بأسر برينيوس  
حوالى ابريل أو مايو سنة ١٠٧٨ م ، ولقى نفس مصير والده بأن سملت  
عيناه (٩٦) • لكن ما لبث العاهل البيزنطى أن رق قلبه على قدر وتعاسة  
رفيقه فى السلاح ، فأصدر اوامره فى الحال بارجاع كل أملاك برينيوس  
والتي كانت قد صودرت من قبل (٩٧) • كذلك حظى شقيقه حنا بالعفو  
عنه ، الا أنه اغتيل بضربة خنجر (٩٨) على يد أحد الورك فى نفس لحظة

(92) Bryennios, IV, Ch. III, p. 262.

(93) Bryesnios, IV, ch. III, pp. 262 - 263.

(94) Bryennios, IV, ch. II, pp. 258 - 260 .

(95) Bryennios, IV, ch. XI, p. 276.

(96) Bryennios, IV, ch. XVII, p. 282; Alexiade, I, pp. 27 - 28;  
Attaliates, p. 292; Skylitzes Continué, p. 181; Zonaras, pp. 721 - 722.

(97) Bryennios, IV, ch. XVIII, p. 284 et notes 1 - 2.

(98) Bryennios, IV, ch. XVIII, p. 284; Skylitzes Continué,  
p. 181.



خروجه لأول مرة من سجنه عقب العفو عنه (٩٩) •

وهكذا أسدل الستار على ثورة نقفور برينيوس • وتذكر أن كومنين  
فى أحداث تالية أنه كان لا يزال فى أدرنة عشية حملة أغسطس ١٠٨٧ م  
ضد البشناك • لكنها لا تذكر أنه شارك فيها ، وتقول أن أباه الامبراطور  
الكسيس استشاره بصدد العمليات الحربية ، لكونه مستشارا فطنا  
ومحنكا وذا تجارب ومتمرسا على فنون الاستراتيجية والتكتيكات  
الحربية (١٠٠) • ويبدو أن المرة الوحيدة التى ظهر فيها على مسرح  
الأحداث التاريخية كانت فى أوائل ١٠٩٥ م أثناء غزوات الكومان (١٠١) •  
فعندما حاصر هؤلاء البرابرة أدرنة ، تمكن بسيدو — ديوجينيس  
Pseudo-Diogène من الاقتراب من أسوار المدينة ، هادفا من ذلك  
الاعتراف به على أنه ابن الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس من  
قبل القائد العسكرى نقفور برينيوس شقيق رومانوس بالتنى • وبناء  
على هذا الزعم الباطل ، كان بسيدو — ديوجينيس يسـمى  
نقفور عمه • وازاء هذا الادعاء ، تقول المؤرخة آن كومنين أن نقفور  
برينيوس صعد الى أعلى أحد الأبراج ، وانحنى صائحا بأعلى صوته انه  
لا يعترف بان بسيدو — ديوجينيس هو ابن الامبراطور رومانوس  
الرابع (١٠٢) •

من هذا نستطيع القول أن نقفور برينبوس عاش على الأقل سبعة

---

(٩٩) ذكر المؤرخ المكمل لحولية سكيلترز أن حنا برينيوس كان قد  
جذع أنف أحد الورك • فتحين هذا الأخير الفرصة المواتية للانتقام منه ،  
وكان ذلك فى العام التالى • اذ عقب اللقاء الأول الذى جمع حنا برينيوس  
مع الامبراطور البيزنطى بوتانياتس ، انقض عليه الوركى بمجرد خروجه من  
القصر الامبراطورى ، وأرداه قتيلا بضربة خنجر • كان ذلك بلا شك فى ابريل  
أو مايو من عام ١٠٧٨ م انظر : Skylitzes Continué, p. 181.

(100) Alexiade, II, p. 90 .

(١٠١) عن تأريخ غزوات الكومان انظر :

Gautier, Le Synode des Blanchernes ( fin 1094 ), dans R.E.B.,  
29, 1971, pp. 280 - 284.

(102) Alexiade, II, p. 196.



عشر عاما فى حزن وألم • وكان فقدانه لبصره حائلا بينه وبين شغله  
الموظائف الإدارية والعسكرية ، الا أن ذلك لم يقف حجر عثرة فى سبيل  
ارتقائه أعلى المناصب الشرفية •

ومما يذكر أنه حوالى الشهور الأولى من عام ١٠٩٧ م ، تزوجت  
آن كومنين من « اليانهيبرسبستى » (١٠٣)  
Panhypersébaste  
والقيصر نقفور برينيوس (١٠٤) • وهو من أسرة بورفيريوجنيثس ،  
وسليل مباشر لنقفور •

### ( د ) أبناء الشقيقين نقفور وحنا :

هذا هو زعيم الثورة نقفور برينيوس وشقيقه وشريكه فيها حنا  
برينيوس • والجدير بالملاحظة أن الشقيقين كان لهما أولادا نجهل  
عددهم واسماءهم • وقد تزوج أحد أبناء حنا فى الشهور الأخيرة من  
عام ١٠٧٧ م بابلين ترخانيوتسا Hilène Tarchaniotissa • وهى إحدى  
شقيقات دوق أدرنة المدعو كاتاكالون (١٠٥) Katakalon • وربما كان ثمرة

---

(١٠٣) فى التنظيم الجديد للرتب والالقاب البيزنطية الشرقية الذى  
استنه الكسيس كومنين ، جاء لقب « بانهيبرسبستى » Panhyers baste  
فى المرتبة الثالثة • بينما جاء لقب « سبستوقراطور » Sébastorator  
فى المرتبة الأولى ، ولقب قيصر فى المرتبة الثانية ، ولقب بروتوسبستى  
Protoséboste فى المرتبة الرابعة • ( انظر . Bryennios, p. 321, n. 6 )  
وكان ميخائيل طرونيت Michel Taronite زوج مارى كومنين شقيقة  
الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين ، أول من حمل هذا اللقب الجديد  
( انظر Aaexiade, I, p. 114; Zonaras, p. 732 . الا انه جرد من القابه  
ونفى عقب انخراطه فى مؤامرة ضد الامبراطور البيزنطى وذلك فى يونيو من  
عام ١٠٩٤ م . انظر :  
Alexiade, II, p. 174.

(104) Alexiade, II, p. 196.

(١٠٥) انظر حاشية رقم ٢٩ •



هذا الزواج كاتاكالون بريننيوس<sup>(١٠٦)</sup> • كذلك كان لنقفور بريننيوس ابنه تزوجت ماريانوس مافرو اكتاكولون<sup>(١٠٧)</sup> Marianos Mavrokatalon وقد أشار بريننيوس الى مآثر ابنه ، الا انه يسميه البطريق بريننيوس أو ابن بريننيوس<sup>(١٠٨)</sup> • وفى غضون عامى ١٠٧٧ — ١٠٧٨ م ، نعرف أن ابن بريننيوس كان شابا مقداما ، مليئا بالنشاط والحيوية والشجاعة • وكان آنذاك قد بلغ سن المراهقة<sup>(١٠٩)</sup> • وكان سن المراهقة فى مفهوم العصر يقع بين عامى ١٦ و ٢٠ • وبذلك يكون ابن بريننيوس قد ولد حوالى عامى ١٠٥٥ و ١٠٦٠ م •

نتيجة لذلك ، اختلفت آراء المؤرخين حول تحديد شخصية ابن برينوس هذا اختلافا بينا • فالفريق الأول وعلى رأسه ديكانج Du Cange وبوسين Poussines والسيدة وتيك دى جونج يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن البطريق بريننيوس كان والد المؤرخ والقيصر نقفور بريننيوس<sup>(١١٠)</sup> • فى حين أن الفريق الثانى والذى يضم سيجر J. Seger وكرومباخر K. Krumbacher وجيورجينا بوكلىر Georgina Bucklar وكاريل A. Carile يؤكد أن البطريق بريننيوس والقيصر بريننيوس ليسا الا شخصا واحدا<sup>(١١١)</sup> • ويدعمون رأيهم بنص أورده زونوراس تحدث فيه عن أبناء الكسيس كومنين ، اذ قال أن الابنة الكبرى للامبراطور البيزنطى المدعوة آن ، تزوجت أكبر أبناء

(106) Bryennios, p. 21.

(107) Alexiade, III, p. 111.

(108) Bryennios, III, ch. VIII, p. 228; IV, pp. 278 — 280 ; Alexiade, I, p. 26.

(109) Bryennios, III, ch. IX, p. 228.

(110) Suzanne Wittek - De Jongh, Le César Nicéphore Bryennios, Byzantion, XXIII, 1953, pp. 463 - 468.

(111) A. Carile, Il Problema della identificazione del Cesare Briennio, dans Aevum, 38, 1964. pp. 74 - 83 et II « Cesare » Niceforo Briennio, dans Aevum, 42, 1968, pp. 429 - 454.



• نقفور برينيوس وذلك بعد وفاة خطيبها قسطنطين دوقاس (١١٢) .  
 إضافة الى ذلك ، استند الفريق الثانى الى نصين وردا فى كتاب  
 « الألكسياد » Alexiade تؤكد فيهما المؤرخة آن كومنين ما أورده  
 زونوراس (١١٣) • واستندوا فى رأيهم هذا الى فاتحة خطاب أرسله  
 ثيوفيلكت Théophylacte رئيس أساقفة بلغاريا ، الى « برينيوس » ،  
 والد صهر الامبراطور « (١١٤) • الا أن العالم بول جوتييه  
 Paul Gautier دحض هذا الزعم • وصحح نص آن كومنين  
 وزونوراس ، وأكد أن المقصود هو حنا برينيوس الدوق المكلف باقامة  
 العدالة • قد عثر على خاتم يؤكد صحة افتراضه (١١٥) •

### ( هـ ) المؤرخ نقفور برينيوس :

أما المؤرخ نقفور برينيوس ، فهو من مؤرخى النصف الأول من  
 القرن الثانى عشر الميلادى ، وابن حنا برينيوس حاكم دوراخيوم (١١٦) •  
 ولد حوالى عام ١٠٨٠ م ، وكانت زوجته المؤرخة آن كومنين أصغر منه  
 بقليل • اذ انها ولدت يوم السبت الثانى من ديسمبر سنة ١٠٨٣ م ،  
 وتزوجا حوالى الشهور الأولى من عام ١٠٩٧ م — كما سبق أن ذكرنا —  
 بعد وفاة خطيب آن السابق عام ١٠٩٤ م (١١٧) •

وترجع أول اشارة الى نقفور كصهر للامبراطور البيزنطى الى

(112) Zonaras, p. 738.

(113) Alexiade, II, p. 91 lignes 8 - 9 et ligne 29.

(١١٤) انظر :

Lettre de Théophylacte, Archeveque de Bulgarie a Bryennios, Pere du gendre du Basileus, dans Bryennios, Documents annexes, pp. 316 - 317.

(115) Bryennios, pp. 22 - 23.

(116) Bryennios, p. 23.

(117) Bryennios, p. 24; Zonaras, p. 738.



الثانى من ابريل سنة ١٠٩٨ م ، اذ ذكرت آن كومنين أن والدها الامبراطور كلف صهره نقفور بتأمين حراسة أسوار القسطنطينية ضد هجوم شنه الصليبيون (١١٨) . أما زونوراس ، فقد أورد أن الامبراطور البيزنطى أنعم عليه بلقب « بنهيارسبستى » بمناسبة زواجه من آن كومنين (١١٩) . كما أنعم عليه بلقب قيصر حوالى عام ١١٠٩ أو ١١١٠ م ، ويؤكد ذلك أنه كان يحمل هذا اللقب عشية وفاة البطريرك البيزنطى نيقولا جرامتيكوس Nicolas Grammatikos وذلك فى أوائل عام ١١١١ م . وفى عامى ١١١٤ و ١١١٥ م ، ذهب القيصر فى صحبة الكسيس كومنين الى فليبوبوليس ، وبذل قصارى جهده لتحويل بيالصة Manichéens (= Pauliciens) هذه المنطقة عن آرائهم التى تتسم بالهرطقة (١٢٠) . وتذكر آن كومنين أن زوجها المؤرخ تولى قيادة الجناح الأيمن للجيش البيزنطى فى آخر حملة قادها والدها ضد الأتراك السلاجقة فى قونية ، كان ذلك فى سنة ١١١٦ (١٢١) م .

وقد أوضح زونوراس مدى ما تمتع به بريننيوس من مكانة ونفوذ فى عهد الكسيس كومنين ، حتى أنه عندما مرض العاهل البيزنطى سنة ١١١٨ م ، اعتبرته الحاشية خلفا له على العرش . وفى هذا الصدد يقول زونوراس : « ..... تمتع القيصر بريننيوس بمكانة كبيرة ومؤثرة ، حتى أنه كان يعلن بنفسه وبصوته ما كان يحدث فى القصر الامبراطورى (١٢٢) . لذا كان الجميع يمثل أمامه . وقد أوكلت اليه أمور

(118) Alexiade, II, p. 223.

(119) Zonoras, p. 739.

(120) Bryennios, p. 25; Alexiade, III, p. 182; Zonoras, pp. 753 - 754.

(121) Alexiade, III, pp. 202 et 205.

(١٢٢) يقابل ذلك وظيفة المتحدث الرسمى للدولة فى أيامنا هذه .



العدل ، واتسمت مراسيمه بالطابع الامبرطورى ، واشتهر بانه من المهتمين بالآداب » (١٢٣) •

على أية حال ، استماتت آن كومنين ووالدتها ايرين دوكاينا فى اقناع الكسيس بتعيين نقفور برينيوس خلفا له على عرش الامبراطورية البيزنطية بدلا من ابنه الاكبر حنا كومنن • لكن الكسيس لم يرضخ لتوسلات ودموع زوجته ايرين • ويذكر المؤرخ البيزنطى خونياى ان الكسيس قال لزوجته : « ... الا تكفى عن أن تعرضى على ما يعجب ابنتك ويرضى رغباتك ، اذ سينتج عن تلبية ذلك ، القضاء على الأمن السائد فى ربوع الامبراطورية • يبدو أنك مدفوعة بأفكار شيطانية ، وأتمنى أن تتسم آراؤك بالاعتدال أكثر من ذلك • فمن من أباطرة الروم القدامى فضل صهره على ابنه خلفا له على عرش الامبراطورية ؟ ومع ذلك اذا افترضنا أن اختيارا مثل هذا قد تم فيما مضى ، فسوف لا يعتبر ذلك الاستثناء قاعدة • وعلى هذا اذا لببت طلبك فساكون اضحوكة الامبراطورية ، بل سيعتقد الشعب الرومانى اننى معتوه ويحجر على ، ولا أنسى أننى تسلمت زمام الأمور وتربعت على عرش الامبراطورية بطريقة منافية ومخالفة للعقيدة المسيحية ، وذلك بعد ارتكابى لأعمال قتل • وبعد هذا تريدان أن أستبعد ابنى كخلف لى على العرش واعين بدلا منه المقدونى » (١٢٤) • هكذا فشلت محاولات زوجة الكسيس وابنته فى تنصيب المؤرخ برينيوس على عرش الامبراطورية البيزنطية • ويبدو أن نقفور برينيوس قبل تنحيته عن العرش عن طيب خاطر • الا أن زوجته آن — على حد قول خونات — عملت على تحريض المتآمرين ، هادفة من ذلك قتل الامبراطور الجديد حنا كومنين شقيقها ، وابداله بالقيصر نقفور برينيوس (١٢٥) زوجها •

---

(123) Zonaras, pp. 754 — 755.

(124) Nicatae Choniatae Historia, éd. Bekker, C. S. H. B., Bonn 1835, p. 9.

(125) Choniate, pp. 14 — 17.



ولقد أكد العديد من مؤرخى القرن الثانى عشر الميلادى أن نقفور كان واسع الثقافة ، فصيح اللسان ، محبا للآداب ونصيرا لأهله • ولا نستطيع تأكيد ذلك ، لأنه لم تصلنا من مؤلفاته الا « كتب التاريخ الأربعة » التى كتبها فى عجلة تلبية لأوامر ايرين دوكاينا زوجة الكسيس كومنين ووالدة زوجته آن كومنين ، كان ذلك فى أواخر أيام حياته ، اذ انه توفى فى حوالى نهاية عام ١١٣٧ م أو نهاية عام ١١٣٨ م دون اكمال مصنفه • ومما لا شك فيه أن مصنفه هذا لم يكن انتاجه الوحيد ، اذ أكدت آن كومنين فى كتابها عن تاريخ والدها الكسيس كومنين أن زوجها برينيوس ألف العديد من الكتب القيمة التى أكسبته شهرة ذائعة الصيت (١٢٦) • وتواصل سردها قائلة أنه كان محبا للآداب والفلسفة ، لذا حظى ادباء عصره باهتمامه البالغ • وكان هؤلاء يفخرون بالتردد على الصالون الأدبى للامبراطورة ايرين دوكاينا ، وكثيرا ما طلبوا حماية القيصر فى أوقاتهم العصبية (١٢٧) •

هذه لمحة سريعة عن ألمع أفراد آل برينيوس ، وهو المؤرخ القيصر نقفور برينيوس ، والذى شاء القدر أن يحول بينه وبين الوصول الى عرش الامبراطورية البيزنطية خلفا لالكسيس كومنين ، فحرمت الامبراطورية من أن يعتلى عرشها قائد ينتمى الى اعرق العائلات البيزنطية العسكرية فى أدرنة •

### ( و ) أبناء المؤرخ نقفور برينيوس :

على أية حال ، أنجب نقفور برينيوس ما لا يقل عن أربعة أبناء هم : الكسيس كومنين ، وحناء دوقاس ، وايرين دوكاينا ، وابنة أخرى لم تزودنا المصادر البيزنطية باسمها • تزوج الابن الأكبر الكسيس — الذى

(126) Alexiade, I, p. 5.

(127) Bryennios, p, 39., Georges et Demetrios Tornikes, Lettres et Discours, éd. J. Darrouzes. Paris, 1970, pp. 250—256.



حمل لقب والد والدته — بأميرة من بلاد الأبخاز ، واصطحبها الى  
 القصر الامبراطوري في مانجان Manganes في الخامس عشر من  
 أغسطس سنة ١١١٨ م ، أي في نفس اليوم الذي كان فيه العاهل  
 البيزنطي الكسيس يلفظ أنفاسه الأخيرة (١٢٨) . أما الابن الثاني المدعو  
 حنا دوقاس — والذي حمل لقب والد والده — فقد تزوج هو أيضا  
 بأميرة أجنبية ، اتخذت اللقب البيزنطي ثيوردوا ، الا أنها توفيت في  
 القسطنطينية عقب اصابتها بحمى لازمتها ثمانية أشهر . وكان زوجها  
 آنذاك يحارب جنبا الى جنب مع خاله الامبراطور حنا كومنين على  
 ضفاف نهر هاليس . فعاد لتلفظ زوجته أنفاسها الأخيرة في حضرته .  
 وكان ثمرة هذا الزواج ابن يسمى أيضا نقفور (١٢٩) . وقد ذكر ثيودور  
 برودوم Théodore Prodome أن الشقيقين الكسيس وحنا تزوجا في  
 يوم واحد ، وذلك عقب الانتصار الذي أحرزه حنا كومنين على الأتراك  
 السلاجقة ، أي في وقت ما بين عامي ١١١٩ و ١١٢٢ م (١٣٠) .

(١٢٨) Zonaras, p. 761.

والجدير بالذكر أننا نجهل على وجه الدقة اذا كان الكسيس ، أو الابن  
 الأكبر لحنا كومنين ، قد تزوج بكتا Keta ابنة ملك الكرج داود الثاني  
 ( ١٠٨٩ — ١١٢٥ م ) ( انظر Jean Tzetes, p. 208, n. 5

وقد شغل الكسيس منصب « ميجادوق » Mégaduc و « بروتستراتور »  
 Protostrator في عهد مانويل كومنين ( ١١٤٣ — ١١٨٠ ) ( انظر :  
 Choniate. p, 125. Cf. Chalandon, Jean Comnene, p. 219).

وانجب ابنا اسماء اندونيق ( انظر Choniate, p. 556.

ولزيد من التفاصيل عنه انظر :

R. Guiland, Le Chef de la Marine byzantine, Byzantion XLIV,  
 1951, p. 226., Polemis, The Doukai, p. 113.

(129) Théodore Prodome, Eloge funebre de L'épouse du fils du  
 «Félicissime» C'sar kyr Nicéphore Bryennios, kyra Théodora, dans  
 Bryennios Appendice p. 354.

(130) Théodora Prodome. Epithalame pour le fils du César,  
 dans Bryennios Appendice, p. 350.



أما أولى بنات المؤرخ القيصر نقفور برينيوس ، والتي حملت لقب أم والدتها — أى إيرين دوكاينا — فقد تزلت فى زهرة شبابها • ثم أقامت بجوار الامبراطورة السابقة فى قصر ملاصق لدير للراهبات (١٣١) • ويبدو أنها أنجبت على الأقل ابنا يسمى الكسيس دوقاس ، أصبح فيما بعد دوقا على دوراخيوم وأخريدا Achrida وذلك حوالى منتصف القرن الثانى عشر • أما ابنة نقفور الثانية ، فلم تذكر المصادر البيزنطية أى شىء عنها (١٣٢) •

### خاتمة :

هكذا سطر أقطاب اسرة برينيوس العديد من صفحات تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ولعبوا — كما أوضحنا — دورا بارزا فى تسطير أبرز أحداث القرن الحادى عشر والنصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى • فلم تكن هذه الاسرة أقل شأنًا من بعض أسر الأشراف الكبيرة مثل أسرة دوقاس وأسرة فوقاس وأسرة كومنين ، اذ انجبت أشخاصا تبؤوا أعلى المراتب ، وتحملوا المسئوليات الجسام ، فأخذ نجمهم يسطع حتى كاد البعض منهم يتربع على عرش بيزنطة سواء بالقوة والثورة أو بالشرع والقانون •

---

(131) Bryennios, p. 30.

(132) Bryennios, p. 31 et n. 1 et 2.



## كتاب التواريخ

### لباولوس أورو سيوس وترجمته الأندلسية

د. عبادة عبد الرحمن كحيلة

مدرس التاريخ الاسلامى

كلية الآداب — جامعة القاهرة

من الأمور التى استرعت أنظار الباحثين — شرقيين وغربيين —  
فى السنوات الأخيرة ، ما تميزت به الأندلس من خصوصية معينة ،  
داخل الاطار العام للحضارة الاسلامية . فقد افترق مسار هذه  
الحضارة فى الأندلس عن مسارها فى اقطار اسلامية أخرى غير  
الأندلس<sup>(١)</sup> .

ولا شك أن التراث الثقفى الذى وقف عليه المسلمون بعد قدومهم  
إلى شبه الجزيرة ، قد لعب دورا وافرا فى طبع الحضارة الاسلامية  
بطابع خاص ، من مظاهره أن دخلت اللغة العربية — والعامية الأندلسية  
— بعض الألفاظ اللاتينية ( أو الرومانشية )<sup>(٢)</sup> كما دخلت الشعر العربى

---

(١) راجع فى هذا الشأن الباب التمهيدى من أطروحتنا لدرجة  
الماجستير ، المولدون فى التاريخ الاندلسى منذ الفتح العربى حتى نهاية عصر  
الامارة ( غير منشورة ) جامعة القاهرة ، كلية الآداب ١٩٧٨ ص ٢١ — ٤٧ ،  
أحمد مختار العبادى : الاسلام فى أرض الأندلس ، أثر البيئة الأوربية . عالم  
الفكر م ١٠ ع ٢ ، ١٩٧٩ ص ٣٤٣ — ٣٩٤ .

(٢) توجد تفصيلات عديدة عن هذا التأثير فى :

Dozy , R; Supplément aux dictionnaires Arabes. Deuxième  
Edition. E. J. Brill 1927, Simonet, Francisco Javier : Glosario de voces  
Ibéricas y latinas usadas entre los Mozàrabes. Madrid, establecimi-  
ento tipogràfico de fortanet, 1888.



بعض التأثيرات المسيحية والأيبيرية القديمة ، نقف على نماذج منها فى شعر ابن دراج ( ت ٤٢١ هـ ) وابن شهيد ( ت ٤٢٦ ) وابن زيدون ( ت ٤٦٣ ) ، كما نقف عليها أيضا فى شعر الموشحات والأزجال .

ننتقل الآن الى موضوع هذا البحث ، وهو كتاب التواريخ لباولوس أوروسيوس وترجمته الأندلسية .

### ( ١ )

فى مطلع القرن الخامس الميلادى كانت خيل الجرمان تدك أركان الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، وفى سنة ٤١٠ م اقتحم القوط يقودهم ألاك Alaricus قسبة هذه الامبراطورية ، ومع أنهم فارقوها بعد قليل ، بل صاروا حلفاء للرومان ومعاهدين Foederati ، الا أن ما أقدموا عليه من تخريب لروما ، كان له أثره الفادح عند المعاصرين ، فلم يكن يتصور أحد مصيرا مثل ذلك لمدينة رومولوس وقيصر واغسطس وقسطنطين .

انصرف عدد من الوثنيين — وكانوا غالب سكان الامبراطورية — فنسبوا الى المسيحية مسئوليتها عما جرى من نكبات لهذه الامبراطورية فى عهدها الأخير<sup>(٣)</sup> مما آثار حفيظة أحد أئبار الكنيسة ورجالها المرموقين ، وهو القديس أوغسطين Augustinus<sup>(٤)</sup> فوضع كتابه

---

(٣) استمر هذا الاعتقاد فترة طويلة ، وكان منطلقا لادورد جيبون E. Gibbon فى كتابه الشهير عن اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها Decline and fall of the Roman Empire

(٤) عرف عند أهل الاندلس باغشتين وأقشتين ، وذاعت كتبه عندهم ، وترجم بعضها الى العربية ، وفى النص اللاتينى للتقويم القرطبى ، كان النصارى يحتفلون بعيده فى ٢٨ أغسطس . انظر :

Le calendrier de cordue, Publice par Dozy, Leyde 1874. p. 82.

ويلقبه الامام القرطبى — صاحب التفسير — بزعيم القسيسين ويقول « ان النصارى معولون على معرفته مقلدون له فى قومته وقعدته » الاعلام بها فى دين النصارى من الفساد والأوهام . تحقيق أحمد حجازى السقا . القاهرة ، دار التراث العربى ١٩٨٠ ج ١ ص ١٤٣ .



« مدينة الله » De Civitate Dei حوالى سنة ٤١٥ ( أو ٤١٦ م ) يفند فيه هذا الزعم • وحين وفد عليه فى مستقره بتونس قسيس اسباني يدعى أروسيوس Paulus Orosius عهد اليه استاذة بوضع كتاب فى التاريخ ، يوضح فيه ما صادفه الانسان من نكبات على مر العصور ومن أحداث جسام ، لا شأن للمسيحية بها ، انما هى نشأت لأسباب خارجة عنها •

دعى الكتاب الذى ألفه أروسيوس<sup>(٥)</sup> « بكتب التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين » (Historiarum adversum paganos libri septem) تناول فيه تاريخ الانسانية منذ آدم عليه السلام حتى سنة ٤١٦ م ، وهى السنة التى التقى فيها بأستاذة •

يستمد كتاب اوروسيوس أهميته من كونه مصدرا لتاريخ الامبراطورية الرومانية فى مرحلتها المتأخرة ، شأنه فى ذلك شأن كتب يوسبيوس<sup>(٦)</sup> Eusebius ( ت ٣٤٠ م ) وايرونيوس<sup>(٧)</sup> Hieronymus وهو القديس جيروم ( ت ٤٢٠ هـ ) ويوتروبيوس Eutropius ( ت حوالى ٣٧٠ م ) ، كما يستمد أهميته أيضا من النقول التى وردت فيه عن مؤرخين ضاعت كتبهم بعد ، ولا أدل على أهمية كتاب أوروسيوس ، من أن وصلتنا نحو مائتى نسخة منه •

---

(٥) توجد ترجمة مختصرة له فى معجم اكسفورد الكلاسيكى Oxford classicil Dictionary. 1949 p. 627 ولا نقف على ترجمة له فى معجم التاريخ الاسباني

Diccionario de Historia de España. Revista ds Occidente, Madrid. 1952.

(٦) عرف عند العرب باوسابيوس القيسراني •

(٧) عرف عند العرب بيرونم الترجمان •



نشرت تواريخ أوريوسوس فى عصرنا الحديث عدة مرات ،  
والنشرة النقدية المعتمدة هى التى قام عليها تسانجما يستر  
Carl Zangemeister فى سنة ١٨٨٢ ، ضمن مجموعة Corpus Scriptorum  
Ecclesiasticorum Latinorum v. V وترجمه الى الانجليزية  
I. W. Raymond ونشرته جامعة كولومبيا فى سنة ١٩٣٦ .

## ( 2 )

بلغت الحضارة الاسلامية فى الأندلس أوجها فى القرنين الرابع  
والخامس الهجريين ، أى فى عصر الخلافة الأموية وعصر الطوائف ،  
والى جانب ما أبدعه الأندلسيون فى مجالات شتى ، فقد تمت ترجمة  
كتاب أوريوسوس الى اللغة العربية ونقل عنه عدد من مؤرخى الأندلس  
وجغرافيينه ، ومنهم ابن جليل ( ت بعد ٣٨٤ هـ ) والبكرى ( ت ٤٧٨ هـ )  
والحميرى ( ت أواخر القرن الثامن هـ ) وابن خلدون ( ت ٨٠٨ هـ ) ،  
بل نقل عنه أيضا مؤرخ مسلم غير اندلسى هو المقرئى ( ت ٨٤٥ هـ ) .  
والمشاهد أن شهرة أوريوسوس عند المسلمين ، جعلت بعضهم  
ينقلون أخبارا عن غيره من المؤرخين القدامى ، ثم يضيفون هذه الأخبار  
اليه (٨) .

ورغما عن شهرة أوريوسوس هذه ، فلم يصل إلينا من ترجمته  
العربية سوى نسخة واحدة محفوظة فى مكتبة جامعة كولومبيا بنيويورك .

---

(٨) راجع المقارنات التى عقدها الاستاذ عبد الرحمن بدوى بين كتاب  
أوريوسوس وبين كتب المسلمين الذين أخذوا عنه وبخاصة ابن خلدون .  
فى مقدمة تحقيقه للكتاب . بيروت . المؤسسة العربية للدراسات والنشر  
ص ٢١ — ٤٧ .



تحت رقم H. 712. 893. X قام على نشرها فى سنة ١٩٨٢ الأستاذ  
عبد الرحمن بدوى<sup>(٩)</sup> .

بمراجعة هذه النشرة نجدها تفتقر عن الأصل اللاتينى ، باختصارها  
فى بعض المواضع أو حذف فقرات كاملة ، أو اضافة أخبار من مصادر  
أخرى ، لا يشير المترجم اليها ، وتبلغ فى جملتها نحو ثلث حجم الكتاب .  
والأهم من ذلك أن المترجم أكمل تاريخ أوريوس حتى قبيل مقدم  
العرب<sup>(١٠)</sup> ، وان فقدت هذه التكملة ، بل فقد جزء من النص الأصلى ،  
لأن النسخة التى لدينا تقف عند سنة ٣٧٨ م<sup>(١١)</sup> .

وقد بدأ الطابع الأندلسى واضحا على هذه الترجمة ، فعرب اسم  
أوريوس الى هروشيوش ( وهروشيوش<sup>(١٢)</sup> ) ، كما يبدأ الكتاب  
بالبسملة<sup>(١٣)</sup> ، وتختتم أجزاءه بحمد الله تعالى وطلب الرحمة لمؤلفه .

---

(٩) وهو تحقيق جيد بذل صاحبه فى سبيله جهدا فائقا ، وعاد النص  
الأصلى ، لكن تنقصه بعض الشروح ، كما تنقصه أيضا كشافات تعين  
الباحثين .

(١٠) ورد فى أول الجزء السابع من الترجمة العربية ما يأتى « الجزء  
السابع فيه أخبار املاك ( ملوك ) الرومانيين القياصرة ، من زمان قيصر  
أكتيان ( يقصد اكتافيانوس ) الذى فى دولته ولد المسيح الى الزمان الذى  
كتب فيه هذا الكتاب ، وما أضيف اليه من بعد من دول القوط بالأندلس ،  
الى دخول طارق عليهم أبوابه أربعة عشر » .

(١١) وهى السنة التى قتل فيها الامبراطور والنس Valens  
على أيدي القوط .

(١٢) كما عرب اسمه أيضا الى اهروشيوش ، هروشيوس ، هروسيوس  
أوروشيوش ، أروشيوش ، وغير ذلك ، ويلاحظ ابدال السين شيئا على  
عادة الأندلسيين .

(١٣) ص ٥٣ .



ويرد تعبير جوف<sup>(١٤)</sup> بمعنى شمال ، وقبيلة<sup>(١٥)</sup> بمعنى جنوب ،  
 وفحوص<sup>(١٦)</sup> بمعنى سهول ، وسلاطين<sup>(١٧)</sup> بمعنى ملوك Reges  
 ومجوس<sup>(١٨)</sup> بمعنى وثنيين Pagani ومصحف<sup>(١٩)</sup> بمعنى سفر أو  
 كتاب ديني . بل ترد أبيات شعرية في صياغة عربية ، تعليقا على ما ورد  
 بشأن صلب المسيح عليه السلام<sup>(٢٠)</sup> ، وليس لهذه الأبيات أصل في النص  
 اللاتيني . ويذكر من نسل سام بعض من ليس لهم ذكر في سفر  
 التكوين ، مثل قحطان وعرب اليمن<sup>(٢١)</sup> ، ويمسك في الوقت نفسه عن  
 تعيين الذبيح ، ويدعو إبراهيم عليه السلام بالخليل<sup>(٢٢)</sup> .

الطريف أيضا أنه يعرب كمبانيا Campania في إيطاليا  
 بالقنبانية<sup>(٢٣)</sup> وهو الاسم الذي كان يطلق على كورة قرطبة<sup>(٢٤)</sup> ، كما  
 يعرب بلاد ما بين النهرين Mesopotamia بالكوفة<sup>(٢٥)</sup> . ويدعو  
 الضرائب الغير الشرعية التي منعها الامبراطور أنطونينوس بيوس  
 Antoninus pius بالمغارم والوظائف<sup>(٢٦)</sup> ، بل يدعو رجال الجيش  
 Militaria بأهل الديوان<sup>(٢٧)</sup> ، والمناصب الحكومية بالخطط<sup>(٢٨)</sup> ،

(١٤) ص ٥٨ .

(١٥) ص ٦٠ .

(١٦) ص ٦١ .

(١٧) ص ١٦٧ .

(١٨) ص ٤٢٢ .

(١٩) ص ٢٧٩ .

(٢٠) ص ٤٢١ .

(٢١) ص ٨٧ .

(٢٢) ص ٩١ .

(٢٣) ص ٢٦٠ .

(٢٤) Campiña وقد أبدل الأندلسيون كعادتهم الميم نونا .

(٢٥) ص ٤٣٧ .

(٢٦) ص ٤٣٨ .

(٢٧) ص ٤٤٧ .

(٢٨) ص ٤٦٢ وقد جرت عادة الأندلسيين على أن يقولوا خطة  
 الوزارة ، خطة القيادة ، خطة البريد ، خطة الخيل ، خطة الرد ، الى غير  
 ذلك .



ونقيب العامة Tribuni plebi بصاحب خراج الرومانيين (٢٩)  
ويستخدم تعبير اطباء (٣٠) ، ويصد به استمالة • ويصل به الأمر الى  
حد الخطأ فيعرب الكلدانيين Chaldaei بالقضاعيين (٣١) •

### ( 3 )

ننتقل الآن الى قضية القضايا ، وهى متى تمت ترجمة كتاب  
أوروسيوس ؟ ومن الذى قام على هذه الترجمة ؟

فى سنة ٣٣٧/١٩٤٨ - ٩٤٩ ( أو ٣٣٦/٩٤٧ - ٩٤٨ ) (٣٢) أرسل  
ملك الروم ويدعوه ابن جلجل (٣٣) بارمانيوس (٣٤) - الى عبد الرحمن

(٢٩) ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٣٠) ص ٤٥١ ، ويرد تعبير اطباء اليمن على لسان أبى عثمان  
عبيد الله بن عثمان مولى بنى أمية ، فى حديثه عن دخول عبد الرحمن بن  
معاوية فى سنة ٧٥٩/١٣٨ فيقول : « فانقطع رجاؤنا من مضر وزبيعة  
بأسرها ، ورجع رأينا الى اطباء اليمن وادخالهم فى رأينا » أخبار مجموعة  
فى فتح الأندلس . نشر لافوينتى ائى الكانترا ، مدريد ١٨٦٧ ص ٧٤ .

(٣١) ص ١٦٨ .

(٣٢) ابن خلدون : العبر . القاهرة ، بولاق ، المطبعة الكبرى ١٢٨٤ هـ  
ج ٤ ص ١٤٣ .

(٣٣) ابن أبى أصبغة : عيون الانباء فى طبقات الأطباء . تحقيق نزار  
رضا . بيروت . مكتبة الحياة ١٩٦٥ ص ٤٩٤ .

(٣٤) يقصد رومانوس الأول ليكابينوس Romanus Lecapenus  
٩٢٠ - ٩٤٤ وهو خطأ لأن الامبراطور المعاصر لارسال الكتابين هو  
قسطنطين السابع : بورفيروجينيتوس Constantinus Porphyrogenitus  
٩١٣ - ٩٥٩ ، وكان زوجا لابنة رومانوس ، والامبراطور الشرعى ،  
لكن رومانوس استبد دونه بالسلطة وقاسمه لقبه من سنة ٩٢٠ الى سنة  
٩٤٤ . وربما دفع ابن جلجل الى هذا الخط شهرة رومانوس ، وما أحرزه  
من أمجاد على المستوى الثقافى بتصنيفه عدة كتب ، وبخاصة فى التاريخ ،  
ونهوضه بالحركة العلمية فى عصره . راجع :

Ostrogorsky; George : History of the Byzantine State trans by  
Joan Hussey. Rutgers University Press, 1957. pp. 234-248.



التاصر ٩١٢/٣٠٠ — ٩٦١/٣٥٠ بكتاب الحشائش<sup>(٣٥)</sup> لديسقوريدس Dioscurides ومعه كتاب هروشيوش • ولما لم يكن فى الأندلس من يحسن اليونانية ، استجاب الملك لطلب الخليفة وبعث بنقولا الراهب الذى قام بالعبء الرئيسى فى ترجمة كتاب ديسقوريدس واعانه نفر من المسلمين ، أحدهم على دراية باليونانية ، وأضحت هذه الترجمة معتمد الأندلسيين ، وحلت محل ترجمة مشرقية ، تنسب الى اصطفن ابن بسيل ، راجعها حنين بن اسحق •

لا يهمننا فى هذا المقام كتاب ديسقوريدس ، انما يهمننا كتاب هروشيوش ، ويورد ابن جلجل على لسان ملك الروم « وأما كتاب هروشيوش ، فعندك فى بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطينى ، وان كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطينى الى اللسان العربى » •

مفهوم رواية ابن جلجل ان كتاب هروشيوش ، ترجم فى فترة ما بعد وصوله الى الأندلس واستفاد منه ابن جلجل نفسه ، لكنه لا يصرح بشخصية المترجم • وقد وصلتنا هذه الترجمة وكان قمينا بها أن تحل المشكلة ، لولا أن صفحة العنوان منزوعة منها ، كما ان الصفحات الأخيرة منزوعة أيضا ، وربما ورد فى حردة المتن ما يشفيها •

نمضى بالبحث خطوة أخرى فيجبها نسان لابن خلدون •

فى معرض حديثه عن بنى اسرائيل وتاريخهم ، يشير ابن خلدون<sup>(٣٦)</sup> الى مصادره كالطبرى والمسعودى وصاحب حماة ( يقصد أبا الفدا ) « وما نقله أيضا هروشيوش مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجمه للحكم المستنصر من بنى أمية قاضى النصارى وترجماتهم بقرطبة وقاسم بن أصبغ » وبعد عديد من الصفحات يقول<sup>(٣٧)</sup> « وخبر

---

(٣٥) أو الأدوية المفردة Materia Médica •

(٣٦) المصدر نفسه ص ٨٨ •

(٣٧) ص ١٩٧ •



هروشيوش مقدم ، لأن واضعيه مسلمان كانا يترجمان لخلفاء الاسلام  
بقرطبة ، وهما معروفان ووضعوا الكتب .»

نخرج من نصي ابن خلدون بمعلومات ثلاث ، فالترجمة تمت بتوجيه  
من الحكم المستنصر ٩٦١/٣٥٠ — ٩٧٦/٣٦٦ ، وقام عليها اثنان من  
المسلمين ، شغل أحدهما منصب قاضي النصارى ، أما الآخر فهو  
قاسم بن أصبغ .

أما عن المعلومة الأولى ، فيغلب انها صحيحة ، لما عرف عن  
الحكم — أغسطس الأندلس — من حب للكتب وشغف بجمعها ، وتشجيع  
على تصنيفها ، ومشاركته نفسه في ذلك .

يقول ابن حيان<sup>(٣٨)</sup> — مؤرخ الأندلس الكبير ( ت ٤٦٩ هـ )  
« ولم يسمع في الاسلام بخليفة ، بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب  
والدواوين ، وإيثارها والتهمم بها . أفاء على العلم ، ونوه بأهله ،  
ورغب الناس في طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته الى فقهاء الأمصار  
النائية عنه » .

المعلومة الثانية ، وهي أن أحد المترجمين كان مسلما ، يشغل  
منصب قاضي النصارى لا نستطيع أن نتقبلها كما هي ، فلم تجر العادة  
في الأندلس على ذلك ، لأن النصارى كان لهم قاضيه الخاص بهم من  
أهل دينهم ، ويدعى قاضي النصارى أو قاضي العجم ، وعرف في  
اللاتينية باسم Censor أو Judex<sup>(٣٩)</sup> وصار في القشتالية

---

(٣٨) ابن الأبار : الحلة السيرة . تحقيق حسين مؤنس . القاهرة ،  
الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ ج ١ ص ٢٠١ .

(39) Lévi-Provençal, E : Histoire de l'Espagne Musulmane, Leide  
Brill, 1950. vol III. p. 219.



Alcalde (٤٠) ، وكان تعيينه وعزله من شأن الخليفة ، لكنه يحكم بين قومه بما جاء في كتاب القوانين Liber judiciorum الذى عرف فيما بعد بـ Furero Juzgo (٤١) . وقد عرف ابن حزم ( ت ٤٥٦ هـ ) هذا الكتاب وأشار اليه فى الفصل ، ويتحدث عن أحد هؤلاء القضاة — وقد عاصره — وكان يتكرر عليه بمجلسه ، وعارضه مرة فى بعض ما ورد فى القرآن الكريم عن أهل الجنة وفند ابن حزم زعمه بنص الانجيل نفسه (٤٢) .

ولا يتناقض اختصاص النصارى بقاض من أهل دينهم مع سماح الدولة لهم بأن يتقاضوا اذا هم شاءوا الى قاضى المسلمين ، بل والزامهم بذلك اذا كان أحد طرفى الخصومة مسلما ، أو كان الأمر يتصل بحد أو قصاص أو تعزير (٤٣) .

(40) Simonet : Historia de 'os Mozarabes de España. Madrid, Est Tip de la viude è Hijos de m Tello 1897-1903 p. 108.

(41) Lèvi-Provençal : l'Espagne Musulmane au xème siècle. Paris Larose, 1932. p. 37.

وقد وضع الارك الثانى نواة هذا الكتاب فى سنة ٥٠٦ باسم lex Romana ودعى فيما بعد بمختصر الارك Breviarium Alarici وبعد عدة ذيول وشروح دعى بكتاب القوانين واشتهر بقانون ركسفنت lex Romana Reccesvindiana

راجع :

O'callaghan, J. F. A history of medieval Spain. Cornell univ. Press, 1975, p. 40, Cambridge medieval history. 1936 vol. II p. 178.

(٤٢) القاهرة ، الخانجى ، ١٣٢٠ هـ ج ٢ ص ١٠٨ — ١٠٩ ، وانظر أيضا ج ٢ ص ٣ ، المحلى . تحقيق أحمد محمد شاكر . القاهرة ، ادارة الطباعة المنيرية ١٣٤٨ هـ ج ٩ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٤٣) راجع فى هذا الشأن وثائق فى أحكام أهل الذمة فى الاندلس مستخرجة من الأحكام الكبرى لابن سهل ( ت ٤٨٦ هـ ) تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف . القاهرة المركز العربى الدولى للاعلام . ١٩٨٠ . والمعيار المغرب للونشريشى ( ت ٩١٤ هـ ) مخطوط بدار الكتب رقم ٩٠ فقه مالك م ١ ورقة ١٧٣ ، ب ١٧٤ م ٥ ورقة ٢٠٨ أ وانظر اطروحتنا لدرجة الدكتوراه « المعاهدون فى الاندلس » جامعة القاهرة ١٩٨٣ ص ١٤٤ — ١٤٦ .



ترفض اذن المعلومة الثانية ، وننتقل الى المعلومة الثالثة وهي الخاصة بالمترجم الآخر قاسم بن أصبغ ، ونراجع أقدم كتب التراجم العامة بالأندلس ، وأشهرها جميعا وهو تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ( ت ٤٠٣ هـ ) .

لدينا ثلاثة من الأندلسيين عاشوا في القرن الرابع الهجري ، ودعوا بالاسم نفسه أو لهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح ابن عطاء البياني<sup>(٤٤)</sup> ، مولى الوليد بن عبد الملك ، وقد ولد في سنة ٨٥٩/٢٤٤ ومات في سنة ٩٥١/٣٤٠ . سمع بقرطبة من بقى بن مخلد وأبى عبد الله الخشني وابن وضاح وأصبغ بن خليل وغيرهم ، ورحل الى المشرق ، فسمع بمكة والكوفة وبغداد ومصر والقيروان . وكان من جملة رجاله الترمذي وابن أبي خيثمة وعبد الله بن أحمد بن حنبل وعبد الله بن مسلم بن قتيبة ومحمد بن يزيد المبرد وأحمد بن يحيى ابن يزيد ثعلب ، وبعد عودته الى الأندلس ، سمع منه الخليفة عبد الرحمن الناصر وولده الحكم .

يستطرد ابن الفرضي فيقول « وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث ، وألحق الصغار والكبار في الأخذ عنه ، وكانت الرحلة في الأندلس اليه ، وفي المشرق الى أبي سعيد بن الأعرابي ، وكانا متكافئين في السن » .

« وكان قاسم بن أصبغ بصيرا بالحديث والرجال ، نبلا في النحو والغريب والشعر ، وكان يشاور في الأحكام » .

الثاني هو قاسم بن أصبغ بن أبي الأسود بن عبد الواحد من أهل باجة « وكان من أهل الرواية والحديث ، وكان أدبيا بليغ اللسان جيد القلم ... »<sup>(٤٥)</sup> .

---

(٤٤) الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ ج ١ ص ٣٦٤ - ٣٦٧ تر ١٠٧٠ .  
(٤٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٦٧ تر ١٠٧١ .



الثالث حفيد للأول وهو قاسم بن محمد بن قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطاء البياني (ت ٣٨٨/٩٩٨) « روى عن جده قاسم بن أصبغ ، وكان أدبيا حسن الخلق حليما استقضاها الحكم أمير المؤمنين رحمه الله على كورة تدمير ، واستقضاها المؤيد بالله أمير المؤمنين أعزه الله على مدينة الفرج ، وقد سمع منه جماعة من الناس ، وكتبت أنا عنه قديما وأجاز لي جميع ما رواه عن جده » (٤٦) ♦

نستبعد مبدئيا قاسما الثاني ، فترجمته عند ابن الفرضي عامة وقصيرة ، ولا يهتم بذكر شيوخه ولا تلاميذه ، ولا كتب صنفها ، كما لا يهتم أيضا بتحديد سنة وفاته ونستبعد أيضا قاسما الثالث ، فترجمته قصيرة ، ولا يذكر من شيوخه غير جده ، أما تلاميذه ، فجماعة من الناس دون تحديد ، ورغما عن أن ابن الفرضي سمع منه وأجازه ، فإنه لا يشير إلى كتب صنفها ، ناهيك عن كتاب ترجمه أو شارك في ترجمته ♦

المرشح الوحيد ليكون مشاركا في ترجمة كتاب أورو سيوس أو مراجعته هو قاسم الأول ولنا عليه عدة ملاحظات ♦

١ — لم يرد في أى من كتب التراجم الأندلسية (٤٧) وغير الأندلسية ذكر لدور قام به في ترجمة كتاب هروشيوش ، وكان قمينا بهذه الكتب أن تنوه به ، لما كان لقاسم من شهرة فائقة في عصره وما تلاه من عصور (٤٨) ♦

(٤٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٧٠ تر ١٠٧٩ .  
(٤٧) مثل الحميدى : جذوة المقتبس القاهرة ١٩٦٦ . ص ٣٣٠ — ٣٣١ تر ٧٦٩ ، الضبى : بغية الملتبس . القاهرة ١٩٦٦ . ص ٤٤٧ — ٤٤٨ تر ١٢٩٨ ، ابن فرحون : الديباج المذهب . القاهرة ١٩٧٢ ج ٢ ص ١٤٦ ، المقر : نفح الطيب . تحقيق احسان عباس . بيروت ١٩٦٨ ج ٢ ص ٤٧ — ٤٩ تر ١٤ ، السيوطى : بغية الوعاة . القاهرة ١٩٦٤ ج ٢ ص ١٣١ .

(٤٨) خصوصا وان هذه الكتب تتحدث عن درايته الواسعة بعلم التاريخ . يقول ابن الفرضي « وانصرف قاسم بن أصبغ الى الاندلس بعلم كثير ، ومال الناس اليه في تاريخ أحمد بن زهير وكتب ابن قتيبة ، وكانت الموردة عليه في هذه الكتب دون صاحبيه محمد بن أيمن وابن ابى الأعلى » .



٢ — بل ان ابن حزم<sup>(٤٩)</sup> — وهو العالم الكبير الواسع الثقافة الملم بتراث اسبانيا القديم وتراث المسيحية — لا يشير الى ذلك ، عندما تعرض لفضائل قومه وماآثرهم فى رسالته المشهورة •

٣ — لا يرد فى كتب التراجم الأندلسية حديث عن معرفة قاسم باللغة اللاتينية من قريب ولا من بعيد ، وكان جديرا بها هذا الحديث ، لأنها أوردت أخبارا عن معرفة غيره من علماء الأندلس بها<sup>(٥٠)</sup> •

٤ — والأهم من ذلك أن قاسما مات فى سنة ٣٤٠ هـ عن سن عالية ( ٩٦ سنة ) •

ويعلق ابن الفرضى الذى عاش فى مرحلة قريبة منه « وكان متمتعا بذهنه لا ينكر عليه شيء الا النسيان خاصة ، الى ذى الحجة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ( ٩٤٩ م ) ومن هذا التاريخ تغير وحال ذهنه الى أن مات » •

معنى ذلك أن قاسم بن أصبغ ضعف نشاطه الى حد كبير قبيل ورود كتاب أوروبسيوس ، الى الأندلس ، ثم توقف هذا النشاط تماما لدى وروده •

لم تحل المشكلة اذن • ونعاود قراءة نصى ابن خلدون ، ونحاول أن نعرض لآراء من سبقنا اليهما •

---

(٤٩) رسالته فى تفصيل الأندلس ، وأوورد نصها المقرى فى نفحه ج ٣ وورد ذكر قاسم بها ص ١٦٩ ، ١٧٤ •

(٥٠) مثل القاضى سليمان بن أسود الذى ولى قضاء الأندلس مرتين فى عده الأمير محمد ٨٥٢/٢٣٨ — ٨٨٦/٢٧٣ . الخشنى : قضاة قرطبة . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ ص ٨٠ . كما كان الأمير عبد الرحمن الأوسط ٨٢٢/٢٠٦ — ٨٥٢/٢٣٨ يعرفها أيضا . الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين . القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٨٧ •



يعد المستشرق الايطالى ليفى ديلا فيدا Giorgio Levi della Vida أول من تناول هذه المشكلة فى عام ١٩٥١<sup>(٥١)</sup> ، ثم عاد وتناولها مع قدر من التفصيل فى عام ١٩٥٤<sup>(٥٢)</sup> ويلاحظ أنه :

١ — اذا كان خبر ارسال كتاب ديسقوريدس الى الأندلس ممكناً ، فان خبر ارسال كتاب اوروسيوس بعيد ، لأنه من المستبعد وجود مخطوطات لاتينية فى الدولة البيزنطية فى القرن العاشر •

٢ — يصعب أن يقوم قاسم بن أصبغ بدور فى نقل كتاب اوروسيوس الى العربية بعد سنة ٣٣٧ هـ ، بسبب تغير ذهنه ، ولذا يرجح أن هذه الترجمة ، تمت فى فترة مبكرة قبل ورود الكتاب الى الأندلس — اذا كان قد ورد — ومن نسخة كانت موجودة هناك •

٣ — تحدد عمل قاضى النصرارى فى نقل الكتاب من اللاتينية الى العربية ، وتحدد عمل قاسم بن اصيغ فى الصياغة العربية •

---

(51) La tradizione araba della storia di orosio. miscellanea G. Galbiati, III milano. 1951. pp. 185-203.

(52) La Tradizione araba della storia di orosio, Al-Andalus vol XIX, Fasc 2 pp. 257-265.

وقد تعرض لهاتين الدراستين فؤاد سيد فى مقدمة تحقيقه لكتاب ابن جليل : طبقات الأطباء والحكماء . القاهرة ١٩٥٥ ص ل — لب ، حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الاندلس . مدريد ١٩٦٧ ص ٣٢ — ٣٩ ، عبد الرحمن بدوى فى مقدمة تحقيقه لكتاب اوروسيوس ص ١٧ — ٢٠ .

Van Koningsveld; p. Sj : Latih Arabic glossary of the Leiden university library leiden 1977 p. 56.



٤ - ويرجح أن قاضي النصاري هو حفص بن البر أو الوليد ابن خيزران ( خيزون ) ويدعوه ابن خلدون<sup>(٥٣)</sup> بالوليد بن مغيث ، والأخير كان معاصرا للحكم المستنصر .

يلاحظ أن ليفي ديلا فيدا في سعيه للالتفاف حول نص ابن خلدون ، ينحو نحو توفيقيا ، لكننا لا نستطيع أن نتقبل رأيه كما هو ، ففيما عدا النقطة الأولى الخاصة بورود نسخة كتاب أوروبسيوس أو عدم ورودها ، فإن ابن جلجل - وهو الكاتب المعاصر - الذي طالع النسخة العربية من الكتاب لا يشير الى ترجمة مبكرة له ، أما عن مشاركة عالم مسلم أندلسي في هذه الترجمة ، فأمر لا نجد له مثيلا ، على الأقل خلال القرن الرابع الهجري ، وبخصوص تحديد هوية قاضي النصاري ، فلا توجد نصوص قوية ، يستند اليها ليفي ديلا فيدا . . ولنا عود الى هاتين النقطتين .

وفي عام ١٩٥٥ نشر الاستاذ فؤاد سيد تحقيقا لكتاب ابن جلجل « طبقات الأطباء والحكماء » ، وقد قبل بمعظم ما جاء به ديلا فيدا ، لكنه يضيف أن الترجمة تمت في سنة ٣٣٦ أو ٣٣٧ ، أي عقيب وصول الكتاب ، وقبل أن يتغير ذهن قاسم بن أصبغ مباشرة ، وقد سبق في ذلك ترجمة كتاب ديسقوريدس التي تمت في سنة ٣٤٠ هـ لأن اللاتينية كانت أيسر في الترجمة من اليونانية لشيوعها عند أهل الأندلس<sup>(٥٤)</sup> .

على أن ما يذهب اليه فؤاد سيد لا يحل المشكلة ، لأنه حتى مع التسليم بأن الترجمة تمت عقيب وصول الكتاب مباشرة ، فإن الضعف كان قد أصاب قاسم بن أصبغ الذي تجاوز في ذلك الحين عتبة التسعين .

ووجد رأى ديلا فيدا التأييد نفسه من الاستاذ حسين مؤنس في كتابه الذي أصدره في سنة ١٩٦٧ بعنوان « تاريخ الجغرافية

(٥٣) المصدر نفسه ص ١٤٥ .

(٥٤) ص لب من المقدمة .



والجغرافيين فى الأندلس » ويضيف مؤنس معلومة جديدة ، وهى أن أحمد بن محمد الرازى المعروف بالتاريخى ( ت ٣٤٤ هـ ) وهو تلميذ لقاسم بن أصبغ أخذ جغرافيته عن هروشيوش ، مع قدر من التطوير يتلاءم مع الظروف التى جدت بمقدم المسلمين<sup>(٥٥)</sup> .

نرى من ناحيتنا أن الربط بين الرازى — عبر قاسم بن أصبغ — وبين أروسيوس ليس له ما يبرره ، ونرجح أن معلومات الرازى الجغرافية منقولة من مصادر أخرى غير أروسيوس ، أو غير الترجمة الأندلسية له . ونفصل ذلك بعد .

أخيرا فان هؤلاء — ليفى ديلافيدا ، فؤاد سيد ، حسين مؤنس — لم يعطونا رأيا محددًا فى نص ابن خلدون القائل بأن مترجمى كتاب أروسيوس كانا من المسلمين .

فى عام ١٩٨٢ صدرت الترجمة العربية من كتاب أروسيوس بعنوان « تاريخ العالم » ويرفض المحقق الفاضل الاستاذ عبد الرحمن بدوى<sup>(٥٦)</sup> نص ابن خلدون لأن قاضى النصارى ، لابد وأن يكون نصرانيا ، ويشير الى واحد من كبار النصارى المعاصرين وهو أصبغ ابن عبد الله بن نبيل الجاثليق ، وربما يكون ابن خلدون قدسها ، فكتب اسمه محرفا ، بسبب شهرة قاسم بن أصبغ وسرعة وروده على الذاكرة وينتهى باننا لانعرف حتى الآن من هو الذى ترجم كتاب أروسيوس الى العربية<sup>(٥٧)</sup> .

وثمة رأى جدير بالدراسة ، أتى به باحث هولندى هو فان

---

(٥٥) ص ٣٩ وما بعدها .  
(٥٦) ص ١٠ — ١٥ من المقدمة .

(٥٧) يرى بدوى أيضا انه اذا كان ثمة قاسم بن اصبغ شارك فى الترجمة ، فهو قاسم الثالث ( ص ١٣ من المقدمة ) وهو رأى لا نوافقه عليه ، تراجع ما سبق وذكرناه بخصوصه .



كوننجنسفلد<sup>(٥٨)</sup> في أطروحته لدرجة الدكتوراه من جامعة ليدن في سنة ١٩٧٦ ، فيدعي ان الكتاب كله من ترجمة قاضى النصارى وحده ودليله •

١ — من الغريب أن يتحدث ابن خلدون عن مترجمين ، فيذكر مهنة أحدهما دون اسمه واسم الآخر دون مهنته •

٢ — ابن جلجل يلمح — من خلال رسالة ملك الروم الى الخليفة الناصر — بأن ترجمة الكتاب من نصيب الدوائر النصرانية التى لها ذراية باللاتينية •

٣ — الأهم من ذلك كله ان النص الأول لابن خلدون ورد فى مخطوط العبر بليدن<sup>(٥٩)</sup> وفى مخطوطه الآخر بالمتحف البريطانى<sup>(٦٠)</sup> كالآتى « وما نقله أيضا هروشيوش مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجمه للحكم المستنصر من بنى أمية قاضى النصارى وترجماتهم بقرطبة قاسم ابن أصبغ » • فلا توجد واو عطف سابقة لقاسم بن أصبغ ، وذلك بخلاف طبعة بولاق ، وبذا يصير لدينا مترجم واحد لا مترجمان •

فى تقديرنا أن رأى الباحث الهولندى يجعلنا على أول الطريق لاستكشاف شخصية المترجم أو المترجمين لكتاب اوروسيوس ، رغما عن أنه يطرح هذا الرأى على نحو عام ، بحكم أن قضية هذا الكتاب قضية جانبية فى أطروحته •

بيد أن هذا الرأى لا يحسم المشكلة تماما ، وربما لم يكن الخطأ فى طبعة بولاق وانما فى مخطوطى ليدن والمتحف البريطانى ، ثم انه مع

---

(58) Op. cit. pp. 57-59.

Cod. or. 1350.

Add. 23. 271.

(٥٩) ورقمه

(٦٠) ورقمه



التسليم برأى الباحث ، فانه لا يحل مشكلة النص الآخر لابن خلدون ،  
كما انه ليس لدينا معلومات عن قاض نصرانى يدعى قاسم بن أصبغ •

• ونعيد ترتيب الأوراق •

( 5 )

١ — نستبعد بداءة دورا لقاسم بن أصبغ فى ترجمة كتاب  
أوروسيوس لأنه لم يكن يعرف اللاتينية ، ونستبعد أيضا مراجعته  
الصياغة العربية فى سنة ٣٣٦ ( أو ٣٣٧ ) لأنه وان لم يتغير ذهنه حتى  
ذلك الحين ، الا انه كان شيخا كبيرا تجاوز التسعين من عمره وكان قد  
ضعف نشاطه •

وبذا يسقط احتمال أن يكون قاسم بن أصبغ مترجما لكتاب  
أوروسيوس أو مراجعا له •

٢ — ولا مجال للتعسف والربط بين الرازى<sup>(٦١)</sup> وبين كتاب  
أوروسيوس عبر قاسم بن أصبغ — والذي أخذ عليه الرازى — فالرازى  
ولد فى سنة ٢٧٤/٨٨٨ ومات فى سنة ٣٤٤/٩٥٥ ، أى أنه بلغ أوج  
نشاطه قبل ورود كتاب أوروسيوس بسنوات طويلة ، أنشأ خلالها كتبه  
التاريخية ، هو اذا كان قد أخذ عن قاسم بن أصبغ ، فان كثيرا من أعلام  
عصره أخذوا عنه ، ثم ان الرازى لا يشير فى كتابه ولا فى النقول  
المأخوذة عنه الى أوروسيوس •

---

(٦١) راجع فى ترجمته ابن الفرضى : المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢ تر  
١٣٧ ١٣٧ وكذلك الحميدى جذوة المقتبس : ص ١٠٤ تر ١٧٥ . وقد ترجم  
تاريخ الرازى الى البرتغالية ( ربما فى أوائل القرن الرابع عشر ) والى  
الاسبانية فى سنة ١٣٤٤ على يدى خيل بريث واشتهر باسم La Cronica  
del Moro Rasis وضاع أصله العربى راجع :

Diccionario de historia de España, tomol p. 813.



وإذا كان مؤنس يستند الى بعض أوجه التشابه بين جغرافية الرازى وبين جغرافية أورو سيوس ، من حيث تقسيم الأندلس ( أو اسبانيا ) الى اندلسيين أو ( اسبانيّتين ) فان تقسيم الرازى من منطلق جغرافى ، فى حين أن تقسيم أورو سيوس من منطلق سياسى ، وجغرافية الأندلس لا تفوز من أورو سيوس ( الترجمة الأندلسية ) بأكثر من خمسة عشرة سطرا<sup>(٦٢)</sup> ، ولا تفوز من أورو سيوس ( الأصل اللاتينى ) بأكثر من سبع عشرة سطرا<sup>(٦٣)</sup> ، لكنها فى المقرئ<sup>(٦٤)</sup> — وهو ينقل عن الرازى — ثلاثة وثلاثون سطرا • وإذا كان الرازى — وهو مؤرخ — ينقل عن أورو سيوس — وهو مؤرخ مثله — فقد كان أحرى به أن يركز على التاريخ ، نلاحظ فى النقول عن الرازى — فى المقرئ مثلا<sup>(٦٥)</sup> — عدم وجود هذا التأثير ، فأخبار الأندلس فى عهد اكتيان (يقصد أكتافيانوس) لا نجد لها مقابلا فى الترجمة الأندلسية لأورو سيوس •

وإذا كان الرازى قد تأثر بأورو سيوس أو نقل عنه ، فمن الممكن أن يكون ذلك قد تم من خلال نصارى شبه الجزيرة المستعربين ، الذين كانوا على معرفة بكتاب أورو سيوس لشهرته ، وليس من خلال النقل من الترجمة العربية •

وعلى ذلك لا يكون الرازى — كما يذهب مؤنس — هو أول من استفاد من أورو سيوس وإنما هو ابن جليل — على نحو مبتسر — ويبدأ النقل عن أورو سيوس بوضوح فى مرحلة متأخرة نسبيا ، أبرز ممثليها البكرى ( ت ٤٨٧ / ١٠٩٤ ) •

وبذا يسقط أيضا احتمال أن يكون الكتاب قد ترجم فى وقته مبكر •

(٦٢) ص ٦٧ — ٦٨ •

(٦٣) راجع نشرة تسانجمايستر الكتاب الأول الفقرة ٣ بنود ٦٩ — ٧٤ •

(٦٤) أصدر نفسه ج ١ ص ١٢٩ — ١٣١ •

(٦٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٨١ •



٣ — كما نستبعد دورا لأحد آخر من المسلمين الأندلسيين فى ترجمة كتاب أوروسيوس وهو أمر نجد مشابها له فى المشرق ، اذ كان يضطلع بمهمة الترجمة عن اليونانية قوم نصارى من أصول سريانية أو رومية على نحو أساسى • والدور الذى نهض به عريب بن سعد ( ت ٣٦٦ هـ ) — وهو مسلم من أصل نصرانى — فى التقويم القرطبى يتحدد فى كتابة النص العربى ، فى حين نهض ربيع بن زيد Rec emundo الأسقف النصرانى بكتابة النص اللاتينى ، أو انه كتب نصا عربيا ترجم بعد ذلك الى اللاتينية ، ويتفوق هذا النص فى حجمه على النص العربى •

٤ — ولا يجوز أيضا أن يراجع عالم مسلم ثقافته تدور على نحو أساسى فى مجال العلوم الاسلامية نصا تاريخيا ذا طبع نصرانى ، من انشاء حبر نصرانى ، أهدها الى حبر نصرانى آخر أكبر منه ، بهدف خفى مسئولية النصرانية عن زوال الامبراطورية الرومانية ، وغصت هذه الترجمة بنقول عديدة ، لم تكن موجودة فى الكتاب أصلا ، وبعضها عن يوسابيوس القيسراني والقديس جيروم ، صاحب الترجمة المشهورة للكتاب المقدس Vulgata وغيرهما من أجبار الكنيسة (٦٦) •

بل ان الصلة التى أضيفت الى كتاب أوروسيوس ، والخاصة

---

(٦٦) من هذه النقول ما يرد بشأن خلق العالم ، وان الله تعالى خلقه فى ستة أيام ، وارتاح فى اليوم السابع ( السبت ) ص ٨٢ وهذه المعلومة تختلف عما يعتقد المسلمون وما يرد أيضا بشأن صلب المسيح عليه السلام ، فلم يكن لعالم مسلم أن يتركه كما هو دون تعليقة من عنده ، بل ان هذا الخبر يرتبط بأبيات شعرية ينسبها المترجم الى شاعر روماني دعاه مركس ، هذه الأبيات بعضها مكسور ص ٤٢١ — ٤٢٢ وهو أمر غريب على قاسم ابن اصبغ أو غيره •



بملوك القوط ، يغلب أنها منقولة عن تواريخ ايسيدور<sup>(٦٧)</sup> ، الذى عرفه العرب بأشيزر ( ت ٦٣٦ م ) وايسيدور هذا كان مطرانا لاشبيلية وسجل قديسا فيما بعد ، وللأسف ضاعت هذه النقول من جملة ما ضاع من النسخة الأندلسية .

٥ — اذن فالذى قام على ترجمة كتاب أوريوس ، لابد وأن يكون نصرانيا ، وهذا المترجم ليس بحاجة الى زميل له مسلم ، يعينه فى الترجمة ، فمن النصارى من كان على دراية واسعة باللغة العربية وبراعة فيها ، استلقت نظر ألبرو Alvaro القرطبى قبل نحو مائة عام ، وجعلته يتحسر على انصراف شباب جيله عن لغته اللاتينية الأم الى لغة أخرى أجنبية عنهم<sup>(٦٨)</sup> .

٦ — اذا نحن راجعنا تاريخ الأندلس فى عصر الخلافة ، نلاحظ أن البعثات والسفارات الأندلسية الى الممالك النصرانية خارج الأندلس ، بل وخارج شبه الجزيرة ، كان يقوم بها قوم من نصارى الأندلس — قوامس ورجال دين وقضاة — حصرا ، وليس لدينا فى مصادرنا اشارة الى أن قام بها مسلمون .

٧ — نفترض انه كان فى الأندلس نسخ من الأصل اللاتينى لكتاب أوريوس لم يتنبه اليها أحد من المسلمين ، الا بعد وصول هدية ملك الروم ، فكانت حافزا قويا على الترجمة ولدى تولية الحكم المستنصر فى سنة ٣٥٠/٩٦١ أمر بعض النصارى بترجمة هذا الكتاب الى العربية . الكتاب ترجم اذن بعد سنة ٣٥٠ هـ ، ويبقى بعد ذلك أن نحدد شخصية المترجم أو المترجمين .

---

(٦٧) Isidorus Hispalensis صار مطرانا لاشبيلية فى سنة ٦٠١ وترأس مجمع طليطلة الدينى فى سنة ٦٣٣ وله عدة كتب أهمها الأصول Etymologiae وهو أشبه بموسوعة علمية كبيرة ، كما أن له كتابا فى التاريخ حظيت بعناية المؤرخ مومسين وأهمها الحوليات Chronica  
Diccionario tomo. II. 173 راجع :

(68) Simonet : op cit pp. 369-371.



فرشح — وغيرنا — لترجمة كتاب التواريخ لأوروسىوس واحداً ( أو اثنين ) من أربعة من قضاة النصارى ورجال دينهم ، هم حفص بن البر ، الوليد بن خيزران ( أو حيزون ) ، أصبغ بن عبد الله بن نبيل ، عبيد الله بن قاسم .

أما أولهم وهو حفص بن البر ، فهو من عائلة غيطشة Witiza ملك القوط الذى أعان ولده العرب ضد رذريق Rudericus مغتصب عرش أبيهم ، فأجازوهم ضياعهم الفسيحة فى أنحاء الأندلس ، وعدتها ثلاثة آلاف ضيعة ، وولد غيطشة هؤلاء هم أرطباس Ardabasto ، المند Olemundo وقله Aquila ( أو رمله Romulo ) (٦٩) .

يهمنا فى هذا المقام وقله الذى داعبه الأمل فى استعادة ملك القوط فثار ضد العرب بمدينة طركونة Tarragona ، وحاصره المسلمون عدة سنوات الى أن استسلم على يدى عنبسة بن سحيم الكلبى والى الأندلس ١٠٣/٧٢١ — ١٠٧ — ٧٢٥ ، وانتقل الى طليطلة ، حيث استعرب ولده وأضحى حفيده البعيد حفص بن البر قاضياً للنصارى (٧٠) .

كان لحفص اسهامه الواضح فى ثقافة قومه من المستعربين ، فقد صنف كتباً فى العقائد ، استعان بها بعض النصارى فى مطالباتهم المسلمين ، ويتضح من اقتباسات الامام القرطبى ، فى ردوده على هؤلاء

---

(٦٩) انظر ما ورد بشأن هؤلاء فى اخبار مجموعة ص ٧ — ٩ وفى ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق ابراهيم الايبارى . القاهرة ، دار الكتب الاسلامية ، ١٩٨٢ ص ٢٩ — ٣٢ .

(70) Simonet : op cit. pp. 170-171.



أنه كن لحفص كتابين ، هما المسائل والحروف ، ويضيف القرطبي (٧١)  
قائلاً : « ان هذا القس الذي هو حفص ، هو من أكيسه وأفصحهم ..  
اذ كان قد نشأ في ذمة المسلمين وتعلم من علومهم ما فاق به النصارى » .

اشتهر حفص أيضا بأنه نظم مزامير داود على بحر الرجز ،  
والنسخة الوحيدة من هذه الأرجوزة ، محفوظة في مكتبة أمبروسيو  
بمدينة ميلانو (٧٢) . وفي المقدمة الشعرية للأرجوزة ، يوضح حفص  
السبب في نظمه للمزامير ، بأن الترجمات السابقة النثرية أفسدت  
جمالها ، لذا جنح الى نظمها على بحر الرجز المشطور (٧٣) ، وهو بحر  
مناسب ، يشبه البحور الأعجمية ( اللاتينية ) وبخاصة بحر ينيق (٧٤) .

نعود الى موضوعنا ونتساءل ، ما دام حفص قد برز في علوم  
النصرانية ، وفي اللغة العربية ، وفي الوقت نفسه شغل منصب قاضي  
النصارى ، فهل هو القاضي الذي ترجم ( أو شارك في ترجمة ) كتاب  
أوروسيو .

نستبعد أن يكون حفص هو هذا القاضي ، فمن تحليل القيمة العددية  
للبيت رقم ١٢٨ من الأرجوزة ، يتضح أنه أنهى عمله في سنة ٩٨٩ (٧٥)  
من تاريخ الصفر وهو ما يعادل سنة ٩٥١ م ( = ٣٣٩ - ٣٤٠ هـ ) ،  
وإذا كان قريبه المسلم المؤرخ ابن القوطية (٧٦) قد توفي في سنة ٣٦٧ /  
٩٧٧ فإنه يكون معاصرا له .

---

(٧١) الاعلام . ص ٤٢٢ .

Ix Teologia Cristiana No. 86.

(٧٢) برقم

(٧٣) مستفعلن مستفعلن مستفعلن .

(٧٤) يقصد البحر السداسي أو اليامي lambus .

(75) Dunlop, D. M : Hafa b. Albar . the last of the Goths. J. R.  
A. S. 1954. pp. 147-148.

(٧٦) ووه حفيد بعيد لسارة ابنة المند بن غيطشة .



لكن ابن القوطية لدى ذكره حفصا لا يشير الى ترجمة قام بها  
لكتاب أورو سيوس وكان قمينا به هذه الاشارة ، لأنه مؤرخ وأورو سيوس  
أيضا مؤرخ •

أما وليد بن خيزران ( أو حيزون ) ويدعوه ابن خلدون بوليد بن  
مغيث ، فيوجد خبر عنه في أحداث سنة ٣٥١/٩٦٢ ، لدى استقبال  
الحكم المستنصر لأردون بن أذفونش<sup>(٧٧)</sup> المنازع لابن عمه شانجه بن  
رذمير ملك ليون<sup>(٧٨)</sup> •

يقول ابن حيان<sup>(٧٩)</sup> ان أردون أتى « وقد حفته جماعة من نصارى  
وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليدين خيزران  
( حيزون ) قاضى النصارى بقرطبة ، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة  
وغيرها » •

يستطرد ابن حيان<sup>(٨٠)</sup> بعد عدة سطور ، فيقول ان أردون بعد أن  
قبل — وصحبه — يد الخليفة « وصل بوصولهم وليد بن خيزران قاضى  
النصارى بقرطبة فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم » •

نشك في أن يكون ابن خيزران هو المترجم لكتاب أورو سيوس ،  
فهو كما يبدو من السياق كان قاضيا للنصارى فى هذه السنة ( ٣٥١ هـ )  
وربما ولى القضاء قبل ولاية المستنصر ، ولا نشهد اسمه مرة أخرى  
فى الترجمة للبعوث ، ويترجح أن يكون الكتاب قد ترجم بعد سنوات  
من تولية الحكم وليس بعيد توليته ، وينفرد ابن خلدون ، فيدعو هذا

---

(٧٧) اردونيو الرابع Drdono IV ٩٥٨ — ٩٦٠ •

(٧٨) سانتشو الأول Sancho I ٩٥٦ — ٩٦٦ •

(٧٩) المقرئ : المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩٠ •

(٨٠) ص ٣٩١ •



القاضي بوليد بن مغيث ، وهو خطأ لم يكن ليقع فيه اذا كان هو مترجم كتاب أورو سنيوس •

أما أصبغ بن عبيد الله بن نبيل وعبيد الله بن قاسم ، فتوجد اشارتان اليهما في ابن حيان<sup>(٨١)</sup> ، ففي أحداث سنة ٩٧١/٣٦٠ وافت الحكم عدة سفارات من ملوك أسبانيا النهرانية وأمرائها ، ومنهم حلوية Elvira ابنة رذمير ، حاضنة رذمير بن شامجه صاحب جليقية<sup>(٨٢)</sup> « وتوصل مع العجم من كبار نصارى قرطبة ، قاضيهم أصبغ بن نبيل ، وأسقفهم عيسى بن المنصور ، وقومسهم معاوية بن لب ، ومطران اشبيلية عبيد الله بن قاسم ، يترجمون عنهم ولهم ففهم الخليفة ما أدوه عن مرسلهم ، وأجمل الرد عليهم فانطلقوا لسبيلهم » •

هناك نص آخر<sup>(٨٣)</sup> أهم من هذا النص ، فقد عاود الحكم رسل حلوية في سنة ٩٧٣/٣٦٣ • يقول ابن حيان « وتوصل اليه بعدهم رسل حلوية عمة الطاغية أمير جليقية وكافلته ، فتكلموا عن مرسلتهم بكلام بدا فيه بعض الجفاء ، ترجمه نصا عنهم أصبغ بن عبد الله بن نبيل ، قاضي النصارى بقرطبة المتولى ذلك عن الأعاجم ، أنكره الخليفة لوقته ، فازور للمترجم ونهره ، وأمر بتأخير الرسل عنه ، ونالهم ببعض التوبيخ ، وألزم أصبغ المترجم ذنبه ، وأمر باقصائه وعزله عن قضاء النصارى واهنته ، وتعريف الرسل بسوء ما أداه عنهم • فقعد لهم صاحب الخيل زياد بن أفلح في بيته بدار الجند ، وعركهم وعرفهم أنه لولا احتجازهم بذمة الرسالة ، لعوجلوا بالعقوبة ، وخص المترجم أصبغ الملامة ، لاقدامه على ما أقدم عليه من سوء المخاطبة ، وخصه بأشد

---

(٨١) المقتبس . قطعة من عهد الحكم المستنصر . تحقيق عبد الرحمن الحجى . بيروت دار الثقافة ١٩٦٥ . ص ٦٤ .

(٨٢) راميرو الثالث Ramiro III ٩٦٦ — ٩٨٤ وكان صغير السن وتولت عمته الراهبة البيرا الوصاية عليه .

(٨٣) المصدر نفسه ص ١٤٦ — ١٤٧ .



الوعيد ، وعرفه بما كان قد هم به أمير المؤمنين فيه ، من غليظ العقاب والتشديد ، لتركه تأديب هؤلاء الأعلام ، وتثقيف ما يلقونه اليه من كلامهم ، اذ كان المقلد ذلك منهم ومن أمثالهم من رسل الطواغيت لولا ما أعقبه من الصفح عنه ، ونفذ العهد الى أحمد بن عروس الموروى المتفقه بالخروج الى جليقية ، رسولا الى العلجة حلوية ، مع رسلها المنقليين عن قرطبة وضم اليه عبيد الله بن قاسم المطران المترجم ، فخرجا مع الرسل الصادرين عنها ، فى عقب صفر المؤرخ ، وكان محمد ابن مطرف يومئذ بناحية الغرب ، فخطب يؤمر بالدخول معهما •

نخرج من هذين النصين بالآتى :

١ — كان أصبغ بن عبد الله بن نبيل قاضيا للنصارى فى الفترة من سنة ٣٦٠ الى سنة ٣٦٣ ، وربما يعود تولية القضاء الى تاريخ أقدم<sup>(٨٤)</sup> ، وزاول الترجمة ، عندما كان يصدر له تكليف بذلك ، وأن وردت الاشارة الى ذلك مرتين فقط •

٣ — وأثبت براعة فى الترجمة وأمانة ، جعلته ينقل عن لسان سفراء حلوية ما لا يجوز نقله ، لدرجة كادت تودى بحياته وأفقدته منصبه •

٣ — وعاصر أصبغ هذا نصرانى آخر هو عبيد الله بن قاسم الذى كان مطرانا لطليطلة فى سنة ٣٥١ هـ ، ثم نجده مطرانا لاشبيلية فى سنة ٣٦٠ كما كان مطرانا ( دون تحديد لاسم مطرانيته ) فى سنة ٣٦٣ ، وربما استمر مطرانا سنوات أخرى تالية •

---

(٨٤) لم يصلنا من مقتبس ابن حيان — فيما يختص بالحكم المستنصر — سو أخبار خمس سنوات ٣٦٠ — ٣٦٥ وبعض هذه السنوات غير كاملة ، وربما ورد فيما ضاع من أوراق هذا المؤرخ الكبير ما يفيدنا فى التعرف على قضاة النصارى وقساوستهم فى عهد الخليفة المذكور •



٤ — وتوجد ثلاث اشارات الى دوره فى الترجمة للدولة ، آخرها انه صاحب رسل حلوية فى سنة ٣٦٣ فى رحلتهم الى بلادهم موفدا من قبل الخليفة الحكم •

٥ — ولا يبعد أنه كان على احاطة بتراث موطنه الاشبيلي القديس ايسيدور ذى الشهرة الفائقة فى أنحاء اسبانيا وأوربا ، وترجمت بعض كتبه الى العربية<sup>(٨٥)</sup> ، والجزء الأخير من كتاب أوريوس فيه نقول عنه على الأرجح ، وان لم تكن وصلتنا<sup>(٨٦)</sup> •

٦ — الاثنان معا — أصبغ بن نبيل وعبيد الله بن قاسم — يجيدان اللغتين العربية واللاتينية ، ويجيدان أيضا الترجمة من احدهما الى الأخرى ، ومقربان الى الخليفة وموضعا لثقتهم ، ويرتبط ذكر الواحد منهما بالآخر ، واذا كانا يتعاونان فى الترجمة فى المهام الرسمية ، فمن الممكن أن يتعاونوا فى الترجمة فى مهام أخرى •

نرجح أن الترجمة من عمل أحد اثنين أصبغ بن عبد الله بن نبيل أو عبيد الله بن قاسم أو هما معا ، واذا كان نص ابن خلدون يشير الى شخص يدعى قاسم بن أصبغ فلا توجد فى مصادرنا — عربية ولاينية — قاض نصرانى بهذا الاسم ، ونرجح أن الأمر اختلط عليه — وهو يكتب بعد فترة طويلة — فأتى باسم يجمع بين الاثنين ويتطابق فى الوقت

---

(٨٥) هناك دلائل على أن كتاب الأصول لايسيدور ترجم الى العربية حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى van koningsveld : op sit p. 60.

(٨٦) بطبيعة الحال فان المترجم النصرانى — خصوصا اذا ما كان اشبيليا — يصير أعرف بكتب ايسيدور من غيره من المسلمين •



نفسه مع اسم اندلسى مسلم جليل ، تواصلت شهرته الى زمانه ، وكان خاضرا فى ذهنه وهو يكتب هذا النص •

ويحل ذلك مشكلة حرف الواو التى يذكرها الباحث الهولندى ، وفى حال حذفها يترجح المترجم فى أحدهما ، وفى حال اثباتها — ويغلب انها كذلك — يترجح أن الترجمة من عملهما معا ، وفى ذلك تفسير لنص ابن خلدون الآخر الذى يقرر أن الترجمة من عمل الاثنى •

أم عن كونهما مسلمين ، فان هذا النص تفصله عن النص الأول صفحات كثيرة ربما جعلت ابن خلدون ينسى ما ذكره أولا ، ثم انه الى جانب ذلك غير دقيق فى تاريخه دقته فى مقدمته ، والاضافة الأساسية فى تاريخه هذا ما كتبه عن المغرب والبربر على نحو خاص ، وهو ينسب الى أورويسوس أخبارا لا نجدها فى الترجمة الأندلسية ولا فى النص الأسمى •

## ( 7 )

ننتهى فى هذا البحث الى الآتى :

شهدت الأندلس نهضة فكرية عظيمة فى القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى — بتوجيه من الخليفتين العظيمين عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر شارك فيهما نصارى الأندلس المستعربون ، ونقلوا الى اللغة العربية ، التى أضحت على نحو أساسى لغتهم ، ما يهمهم من كتب دينية ، وما يهمهم ويهم المسلمين فى الوقت نفسه من كتب فى مجالات أخرى •

وكان كتاب باولوس أورويسوس فى التاريخ ، أحد هذه الكتب التى ترجمت الى اللغة العربية حوالى سنة ٣٦٠ هـ ، واحتفظت الترجمة



العربية بطابع دينى واضح يتناسب مع روح التسامح السائدة فى ذلك الوقت ، بل ان المترجم النصرانى ، أضاف الى النص الأسمى نقولا من كتاب كنسيين قدامى ، ومن كتاب كنسيين عاصروا حكم القوط •

ويترجح أن هذه الترجمة من عمل القاضى أصبغ بن عبد الله بن نبيل أو المطران عبيد الله بن قاسم أو هما معا •

ولا نستطيع أن ننتقل من الترجيح الى القطع ، الا بتوصلنا الى نسخة أخرى عربية من هذا الكتاب •







# الفناء الكبير والموت الأسود فى القرن الرابع عشر الميلادى دراسة مقارنة بين الشرق والغرب

د. على السيد على محمود  
مدرس تاريخ العصور الوسطى  
بكلية التربية بالفيوم — جامعة القاهرة

شهدت البشرية على مر عصورها التاريخية كثيرا من الأوبئة ، لكن  
ينفرد الطاعون الذى انتشر فى الفترة من ١٣٤٧ — ١٣٥١ م بأنه أكثر  
تلك الأوبئة التى عرفتها البشرية فتكا وهولا ، وهو الذى أطلق عليه  
المؤرخون فى الشرق العربى اسم « الفناء الكبير » أو « الفصل الكبير » ،  
والذى امتد أثره بحيث عم أقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ،  
وأنشأ مخالبه فى جميع أجناس البشر ، بل وامتد أثره حتى شمل  
أسماك البحر وطيير السماء ووحش البر<sup>(١)</sup> ، وأطلق عليه المؤرخون فى  
الغرب الأوروبى اسم « الموت الأسود » *The Black Death* .  
تميزا له عن غيره من الطواعين التى عرفها الغرب الأوروبى ، والسبب  
فى تلك التسمية راجع الى ظهور بقع سوداء على جسم المريض نتيجة

---

(١) ابن الوردى : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ — ٣٥٤ ، أبو الفدا :  
المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠ — ٢٢ ، المقرئى : السلوك ، ج ٢  
قسم ص ٧٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٥ —  
٢١١ ، السيوطى : ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون ، ص ٨٩ .



لحدوث نزيف تحت الجلد ، فضلا عن أنه راح ضحيته ما يقرب من ٥٠٪ من السكان<sup>(٢)</sup> حسب الاحصائية المرفقة بآخر هذا البحث .

ومعروف أن العصور الوسطى هي عصور الايمان ، وأنها تعكس لنا عقلية المعاصرين في تفسيرهم لكثير من الأزمات الصعبة التي تنزل بهم تفسيراً قديماً أو تفسيراً طبيعياً . وعلى هذا الأساس فقد فسر بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين له على أنه غضب من الله أنزله عليهم لما اقترفوه من آثام ، بينما فسر البعض الآخر منهم على أنه نهاية العالم<sup>(٣)</sup> . كما فسر فريق ثالث — وبخاصة من المشتغلين بعلم الفلك — على أنه راجع لأسباب فلكية ، حيث يذكرون أن خسوف القمر ، أو التقاء بعض الكواكب مثل المريخ وزحل تحت ظروف فلكية معينة يؤدي إلى تسمم الهواء الذي يؤدي إلى حدوث ذلك الوباء ، وهنا واضح تأثير علماء الغرب الأوروبي في تلك الفترة بكتابات « ابن سينا » في الطب والتي ترجمت إلى اللاتينية ، وكتابات « جالينوس » التي وصلت إليهم عن طريق علماء العرب ، وربما انتقلت إليهم أيضا بعض كتابات علماء مسلمي الأندلس الذين قالوا بأثر العوامل الفلكية في انتشار الطاعون<sup>(٤)</sup> . كذلك يبدو لنا أن الغرب الأوروبي قد تأثر بما ساد في الشرق العربي من شيوع آراء أرسطو ، والتي ترجمت إلى اللاتينية عن طريق العرب ، بأن التقاء كل من كوكبي زحل وعطارد يسبب الموت وتناقص أعداد السكان<sup>(٥)</sup> . كذلك من بين التفسيرات التي ذكرها الغربيون المعاصرون أن الزلازل التي حدثت سنة ١٣٤٧ م أدت إلى

---

(2) Gottfried : The Black Death, p. XVI ; Hirst : The Conquest of Plague. P. 32.

(3) Coulton : The Black Death. P. II; Hirst : Op. Cit., pp. 11 — 17.

(4) Campbell : The Black Death, pp. 33 — 39.

(5) Ibid : op. cit., pp. 40 — 43.



تلوث الهواء بسبب خروج الغازات السامة وانتشارها عبر الوديان والمدن ، وقتلها لكثير من الناس وبذلك انتشر الطاعون في كل أنحاء الغرب الأوروبى فى تلك الفترة<sup>(٦)</sup> .

أما فى الشرق العربى فقد كانت هناك عدة تفسيرات لأسباب ذلك الطاعون بالإضافة الى الأسباب الفلكية ، منها أنه حدث بسبب تلوث الهواء ، أو نتيجة لحدوث العفن الذى يضر الانسان والحيوان والمياه والنبات ، ولقد اعتمد الكتاب العرب فى تفسيرهم لظاهرة العفن هذه على كتابات جالينوس وأبو قراط ، حيث كانت دراسة كتبهما دعامة الدراسة الطبية فى تلك العصور<sup>(٧)</sup> . الا أننا نلاحظ أنهم اختلفوا فى تفسيرهم لأسباب هذا التلوث ، فابن الوردى ( ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ) وقد كان معاصرا لهذا الوباء ، ومن بعده المقرئى ( ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م ) وابن تغرى بردى ( ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م ) يذكرون أن السبب فى هذا التلوث راجع الى تعفن جثث سكان بلاد الامبراطورية المغولية الممتدة من الصين جنوبا الى البحر الأسود وبحر قزوين وحوض الفولجا شمالا ، حيث هلكوا بأجمعهم سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م ، وحملت الريح غنتهم الى البلاد<sup>(٨)</sup> أما ابن خلدون ( ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ) فقد فسر السبب فى هذا التلوث بسبب كثرة العمران وما ينجم عنها من كثرة الرطوبات الفاسدة<sup>(٩)</sup> . كذلك فسر لنا ان خاتمة الأندلس ( ت ١٣٦٣ م ) أن السبب فى تلوث الهواء راجع الى اختلاف الفصول من حيث درجة الحرارة والرياح والأمطار<sup>(١٠)</sup> .

---

(6) Ibid : p. 44.

(7) Dols : The Black Death, p. 85.

(٨) تاريخ ابن الوردى ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، السلوك : ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٩٥ .

(٩) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(10) Dols : op. cit., p. 93.



كذلك تجب الإشارة إلى أنه منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد عرف المسلمون سببا آخرًا في انتشار الطاعون وهو العدوى، فقد جاء في الحديث الشريف: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها» وفي حديث آخر: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه» (١١). • وواضح أن الهدف من الحديث ليس هو الاستسلام للمرض كما يزعم بعض المؤرخين الغربيين، بل هو فرض نوع من الحجر الصحي لمنع انتشار المرض عن طريق العدوى. • كما كانت فكرة العدوى هذه معروفة لدى كثير من المؤرخين العرب الذين عاصروا الطاعون، أمثال لسان الدين بن الخطيب (ت ١٣٧٤ م) والذي عاصر ذلك الطاعون في بلاد الأندلس، وذكر لنا أن من أسباب انتشاره العدوى التي نجمت عن وصول بعض أناس من منطقة انتشر بها ذلك الطاعون، بينما ظلت بعض المناطق المنعزلة بمنأى من الطاعون، مثل البدو في شمال أفريقية والذين بقوا دون أن يصيبهم أي مرض (١٢). • هذا بالإضافة إلى ما تشير إليه بعض المراجع الحديثة من أن الناس في تلك الفترة كانوا يفسرون السبب في حدوث ذلك الطاعون وغيره من الطواعين من وجهة نظر دينية وأخلاقية بحتة، فيرجعون السبب فيها إلى غضب الله سبحانه وتعالى من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور وسيادة الظلم (١٣) إلا أننا لم تصادفنا في المصادر المعاصرة أية إشارة لهذا التفسير فيما يتعلق بهذا الطاعون بوجه خاص وإن كانت.

---

(١١) صحيح البخارى، ج ٣، ص ١٤، ١٥، ابن قيم الجوزية: الطب النبوى، ص ٤٠ - ٤١.

(١٢) Dols : op. cit., p. 93.

(١٣) د. قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص ٦٧ - ٦٨.



هناك اشارات تتصل ببعض الطوائع الأخرى والتي حدثت بعد ذلك  
الطاعون (١٤) .

كذلك يبدو لنا بما لا يدع مجالا للشك أن المؤرخين العرب أدركوا  
أن الأشخاص يختلفون من حيث المناعة الطبيعية الكامنة في أجسامهم ،  
والتي ذكرها لنا ابن خاتمة الاندلس ، والذي نادى بأن الأشخاص قليلي  
المناعة يجب أن يحتاطوا جيدا في طعامهم وشرابهم وحتى في نومهم (١٥) .  
كما أنه من الملاحظ من خلال استعراض كتابات من كتبوا عن هذا الوباء  
سواء في الشرق العربي أم الغرب الأوروبي ، أنهم ركزوا بشكل أو  
بآخر على عوامل طبيعية أو فلكية نجم عنها تلوث في الهواء أدى الى  
حدوث هذا المرض ، ولكن من الناحية الطبية ، فقد أثبتت الأبحاث  
الحديثة ، والتي أجريت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، أن  
هذا الوباء متوطن في شبه القارة الهندية ، وفي الشرق الأقصى ، وبعض  
أجزاء من أفريقيا ، وأن العدوى الأولى تحدث في الفئران والقوارض ،  
وعندما يتفشى فيها المرض تموت أعداد كبيرة من الفئران ، وعندئذ تنتقل  
البراغيث التي تعيش على صدور هذه الفئران الى الانسان لتتغذى على  
دمه حاملة معها الميكروبات المسببة له ، وعندما تلدغ هذه البراغيث  
الانسان تنتقل الميكروبات من البراغيث اليه ، ثم تتكاثر وتغزو الغدد  
الليمفاوية التي سرعان ما تتورم وتتقيح مع حدوث ارتفاع في درجة  
الحرارة لدى الشخص المصاب ، ويسمى هذا بطاعون الغدد . يحدث  
بعد ذلك انتشار البكتيريا في الدم حيث تسبب تسهما حادا . يصحبه  
حدوث نزيف تحت الجلد ، وفي هذه المرحلة يسمى بطاعون الدم ،  
وعادة ما تنتقل البكتيريا بعد ذلك الى الرئتين مسببة الطاعون الرئوي  
وهو أخطر مراحل المرض ، حيث تنتشر العدوى بعد ذلك اما عن طريق

---

(١٤) ابن الوردي : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ ، أبو الفدا : المختصر  
في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠ ، المقریزی : السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٨٠ .

(15) Dols : op. cit., p. 63.



لفرازات الجهاز التنفسي للشخص المصاب بواسطة الهواء<sup>(١٦)</sup> أو عن طريق نقل العدوى من انسان لآخر بواسطة بعض الحشرات مثل البراغيث والبعوض والذباب<sup>(١٧)</sup> وقد تنتقل العدوى من الفئران المصابة بالطاعون الى كثير من الحيوانات والطيور والتي تصبح سيطا ملائما لنقل العدوى للانسان<sup>(١٨)</sup> وهذا يفسر انا ما ذكرته بعض المصادر المعاصرة من أن الطاعون أصاب حتى الحيوانات من قطط وكلاب وغيرها وحتى الحيوانات البرية ، كذلك فان المناطق التي تموت بها الفئران بأعداد كبيرة لتفشي الطاعون فيها تصبح ملوثة بميكروبات المرض والتي تشكل بيئة صالحة لتكاثر تلك الميكروبات ، وبذلك تصبح جحور الفئران أو الأرض التي ماتت عليها مصدرا لانتقال البكتيريا الى الكائنات الحية من انسان وحيوان وطيور واصابتها بالطاعون ، كذلك فان استخدام الأشياء الخاصة بالمريض من ملابس وغيرها كفيل بنقل العدوى<sup>(١٩)</sup> .

ومن الطبيعي ألا نتوقع من أطباء العصور الوسطى أن يتعرفوا على أصل هذا المرض ، بالرغم من أن « ابن سينا » لاحظ أنه من بين علامات حدوث الطاعون أن تهرب القوارض التي تعيش في باطن الأرض ، مثل الفئران وغيرها من جحورها الى سطح الأرض وتتعثّر في حركتها وكأنها ثملة ، وكذلك نقل عنه كثير ممن كتبوا من المعاصرين لهذا الطاعون سواء في الشرق العربي أم الغرب الأوروبي<sup>(٢٠)</sup> .

وعن تفسير السر في تفضيل البراغيث الانتقال من الفئران — عقب موتها لتفشي الطاعون فيها — الى الانسان أكثر من غيره من الكائنات

---

(16) Abia EL Mishad : Manual of Practical Microbiology, p. 126; Campbell op. cit., p. 34.

(17) Yehia EL Batawi : Manual of Microbial. pp. 70 — 71; Hirst : op. cit., p. 161 .

(18) Gottfried : op. cit., p. 3.

(19) Ibid, p. 3; Hirst : op. cit., pp. 158 — 159.

(20) Campbell : op. cit., p. 34.



الحية الأخرى فان ذلك ربما راجع بالدرجة الأولى الى التقارب الشديد  
فى درجة حرارة الانسان مع الفئران ، فضلا عن طبيعة دم الانسان  
نفسه بما فيه من مواد بروتينية ضخمة لذا يعتبر بمثابة وجبة شهية  
للتلك البراغيث ، أضف الى ذلك أن التجارب العلمية الحديثة غالبا  
ما تجرى على الفئران قبل تعميم استخدامها على الانسان بما يفيد ذلك  
التقارب الشديد .

أما عن أعراض ذلك الوباء فان المؤرخين العرب قد عرفوا تلك  
الأعراض بما يتفق مع الطب الحديث — على الرغم من أن كلا من  
جالينوس وابن سينا لم يعطيانا وصفا لأعراضه لأنهما لم يشاهداه  
فى حياتهما — وهذه الأعراض هى حدوث ارتفاع فى درجة الحرارة لدى  
الشخص المصاب ، مع ألم فى الأجناب أو الصدر ، وسعال مع صعوبة  
فى التنفس ، واضطراب فى النبض ، وتقيء الدم ، وظهور انتفاخ فى  
الغدة الليمفاوية خلف الأذن أو فى أماكن أخرى مثل تحت اللب أو فى  
منطقة الأفخاذ<sup>(٢١)</sup> مع حدوث بثرات سوداء متقيحة مكان لدغة البرغوث،  
وحدوث نزيف تحت الجلد<sup>(٢٢)</sup> كما تجب الإشارة الى أن المؤرخين العرب  
فرقوا بين طاعون الغدة الليمفاوية والطاعون الرئوى ، ولاحظوا أن  
الطاعون الرئوى هو الأكثر فتكا والأسرع ، كما أنهم أظهروا دراية  
بمراحل حدوث الأعراض المختلفة ، وربطوا بينها وبين مراحل  
تطور المرض داخل جسم الانسان بعكس مؤرخى الغرب الأوروبى<sup>(٢٣)</sup>

---

(٢١) ابن الوردى : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ — ٣٥٢ ، ابن كثير :  
البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٥ — ٣٣٤ ، المقرئى : السلوك ، ج ٢ ،  
قسم ٣ ، ص ٣٢١ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٤ .

(٢٢) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٤٠ ،  
Campbell : op. cit., pp. 78 — 80.

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ — ٤١ ،  
Gottfried : op. cit., p. 8.



والذى يذكر أحد مؤرخى الغرب المحدثين أن عذرهم فى هذا راجع الى أن المرض كان جديدا بالنسبة لهم ولم يكن معروفا، فهو من الأمراض المتوطنة فى الشرق الأقصى ، وانتقل فجأة الى أرض بكر لم تعتده (٢٤) إلا أننا نقول أن هذا الكلام مبالغ فيه ولا أساس له من الصحة ، فلم يكن الطاعون مرضا جديدا على الغرب الأوروبى ، حيث سبق أن عرفه الغرب الأوروبى عدة طواعين نذكر منها الطاعون الذى حدث فى عهد الامبراطور « جستنيان » سنة ٥٤١ م ، والذى أطلق عليه اسم هذا الامبراطور ، والذى يقال أنه أتى من شرق أفريقيا عبر نهر النيل ، ثم انتقل الى حوض البحر الأبيض المتوسط ، كذلك فى الفترة من سنة ٥٥٨ — ٥٦١ م ظهر الطاعون مبتدئا بمصر ، وانتشر فى حوض البحر المتوسط الشرقى ثم القسطنطينية ، وبعد ذلك انتقل الى الغرب الأوروبى عبر موانئ ايطاليا وغاليا « فرنسا » ، كما تكرر حدوثه فى الفترة ما بين سنتى ٥٨٢ م — ٥٩١ م ، وهذا الأخير قد بدأ انتشاره من أسبانيا الى جنوبى فرنسا وايطاليا (٢٥) . ويتضح لنا مدى ازدهار الطب العربى فى العصور الوسطى من أنه فى الوقت الذى شخص فيه الأطباء العرب هذا الوباء ، وعرفوا الفارق بين أنواعه وأعراض كل منها، لم يعرف أطباء الغرب الأوروبى الكثير عن هذا الوباء ، رغم أن أعراضه كانت واضحة سواء فى ظهورها أم فى مراحل تطورها والتي لم تكن تعنى سوى الموت لأبناء الغرب الأوروبى آنذاك (٢٦) .

أما عن مقاومة هذا المرض ، ففي الغرب قام كثير من المسئولين فى المدن بوجه خاص بتطهيرها مما بها من قاذورات ، وفى بعض المدن تم منع المرضى والمصابين من دخولها ، كذلك اعتقد البعض أن الاعتدال

(24) Campbell : op. cit., pp. 81 — 84; Coulton : op. cit., p. 8.

(25) Gottfried : op. cit., pp. 10 — 11.

(26) The Decameron, pp. XXIII — XXIV.



فى تناول الطعام وتجنب كل افراط سوف يكون مفيدا بلاشك فى تجنب  
الاصابة بهذا المرض ، بينما رأى البعض الآخر أن يحبسوا أنفسهم داخل  
منازلهم ليكونوا فى شبه عزلة تامة عن حولهم ، ووجد فريق آخر أن  
خير وسيلة للوقاية من الوباء هى أن يستمتعوا بالحياة وأن يشبعوا  
كل شهواتهم ، كذلك وجد فريق آخر وسط بين هؤلاء وهؤلاء ، وهم  
الذين لم يسرفوا فى تناول الطعام والشراب ، ولم يحبسوا أنفسهم ،  
وعاشوا على قدر الكفاية ، وخرجوا ومعهم الزهور والروائح العطرية  
فى أيديهم ، بينما لجأ فريق آخر الى أن يهيموا على وجوههم هربا من  
المناطق التى ينتشر فيها الى مناطق أخرى ، ولم يهتموا بشئ سوى  
النجاة بأنفسهم لأنهم اعتقدوا أن لا حياة لهم بين جدران المدن والمنازل،  
ومع هذا لم يبق كثير منهم على قيد الحياة (٢٧) . أضف الى ذلك ما يرويه  
لنا الراهب الصقلى ميخائيل البيازى والذى كان معاصرا للطاعون ، من  
أن سكان مدينة مسينا Messina وهى الميناء الرئيسى آنذاك لجزيرة  
صقلية ، خرجوا الى كنيسة العذراء التى تبعد ستة أميال خارج المدينة ،  
وهناك خروا ساجدين أمام صورة السيدة العذراء باكين طالبين العون ،  
وأخذوا الصورة ليدخلوا بها المدينة على أمل أن تتجيبهم من هذا الوباء  
أو تبعده عنهم (٢٨) كذلك فرضت بعض المدن حجرا صحيا ونظاما للوقاية،  
حيث خصصت بعض السفن لنقل جثث الموتى الى بعض الجزر النائية  
لدفنها بها على أعماق كبيرة من سطح الأرض ، كما فرض أهلها حجرا  
صحيا على السفن القادمة اليهم لمدة أربعين يوما حتى يتم لهم التأكد  
من عدم وجود مرضى بها (٢٩) . كما يذكر لنا أحد المعاصرين من غاليا  
« فرنسا » أنهم لجأوا الى اشعال النيران فى مواقد خاصة أعدت

---

(27) Coulton : op. cit., pp. 12 — 15, Ziegler : The Black Death pp. 52 54.

(28) Coulton : op. cit., pp. 22 — 26 .

(29) Gottfried : op. cit., p. 48; Ziegler : op. cit., p. 40.



لذلك لتطهير الهواء ، أو وضع كثير من الزهور وكذلك بعض الاعشاب العطرية لاحراقها لتنقية الهواء ، فضلا عن أن بعض المعاصرين أوصوا بضرورة احراق خشب اللوز مختلطا بالملاط ثم صحنه مع ماء الورد الدمشقى ورش هذا الخليط فى أركان المنازل والحجرات ، وكذلك رش أرضيتها بالخل وماء الورد ، مع وضع كثير من النباتات العطرية ، فضلا عن أن بعضهم كانوا يرشون أنفسهم بالخل باستمرار وماء الورد والبنفسج ، وهنا واضح تأثير الشرق فى الغرب<sup>(30)</sup> كذلك نفذ كثير من المعاصرين نصيحة « ابن سينا » بضرورة اختيار الأطعمة الجيدة والابتعاد عن الأطعمة الفاسدة ، وعدم الشبع مع الاقلال من اللحوم والخضروات سريعة التلف ، وكذلك الألبان والأسماك ، وعدم تناول الأطعمة المجففة<sup>(31)</sup> . فضلا عن أن بعض المدن وضعت بعض التشريعات لمقاومة هذا المرض ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مدينة بستويا Pistoia فى ايطاليا ، والتي نصت التشريعات فيها على عدم قيام أهلها بزيارة المدن المجاورة والتي انتشر فيها الطاعون ، ومن يقيم من أهلها بمثل تلك الزيارة كان يمنع من دخول المدينة ، كذلك منعت استيراد بعض البضائع ، كما وضعت أسواق الطعام والشراب تحت اشراف دقيق ، وتم تحديد عدد من يخرجون لتشجيع الجنازات بحيث اقتصر على أقرب أقارب الموتى ، كما وضعت بعض الشروط لتحديد مستوى دفن الموتى فى أرض المقابر ، وبعض التشريعات الخاصة بحفارى القبور ، بأن يتم اختيار عدد محدد منهم للقيام بعملية الدفن ولم يسمح لغيرهم بمزاولة هذا العمل ، فضلا عن أن بعض التشريعات نصت على عدم ترك الخنازير والماعز ترعى فى شوارع المدينة ، وكذلك عدم اللقاء القاذورات والفضلات من النوافذ ، بالإضافة الى لجوء الكثيرين من أبناء الغرب الأوربي الى الكنائس والأديرة وقيامهم بالصلوات والابتهالات فى

---

(30) Campbell : op. cit., pp. 39 — 73; Dols : op. cit. p. 97.

(31) Campbell : op. cit., p. 74.



شكل صلوات خاصة أو قداس عام متضرعين الى الرب أن يرفع عنهم  
وينجيهم من هذا الوباء<sup>(٣٢)</sup> .

أما عن وسائل مقاومة هذا الوباء في الشرق العربي فهناك تشابه  
كبير في بعض وسائل المقاومة ، من ذلك تطهير البلاد من الحيوانات  
وبخاصة الكلاب إما لنجاستها أو بسبب امكانية نقلها العدوى للسكان  
وذلك عندما وردت اليهم الأخبار عن انتشار ذلك الطعون<sup>(٣٣)</sup> الى جانب  
خروج الناس في جماعات الى المساجد للتضرع الى الله والدعاء يسألونه  
في رفع الوباء عنهم<sup>(٣٤)</sup> . ويبدو أن الدعاء الى الله سبحانه وتعالى كان  
أول عمل قاموا به ، وذلك لاعتقادهم في أن الدعاء من أنفع الأدوية ،  
وهو عدو البلاء يدفعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ويرفعه ، أو يخففه إذا نزل ،  
وهو سلاح المؤمن<sup>(٣٥)</sup> . كذلك يمكننا القول أنه رغم معرفة الشرق  
العربي لضرورة الحجر الصحي — وكما سبقت الإشارة بذلك — منذ  
بداية العصر الاسلامي ، إلا أن الناس في ذلك الوقت لم يلجأوا الى  
فرض الحجر الصحي ، بل ان كثيرين منهم كانوا يهربون من الأماكن  
الموبوءة الى أماكن أخرى أملا في النجاة ، كأن يفرّوا من المدن الى  
القرى أو العكس<sup>(٣٦)</sup> . هذا الى جانب ما جرت به عادتهم من صوم ثلاثة  
أيام ، وألا يطبخوا طعامهم في الأسواق ، وعقب الصوم يجتمعون في  
المساجد طوال الليل ما بين ساجد وداع ، ثم يصلون الصبح ويخرجون  
على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة وحتى اليهود والنصارى  
كانوا يخرجون بتوراتهم وانجيلهم ومعهم النساء والولدان<sup>(٣٧)</sup> . كما يذكر

---

(32) Ziegler : op. cit., pp. 45 — 61.

(٣٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٣٤) نفس المصدر ، ج ١٤ ، ص ٢٢٦ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٠٠ ، المقرئ : السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٨٠ .

(٣٥) ابن قيم الجوزية : الداء والدواء ، ص ٧ .

(36) Dols : op. cit., p. 193.

(٣٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٠٠ .



لنا أحد المؤرخين المعاصرين أنه كان يتم اشعال النيران فى مواقع أعدت خصيصا لذلك فى بعض المدن مثل القاهرة عندما ينتشر الطاعون ، حيث كان يتم اشعال تلك النيران عند تلال المقطم لتنقية الهواء مما به من آثار الوباء (٣٨) .

أما عن طرق العلاج فى الغرب الأوروبى ، فيبدو لنا أن كل شخص هناك كان يجرب أى شىء بحثا عن العلاج وبخاصة عندما لا يجدون من يصف لهم الدواء ، ويروى لنا أحد المشتغلين بالطب آنذاك أنه من وسائل العلاج التى كانت شائعة أن تخلط الأعشاب بقرون وخواقر الحيوانات، مع كبد ومخ الخيول ، والبغال والماعز والأرانب ، وتستخدم كعلاج لهذا الطاعون (٣٩) . كذلك استخدموا طريقة « فصد الدم » التى كانت شائعة عند العرب — والذين أدركوا أن أهم فائدة لها هى منع عملية نزف الأوعية الدموية بسبب التسمم الحاد — أو لتجديد الدم وإمداد الجسم بدم نقى بدلا من الدم الملوث (٤٠) . كذلك قام الكثيرون منهم بشم خليط من الفلفل الأسود والأحمر والصندل معا ، كما لجأ البعض منهم الى رش مسحوق من الكبريت والزرنيخ على النار ، ومعروف أن الكبريت يقتل البكتيريا كما يقتل الفئران والبراغيث ، بينما لجأ البعض الآخر الى غسل وجوههم وأيديهم بالخل من حين لآخر أو بماء الورد (٤١) .

وواضح من سبل العلاج هذه أنها اما مجرد محاولات شخصية أو مقتبسة من الشرق العربى وذلك راجع لعدة اعتبارات منها أن معظم أبناء

---

(33) Dols : op. cit., p. 79.

(٣٩) المقرئى : السلوك ، ج ٢ قسم ٣ ، ص ٧٧ ، ابن تفسرى  
بردى : النجوم ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(40) Campbell : op. cit., pp. 29 — 73; Ziegler : op. cit. p. 74.

(41) Ziegler : op. cit., pp. 74 — 75.



الغرب الأوربي قد اتفقوا تماما مع رأي جالينوس حول هذا المرض بأنه لا شفاء منه ، وبذلك ركزوا على وسائل الوقاية أكثر من العلاج<sup>(٤٢)</sup> فضلا عن اعتقادهم بأن جالينوس قد قال الكلمة الأخيرة فيما يختص بهذا الوباء ، وأن أى أبحاث أخرى لم تعد ضرورية ، كما أن الطب قد خضع لاشراف الكنيسة وبما يتفق مع أهدافها ولخدمة أغراضها الدينية، وغالبا ما كانت معلومات الطب قاصرة على قراءات فقط من خلال المترجمات ، فضلا عن أن الجراحة كانت أفقر كثيرا بالنسبة للطب ، وظل الحال كذلك حتى القرن الخامس عشر الميلادى<sup>(٤٣)</sup> .

أما عن طرق العلاج فى الشرق فبالرغم مما تشير اليه بعض المصادر بأنه « لم يحتاج أحد فى هذا الوباء الى أشربة ولا أدوية ولا أطباء ، لسرعة لموت »<sup>(٤٤)</sup> إلا أنه كانت هناك محاولات للعلاج ، وإن دلت على شيء فإنما تدل على مدى تقدم مستوى الطب لدى العرب بالنسبة للغرب الأوروبى ، وكذلك تدل على فهم ودراية بكل ما استخدموه . من ذلك أنه كان يوصى باستئصال أورام الطاعون إذا أمكن ذلك ، مع ضرورة مسح تلك الأورام بقطعة من الاسفنج بها ماء وخل ، ومعروف أن الخل كحامض إذا تخلل تلك الأنسجة المصابة بالبكتيريا المسببة للطاعون ، والتي تتكاثر فى الجسم لطبيعته القلوية ، قلل الخل يعمل نوعا من التعادل ، ويخلق بيئة غير صالحة لتكاثر البكتيريا ، كذلك كان المعاصرون ينصحون بتناول بعض الأطعمة مثل العدس بالخل واللحوم المطهية فى الخل<sup>(٤٥)</sup> كما كان يوصى بعملية « فصد الدم » والتي تؤدى الى تقليل نسبة الدم الملوث ، وتجديد الدم

(42) Campbell : op. cit., pp. 85 — 86.

(43) Ziegler : op. cit., pp. 69 — 72.

(٤٤) المقرئى : السلوك ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٨١ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٦ .

(45) Dols : op. cit., pp. 106 — 107.



فضلا عن تنشيط الشرايين ، هذا بالإضافة الى عملية « الحجامة » وهي امتصاص الدم « بالمحجم » كعلاج للمصابين بالطاعون ، وفي هذه الحالة كان يتم اعطاء الشخص أولا مقدار أوقيتين من كل من شراب الخل وشراب الورد ، ثم تجرى له هذه العملية ، كذلك كان يوصى بالاكثار من العصائر وبخاصة عصائر الفاكهة الباردة والعطريات مثل ماء الورد والكافور والصندل باعتبارها مقوية للقلب<sup>(٤٦)</sup> . بالإضافة الى أن الكثيرين من المعاصرين كانوا يفضلون استخدام البنفسج حيث كان يدهن به الجسم كله ، وربما كان السبب في كثرة استخدامه راجع لأثره الخامض والذي توصلوا اليه من خلال خبرتهم اليومية<sup>(٤٧)</sup> . كذلك أوصى المعاصرون مرضى الطاعون بالاقبال من تناول الأطعمة ، وعدم الاكثار من الرياضة والاستحمام والاكثار من السكون والدعة لعدم ارهاق القلب<sup>(٤٨)</sup> . وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن الناس في الشرق العربي لم يستسلموا كلية انتظارا لارتفاع الطاعون عنهم تلقائيا ، وكما حدث في الغرب الأوروبي في كثير من الأحيان ، انما حاولوا حسبما أتيح لهم من معلومات طبية ، لأنهم لم يكونوا قد توصلوا بعد الى ما توصل اليه الطب الحديث من مركبات السلفا التي تقضى على ذلك الطاعون قضاء تاما .

أما عن مصدر هذا الوباء فان المصادر العربية المعاصرة قد أشارت اليه بشكل واضح ، فابن الوردي — وهو معاصر — يذكر لنا أنه ابتداء من « الظلمات » من خمس عشرة سنة متقدمة على التاريخ الذي عم فيه أقطار الأرض شرقا وغربا<sup>(٤٩)</sup> .

والمعروف أن المؤرخين والرحالة العرب قد أطلقوا على المنطقة

(46) Ibid, pp. 105 — 107; Campbell : op. cit., pp. 87 — 88.

(٤٧) السيوطي : ما رواه الواعون في أخبار الطاعون ، ص ٨٨—٨٩.

(٤٨) ابن قيم الجوزية : الطب النبوي ، ص ٤٥ .

(٤٩) تاريخ ابن الوردي ، ص ٣٥٠ .



التي تشمل اليوم أجزاء من بلغاريا ورومانيا والمطلة على البحر الأسود، وروسيا الشمالية أرض الظلمة أو أرض الظلمات<sup>(٥٠)</sup> . كما أن « ابن كثير » ذكر أنه بدأ في بلاد القرم ثم انتقل منها إلى بلاد الأفرنج ، حتى قيل إن أهل قبرس مات أكثرهم أو يقارب ذلك<sup>(٥١)</sup> وهو بذلك يتحدث عن المنطقة الجنوبية الشمالية من روسيا ، كذلك وردت إشارة لدى كل من المقریزی وابن تغری بردی أن الطاعون ظهر في بلاد أذربك ، أي بلاد مغول القفجاق شمالى البحر الأسود وبحر قزوين<sup>(٥٢)</sup> ومن هذا يتضح لنا أن المصادر العربية أجمعت على أن الطاعون ظهر أولاً في المناطق المطلة على البحر الأسود ، والتي كانت خاضعة آنذاك لحكم مغول القفجاق .

أما عن المصادر والمراجع الأوروبية ، فقليل منها يذكر لنا أنه حدث أولاً في بلاد الحبشة ، ثم امتد إلى البلاد المجاورة ومنها إلى مصر وبلاد الشام ثم انتقل من الشرق إلى الغرب الأوربي<sup>(٥٣)</sup> ولكن الغالبية العظمى تذكر أنه حدث أولاً في مدينة كافا Caffa المطلة على البحر الأسود ، والتي كانت من المراكز التجارية الهامة في دولة مغول القفجاق ، وأقام بها الجنوبية والبنادقة مراكز تجارية لهم لتجارتهن مع الشرق الأقصى ، والتي كانت ترد إليها عبر الطرق التجارية البرية الممتدة من جنوب آسيا<sup>(٥٤)</sup> . كذلك تذكر بعض المراجع الأخرى أنه في الفترة من ١٣٣٠ م — ١٣٤٦ م فقد انتقلت أعداد من القوارض التي تعيش في

---

(٥٠) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٣٣٨ — ٣٤٠ .

(٥١) البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٥٢) السلوك ، ج ٢ قسم ٣ ، ص ٧٧٠ — ٧٧٣ ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٩٥ — ١٩٧ .

(53) Campbell : op. cit., p. 51.

(54) Hirst : op. cit., p. 11; Coulron : op cit., p. 9; Ziegler : op. cit., p. 40; Gottfried : op. cit., p. 36.



آسيا الوسطى الى أوروبا ونقلت معها العدوى الى الحيوانات المحلية ، ثم الى البشر بالتدريج ، وذلك عن طريق انتقال الفئران الآسيوية السوداء حاملة المرض مع المتاجر الشرقية القادمة الى الغرب الأوروبى<sup>(٥٥)</sup> . الا أننا نستطيع القول أنه قد يكون هذا أحد العوامل التى ساعدت على سرعة تفشى المرض فى الغرب الأوروبى ، ولم يكن الغرب الأوروبى هو مصدر العدوى الأول ، والدليل على ذلك ما رواه المؤرخ البيزنطى نيكفوروس جريجوروس Nicephoros Gregoras والذى نجا من ذلك الطاعون فى القسطنطينية ، حيث يذكر أن ذلك الوباء غزا بحر ايجيه بعد حدوثه فى القسطنطينية ثم انتقل الى جزيرة رودس والجزر القريبة منها ثم الى الغرب ، وأن العدوى لم تقتصر على البشر فقط بل شملت كل الكائنات الحية من حيوانات وطيور وبخاصة قريبة الصلة بالانسان ، أى التى تعيش لديه أو يستخدمها مثل الكلاب والخيول والفئران<sup>(٥٦)</sup> . كذلك رسم لنا زيغلر Ziegler<sup>(٥٧)</sup> خريطة توضيحية يبين فيها تطور انتقال العدوى ، ومسار الطاعون فى كل أنحاء الغرب الأوروبى ، والتوقيت الذى وصل فيه الى كل بلد من بلدان أوروبا ، معتمدا فيها على ما ذكره المعاصرون من أقوال تؤيد ما جاء بالخريطة ، وهى مرفقة فى آخر هذا البحث .

وجدير بالذكر أنه منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى آتتج للمدن الايطالية أن تهيمن على النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، نتيجة لاهتمامها بجغرافية حوض البحر الأبيض المتوسط ، مما ساعدها على تسيير رحلات شبه منتظمة بينها وبين الشرق والغرب ، فضلا عن اصدار هذه المدن لعملتها الذهبية والتى فاقت ما كان معروفا فى العالم

(55) Gottfried : op. cit., p. 35.

(56) Ibid, p. 38.

(57) The Black Death, pp. 106 — 107.



البيزنطى والاسلامى من عملات ، وذلك لثبات قيمتها وثبات نسبة الذهب فيها ، بالإضافة الى اعتماد البايوية على تلك المدن فى تحصيل الصدقات والعشور من أنحاء الغرب الأوروبى ، فضلا عن قيامها بالعمليات المشرقية حيث أصبحت لها مراكز تجارية فى كل من وسط وشرق أوروبا ، كذلك تحقق لها السيطرة على التجارة بين البحرين الأسود والأبيض ، حيث سمحت لها الامبراطورية البيزنطية — باعتبار هذه المدن حلفاء لها — بإنشاء مستعمرات تجارية حول البحر الأسود منذ سنة ١٢٠٤ م ، وبقيام امبراطورية المغول أتيح للمدن الإيطالية الاستفادة من طرق التجارة الممتدة من الصين الى الشواطئ الروسية على البحر الأسود ، كما أنه فى سنة ١٣١٥ م وصلت سفن كل من جنوة والبندقية الى الموانى الشمالية للمحيط الأطلسى الأوروبية مما ساعد على ربط هذه الموانى بموانى البحر الأبيض المتوسط<sup>(٥٨)</sup> . هذا بالإضافة الى أن المجاعات التى حدثت عام ١٣٤٠ م فى أوروبا أدت الى ارتفاع كبير فى الأسعار ، وساعدت فى نفس الوقت على انتشار البيوت المالية الإيطالية فى كل الغرب الأوروبى ، وانتشار النشاط الإيطالى فى موانى أوروبا<sup>(٥٩)</sup> . لذا لا غرابة فى أن يكون الإيطاليون هم الذين نقلوا هذا الوباء من شواطئ البحر الأسود الى أنحاء الغرب لأوروبى والشرق على السواء ، وتذكر المصادر الأوروبية المعاصرة أن تجار جنوة والذين كانت لهم مراكزهم التجارية فى مدينة كافا Caffa نقلوا معهم هذا الوباء عن طريق سفنهم التجارية عبر حوض البحر الأبيض المتوسط ، ومن الموانى الساحلية انتشر هذا الوباء الى المناطق الداخلية عن طريق الأنهار والطرق التجارية البرية ، من ذلك أن الراهب ميخائيل البيازى

---

(58) Lopez : The Commercial Revolution of the Middle Ages pp. 106 — 112, Thompson : Economic and social hist. of the Middle-Ages. Vol I, p. 430.

(59) Gottfried : op. cit., p. 43.



وهو راهب من طائفة الفرنسيسكان وكان معاصرا بذلك الطاعون ، يذكر أن عشرة سفن ايطاليا حملت الطاعون الى مدينة مسينا Messina الميناء الرئيسى لجزيرة صقلية سنة ١٣٤٧ م ، ومن مسينا انتقل الطاعون الى كل أنحاء جزيرة صقلية ، كما أن عدة سفن أخرى نقلته الى جنوة والبندقية وبعض الموانى الأوربية ، وسرعان ما انتشر الى المناطق الداخلية عن طريق المراكز التجارية الداخلية ، كذلك ساعد الهاربون من ويلاته على انتشاره فى كل مكان (٦٠) .

كذلك من المرجح أن صقلية لكونها احدى المراكز التجارية الهامة فى عالم البحر الأبيض المتوسط آنذاك ، قد ساعدت على انتشاره فى بقية مناطق البحر الأبيض ، حيث يرجح انتشاره فى مدن شمال افريقيا عن طريق تونس عبر كورسيكا وسردينيا ومنها الى بلاد الأندلس ، هذا الى جانب أن التجار الايطاليين كانوا هم أيضا الذين نقلوا الطاعون الى الموانى الاسلامية فى البحر الأبيض المتوسط ، حيث وصل الاسكندرية فى أواخر خريف سنة ١٣٤٧ م (٦١) . وتشير المصادر العربية الى ما يؤيد ذلك الرأى بقولها : « وقدمت مركب الى الاسكندرية ، وكان فيها اثنان وثلاثون تاجرا وثلثمائة رجل ما بين بحار وعبيد ، فماتوا كلهم ولم يصل منهم غير أربعة من التجار وعبد واحد ، ونحو أربعين من البحارة فماتوا جميعا بالثغر ... » (٦٢) ثم انتشر الطاعون من الاسكندرية على ما يبدو الى الدلتا ومنها حتى وصل الى القاهرة ، ومن القاهرة انتشر حتى شمل كل مصر تقريبا ، ثم وصل الى غزة فى ربيع سنة ١٣٤٨ م والتي كانت احدى الأسواق التجارية الهامة ، وانتشر منها

---

(60) Coulton : op. cit., p. 9; Ziegler : op. cit., p. 40; Hirst : op. cit., pp. 11 — 32.

(61) Dols : op. cit., pp. 35 — 67; Gottfried : op. cit., p. 38.

(٦٢) المقرئى : السلوك ، ج ٢ قسم ٣ ، ص ٧٧٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٩٩ .



الى فلسطين وبلاد الشام ، وفى أواخر سنة ١٣٤٨ م وصل الطاعون الى أنطاكية ، ومن المرجح أن يكون قد وصلها لا عن طريق فلسطين فقط ولكن من خلال اتصالها بالقسطنطينية أو قبرص • ومن مصر وفلسطين انتشر الطاعون الى الجزيرة العربية ، وفى بداية ١٣٤٩ م وصل دمشق ، وحتى أواخر سنة ١٣٤٩ م كان العالم الاسلامى كله قد اجتاحه الطاعون (٦٣) •

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن أول ضحاياهم كانوا هم سكان المدن الساحلية سواء فى الشرق العربى أم الغرب الأوروبى ، ثم يليهم سكان المدن الداخلية وبخاصة ذات الأهمية الاقتصادية ، كما كانت أكبر مركز لانتقاله فى أوربا هى صقلية وجنوة والبندقية وبيزا ، ومنها انتقل الى كل أنحاء الغرب الأوروبى ، كذلك لعبت القسطنطينية دورا هاما أيضا فى نقله الى بلاد اليونان ومنها الى شرق أوربا عبر الطرق التجارية، وربما كانت القسطنطينية لها دور فى انتقال الطاعون الى بعض المدن الشامية ذات الصلات التجارية بها • أما فى الشرق العربى فقد لعبت المراكز التجارية كالقاهرة ودمشق وحلب وغزة دورا كبيرا فى نقله عبر الطرق التجارية الداخلية ، أو نتيجة لهروب بعض سكانها الى المناطق الريفية المجاورة مما ساعد على انتشار العدوى بشكل مؤثر وفعال •

أما عن العوامل المهيئة أو المساعدة على سرعة انتشاره وفترته بمجتمعات الشرق العربى ، فإن الدارس لتاريخ الشرق العربى يدرك أنه كان يعانى من عدة أزمات اقتصادية فى الفترة التى سبقت انتشار ذلك الوباء ، حيث كانت الزراعة هى أهم مقومات الحياة فى تلك الفترة ، وأن أى هزة فى موارد المياه — سواء مياه الأنهار أم الأمطار — يترتب عليها اختلال الحياة الاقتصادية كلها ، وما يترتب عليه من ارتفاع فى الأسعار ، وانعدام الأقوات ، وغالبا ما تكثُر المجاعات الرهيبة ، ويزداد

---

(63) Gottfried : op. cit., pp. 38 — 41.



عدد الفقراء • كذلك تجب الإشارة الى أن الأزمات الاقتصادية لم يكن السبب فيها كلها ما ينجم عن كوارث الطبيعة ، بل كان النظام السياسى فى كثير من بلدان الشرق العربى مسئولا عن تلك الأزمات ، مثال ذلك دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام والحجاز والتي قامت فى أساسها على النظام الاقطاعى ، وما يتبع ذلك من تصور للعلاقة بين الحكام والمحكومين ، وليس عن مفاهيم تلزم الحكام بضرورة الاهتمام برعاياهم ، والحرص على تقديم الخدمات العامة لهم ، لا تقديمها على أساس تصور دينى يجعل منها احسانا وصدقة • هذا بالإضافة الى أنه بالرغم من معرفة الشرق ببعض الاجراءات الوقائية مثل عزل المرضى واغلاق بعض الأماكن الموبوءة — وكما سبقنا الإشارة بذلك — الا أن طبيعة العصر بما يتسم به من قدرية وارتجالية قد تغلبت على أبناء الشرق العربى آنذاك<sup>(٦٤)</sup> • يذلل كانت سلسلة الحروب الخارجية والداخلية التى شنتها دولة سلاطين المماليك عاملا له أثره الفعال فى استنزاف مواردها المالية ، ومقدمة بعيدة الأثر لاحداث الغلاء وندرة الأقوات<sup>(٦٥)</sup> وما تلى ذلك من محاولة سلاطين وأمرء المماليك لتعويض فاقد الخزانة من فرض كثير من المكوس والرسوم والمقررات ، الى جانب انتشار ظاهرة لبذل والبرطلة — ونقصد بهما الرشوة — فى تولى المناصب العامة فى أنحاء البلاد ، وما استتبع ذلك من فساد فى شتى مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية<sup>(٦٦)</sup> بحيث انتشر الطاعون فى مجتمع كان يعانى غالبية من سوء تلك الأحوال •

أما عن العوامل المهيئة أو المساعدة على سرعة انتشاره وتأثيره الفعال فى مجتمعات الغرب الأوروبى آنذاك ، منها أن الغرب منذ بداية

---

(٦٤) د. قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٧٤ •

(٦٥) عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط ، ص ١٥١ •

(٦٦) د. أحمد عبد الرازق : البذل والبرطلة ، ص ١٦ — ١٦٦ •



القرن الرابع عشر بوجه خاص كان قد شهد زيادة سكانية متزايدة ، بحيث عجزت الأرض عن مقابلة احتياجات تلك الزيادة الهائلة من المحاصيل الزراعية ، هذا بالرغم من احلال الزراعة محل مساحات كبيرة من الغابات ، كذلك قل الانتاج بسبب اجهاد الأرض وعدم وجود الوسائل العلمية التى يمكن استخدامها فى زيادة الانتاج أو تخليص التربة الزراعية المجهدة من الأملاح وتحسين وسائل الصرف • ويصور أحد الكتاب الوضع فى أوربا آنذاك بأن الناس هناك كانوا كمن يمشون فى بركة ماء والمياه تصل الى أفواههم ، فان أى انخفاض بسيط فى قاع البركة ، أو أى ارتفاع بسيط فى مستوى سطح الماء سوف يغرقهم • كما أن المناخ لعب دورا هاما فى زيادة التدهور الاقتصادى ، ذلك أن البرودة الشديدة أدت الى تجميد كثير من الأنهار الجليدية ، وكذلك أنهار جبال الألب مما أثر على زراعة الغلال والكروم بوجه خاص ، مما تسبب فى سلسلة من مواسم الحصاد الهزيلة ، وما نجم عن ذلك من اضطراب فى شتى نواحي الحياة • أضف الى ذلك أن الطاعون عندما انتشر هناك وجد سكانا ليس لديهم أية مقاومة له ، ممزقين بالحروب وسوء التغذية ، منهكين فى العمل للحصول على قوتهم الضرورى<sup>(٦٧)</sup> • بالإضافة الى سوء الأحوال الصحية وخاصة وأن المدن الأوروبية آنذاك بما حوته منازلها من أسرة مصنوعة من القش ، وخنازير تربي بداخلها ، وشوارع مليئة بالقاذورات ، مما جعلها بيئة صالحة لتكاثر الحشرات الناقلة للعدوى لكثير من الأمراض<sup>(٦٨)</sup> • أضف الى ذلك انعدام الخدمة الصحية فى كثير من مدن الغرب الأوروبى لندرة ما بها من مستشفيات

---

(67) Ziegler : op. cit., pp. 32 — 35; H. Pirenne : Economic and Social Hist., p. 193.

(68) Hirst : op. cit., pp. 128 — 161.



وأطباء<sup>(٦٩)</sup> بحيث يصدق قول أحد المؤرخين الغربيين المحدثين في تصويره لمجتمع تلك الفترة بأن الناس هناك قبيل حلول الطاعون كانوا في حالة نفسية لا تسمح لهم بمقاومة مثل هذا الوباء المفاجيء ، كذلك في حالة صحية لا تستطيع مقاومة ذلك المرض الخطير ، وقد رحب كثيرون منهم بهذا الموت الجماعي لخلاصهم مما كانوا يعانون من سوء التغذية وسوء الأحوال الاقتصادية والمالية ونكبات الطبيعة وكثرة الحروب والمنازعات التي عمت كل القارة الأوروبية<sup>(٧٠)</sup> .

وتجب الإشارة الى أن هذا الطاعون كانت له آثاره على شتى جوانب الحياة في الشرق والغرب على حد سواء ، وبخاصة النواحي الاقتصادية والاجتماعية والحربية والدينية والثقافية ، فمن الناحية الاقتصادية في الشرق نلاحظ أنه تناقص عدد الفلاحين الى درك رهيب ، مما ساعد على استمرار فترة الاضطراب الاقتصادي الى سنوات عديدة بعد هذا الوباء ، بل ان الطاعون نفسه قد أعطى الفرصة لأعداد كبيرة من الفلاحين لهجرة الريف الى كثير من المدن هربا من سوء الأحوال التي عاشوها في القرى ، وليحصلوا على أجور أعلى ، كما أن المدن بما توفر فيها من مؤسسات دينية وخيرية واجتماعية وفرت للكثيرين منهم حياة أفضل ، ورعاية صحية أحسن مما كانوا عليه ، وظل تناقص أعداد الفلاحين مستمرا حتى بداية القرن الخامس عشر الميلادي<sup>(٧١)</sup> . ولم تجد كثير من الأرض الزراعية من يزرعها ، مما أدى الى ارتفاع أسعار كثير من السلع ، كذلك توقفت أعمال الصيد ، وتعطلت الأسواق ، كما كان من نتيجة ارتفاع معدل الوفيات أن ندرت الأيدي العاملة ، وارتفعت

---

(69) Gottfried : op. cit., pp. 44 — 54; Ziegler : op. cit., pp. 56 — 58.

(70) Ziegler : op. cit., p. 45.

(71) Dols : op. cit., pp. 162 — 164.



أجورها ارتفاعا كبيرا بحيث غلقت دور كثير من الصناعات (٧٢) . وكان طبيعيا أن ينشغل الناس بهذا الوباء عن سائر اهتماماتهم وألا يكون بمقدورهم مزاولة أعمالهم اليومية ، واستغل كثير من أصحاب الصنائع فرصة الطلب المتزايد على مقرئى القرآن على الجنائز . ومغسلى الأموات وحفارى القبور والحمالين ، واتجهوا الى تلك الأعمال ، فأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا لمثل تلك الأعمال لما نالوه من أموال كثيرة ، وتغيرت أحوال كثير ممن عاشوا بحيث أخذوا دورا وأموالا بغير استحقاق لموت مستحقيها ، فمن عاش منهم استغنى به ، وانحط قدر الذهب والفضة ، فضلا عن أنه رخص ايجار كثير من الدور لعدم وجود من يسكنها (٧٣) . كما توقفت أحوال الدولة ، واضطرت سلطنة المماليك الى تخفيض ما على الدولة من كلف ، فألغت فى الفترة التى تلت ذلك الوباء وحتى سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م الأسمطة التى كانت تقام فى شهر رمضان وفى العيدين ، فضلا عن تخفيض المعاليم « المرتبات » التى كانت تصرف لمباشرى الدولة ، فمنهم من خفض معلومه الى النصف أو الثلثين ، هذا الى جانب الاقلال من أعداد هؤلاء المباشرين ، فبعدما كان فى كل معاملة ستة مباشرين تم تخفيضهم الى ثلاثة (٧٤) .

ويبدو أن أثر الأزمة الاقتصادية دفع بكثير من رجال الدولة من سلاطين وكبار الأمراء الى محاولة الحصول على الأموال بأية وسيلة ، ويؤكد ذلك ما ترويه لنا كتب المعاصرين من فرضهم لكثير من الرسوم ، ومحاولة الاستيلاء على أموال الناس ، حيث وضعوا العقبات الجسام فى طريق كل وريث يطالب بحقه فى ميراث أحد والديه أو أقاربه وذلك

---

(٧٢) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٧٨ — ٧٨٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٠ — ٢١١ .

(٧٣) نفس المصدرين السابقين والصفحات .

(٧٤) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢١١ .



« حتى تعجز الورثة عن الطلب فنترك المطالبة »<sup>(٧٥)</sup> ومنهم من « كان يحتاط على التركة وان كان فيها ولد ذكر أو غيره »<sup>(٧٦)</sup> كذلك تعددت المصادرات ، وفرضت الاتاوات الكبيرة على التجار ، فضلا عن اجبارهم على شراء البضائع التي تطرحها عليهم الحكومة بأعلى الأسعار وهو ما عرف في مصادر تلك الفترة بسياسة الطرح<sup>(٧٧)</sup> .

أما عن أثر الطاعون الاقتصادي في الغرب الأوربي ، فحيث أن ذلك الطاعون فتك بغالبية الفلاحين ، لذلك كانت له نتائج خطيرة على الحياة الزراعية ، حيث جفت كثير من الحدائق والبساتين والحقول لكونها لم تجد من يرعاها ، وتفاقمت المشكلات الزراعية الناجمة عنه مما جعل الأمور تزداد سوءا في كثير من المدن الأوربية ، بحيث أعلنت كثير من البيوت المالية إفلاسها نتيجة الخسائر الفادحة التي نزلت بها<sup>(٧٨)</sup> . كذلك كان من نتيجة الشلل الاقتصادي الذي عم الغرب الأوربي أن حاولت بعض الحكومات تعويض النقص في خزانتها ، مما اضطرها الى فرض كثير من الضرائب<sup>(٧٩)</sup> . كما أن روما وكذلك جزيرة صقلية والمدن الايطالية التجارية قد تأثرت في الفترة من ١٣٤٨ — ١٣٥٠ م اقتصاديا لعدم وفود الأعداد الكبيرة من الحجاج المسيحيين اليها ، مما اضطر البابا الى أن يذعن لضغوط أهل روما وقبرص وربما المدن الايطالية ويعلن أن عام ١٣٥٠ م عاما مقدسا ، والذي جرت العادة بأن يحدث مرة كل أول قرن ، ويمنح فيه البابا الغفران لكل من يزور روما<sup>(٨٠)</sup> . كذلك حدث تغير في مصدر تجارة الرقيق بالنسبة للمدن

(٧٥) المقریزی : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٣٧—٣٨ .

(٧٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٣١ .

(٧٧) د. قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصري ، ص ٧٥ .

(78) Gottfried : op. cit., p. 38; Ziegler b op. cit., p. 44.

(79) John B. Hennerman : « The Black Death And Royal Taxo tion » Speculum, Vol. XI III, p. 420.

(80) Ziegler : op. cit., p. 60.



الايطالية ، فبعد أن تناقصت أعداد الرقيق الذين كانوا يجلبونهم من القوقاز وحول البحر الأسود بسبب تفشي الطاعون هناك ، فقد أخذت هذه المدن الايطالية فى البحث عن مورد جديد ومناطق جديدة للحصول منها على الرقيق ، فأتجه هؤلاء الايطاليون الى أفريقيا وجنوبى الصحراء الكبرى ، وهى منطقة خلت من الطاعون ، والتي كان يحصل منها التجار المسلمون على الرقيق ، ومن هنا زاد اهتمام الأوروبيين بأفريقيا ، وبدأت تجارتهم فى الرقيق الأسود (٨١) .

ونتيجة لارتفاع نسبة الوفيات ونقص العمالة ، فقد ارتفعت الأجور ، وفى محاولة لتعويض هذا النقص فقد اضطرت كثير من نقابات الحرفيين — فى انجلترا على سبيل المثال — أن تختصر طول الفترة التى كانت تشترطها للممتحن حتى يصبح عضوا حرفيا ، ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى وجود حرفيين لا يتقنون حرفتهم بالدرجة الكافية ، كما أن كثيرا من النقابات وضعت شروطا جديدة للانضمام اليها ، ربما كان الهدف منها اجتذاب أكبر قدر من الأفراد اليها ، ويمرور الوقت انخفضت مهارة هؤلاء الحرفيين جدا وكذلك مستوى أدائهم مما ساعد على تدهور كثير من الحرف . كما ترتب على نقص الأيدي العاملة توقف استخراج المعادن بحيث أن كمية المعادن التى تم استخراجها وقدمت لسك النقود سنة ١٣٥١ م كانت أقل من خمس الكمية التى تم استخراجها قبل حدوث هذا الوباء . كذلك حدث تطور هام فى نظام الاقطاع والذى اعتمد فى زراعة الأرض على الأبقان ، فمع التدهور فى أعداد هؤلاء الأبقان ونقص الأيدي العاملة ، فقد اضطرت كثير من السادة النبلاء الى دفع أجور الى كثير من هؤلاء الأبقان وتحويلهم الى فلاحين أحرار بالتدريج (٨٢) .

---

(81) Gottfried : op. cit., pp., 43 — 44.

(82) Ibid : op. cit., pp. 60 — 61.



وعن التغيرات الاجتماعية التي أحدثها الطاعون في الشرق ، فهي كثيرة وتزخر بها كتب المعاصرين ، والحقيقة أن هذه التغيرات ترجع بالدرجة الأولى الى التدهور الاقتصادي الذي شهدته البلاد أثناء فترة الطاعون والذي عانت منه حتى أواخر القرن الرابع عشر ، نذكر على سبيل المثال ما حدث من تغير في ملابس كثير من النساء في دولة سلاطين المماليك حيث صدرت التعليمات عقب ذلك الطاعون من السلطات الحاكمة بألا تلبس النساء شيئاً من اللباسات والثياب الثمينة ، والتي كانت تستورد اما من البندقية أو من العراق ، كذلك نصت هذه التعليمات على ابطال ما كانت النساء يلبسنه في أرجلهن من أخفاف وسراميز غالية الثمن (٨٣) . كما يذكر لنا المقریزی في حديثه عن سوق الشماعين المخصص لبيع الشموع ، وصفا رائعا لأنواع الاضاءة التي كانت تتم في القاهرة في المناسبات المختلفة مثل شهر رمضان ومواكب ركوب الصبيان لصلاة التراويح ، وفي عيد الغطاس ، وفي حديثه عن سوق الدجاجين يبين لنا مدى عناية الناس باقتناء الطيور المختلفة مثل القمارى والهزار والشحور والسمان ، ومدى تكاليف الناس عليها بحيث بلغ ثمن الواحد منها ألف درهم ، وذلك لتنافس الناس فيها لا عجبهم بأصواتها ، كذلك في حديثه عن سوق الجوخيين والذي كان مخصصا لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج ، يذكر أن الناس كانوا يستهجنون لبس الجوخ فلما غلت الأسعار دعت الضرورة أهل مصر الى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترفه وصار معظم الناس يلبسون الجوخ ، كذلك في حديثه عن سوق الحلاويين يذكر أنه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطاط وغيرها تسمى العلاليق ، تشتري للأطفال — كما يحدث في عصرنا الحاضر في المواسم والموالد — فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله ولأولاده وذلك في موسم شهر رجب ونصف شعبان وشهر رمضان وعيد

---

(٨٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٢٣ ، المقریزی : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٥٠ — ٨١١ .



الفطر ، كذلك فى حديثه عن سوق العنبريين وهو المخصص لبيع العنبر الذى كان يجلب من الشرق الأقصى ، يذكر أنه لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وان سفلت الا ولها قلادة من عنبر ، كذلك كان يتخذ منه المخاد والستور وغيرها ، أما فى حديثه عن سوق الكفتيين حيث تطعم الأواني بالفضة والذهب فانه يذكر لنا مدى حرص الناس على اقتناء الأواني النحاسية المطعمة أو المكففة بالذهب والفضة بحيث لا تكاد دار تخلو فى مصر والقاهرة من عدة قطع من نحاس مكفت ، ولا بد أن يكون فى « شوار العروس » دكة نحاس مكفت ، وست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وغير ذلك من الأواني المنزلية مثل القناديل وأواني البهار والابريق والمبخرة ، حيث بلغت قيمة الدكة النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهب ، الا أنه « قد تلاشى الحال فى جميع ما قلنا لمفقر الناس وعجزهم .. » (٨٤) . كذلك كان من نتيجة تدهور الأحوال الاقتصادية التى نجمت عن ذلك الطاعون أن تخلت أكثرية نساء مصر عن لبس الذهب والفضة والجواهر وكذلك الحراير (٨٥) . هذا بالإضافة الى ما حدث من خلل فى التركيبة السكانية ، والتى تشير اليها كثير من المصادر المعاصرة ، بحيث حصل أرباب الحرف والصنائع من الخياطين والأساكفة والمنادين على اقطاعات الجند ، وركبوا الخيول ولبسوا ملابس الجند ، كذلك دخل كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية ضمن أجناد الجيش وحصلوا على الاقطاعات ، كذلك كان من نتيجة ذلك الوباء أن بطلت الأفراح والأعراس من بين الناس ، فلم يعرف أن أحداً عمل فرحاً فى مدة ذلك الوباء ، ولا سمع صوت غناء (٨٦) .

(٨٤) الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٥-١٠٥ .

(٨٥) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

(٨٦) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٨٣٠ - ٨٨٣ ،

د. سعيد عاشور : العصر الممالىكى فى مصر والشام ، ص ٣٥١ .



أما فى الغرب الأوروبى فقد حدثت بعض التغيرات المشابهة لما حدث فى الشرق العربى ، لذلك سنقصر حديثنا على بعض جوانب أخرى من الجوانب الاجتماعية ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما حدث من تغير فى عادات دفن الموتى والتي يذكرها لنا « بوكاشيو » — وقد كان معاصرا لذلك الوباء — من أنه جرت العادة فى الغرب قبل الطاعون أن تتجمع النساء من أقارب الميت مع جيرانهم ويأخذن فى البكاء والعويل ، كما أن بعضهن كن يتجمعن أمام منزل المتوفى مع رجال الدين ، ثم يتم حمل الميت على الأكتاف ، وتتقدمه مجموعة من الشموع المخصصة لموكب الدفن والأناشيد الى الكنيسة التي اختارها لتكون مثواه ، فلما انتشر الطاعون لم تعد هذه العادة معروفة ، بل لجأ الناس الى حفر حفر كبيرة يلقون فيها جثث الموتى ويغطونها بالتراب دون حضور أحد القساوسة أو اقامة التراتيل الخاصة ، بل أدى الأمر الى أن يقوم كثير من الجيران بسحب جثث الموتى من المنازل ، وأن يلحقوا بها فى الشوارع أمام أبواب المنازل ليلا على أمل أن يراها أحد المارة فى الصباح وبخاصة من رجال الدين<sup>(87)</sup> . كما يذكر لنا أيضا أنه نتيجة لهجر الناس مرضاهم ، حيث كان يفر المرء من زوجته والزوجة من زوجها والأب من ابنه ، والأبناء من الآباء والأمهات ، مع ندرة وجود الخدم ، فقد استحدثت عادة لم تكن معروفة فى الغرب الأوروبى من قبل ، ذلك أن أى امرأة مهما كان وضعها لم تكن تشعر بحرج أو تردد فى اتخاذ أحد الرجال لخدمتها صغيرا كان أم كبيرا ، والذي كانت تضطر دون حرج أن يطلع عليها وعلى جسدها ، مما ساعد على تفشى كثير من الأمراض الاجتماعية منذ ذلك الحين ، فضلا عما نتج عنه من سوء العلاقات الأسرية ، وبخاصة أن الأقارب عندما كانوا يخدمون أحد مرضاهم فانما

---

(87) Giovanni Boccaccio : The Decameron. p. XXVIII; Coulton : op. cit., p. 17; Gottfried : op. cit., p. 45.



كانوا يعاملونه مثلما يعاملون القطط والكلاب آنذاك بوضع الأكل بجوار سريرهم والابتعاد عنه فوراً (٨٨) .

كذلك كان من نتيجة انتشار الطاعون في أوروبا أن ازدادت كراهية اليهود لدى أبناء الغرب الأوروبي ، وذلك بسبب الشائعات التي سرت بأن اليهود قد سمموا مياه العيون والآبار ، وعلى هذا الأساس شهدت كثير من مدن الغرب كثيراً من ألوان اضطهاد اليهود واحراقهم ، فضلاً عن محاولة رغام أطفالهم على اعتناق المسيحية ، بحيث فضل كثير من اليهود القاء أولادهم في النار على أن يتم تعميدهم . كما استولى كثيرون من أبناء الغرب الأوروبي على ممتلكات وثروات اليهود ، بالرغم من قيام البابا « كليمنت السادس » بالاعلان عن براءة اليهود مما نسب اليهم ، كذلك قام بعض اليهود بشراء حياتهم بدفع مبالغ كبيرة من المال لبعض الأمراء والملوك نظير حمايتهم من تلك الموجهة الموجهة ضدهم (٨٩) على عكس اليهود الذين عاشوا في بلاد الأندلس وفي بقية الشرق الاسلامي ، والذين لقوا معاملة أفضل بكثير من قبل الحكام المسلمين ، علماً بأن فكرة قيام اليهود بتسميم مياه الآبار ومجارى الأنهار والعيون فكرة قديمة ترجع الى بداية عصر الحروب الصليبية ، وذلك لما لقيه اليهود أثناء تلك الفترة من اضطهاد (٩٠) .

كذلك حدث تناقض كبير في سلوكيات الأشخاص في الغرب الأوروبي ، فالذين أدركوا أن الحياة مهما طال أجلها لابد منتهية ، أطلقوا العنان لأنفسهم للاستمتاع بكل ما لذ وطاب لهم ، بينما البعض الآخر كرسوا أنفسهم ووقتهم للخلاص من ذنوبهم وآثامهم ، لذلك كنت ترى بعض الشوارع تزدهم فيها الكنائس بالناس ، بينما شوارع أخرى تزخر

---

(88) Coulton : op. cit., pp. 16 — 56; Hirst : op. cit., p. 17.

(89) Hirst : op. cit., p. 18; Gottfried : op. cit., pp. 73 — 74.

(90) Gottfried : op. cit., p. 52; Margolis : A Hist. of The Jewish People. p. 404.



بالمستمتعين بكل مباحج الحياة وشرورها<sup>(٩١)</sup> • ونتيجة لهذا التناقض ظهرت من جديد جماعات ممن يضربون أنفسهم بالسياط تقربا الى الله ، وهى ظاهرة لم تكن جديدة على المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى ، اذ يرجع ظهورها الى أواخر القرن العاشر الميلادى ، مع اقتراب الذكرى الألفية أو العصر الألفى وهو الذى يعتقـدون أنه سيملك السيد المسيح الأرض مؤذنا بعصر جديد ، وانتشرت هذه الظاهرة بشكل خطير وواسع فى كل من ألمانيا وفرنسا والبلدان الوطيئة وشبه جزيرة أيبيريا والمجر ، وهؤلاء كانوا يقومون بجلد أنفسهم بالسياط ، كما يضربون أنفسهم عند الأكتاف والأذرع بقطع من الحديد وبحماسة منقطعة النظير حتى ينزف منها الدم<sup>(٩٢)</sup> •

كما أن الأقليات الحاكمة التى قدر لها البقاء فى مجتمعات الغرب الأوروبى آنذاك ، قد أصبحت أكثر ثروة مما كانت عليه من قبل ، فضلا عن تركـز السلطات فى أيديها ، بحيث غدت وكأنها قد أعيد بناؤها وبتركيز أكبر عما كان قبل حدوث ذلك الطاعون ، هذا بالإضافة الى أنه نجم عن ذلك الطاعون ظهور طبقة جديدة من الأثرياء ، والتى كان لديها الرغبة فى المشاركة فى حكومات المدن ، وشعر أفراد هذه الطبقة الجديدة أن مواردهم المالية تكفل لهم هذا الحق ، الا أن الأقليات الحاكمة عملت كل ما فى وسعها على أن تكبح جماع أبناء هذه الطبقة ، وتحول بينهم وبين ما كانوا يسعون اليه ، بحيث وضعت القوانين التى تمنع من مشاركتهم فى الحكم ، هذا فى الوقت الذى ازداد فيه الفقراء فقرا وهم الذين انتشر الوباء بينهم بشكل مؤثر ، وبذلك اتسعت الفجوة بينهم وبين جيرانهم من المحظوظين والذين ازدادوا ثراء ، وأصبحت هذه

---

(91) Hirst : op. cit., p. 17.

(92) Gottfried : op. cit., pp. 69 — 73; Ziegler : op. cit., pp. 87 — 110.



الفجوة أكثر اتساعاً عما قبل ، مما ساعد على خلق ظروف اجتماعية كان لها أثرها المباشر فى المجتمع الأوروبى فيما بعد<sup>(٩٣)</sup> .

أما عن الآثار الحربية والعسكرية فى الشرق العربى ، فقد كان هذا الطاعون من بين العوامل الرئيسية التى ساعدت على اضعاف الجيش المملوكى على وجه الخصوص ، ذلك أن البلاد التى كان المماليك يجلبون منها الى الشرق مثل سهوب روسيا والقوقاز قد شهدت تناقصاً مستمراً فى عدد سكانها لتكرار حدوث الطواعين بها ، يضاف الى ذلك سوء الأحوال الاقتصادية التى أخذت تعاني منها البلاد بسبب هذا الوباء ، والتى زاد من حدتها استنزاف الموارد المالية لدولة سلاطين المماليك فى صد أخطار المغول ، ولطرد البقايا الصليبية التى ظلت جاثمة على بلاد الشام ، فضلاً عن سياسة الحصار الاقتصادى التى فرضها الغرب الأوروبى على دولة سلاطين المماليك ، والتى انتهت بنجاح البرتغاليين فى الوصول الى بلدان الشرق الأقصى عن طريق رأس الرجاء الصالح ، والذى يسمى خطأ باسم الكشوف الجغرافية<sup>(٩٤)</sup> . وليس أدل على تناقص أعداد المماليك مما تشير اليه المصادر المعاصرة من أنه « فتك الطاعون بالمماليك والجوارى والغرباء ، وخلت طباق القلعة من المماليك السلطانية بسبب موتهم »<sup>(٩٥)</sup> وما يشير اليه المقرئى فى ذلك الطاعون من قول : « وأما المماليك فانها اليوم قليل عددها ، بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية ، لا تكاد تبلغ خمسة آلاف فارس ، يصلح منها لأن يباشر القتال ألف أو دونها ٠٠ » هذا بينما يروى أنه فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، أى قبل انتشار الطاعون بحوالى سبع سنوات فقط « فانها بلغت على مارأيته فى جرائد ديوان الجيش ،

---

(93) Ziegler : op. cit., pp. 59 — 60.

(٩٤) د. سعيد عاشور : العصر المملوكى ، ص ٣٥١ ،

David Neustadt : « The Plague and its Effects upon the Mamluk Army » J.R.A.S. 1946, pp. 67 — 68.

(٩٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٥ ، ص ٦٥٥ ، ج ٦ ، ص ٧٥٩ .



بأوراق الروك الناصري — أربعة وعشرين ألف فارس • ثم هازلت  
تنقص حتى صارت — مع قلة عدتها — سواء منها الألف والواحد ،  
فإنها لا تنفع ولا تدفع ••• » (٩٦) •

ويبدو أن تأثير ذلك الطاعون كان أكبر في الممالك السلطانية  
وبخاصة صغار السن ، والذين كانوا ينزلون في الطباق بالقلعة ويدرسون  
النظم العسكرية الى جانب دراستهم الدينية واللغوية ، وذلك راجع  
الى أنهم لم يكونوا قد تأقلموا بعد على جو البلاد ، فضلا عن أنهم لم  
يكونوا قد اكتسبوا المناعة الكافية ، الى جانب أنهم لم يحاولوا الفرار  
من العاصمة أثناء تفشى الطاعون بها ، خوفا من أن يستولى خصومهم  
على مالهم من سطوة (٩٧) • كذلك كان من أبرز مظاهر الخلل في النظم  
الحربية لدى الممالك تصرف الأمراء والأجناد في اقطاعاتهم عن طريق  
البيع والتنازل والمقايضة ، الأمر الذى أدى الى دخول كثير من الكتاب  
وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش ،  
ولما كان الجيش في ذلك العصر يعتمد في نظامه على الاقطاع ، فقد  
أدى فساد النظم الاقطاعية الى ضعف الجيش وانهيار دعائمه (٩٨) •

ومن الطبيعى أن يكون لهذا الطاعون أثره العسكري بحيث يمنع  
إرسال حملات حربية لفض الفتن والمنازعات ، وبخاصة أثناء انتشار  
الطاعون خوفا من الموت أثناء الزحف ، كما يمكننا القول أن خلال العشر  
سنوات التى تلت ذلك الطاعون لم تقم أية عمليات عسكرية رئيسية  
من عاصمة سلطنة الممالك ، وهذه حقيقة يمكن اعتبارها مؤشرا على

---

(٩٦) الخطط ، ج ١ ، ص ٩٤ •

(٩٧) David Neustadt : op. cit., pp. 71 — 72, Dols : op. cit.,  
p. 190

(٩٨) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٨٥ ، د. سعيد  
عاشور : العصر المالىكى ، ص ٣٥١ ، د. الباز العرينى : الاقطاع الحربى  
بمصر ، ص ٢٢ •



انهيار قوة المماليك الحربية من جراء ذلك الطاعون (٩٩) . كذلك كان لهذا  
أثره فى الحرب بين مسلمى شمال أفريقيا وبلاد الأندلس ضد المسيحيين  
الغربيين بقيادة الملك ألفونسو السادس بالرغم من ضعف القوى المسيحية  
بالنسبة لهم ، وقد دفعهم الطاعون الى التقهقر الى شمال أفريقيا وعدم  
استكمال حروبهم (١٠٠) .

أما عن تلك الآثار الحربية والعسكرية فى الغرب الأوروبى ، فيمكننا  
القول أن فترة انتشار الطاعون من ١٣٤٧ — ١٣٥١م كانت بمثابة  
كارثة كبرى عمت أوروبا وأصابت جميع بلدانها بنقص فى الأرواح  
والأموال، زيادة على ارتباك الأحوال الاقتصادية، مما تعذر معه استئناف  
الحرب بين إنجلترا وفرنسا فى ظل تلك الظروف وهى التى عرفت بحرب  
المائة عام « ١٣٣٧ — ١٤٥٣م » وهو الاسم الذى يطلق على المرحلة  
الأخيرة من مراحل الصراع بين إنجلترا وفرنسا ، والذى نشبت منذ  
عام ١٠٦٦م عندما امتلك أمراء نورمانديا إنجلترا وأصبحت ممتلكاتهم  
موزعة على جانبي المانش ، أى فى كل من فرنسا ذاتها ثم إنجلترا (١٠١)  
كما أنه نتيجة للخسائر الفادحة فى الأرواح التى تحملتها المدن الأوربية  
وبخاصة فى فرنسا ، فلم تستطع كثير من المدن الفرنسية تقديم  
المساعدات الحربية التى وعدت بها ملك فرنسا فيليب السادس ( ١٣٢٨ —  
١٣٥٠ ) عقب وأثناء انتشار الطاعون ، وكل ما استطاعت تقديمه عقب  
الوباء هو حوالى ٢٦٪ مما سبق ووعدت به ، كذلك اضطرت كثير من المدن

---

(99) Muir : The Mamluk or slave Dynasty of Egypt. pp. 94 — 97.

(١٠٠) المقریزی : السلوك ، ج ٣ قسم ٢ ، ص ٧٧٧ ،  
Dols : op. cit. p. 192.

(١٠١) د. سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٠٥ — (٥٥٥) .



الفرنسية الى تخفيض أعداد المحاربين الذين وعدت بتقديمهم (١٠٢) .  
هذا بالإضافة الى أنه كان لهذا الوباء أثره المباشر على مجريات الحرب  
الدائرة بين الصرب والأتراك العثمانيين (١٠٣) . كذلك كان السبب  
الرئيسي في انتهاء الرغبة في ارسال حملة صليبية من الغرب الأوربي  
تقلع من قبرص ضد الأتراك العثمانيين سنة ١٣٥١م (١٠٤) .

---

(102) John B. Henner man : op. cit., pp. 414 — 420.

(103) Gottfried : op. cit., p. 38.

(104) Hill : A. Hist. of Cyprus, Vol.I, pp. 301 — 307.



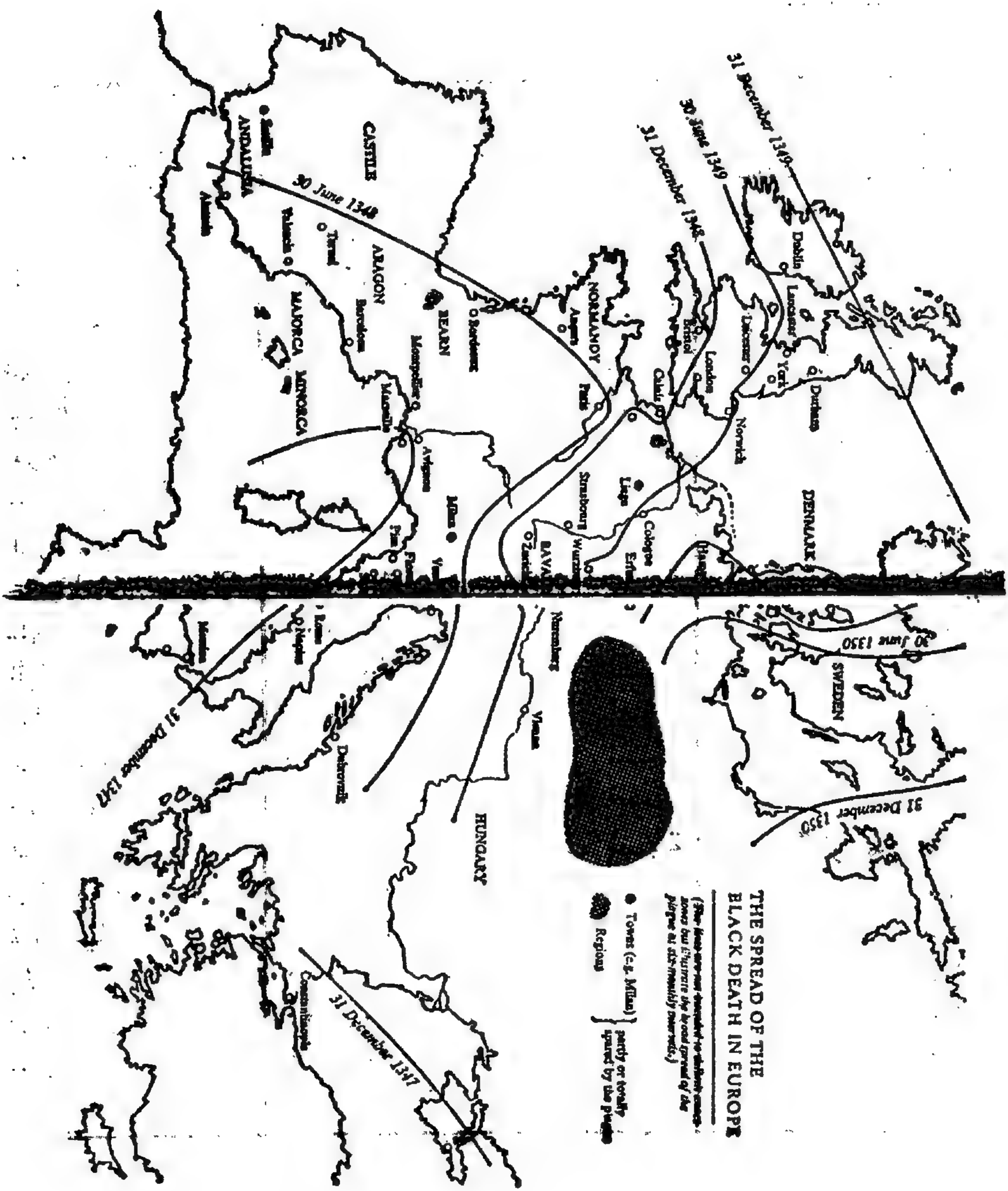
احصائية عن عدد سكان بعض المدن فى الشرق العربى الأوروبى  
تتبعين عدد سكان كل مدينة ونسبة الوفيات بها أثناء الطاعون مأخوذة  
من كتاب :

Gottfried The Black Death pp. 38 — 64.

النسبة المئوية لعدد من ماتوا بها	عدد سكانها قبل الطاعون	اسم المدينة
٤٠٪	٥٠٠.٠٠٠ نسمة	القاهرة
٥٠٪	٤٠.٠٠٠ نسمة	أنطاكية
٣٨ — ٥٠٪	١٠٠.٠٠٠ نسمة	دمشق
٣٠ — ٤٠٪	١٠٠.٠٠٠ نسمة	جنوة
٣٠ — ٤٠٪	٤٠.٠٠٠ نسمة	بيزه
٧٠٪	٣٠.٠٠٠ نسمة	Pistoia بستويا
٥٠٪	١٢.٠٠٠ — ١٥.٠٠٠ نسمة	أورفايتو
٧٠٪	٦٠.٠٠٠ نسمة	Siena سينا
٧٠٪	٨٠.٠٠٠ نسمة	فلورنسا
٦٠٪	١٢.٠٠٠ — ١٥.٠٠٠ نسمة	البندقية
١٥٪	١٠٠.٠٠٠ نسمة	ميلان
٧٠٪	٥٠.٠٠٠ نسمة	مرسيليا
٤٠٪	٢٥.٠٠٠ — ٣٠.٠٠٠ نسمة	ناربون
أكثر من ٥٠٪	٢٠.٠٠٠ — ٥٠.٠٠٠ نسمة	أفينون
٣٠٪	٥٠.٠٠٠ نسمة	برشلونة
٤٠٪	٣٠.٠٠٠ نسمة	فالنسيا
٣٥٪	٨.٠٠٠ — ٢٠.٠٠٠ نسمة	باريس
٣٥٪	١٠.٠٠٠ — ١٢.٠٠٠ نسمة	مريستول
٣٥٪	٥٠.٠٠٠ نسمة	لندن

من هذا الجدول يتضح لنا أن معدل الوفيات وصل الى ما بين ٤٠٪  
و ٥٠٪ من سكان المدن المذكورة ، وهى نسبة لا يستهان بها ، ولا شك  
أن لها آثارها الفعالة فى شتى مجالات الحياة سواء فى الشرق أم الغرب .







## قائمة المصادر والمراجع

- ١ — أحمد عبد الرازق « دكتور » : البذل والبرطلة — القاهرة ١٩٧٩م •
- ٢ — الباز العرينى « دكتور » : الأقطاع الحربى بمصر القاهرة ١٩٦٠م
- ٣ — البخارى : صحيح البخارى أجزاء ٣ ، ٤ طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابى الحلبي •
- ٤ — ابن بطوطة : ( ت ٧٧٩هـ ) : الرحلة نشر دار صادر بيروت ١٩٦٤م
- ٥ — ابن خلدون : ( ت ٨٠٨هـ ) مقدمة ابن خلدون — طبع المطبعة الاميرية بمصر ١٣٢١هـ •
- ٦ — سعيد عاشور « دكتور » : العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥م •
- \_\_\_\_\_ : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦١ •
- ٧ — السيوطى : « جلال الدين بن عبد الرحمن ت ٩١١ هـ » ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون ، نشر كريم ، فيينا ١٨٨٠ م •
- ٨ — عنان « محمد عبد الله » : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط ، القاهرة ١٩٦٩م •
- ٩ — قاسم عبده قاسم « دكتور » : النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك — القاهرة ١٩٧٨م •
- \_\_\_\_\_ : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى القاهرة ١٩٧٩ •



- ١٠ — ابن الجوزية « أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ت ٧٥١ هـ »  
: الطب النبوى طبع بيروت ١٩٨٤م
- \_\_\_\_\_ : الداء و الدواء طبع القاهرة ١٩٧٨م •
- ١١ — ابن كثير : « عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ت ٧٧٤ هـ » البداية  
والنهاية ، ج ١٤ ، القاهرة ١٩٣٩م •
- ١٢ — أبو الندا : « الملك المؤيد ت ٧٣٣ هـ » المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣  
بيروت ١٩٦٨م •
- ١٣ — المقرئى « تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ » :  
\_\_\_\_\_ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٣ ، قسم ٢  
تحقيق د • سعيد عاشور — القاهرة ١٩٧٠م •
- \_\_\_\_\_ : اغاثة الأمة بكشف الغمة • نشر د • جمال  
الدين الشيبال القاهرة ١٩٥٦ هـ •
- \_\_\_\_\_ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١  
ج ٢ طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ •
- ١٤ — ابن تغرى بردى « جمال الدين يوسف أبو المحاسن ت ٨٧٤ هـ »  
: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة أجزاء ٦ ، ١٠ — القاهرة  
١٩٧٢م •
- ١٥ — ابن الوردى « زين الدين عمر ت ٧٥٠ هـ » تاريخ ابن الوردى ،  
ج ٢ ، القاهرة ١٨٦٨م •



## المراجع الأجنبية

1. Abba EL Mishad : Manual of Practical Microbiology Cairo 1974...
2. Campbell : The Black Death and Men of hearing New York 1931.
3. Caulton : The Black Death, London 1929.
4. David Neustadt : « The Plague and its Effects upon The Mamluk Army » J.R.A.S. 1946.
5. Dols, Michael : The Black Death In The Middle East, Princeton University Press, New Jersey 1977.
6. Giovanni Boccaccio : The Decameron — London 1905
7. Gottfried : The Black Death Natural and Human Disaster in Medieval Europe, London 1983.
8. Hill : A. History of Cyprus, Vol. I London 1960.
9. Hirst : The Conquest of Plague, Oxford 1953.
10. John B. Hennerman : « The Black Death And Royal Taxation » Speculum, Vol. XLIII, 1968.
11. Margols : A. History of The Jewish People. A. Temple Book 1977...
12. Muir : The Mamluk or Slave Dynasty of Egypt, London 1895.
13. Lopez : The Commercial Revolution of the Middle Ages Cambridge 1976.
14. Thompson : Economic and Social history of the Middle Ages London 1970.
15. Yehia EL Batawi : Manual of Practical Microbial infection of Man Part II, Cairo 1981.
16. Ziegler : The Black Death, Penguin Book New Zealand 1975...



## 1. Introduction

The purpose of this study is to investigate the effects of the proposed system on the performance of the system. The results of the study are presented in the following sections.

### 2. System Description

The system is a web-based system that allows users to access and manage their data. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.

The system is designed to be user-friendly and efficient. The system is designed to be user-friendly and efficient.



# دور الدولة المصرية في عملية النمو الرأسمالى في

عهد محمد على

( ١٨٠٥ - ١٨٤٨ )

دكتور / محمد ابراهيم منصور

مدرس الاقتصاد بكلية التجارة

جامعة اسيوط

## تمهيد :

ان تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى ، بل وقيام الدولة مباشرة بأداء ما نسميه اليوم وظائف « المنظمين » يمكن رده الى ازمان سحيقة • وعند النظر من زاوية تاريخية أكثر تحديدا أن نعتبر رأسمالية « دعه يعمل » استثناء وخروجا مؤقتا من سياسات تدخلية متعاقبة انتهجها « المراكنتليون » وأنصار « كولبير » ، ثم اتبعتها الحكومات الرأسمالية المعاصرة فيما بعد • وهذه النظرة التاريخية تكشف عن ضعف ما تزعمه المدارس الحرة من خلود نظام المشروع الحر •

وعلى الرغم من أن تأثير الدولة فى تشكيل النشاط الاقتصادى كان أقل ظهورا خلال فترة رأسمالية « دعه يعمل » منه تحت نظام الاقطاع ، فان أثره فى خلق علاقات انتاج جديدة لا ينبغى التهوين من شأنه • فلولا المعاونة القوية من الدولة لما أمكن ان تحدث عملية التراكم الاولى • وقد اعترف آدم سميث بضرورة تكليف الدولة بتوفير



متطلبات التكوين الاساسى • فهو يتكلم عن ضرورة اقامة بعض الاعمال والمنشآت العامة وصيانتها مما لا يمكن أن يكون ذا فائدة بعينة أو لمجموعة صغيرة من الافراد وان كانت غالبا ما تقدم بالنسبة لمجتمع كبير أكثر من نفقتها • كذلك اضطر ليونيل روبنز — وهو من غلاة الداعين الى الافكار الحرة الحديثة — الى الاعتراف بأن نظام « الحرية الاقتصادية » كان يتطلب شرطا أساسيا هو « خلق بيئة مصطنعة الى حد بعيد ، وهذا ضرورى اذا أريد للنظام أن يعمل على الوجه الصحيح • ولم يكن يقصد بطبيعة الحال — بالبيئة المصطنعة سوى متطلبات التراكم الاولى التى يجب أن تضطلع بها الدولة ، كما لم يكن يقصد بالنظام سوى « الرأسمالية » • وكان ماركس قد أوضح قبل ذلك كيف أن عملية تاركم رأس المال قد زادت سرعتها وان الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية قد اختصر عمدا باستخدام سلطة الدولة (١) •

وربما يصعب تصور الرأسمالى على أنه واقعة اقتصادية • أى تحويل لعلاقات الانتاج يفرضه تطور القوى الانتاجية ، تحويل قابل لان يتم من تلقاء نفسه ، بفعل حركة القوى الاقتصادية من دون التدخل الفعال للسلطة السياسية أى الدولة • فالدولة تشكل عنصرا أساسيا فى دراسة ميكانيزم التشكيلات الاجتماعية ، اذ لا يجوز ارجاع هذه التشكيلات الى أنماط انتاجية ، كما يستحيل ارجاع هذه الانماط الى بنية تحتية اقتصادية بحيث لا يؤخذ عامل الدولة بعين الاعتبار • اذ تلعب الدولة دورا حاسما فى تحقيق شروط التراكم العينية •

ولم تتحدد معاونة الدولة فى تنمية علاقات الانتاج الرأسمالية وتوسيع قوى الانتاج فى الوسائل غير المباشرة مثل خلق الدين العام

---

(١) أجنتسى زاكس : نماذج القطاع العام فى الاقتصاديات المختلفة ، موازنة بين الهنى واليابانى ، ترجمة سمير عفيفى ومراجعة دكتور رفعت المحجوب ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ ، صفحة ٨٥ — ٨٧ •



والسياسات المالية والائتمانية والحماية ، بل تعمقت حتى وصلت الى مجال الانتاج المادى ذاته • وثمة أمثلة كثيرة لهذا الدور فى التاريخ الاقتصادى ، وان كان من المفيد حقا ان نحاول تحليل الدور الذى لعبته رأسمالية الدولة فى عملية النمو الرأسمالى فى مصر خلال حكم محمد على ، والدروس الثمينة التى أنطوت عليها هذه التجربة الفريدة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر •

وقد يكون من الاهمية بمكان أن نتعرض أولا للجدل الذى ثار حول طبيعة رأسمالية الدولة فى عهد محمد على ، قبل أن نعرف دورها — تفصيلا — فى عملية النمو الرأسمالى ، وتهيئة الاقتصاد المصرى للاندماج فى السوق الرأسمالى العالمى •

### أولا — الجدل حول رأسمالية الدولة فى عهد محمد على :

يعرف موريس دوب رأسمالية الدولة « بأنها مجموع العلاقات الجديدة بين الدولة ورأس المال والتى تسمح لدولة بتوجيه العمليات الاقتصادية وتنسيقها وتخطيطها ، ويختلف المضمون الاجتماعى لرأسمالية الدولة ودورها باختلاف طبيعة الدولة والمصالح الطبقية التى تمثلها ، أى باختلاف العلاقات السائدة فى المجتمع • (٢) وبعبارة أخرى تشير رأسمالية الدولة الى أن تأثير كل تدخل من الدولة يرتفع بطبيعة الدولة وبالسياسة الواقعية التى تنتهجها • أى أن تدخل الدولة يرتبط بأسلوب ممارسة السلطة السياسية والتعبير الاقتصادى والاجتماعى لهذه السلطة (٣) •

ويرى البعض أن هذا التعريف يكاد ينطبق على مصر فى عهد محمد على ( ١٨٠٥ — ١٨٤٠ ) حيث تدخلت الدولة فى النصف الاول من القرن

---

(2) Dobb, M., : Studies in the development of Capitalism, Routledge & Kegan, London, 1957, p. 384.

(٣) زاكس : المراجع السابق صفحة ١٢ •



للتاسع عشر فى النظام الاقتصادى للبلاد ، ووجهت العمليات الاقتصادية الى نموذج يمكن أن نسميه طبقا لتعريف موريس دوب باسم « رأسمالية الدولة » • فقد حصلت مصر — لأول مرة فى تاريخها الحديث — على سياسة اقتصادية منظمة • وقد أثارت هذه السياسة الكثير من الجدل واختلفت بشأنها الآراء ، رغم أن الظروف الموضوعية لمصر لم تكن تسمح بغير ذلك<sup>(٤)</sup> حتى ان البعض قد غالى فى تقديره لهذه السياسة الاقتصادية الى حد القول بأنها كانت مزيجا من « الاشتراكية الحكومية » القائمة على الاحتكار مقرونة بالنظام الديكتاتورى<sup>(٥)</sup> • وهو قول يناقض تعريف دوب السابق لرأسمالية الدولة ، حيث لا يمكن أن توصفيا الاشتراكية لأول وهلة حالة تتولى فيها الدولة نشاطا اقتصاديا ، فاذا كان احتكار التبغ مثلا يعنى الاشتراكية لكان نابليون ومترنخ هما مؤسسا الاشتراكية • وان كان بعض الباحثين — رغم هذا — يرجع تأثير محمد على بأفكار السان سيمونيين الاشتراكية التى كانت الحملة الفرنسية قد أدخلتها وشيكا فى مصر أو التى نقلها مبعوثوه النجباء من فرنسا بعد ذلك<sup>(٦)</sup> •

أما باتريك أوبريان فيقول بأن محمد على طبق نظاما اقتصاديا تصح تسميته بالنظام الجماعى<sup>(٧)</sup> ، وهو نظام تقدمت فى ظله قوى الانتاج

---

(٤) د. على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر الاول من القرن التاسع عشر ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٤١ •

(٥) د. جمال الدين سعيد : اقتصاديات مصر ، مطبعة لجنة البيان العربى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٤ •

(٦) كامل زهيرى : حقائق لم تنشر عن السان سيمونية فى مصر ، الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، صفحة ٤٥ — ٤٦ •

(7) O'brien, Patric : The Revolution in Egypt's Economic system, London, 1966, p. 39.



تقدما كبيرا ، فاستصلحت أراضي جديدة ، واتسعت رقعة الأرض التي تروى وفقا لنظام الري الدائم . ويبدو أن صافي الاستثمارات في الري قد ارتفع في عهد محمد علي ارتفاعا كبيرا . فقد تم تنفيذ العديد من مشروعات البنية الأساسية من حفر القرع والمصارف وإنشاء الكبارى والجسور وبناء السواقي ، وأدخلت فنون إنتاجية جديدة خاصة بالدورة الزراعية ، ومحصولات جديدة كثيفة العمل . وقد اتفق آخرون مع أوبريان بقولهم انه نظام معين من الاحتكار ، اذ كانت الدولة تملك تقريبا جميع وسائل الانتاج وتقوم بتوجيه استخداماتها في الانتاج بصورة مركزية ، خاصة بعد أن نجح محمد علي في تكوين دولة مركزية ، اثر تراجع اللامركزية السياسية الاقطاعية المملوكية مع تقدم قوى الانتاج تقدما كبيرا في عهده . بيد أن هذه الدولة ، كما يقول الدكتور جمال حمدان كانت تتراوح بين الاقطاعية ورأسمالية الدولة التي قصد بها حين صادر كل الأرض أن تصفى في النهاية الى اقطاع أسرى بالذات (٨) . فقد ظل أسلوب الانتاج الاقطاعي كما هو ، وظلت العلاقات الانتاجية الاقطاعية كما كانت . وحتى الصناعة التي أقامها محمد علي مباشرة تحت ملكية الدولة لم تكن نتاج تطور طبيعي للبرجوازية التجارية ، ولم تحطم بالتدريج الانتاج الحرفي للطوائف لحل محله المصنع الكبير ، ولذلك كان من الطبيعي جدا أن تنهار هذه الصناعة بمجرد أن انهارت الاسباب التي أنشئت من أجلها ، وهي الاستراتيجية العامة لمحمد علي التي فرضتها عليه ظروف داخلية وخارجية (٩) ، ومع ذلك فقد انطوت

---

(٨) د. جمال حمدان : البيروقراطية والجغرافية ، دار الهلال ، القاهرة

١٩٦٥ صفحة ٦٣ .

(٩) د. راشد البراوى ومحمد حمزة عيش : التطور الاقتصادي في

مصر في العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٦٠ .



التوجهات الاقتصادية الجديدة لمحمد على فى مقتبل القرن التاسع عشر على اتجاهات فى غير صالح البنيان ما قبل الرأسمالى • وقد أصابت هذه الاجراءات بغير شك العلاقات الاقطاعية بالتفكك ، ولكنها تمزق بطريقة حاسمة نسيج هذه العلاقات • وأن ما حدث فى عهد محمد على كان حالة تشبه — الى حد ما — حالة الانتقال الاوربى من التفنت الاقطاعى فى العصر الوسيط الى الملكية المطلقة الماركنتيلية • فبعد أن الغى نظام الالتزام واسترد للدولة أراضى الاوقاف واقطاعيات المشايخ والعلماء وأمرء الممالك ، أخضع الانتاج الزراعى لنظام واحد من جباية الخراج « المركز »<sup>(١٠)</sup> • وعلى أية حال ، فقد كانت السلطة المركزية على القطاع الزراعى فى عهده أقوى بكثير وأكثر اتساعا منها فى عهد الممالك أو بعده ، فالملكية العامة فى القرن الثامن عشر لم تكن الا قدرا اسميا من الاشراف المركزى على رأس مال مصر الانتاجى الرئيسى « الأرض » اذ ظل الاشراف بوجه عام على الانتاج الزراعى فى أيدي « الملتزمين » الذين منحتهم الدولة أراضى شاسعة أو أقاليم بكاملها ليتولوا الاشراف عليها نيابة عن الدولة<sup>(١١)</sup> • وبعد عهده ، خفت تدريجيا قبضة الدولة على القطاع الزراعى ، كما كفت — نهائيا — عن التدخل فى تسيير دفعة النشاط الاقتصادى بوجه عام •

وقد مهد تفكك العلاقات الاقطاعية فى مصر — بسبب السياسات الماركنتيلية لمحمد على — لمرحلة انتقالية من الانتاج السلعى ما قبل الرأسمالى والخاضع لقانون القيمة والمهد لبزوغ الرأسمالية • وقد نجم عن هذا التفكك تحول الريع العينى الى ريع نقدى ، والانتقال بالاقتصاد المصرى من نمط خراجى اقطاعى تنعدم فيه « مركزة الفائض »

---

(١٠) د. جمال حمدان : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الثانى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٥٧٥ •

(11) O'brien, Patric : op. cit., p. 34.



بحكم تفتت السلطة وتوزيعها بين أمراء المماليك والمشايخ والمترمين ، ويقوم فى الواقع على « القيمة الاستعمالية » الى نمط جديد من الانتاج السلعى تنمو داخله باطراد نواة « القيمة التبادلية » وعلاقات الانتاج الرأسمالية ، ويعبأ فيه الفائض مركزيا طبقا لمقتضيات التراكم الرأسمالى •

### ثانيا : دور الدولة فى عملية النمو الرأسمالى فى عهد محمد على :

تميز حكم محمد على — فى النصف الاول من القرن التاسع عشر — بازدياد سيطرة الدولة على الاقتصاد القومى ، وتوجيهه نحو الاغراض التى رسمتها له • وقد سبق أن نوهنا الى أن اشراف الدولة على الاقتصاد الزراعى — قبل محمد على — كان اسميا • ومن ثم لم يفض الى تغيرات جوهرية فى علاقات الانتاج المسيطرة • أما فى هذا الطور من تاريخ مصر — فى النصف الاول من القرن التاسع عشر — فقد لحقت بنيانها الاقتصادى ما قبل الرأسمالى تطورات بعيدة الاثر عن طريق تدخل الدولة المباشر أدى به الى الانتقال من اقتصاد ساكن الى اقتصاد مفتوح متحرك • وفى عشرينات القرن التاسع عشر تحولت مصر من اقتصاد معيشى الى اقتصاد تصديرى ، وتمت خلال السنوات ( ١٨٢٠ — ١٨٤٠ ) محاولة طموحة — لم يكتب لها الاستمرار — لتحويل الاقتصاد القومى الى اقتصاد حديث ومستقل ، واقامة الاتصال بين القطاع التصديرى والقطاعات الاخرى (١٢) •

وقد بنى هذا التدخل على أساس الاقتناع بأن على الدولة أن تتخذ خطوات ايجابية لتحقيق « الدفعة القوية » اللازمة لعبور الهوة بين مصر وأوروبا • وقد كان هذا — الى حد ما — تجاوبا مع الاتصال

---

(12) Charles Issawi : Egypt since 1900, A study in Lop - Sided Development, journal of Economic History March 1964, pp. 1 - 25.



المتزايد بين مصر والغرب الذى بدأ بحملة بونابرت على مصر — تماما كما حدث فى تجربة اصلاح الميجى فى اليابان الذى تلا حملة الكومودور بيرى فى منتصف القرن التاسع عشر •

فقد جاءت الحملة الفرنسية ( ١٧٩٨ — ١٨٠١ ) لتمثل أول مواجهة بين رأس المال والمجتمع المصرى • وكان هدف الحملة ، من الناحية الاقتصادية ، تحويل مصر الى مزرعة كبيرة تعوض فرنسا عما فقدته فى حروبها الاستعمارية مع انجلترا فى القرن الثامن عشر فى أمريكا وجزر الهند الغربية • بيد أن محاولة رأس المال الفرنسى فشلت فى أن تخلق من الاقتصاد المصرى اقتصادا تابعا ، ولكن عملية المسح الشامل ودراسة مصر كوحدة انتاجية واحدة ، والسياسات التى رسمتها الحملة لاستغلالها أفادت فى المرحلة التالية فى محاولة بناء اقتصاد مصرى غير تابع فى السوق العالمية • وهى المحاولة التى قامت بها الدولة المصرية بزعامة محمد على فى الفترة ما بين ١٨٠٥ الى ١٨٤٠ • وتتضمن هذه المحاولة أول بناء صناعى ذى وزن نسبى هام ، واعادة تنظيم القطاع الزراعى (١٣) •

وقد افضى اعادة تنظيم القطاع الزراعى — بالذات — الى نتيجتين هامتين :

١ — نمو تدريجى فى علاقات الانتاج الرأسمالية ، وتحول أنماط الانتاج ماقبل الرأسمالية الى أنماط رأسمالية • وربما كان صحيحا • — لهذا السبب — الزعم بأن بذور الرأسمالية فى مصر نشأت من أصول زراعية وليست من أصول حرفية أو صناعية •

٢ — زيادة دور الدولة فى تعبئة الفائض الاقتصادى ، وفقا لمقتضيات الانتاج السلعى وزيادة التراكم الرأسمالى •

---

(١٣) د. محمد دويدار : التكوين التاريخى للتخلف الاقتصادى فى مصر ، مصر المعاصرة ، القاهرة ، العدد ٣٧٣ ، يوليو ١٩٧٨ ، ص ٨ — ٩ •



## ( ١ ) نمو علاقات الانتاج الرأسمالية :

شهد القطاع الزراعى المصرى — فى عهد محمد على — تطورين جذريين ، وصفهما « أوبريان » بأتهما « ثورة »<sup>(١٤)</sup> . أما أولهما ، فهو ادخال محاصيل نقدية لها قيمتها السوقية فى الاقتصاد العالمى كالقطن وقصب السكر • وثانيهما ، ما حدث من تغيرات فى الملكية الزراعية ونظام حيازة الأرض فى مصر ، حيث تطورت ملكية الأرض فى عهده من عامة الى خاصة • وقد كانت مجموعة الاحداث التى عرفتھا مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر : الحملة الفرنسية ، محاولة الانجليز غزو مصر سنة ١٨٠٧ ، والحروب النابليونية فى أوروبا ، هى التى أدت الى ازدياد درجة احساس الدولة المصرية بالطلب فى السوق العالمية ، وهذه الاستجابة للطلب المتزايد فى السوق الدولية عبرت عن نفسها فى تاريخ لاحق بالنسبة لطلب العالمى المتزايد على توسع صناعة المنسوجات ، ومع قيام الدولة المصرية بخطوات واسعة فى البناء الصناعى • يقول « مابرو » « ان ادخال زراعة القطن الطويل الثيلة فى العشرينات من القرن التاسع عشر ، كان بداية لعملية تحول طويلة استمرت خلال مراحل متعددة ، وأدت بالرغم من التغيرات التى حدثت فى الظروف السياسية الى ظهور اقتصاد موجه نحو التصدير<sup>(١٥)</sup> ، ومن ثم تغير الشكل العينى للفائض الاقتصادى من المواد الغذائية الى القطن • وأصبحت مصر — لأول مرة فى تاريخها — مصدرة صافية للقطن ومستوردة للمواد الغذائية ، أى أن الزراعة التى ظلت — حتى ذلك الوقت — تتحكم فيها « قيمة الاستعمال » ومكرسة بالدرجة الاولى

---

(14) O'brien; op. cit., p. 36.

(١٥) روبرت مابرو : الاقتصاد المصرى ( ١٩٥٢ — ١٩٧٢ ) ، ترجمة د. صليب بطرس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٤ — ١٧ •



لاشباع احتياجات البقاء ، أصبحت زراعة نقدية ، متكاملة من خلال تصدير سلعة أولية ثمينة الى الاقتصاد الدولى •

لقد كان القطن علامة بارزة فى تاريخ مصر الاقتصادى ، وأداة هامة لادماج الاقتصاد المصرى — بعد عهد محمد على — فى الاقتصاد الرأسمالى العالمى • وفتح بذلك آفاقا جديدة للتجارة المصرية ، وزود البلاد بمصدر كبير للتراكم ، وأوجد فى الاقتصاد المصرى خطوط اتصال ملائمة بين القطاعات ، لم تكن موجودة بالقطع فى ظل البنيان السابق (١٦) •

ومن ناحية أخرى رأى محمد على أن نظام حيازة الارض القائم فى مصر لا يوفر له الموارد اللازمة لتحقيق « مشروعه » • ومن ثم فقد قرر تغييره ، ولهذا أخذ منذ عام ١٨٠٩ ينحى الفئات الاجتماعية التى وضعت أيديها على أراضى مصر ، والغنى نظام الالتزام ، وصار هو نفسه مالك الارض ، ولم يعد زراعتها أكثر من مستأجرين لديه • وكان مديروه وكلاء عنده فى ادارة البلاد يقومون بتوزيع الاراضى والاشراف على استثمارها ومراقبة زراعتها • وأصبحت العلاقة بين الفلاح والدولة مباشرة ، وأعيد تنظيم الضرائب •

ولم يتم ذلك — بطبيعة الحال — دفعة واحدة ، بل بدأ تدريجيا ابتداء من سنة ١٨١٢ حيث تم مسح كل الاراضى المزروعة فى القرى المختلفة وربطها فى السجلات ووزعها على الفلاحين يقومون بفلاحتها دون أن يكون لهم حق توريثها أو تداولها عن طريق البيع أو غيره من التصرفات ، وأعقب ذلك استيلائه على الاراضى التى كان يملكها الملتزمون (١٧) •

---

(16) Issawi; op. cit., p. 18.

(١٧) د. محمود متولى : الاصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ ص ٤٢ •



ويظن البعض أن محمد على لو فرض وطبق مبدأ الملكية الخاصة على جميع الاراضى لكان من المشكوك فيه نجاحه كثيرا بالفقر والجهل والجمود معا كان يحول دون استثماره على الوجه الاكمل (١٨) .

ومع ذلك ، فان موقف محمد على من نظام الملكية والحيازة يعد على أية حال تمهيدا لما جرى فيما بعد من اقرار للملكية الخاصة ، اذ كان لابد أن تتغير علاقات الانتاج خلال تحول الارض الى سلعة يمكن التخلي عنها على أساس من الملكية الخاصة الفردية . وقد عمد محمد على — بالفعل — فى أواخر عهده الى التخفيف من القيود التى وضعتها على تداول الارض بين الفلاحين القائمين بزراعتها ، اذ أنه بقضائه على طبقة الممالك التى كانت تقف وسيطا بين الوالى والفلاحين ، ثم باصداره قرارات ١٨٣٧ ، ١٨٤٢ ولائحة الاطيان الاولى سنة ١٨٤٦ (١٩) مهد للملكية الخاصة بالظهور وبالذات الكبيرة الحجم التى انحدرت منها الاصول الرأسمالية فى قطاعات الاقتصاد الاخرى الى جانب أنه ثبت الفلاحين فيما كان فى أيديهم ، وزادهم على توالى الزمن حقوقا فى أرضهم .

---

(١٨) د. راشد البراوى وحزمة عيش : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(١٩) أعطى القرار الصادر فى يناير ١٨٣٧ المنعم عليهم بأرض الابعاديات والشفالك حق توريثها لاولادهم وأحفادهم . وقد تدعم هذا القرار بقرار آخر فى فبراير ١٨٤٢ أباح لأصحاب تلك الاراضى حق البيع والشراء والتنازل والرهن . أما أول تشريع ينظم حيازة الارض بالنسبة للفلاحين فقد صدر فى ديسمبر ١٨٤٦ ويعرف بلائحة الاطيان الاولى وقد أجازت تلك اللائحة للفلاح حق رهن الارض أو التنازل عنها للغير أو تأجيرها . راجع : هيلين آن ريفنين : الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ ، صفحة ٩١ — ١٠٠ .



والواقع أن تغير سياسة الدولة الزراعية في اتجاه الملكية الفردية للأرض كان محصلة عوامل كثيرة ومتعددة أهمها ، التوسع الصناعي وما يستلزمه من خامات زراعية ، والآثار غير المواتية لسياسة محمد علي الزراعية على الفلاح المصري ، وأثر الأزمة العالمية على إيرادات الدولة ، بالإضافة — وهو عامل مهم إلى ضغوط القوى الأوربية (٢٠) .

وقد تحقق هذا التعبير من خلال خلق ملكيات كبيرة لأعضاء الأسرة الحاكمة وكبار موظفي الدولة ، مع الملكيات المتوسطة لبعض المشايخ وبعض أغنياء الفلاحين . ولو قارنا صورة ما حدث للملكية الزراعية ما بين سنة ١٨٣١ و ١٨٤٤ نجد أنها كانت تتطور لصالح الملكيات الكبيرة (٢١) ، فبينما زادت أراضي الفلاحين بنسبة ٣٤٪ خلال الفترة المذكورة ، زادت أراضي كبار الملاك بنسبة ١١٠٪ .

ويوضح الجدول رقم ( ١ ) توزيع استخدام الأرض في مصر في سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٤٤ ونوعية الحائزين .

### جدول رقم (١)

توزيع استخدام الأرض في مصر

في سنتي ١٨٢٠ و ١٨٤٤ ونوعية الحائزين ( بالفدان )

السنة	الملكيات الكبيرة ( الابعاديات )	
١٨٢٠	٧٣٢٦٨٥	١٩٥٦٦٤٠
١٨٤٤	١٥٧٦٥٥٩	٢٠١٣٩١٤

**المصدر :** أخذت بيانات هذا الجدول من هيلين ايفلين ، المرجع السابق .

(٢٠) د. محمد دويدار : المرجع السابق ، صفحة ١٣ .

(21) Gabriel, Baer : A History of Land Ownership in Modern Egypt ( 1800 - 1950 ), oxford University, 1962, p. 18.



## ٢ — رأسمالية الدولة وتعبئة الفائض الاقتصادى :

ولما كان هدف الدولة حينئذ يتمثل فى بناء اقتصاد يقوم على الانتاج السلعى ، ويتم من خلال نوع من رأسمالية الدولة • فقد كان هذا الهدف يقتضى زيادة تعبئة الفائض الاقتصادى ، وفى حالتنا هذه يغلب على الفائض الاقتصادى طابع الفائض الزراعى •

وفى اتجاه تعبئة الفائض الزراعى قامت الدولة باحتكار التجارة الداخلية والخارجية وتجارة المنتجات الزراعية والمنتجات الصناعية • وقد اتخذ الفائض الزراعى حينئذ أشكالا عدة :

١ — العمل ، وخاصة العمل المسخر •• وقد كانت الدولة هى الطالب الوحيد لعنصر العمل سواء للاغراض العسكرية أو للاغراض الانتاجية •

وكانت ساعات العمل اليومية لا تقل فى المتوسط عن اثنتى عشرة ساعة يوميا (٢٢) •

٢ — ما يدفع عينا أو نقدا بواسطة الضرائب وما يشابهها ، وقد كانت الضرائب العقارية وحدها تمثل نحو ٤٥٪ من إيرادات الدولة الاجمالية عام ١٨٣٣ (٢٣) • كما كانت المحاصيل المختلفة وأدوات الانتاج الرئيسية كالحيوانات الزراعية ووسائل النقل وآلات النسيج والسفن الشراعية خاضعة للضريبة • وقد قدر ما يدفعه الفرد فى مصر من ضرائب

---

(٢٢) د. محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ١١٣

(٢٣) زادت الضرائب العقارية من ٥٤١.٦٦ جنيه فى عام ١٨٢١ الى ٩٢٢.٨٤ ر.ا جنيه فى عام ١٨٣٣ • انظر د. راشد البراوى ومحمد عليش ، المرجع السابق ، ص ٦٦ •



٢ جنيه استرليني ، وهو يساوى ما يدفعه الفرد فى انجلترا وضعف  
ما يدفعه الفرد فى فرنسا (٢٤) •

٣ - الادخار الاجبارى عن طريق سياسة احتكار المنتجات  
الزراعية والصناعية ، واتباع سياسة جديدة لاثمن السلع الزراعية •  
ويوضح الجدول التالى رقم (٢) سياسة الأثمان الزراعية التى كانت  
تمارسها الدولة فى عهد محمد على •

### جدول رقم (٣)

سياسة الأثمان الزراعية فى عهد محمد على

الغلة	الوحدة	الثمن الذى تشترى به الدولة من الفلاح بالقرش	الثمن الذى تبيع به الدولة فى السوق المحلى بالقرش	الثمن الذى يبيع به فى السوق العالمى ( التصدير ) بالقرش
القمح	الأردب	٩٠	٥٦	٩٠
الذرة	الأردب	٢٦	٢٧	٦١
الارز	الأردب	١٨	١٤٠	٢٧٠
الفول	الأردب	٣٦	٣٢	٥٦
الحمص	الأردب	٢٠٠	٦٠	٧٠
القطن الشعير	القنطار	٢٩	—	من ٢٨٠ الى ٦٠٠
الحناء	القنطار	٢٧	٨٠	٨٢
الكتان		٧٤	—	١٨٠

المصدر : د. محمد فهمى لهيطة ، مرجع سبق ذكره ص ١١٨ •

(24) Charles Issawi, The Economic History of the Middle East 1800 - 1914, The University of Chicago Press, 1966, p. 388.



وجدير بالذكر أن محمد على لم يلجأ الى الاقتراض من الخارج رغم حاجته الماسة الى الأموال ، وقد رفض بعض القروض التي عرضها عليه الممولون الأجانب<sup>(٢٤)</sup> لخوفه من أن يؤدي الدين الخارجى الى تورط مصر ويتخذ كذريعة للتدخل الأجنبى وواد مشرعه الوليد فى الاستقلال الاقتصادى •

وينبغى الاعتراف بأن سياسة الدولة الزراعية قد نجحت — الى حد ما — فى توفير المتطلبات الأساسية للتراكم الرأسمالى البدائى وخاصة فى قطاع الزراعة • كما نجحت — الى حد كبير — فى أحداث توازن بين السكان والموارد المادية بل ان الانتاج الزراعى تجاوز معدل الزيادة السكانية ، وهذه الحقيقة — فى رأى البعض — غاية فى الأهمية لأن اختلال التوازن بين السكان والموارد سيكون نتيجة ادماج الاقتصاد المصرى فى الاقتصاد الرأسمالى العالمى كما تحقق بعد عام ١٨٤٠ •

ويبين الجدول رقم (٣) أن نسبة توزيع الأرض على عدد السكان تعتبر ملائمة ومتوازنة •

### جدول رقم (٣)

نصيب الفرد من الأرض الزراعية فى مصر  
فيما بين عام ١٨٢١ و ١٨٤٠

السنة	عدد السكان (بالآلف نسمة)	مساحة الأرض الزراعية ( ألف فدان )	نصيب الفرد من الأرض المنزرعة
١٨٢١	٢٠.٣٢		٨٠ فدان لكل فرد
١٨٤٠		٣٨٥٧	٩٨ فدان لكل فرد

Source : Crouchley, A., E., : The Economic Development of Modern Egypt, London, 1938.

(٢٥) د. محمد عبد العزيز عجمية ، التطور الاقتصادى ١٩٧٦ ص



ويرى البعض بحق أنه لولا هذا الموقف الملائم على الجبهة الزراعية لاستحال على محمد على أن يواصل تمويل برنامجه الصناعى الكبير . فقد نجحت الدولة بتعبئة الفائض الزراعى ، وتحويل الشكل العينى لجزء منه فى السوق الدولية ( عن طريق تصدير سلع زراعية واستيراد سلع صناعية ) ، فى ارساء بناء صناعى كبير خلال ما يقرب من ثلاثة عقود . وفى عام ١٨٣٣ كان يوجد ثلاثون مصنعا للغزل والنسيج ، وكن الغزل المنتج يشبع كل احتياجات مصانع النسيج ، وتصدير جزء من فائض الانتاج للخارج . كما أن المنسوجات المنتجة محليا كانت تغطى كل احتياجات السوق الداخلية ، بل وتوفر احتياجات السوق العربية فى شرق البحر المتوسط والأناضل والسودان . وفى صناعة المعادن كان يوجد ٨٠٠ فرن لانتاج المعدات وقطع الغيار ولوازم الحرب التى كانت تستردها مصر من أوروبا فيما سبق . كما وجدت مصانع لانتاج الأسلحة وصناعة للسكر والصبغة والزجاج ودبغ الجلود ، وصناعة للورق والمواد الكيماوية ، وكانت تغطى كل احتياجات السوق الداخلية .

ويقدر البعض تكاليف هذا البرنامج الصناعى الطموح بسبعة ملايين دولار فى حين ذكر محمد على لأحد الأوروبيين أنه تكلف ١٠ مليون دولار لاقامة هذه الصناعة (٢٦) .

وليس ثمة شك أن كثيرا من الصناعات التى نمت فى مصر فيما بعد يرجع أساس نهضتها الى عصر محمد على فكأنه مهد التربة المصرية لذلك . وأخيرا ، فقد تدرب عدد كبير من العمال المصريين على الأساليب الصناعية الجديدة سيبدو أثرهم فى عصر اسماعيل . وفى عام ١٨٤٧

---

(٢٦) هيلين ريفلين : المرجع السابق ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .



كانت القوة العاملة المستخدمة فى القطاع الصناعى المصرى نحو ٤٧ ألف عامل أجير فى الوقت الذى لم يكن سكان مصر قد وصلوا فيه الى أربعة ملايين نسمة (٢٧) .

وقد ارتبط بهذه الجهود الكبيرة انجازات فى مجال التعليم بكافة أنواعه ومراحله ، وبدء سياسة ارسال البعثات التعليمية الى أوروبا من منتصف عشرينات القرن التاسع عشر . وهى السياسة التى أوجدت نواة الانتلجسيا المصرية التى قادت عصر التنوير والنهضة فى التاريخ المصرى الحديث ، ونقلت أول موجات الفكر الأوروبى المسيطر وهو الفكر الليبرالى الذى بدأت بذوره تنمو فى مصر مع نمو الملكية الخاصة .

### ثالثا - انهيار نظام رأسمالية الدولة :

#### والاندماج فى نظام السوق الرأسمالى العالمى :

لقد كان من أهم خصائص التحويل الاقتصادى الذى قادتته رأسمالية الدولة المصرية فى عهد محمد على أنه تم ليس فقط دون الالتجاء الى رأس المال الأجنبى ، وانما بالاستبعاد المتعمد لهذا الرأسمال .

وكان معنى عملية التحول هذه أن تتطور علاقات الاقتصاد المصرى مع السوق العالمية ، كما يظهر من التعبير القيمى عن هذه العلاقات فى الجدول رقم (٤) .

---

(٢٧) أحمد الحقة ، تاريخ مصر الاقتصادى ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .



## جدول رقم (٤)

تطور قيمة تجارة مصر الخارجية  
فيما بين عام ١٨٠٠ الى عام ١٨٥٠  
( بالجنيهات المصرية )

السنة	قيمة الصادرات	قيمة الواردات	اجمالي التجارة الخارجية
١٨٠٠	٢٨٨ر٠٠٠	٢٦٩ر٠٠٠	٥٥٧ر٠٠٠
١٨٢٣	١ر٥٨٤ر٠٠٠	٨٠٤ر٠٠٠	٢ر٣٨٨ر٠٠٠
١٨٢٤	٢ر١٢٧ر٠٠٠	١ر٠٠٩ر٠٠٠	٣ر١٣٦ر٠٠٠
١٨٢٦	١ر٤٥٥ر٠٠٠	٦٥٦ر٠٠٠	٢ر١١١ر٠٠٠
١٨٣١	١ر٦٠٩ر٠٠٠	١ر٥٢٩ر٠٠٠	٣ر١٣٨ر٠٠٠
١٨٣٦	٢ر٠٧٦ر٠٠٠	٢ر٥٧٦ر٠٠٠	٤ر٥٧٦ر٠٠٠
١٨٣٧	٢ر١٤٢ر٠٠٠	٢ر٦١٢ر٠٠٠	٤ر٧٥٤ر٠٠٠
١٨٤٥	١ر٧٤٧ر٠٠٠	١ر٠٠٧ر٠٠٠	٢ر٧٥٤ر٠٠٠
١٨٤٨	١ر٥٧٤ر٠٠٠	١ر٤٨٠ر٠٠٠	٣ر٠٥٤ر٠٠٠
١٨٥٠	١ر٦٦١ر٠٠٠	١ر٤٧٤ر٠٠٠	٣ر١٣٥ر٠٠٠

### المصدر :

- (١) د. أحمد الحتة ، تاريخ مصر الاقتصادي ، نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٣٢٠ .
- (٢) د. محمد فهمي لهيطة ، المرجع السابق ص ١٥٩ .
- (٣) د. محمد دويدار ، المرجع في سابق ، ص ١٢ .

ويظهر من هذا الجدول أن تجارة مصر الخارجية قد تضاعفت  
حوالي تسع مرات خلال الفترة من ١٨٠٠ الى ١٨٥٠ ، وقد كان نمو  
الواردات في معظم هذه السنوات مقاربا لنمو الصادرات .



ومعنى هذا التطور فى العلاقات مع السوق العالمية أن الاقتصاد المصرى أصبح مكشوفاً أمام تقلبات هذه السوق وأزماتها الدورية، وطرفاً فى المنافسة والصراعات التى تحكم هذه السوق •

وقد بلغت هذه الصراعات بين الدولة المصرية والمصالح التى كانت تسود السوق العالمية ذروتها بإبرام معاهدة لندن فى ١٥ يونيو ١٨٤٠ التى اتفقت فيها القوى الخمس الكبرى : بريطانيا والروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا على ضرب الدلة المصرية وتحجيمها كقوة كان من الممكن أن تهدد مصالح رأس المال الأوروبى ، وخاصة رأس المال البريطانى تهديداً خطيراً فى شرق البحر المتوسط ، وقد كان ذلك أثر رفض محمد على تنفيذ أحكام معاهدة ١٨٣٨ التى وقعتها بريطانيا والدولة العثمانية فى «بلطة ليمان»<sup>(٢٨)</sup> ، والتى تنص على معاملة السلع البريطانية معاملة تفضيلية فى أراضي الامبراطورية العثمانية ، والغاء الحظر المفروض على تصدير بعض السلع بمقتضى نظام الاحتكار الحكومى • وقد استمر محمد على — رغم هذه المعاهدة — فى انتهاج السياسة الحمائية للمنتجات المصرية ليس فقط داخل حدود مصر وإنما كذلك داخل حدود دولته العربية •

وطوال عامى ١٨٤٢ و ١٨٤٣ زاد الصراع بين الأجانب وبينه حول تطبيق مبدأ حرية التجارة تطبيقاً عملياً ونظرياً • على أن كثيراً من الاحتكارات الحكومية كانت قد بدأت تنهار الواحد تلو الآخر • وبدأ

---

(٢٨) حددت المعاهدة ضرائب الواردات بنسبة ٣٪ بالإضافة الى ضريبة قدرها ٢٪ على تجارة التجزئة والغيت الضرائب الإضافية على الواردات أما ضرائب الصادرات فقد حدد بواقع ١٢٪ منها ٣٪ يدفعها الصادرون الاجانب . راجع :



بعض الصناع الذين تلقوا العلم في أوروبا في عهد محمد علي وتدريبوا في المصانع الحكومية يشتغلون لحسابهم الخاص (٢٩) •

وبانتهاء نظام رأسمالية الدولة ، قضى على أول محاولة طموحة — في التاريخ الحديث — لبناء اقتصاد مستقل في إطار السوق العالمي يرتكز على بناء صناعي • وإذا كانت هذه المحاولة لم يقيض لها النجاح ، فإن ما تم خلالها من تغير نوعي في الاقتصاد المصري يستند الى « قيمة المبادلة » ، قد هيأ عملية ادماج الاقتصاد المصري في السوق الرأسمالية العالمية كالاقتصاد تابع هذه المرة يخضع لسيطرة رأس المال الأجنبي ، الذي فتح الباب لتغلغله منذ عهد سعيد في صورته المالية ليسيطر على مناحي الحياة الاقتصادية المصرية كافة من خلال اغراق الدولة المصرية والفلاح المصري في الديون والعمليات الاقتراضية • وانتهى الأمر بتسليم الفلاح المصري كمنتج مباشر للقطن الى رأس المال الأجنبي (٣٠) •

## خاتمة :

لقد لعبت الدولة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر دورا غير مسبوق في قيادة التحول الاقتصادي • والى هذا الدور يدين الاقتصاد المصري الحديث بانتقاله من اقتصاد زراعي تتحكم فيه « قيمة الاستعمال » ، الى اقتصاد سلعي تنمو في داخله باطراد علاقات الانتاج الرأسمالية ، وتتحكم فيه تدريجيا « قيمة المبادلة » • ويتم فيه تعبئة الفائض الاقتصادي مركزيا عن طريق الدولة وفقا لمقتضيات وشروط التراكم الرأسمالي •

---

(٢٩) د. محمود متولى : المرجع السابق صفحة ٦١ •

(٣٠) د. محمود عبد الفضيل : الفكر الاقتصادي العربي وقضايا التحرير والتنمية والوحدة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٢ ، صفحة ٣٣ •



ومن الخصائص الفريدة التي طبعت هذا التحول أنه قد تم ليس فقط دون الالتجاء الى رأس المال الأجنبي ، وإنما بالاستبعاد المتعمد لهذا الرأسمال • فقد قام هذا الدور بالأساس ، معتمداً ، على التراكم الذى تحقق فى القطاع الزراعى بسبب التطورات الجذرية التى عاشتها الزراعة المصرية فى عشرينات القرن الماضى ، وبالذات التوسع فى إدخال المحاصيل النقدية ، وعلى رأسها القطن ، الذى كان أداة هامة لتطوير علاقات الاقتصاد المصرى مع السوق العالمية ، وهى العلاقات التى وضعت الاقتصاد المصرى أمام تقلبات هذه السوق وأزماتها الدورية ، وجعلته طرفاً فى المنافسة والصراعات التى تحكم هذه السوق •

وقد انتهت هذه الصراعات بين الدولة المصرية والمصالح التى كانت تسود السوق العالمية بالقضاء على رأسمالية الدولة فى عام ١٨٤٠ ، واخضاع الاقتصاد المصرى برمته لسيطرة رأس المال الأجنبي •



## المراجع

### أولا - المراجع العربية

- ١ - د. أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصاى ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٤ •
- ٢ - اجناتسى زاكس : نماذج القطاع العام فى الاقتصاىات المتخلفة ، موازنة بين النموذج الهنءى واليابانى ، ترجمة سمير عفىفى ومراجعة دكتور رفعت المحجوب ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ •
- ٣ - د. جمال حمدان : البيروقراطية والجغرافية ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٥ •
- ٤ - د. جمال حمدان : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الثانى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ •
- ٥ - د. جمال الدين سعيد : اقتصاىات مصر ، مطبعة لجنة البيان العربى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٤ •
- ٦ - د. راشد البراى ومحمد حمزة علىش : التطور الاقتصاى فى مصر فى العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩ •
- ٧ - روبرت مابرو : الاقتصاد المصرى ( ١٩٥٢ - ١٩٧٢ ) ترجمة د. صليب بطرس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ •
- ٨ - كامل زهبرى : حقائق لم تنشر عن السان سيمونية فى مصر ، الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٨ •



- ٩ - د. علي الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٢ •
- ١٠ - د. محمد دويدار : التكوين التاريخى للتخلف الاقتصادى فى مصر ، مصر المعاصرة ، القاهرة ، العدد ٣٧٣ ، يوليو ١٩٧٨ •
- ١١ - د. محمد عبد العزيز عجمية ، د. محمد محروس اسماعيل : الوجيز فى التطور الاقتصادى ، دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية ١٩٧٦ •
- ١٢ - د. محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٥ •
- ١٣ - د. محمود عبد الفضيل : الفكر الاقتصادى العربى وقضايا التحرر والتنمية والوحدة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢ •
- ١٤ - د. محمود متولى : الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤ •
- ١٥ - هيلين آن ريفيلين : الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ •

### ثانياً - المراجع الأجنبية

16. Dr. Ahmed Abdel Rahim Mustafa : The Break down of the Monopoly system in Egypt after 1840, Faculty of Arts - Ain shams University, Vol. X, May 1967.
17. Gabriel, Baer : A. History of Land Ownership in Moders Egypt ( 1800 -1950 ), Oxford University, 1962.



18. Charrles Issawi : Egypt since 1800, A study in Lop.- sided Development, Journal of Ecosomic History, March 1961.
19. Charles Issawi : The Economic History of the Middle East. ( 1800 - 1814 ); the Universty of Chicago Paess, 1966.
20. Dobb, M. : Studies in the Development of Capitlism, Routledge & Kegan, egan, London, 1957.
21. O'brien, Patric : The Revoulution in Egypt's Economic system, London, 1966.



هذا الكتاب من تأليف الأستاذ الدكتور محمد عبد الحليم عبد الله  
مدرس التاريخ في جامعة القاهرة  
الطبعة الأولى: ١٩٨٠  
الطبعة الثانية: ١٩٨١

## بريطانيا ومصر

### بين

### التسوية وتولية عباس الأول

١٨٤١ - ١٨٤٨

### في

### ضوء الوثائق البريطانية

د. لطيفة محمد سنالم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد

كلية الآداب - بنها

### مقدمة:

تواكبت الأحداث العالمية مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، ودخلت مصر في نطاقها ، فقد رسمت فرتيسا مخططها وقامت بحملتها على مصر عام ١٧٩٨ لتحقيق أهدافها أهمها تركيز نفوذها في تلك المنطقة لتكون نواة للإمتداد شرقا واقصاء الوجود البريطاني من الهند ، ولكن أحبطت مساعيها في هذا الصدد ، وكانت النتيجة ادراك بريطانيا لخطورة تهديد مصالحها وقيامها بحركة رد فعل مضادة تمثلت في العدوان على مصر ، ورغم أنها لم تتمكن من الحصول على أية مكاسب إذ أصابها الفشل ، إلا أنها خضعت لنفوذ البحث عن مختلف الطرق لتمكين نفسها من السيطرة على مصر باعتبارها



مفتاح الشرق الذى تتوطن فيه طموحاتها وتطلعاتها ، أيضا فقد أسرعت لتطويقها بالاستيلاء على جزيرة بریم فى مدخل البحر الأحمر عام ١٧٩٩ والتودد والتقرب لأصحاب النفوذ فى ساحل الجنوب العربى والخليج العربى •

وفى ذلك الوقت كان طريق رأس الرجاء الصالح قد فقد أهميته نظرا لاعتبارات متعددة ، وأصبح الطريق عبر مصر موضع الاهتمام ، وزاد الانبهار بالشرق ، اذ قامت الثورة الصناعية التى أسفرت عن تقدم فى الآلات ، وزيادة فى عدد العمال ، وحدث ما عرف باسم الانتاج الضخم ، واتساع نطاق العرض ، وارتفاع معدلات رؤوس الأموال ، مما نتج عنه الحرص على توافر الأسواق والمواد الخام والعمل على استخدام رؤوس الأموال ، وبالطبع كانت بريطانيا فى أشد الحاجة للتنفيذ خاصة تجاه الهند • وجاء استخدام قوة البخار عام ١٨٠١ فى تسيير السفن وتحريك آلاتها لتحثث انقلابا شاملا فى النقل البحرى ، وحملت بريطانيا اللواء فى هذا المجال حيث طورت بناء السفن وعملت على المزيد من تقدم أسطولها ، كما شجعت الشركات والأفراد على المضى قدما فى محاولاتها مماسة استخدام البواخر بين الجزر البريطانية والهند عن طريق البحر المتوسط والبحر الأحمر • وعليه يتبين أنها عقدت العزم على أن تترصد لمصر ، وتبعد عنها أية تأثيرات خاصة الفرنسية ، بعد أن لمست عن قرب أهميتها عندما أكدت الحروب النابوليونية امكانية عرقلة مواصلاتها مع الشرق ، أيضا فقد نتج عن تلك الحروب توطيد مركزها فى البحر المتوسط ، هذا بالإضافة الى وقوع مالطة وجبل طارق فى قبضتها •

ولم يكن الطريق سهلا أمام بريطانيا ، فهناك على رأس الحكيم فى مصر شخصية محمد على القوية والذى تمكن بسياسته من الوقوف أمام أطماعها ، وكان له أسلوبه تجاه الدول بما فيها الدولة العثمانية ، وقد نجح فى استغلال المنافسة البريطانية الفرنسية ليروض الدولتين ويحقق



أغراضه • وأحست بريطانيا ببيوار النفوذ الفرنسي لدى الوالى ، ومن هنا بدأت فى محاولاتها لايجاد نوع من الموازنة ربما يقودها الى ما يجعلها تتفوق على غريمتها • وأصبح من الصعب تنفيذ التخطيط المحكم بسهولة أو بسرعة نظرا للاسلوب الذى اتبعه باشا مصر داخليا وخارجيا •

كان النظام الاقتصادى الذى وضعه محمد على وتمثل أساسا فى الاحتكار قد شكل عقبة أمام التجارة البريطانية التى هى بمثابة الركيزة الأساسية للاقتصاد البريطانى ، ولذا انتهجت بريطانيا كافة الوسائل لضرب هذا النظام حتى تكسر به السياسة العامة لمصر ، واستمرت تكافح سنوات وسنوات لتقصيه جانبا ، ولكنها لم تنجح تماما الا مع بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر • أما فى المجال الخارجى فكانت أكثر توفيقا ، فقد ساءتها الانتصارات التى حصل عليها حاكم مصر فى شبه الجزيرة العربية ، وخشيت من توطد سلطته على الجنوب العربى والخليج ، أيضا أثار ريبتها امتداد نفوذه الى جنوب وادى النيل وسيطرته على السودان ، ثم حركها الفوز الذى أحرزه فى المورة ، فدفع بها لخلف أوربى للوقوف أمام قوته ، وأسهمت بأسطولها فى موقعة نفارين مما أسفر عنه تحطيم الأسطول المصرى ، وتحترقت غيظا من السيطرة المصرية على كريت ، وازداد الأمر سوءا بتلك الخطوة التى أقدمت عليها فرنسا باحتلال الجزائر ، اذ اعتقدت أن المطامع الفرنسية بدأت تأخذ طريقها لتحويل البحر المتوسط الى بحيرة فرنسية • فكان ذلك عاملا ملحا لمزيد من صب الاهتمام على مصر والحيلولة دون نفاذ المطامع الفرنسية فيها أو اغداق مزيد من السلطة على واليها •

وتعقدت الأمور أمام بريطانيا باستيلاء محمد على على الشام ، وبالهزائم التى منيت بها القوات العثمانية على يد ابراهيم ، وبالتقدم السريع صوب استنبول ، وبالتدخل الروسى ، لما فى ذلك جميعه من خرق لمبدئها الخاص بالمحافظة على أملاك الدولة العثمانية — الذى



جمعها بفرنسا — ولذا راحت تعد نفسها بتأن لمواجهة الموقف ، وكانت صاحبة اليد فى جعل السلطان يوافق على صلح كوتاهية ، لكنها تلقت ضربة قوية بعقدة المعاهدة الدفاعية الهجومية « هنكار اسكله سي » مع قيصر روسيا ، ورغم هذا فهي ترفض مشروع محمد على الخاص برغبته فى الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وعندما تجدد القتال بين الطرفين الأخيرين وانتهى بانتصار الجانب المصرى فى نصيبين ، ألجأها هذا الوضع لسرعة التصرف فى وقت شعرت فيه بتفوق النفوذ الفرنسى وخشيت من استنثاره بوالى مصر ورغبت فى وأده ، كما أنها أوجست خيفة من التقدم الروسى ، أيضا تلهفت على أن تكون لها امتيازات فى مصر تخدم مصالحها •

ودخل فى اطار البرنامج البريطانى المعد الاستيلاء على عدن لاستكمال التحكم فى الطريق الملاحى للبحر الأحمر ، وضرب النشاط التوسعى المصرى الذى أقدم على تصرفات عدتها بريطانيا مضادة لمصالحها ومهددة لمواصلاتها الى امبراطوريتها ، وأسفرت فى عدائها لـ احمد على ونظامه ، وصممت على تفتيت سلطانه لتحقيق مآربها ، ومضت فى العمل منتهزة الأزمة بينه وبين السلطان ، وقام سفيرها فى استنبول بدوره الناجح فى هذا الصدد ، وخدمتها الظروف بتخلى فرنسا عن مساندتها لـ باشا مصر فى مطالبه ، وراحت تعزز قطع أسطولها فى شرق البحر المتوسط • وما لبث الأمر أن توفى السلطان محمود الثانى وتولى الخلافة السلطان عبد المجيد ، ورأت الدول الخمس — فرنسا ، بريطانيا ، بروسيا ، النمسا ، روسيا — التدخل لدى الباب العالى ، فقدمت مذكرتها المشتركة فى ٢٧ يوليو ١٨٣٩ متضمنة ألا يتم صلح أو يبرم اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه • وبذلك نجحت السياسة الامبريالية وفرضت تدخلها وامتلكت زمام العلاقة بين استنبول والقاهرة •

ووقع خلاف بين بريطانيا وفرنسا حول رغبة الأخيرة فى منح



محمد على حق الوراثة فى حكم مصر والشام واستبعاد شبه الجزيرة وأطنه وكريت ، ورفضت الأولى ذلك وأيدتها روسيا فى الاكتفاء بحكم مصر راثية ، ثم اتسع النطاق بعض الشيء بالموافقة على اعطائه ولاية عكا مدة حياته • وبناء على هذه القاعدة أبرمت معاهدة لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ بين الدول الأربع — بعد اقضاء فرنسا لموقفها المعارض — وبين الدولة العثمانية ، وتعهدت الدول بمساعدة السلطان فى اخضاع محمد على ، وتضمنت المعاهدة الشروط الواجب على والى مصر اتباعها •

ولما لم يستسلم حاكم مصر تصدت له بريطانيا ، فأنزلت أسطولها على سواحل الشام ، وأدارت الدسائس على أرضها بواسطة عملائها ، وانضم الحلفاء لها ، وتوالى سقوط الموانى ، وقطعت المواصلات مع مصر ، ودخل قائد الأسطول البريطانى فى مفاوضات مع محمد على الذى رضخ للأمر الواقع وقبله بعد أن فقد ولاية عكا لتأخره عن الموعد المحدد للإجابة ، وصدر فرمان فبراير ١٨٤١ باعطاء ولاية مصر لمحمد على مع حق الوراثة ، لكنه اعتراه بعض القيود ، مما دفع الدول للتدخل — بإشتراك فرنسا — للتخفيف منها حتى صدر فرمان يونيو ١٨٤١ وضم القواعد المتفق عليها •

وهكذا نجحت بريطانيا فى تخجيم قوة محمد على ، حقيقة أن الأمر لم يصف لها لأن تسوية ١٨٤١/٤٠ صبغت مصر بالوصاية الدولية ووضعتها تحت الاشراف الأوربى ، ولكن كما اتضح أنها كانت القوة الكامنة وراء هذه الأحداث والمؤثر الفعال فيها ، وقد عدتها بمثابة ورقة رابحة فازت بالحصول عليها لتلعب بها وقت أن تلوح لها الفرص لتزيد من تدخلها وتوغل نفوذها • ولكن الى أى حد نجحت فى ذلك ؟ والإجابة تفرض نفسها على الصفحات القادمة •



## ● الرصد :

نجحت السياسة التي انتهجتها بريطانيا حيال طعن محمد علي ، اذ أفقدته المكاسب التي حصل عليها وضحي بالكثير من أجلها ، ولم تكتف لندن بما تحقق ، وانما كان عليها مواصلة تلك السياسة تجاه مصر وفقا للخط الذي رسمته مستغلة جميع الظروف التي تمكنها النفاذ من أية ثغرة ، وكانت على يقين تام من مقدرتها على النجاح • واتجهت الأنظار البريطانية سواء في مصر أو في مقر الدولة العثمانية الى مراقبة الأمور وتصويرها للخارجية البريطانية تباعا ، حتى تصبح ملمة بكل صغيرة وكبيرة ، وعليه يكون التصرف وفقا للقواعد المطلوبة •

وركزت بريطانيا على ابراهيم واهتمت به ، فهو يمثل قوة من الضرورة أن يعمل لها حساب ، حقيقة أن الستار قد أسدل على المسرح الحربي بانتصار القوى المعادية لمصر وهزيمة البطل وانسحابه مع جيشه الى الحدود المصرية ، ولكن كان لا بد من العمل على كسر شوكرته حتى لا تقوم له قائمة تعيد الكرة مرة أخرى ، في الوقت الذي رأت فيه بذل الجهود للاطاحة التامة بالنظام الاقتصادي والاستحواذ على أي شكل من أشكال الامتيازات ، وخاصة أنها على علم بالقدر الذي يتمتع به ابراهيم من السلطة وبكلمته المسموعة لدى أبيه في كثير من الأحيان ، بالاضافة الى ما أثبتته التجارب من نجاحه في المراكز الداخلية الادارية التي تولاها داخل مصر •

والواقع أن الظروف الأخيرة التي عاشها ابراهيم في الشام قد تركت الآثار السيئة على نفسيته ، فعقب الانسحاب والعودة الى مصر في فبراير ١٨٤١ احتلت أرضه الزراعية الخاصة المرتبة الأولى لديه ، وهذا ما لمسه بارنت Barnett القنصل البريطاني العام ، فأرسل الى أبردين Aberdeen وزير الخارجية البريطانية ليترجم الارتياح الذي انتابه لاتجاه ابراهيم في التفرغ للزراعة ، وأن أرضه تعد أجود



أرض زراعية ، وأنه ينفق المبالغ الضخمة ليزيد من تحسينها لتكون فى خدمة الصالح العام ، ثم يبين أن فلاحيه أقل تعرضا للظلم عن اخوانهم فى الجفالك الأخرى خاصة التى يمتلكها أبوه حيث يقوم بدفع مرتبات خدمه بانتظام ، وأنه أنشأ مصنعا لتكرير السكر ويوالى امداده بالقصب من مزارعه فى الوجه القبلى ، كما أقام مضخات مائية بواسطة آلات هيدروليكية على ضفاف النيل<sup>(١)</sup> .

ويرصد بارنت تحركات ابراهيم ، ويربط بينها وبين تنقلات أبيه ، فيبعث الى أبردين بنتائج رصده لتلك الخطوات<sup>(٢)</sup> . ونراه يحرص على اللقاء به ، ويسجل انطباعاته عن المقابلات ، ويذكر أنه تحدث معه كثيرا ووجدته رجلا على درجة كبيرة من الذكاء وأحكامه سليمة وصراحته واضحة تماما ، وأن تلك الصفات قضت على ما سبق أن التصق به من عنف وقسوة ، وبالتالي تحولت طباعه وأخلاقه الى الأحسن ، ولكن العيب الذى يشوبه شغفه بالمال ، ويعلق « ولكن للحقيقة والعدالة فانه ينفقه بسخاء » ويستعرض المشروعات التى تستنفد المبالغ المالية<sup>(٣)</sup> .

وتتابعت علامات الرضا عن ابراهيم ، فينتاب القنصل البريطانى العام القلق بشأن المرض الذى هاجمه ، ويكتب للنس دن ليلغ وزير الخارجية البريطانية بأن خراجا كبيرا تكون بالبريتون استدعى اجراء عملية جراحية عاجلة له ، وأن تقرير الأطباء يشير الى خطورة الحالة ، وهناك خوف على ألا تستمر حياته طويلا ، ويختتم مكاتبته « ولا يمكننى

---

(1) F. O. 78/451, Barnett — Aberdeen, Cairo, Oct. 18, 1841, No 23, F. O. 78/582, Barnett — Aberdeen, Alex., March 19, 1844, No 11.

(2) F. O. 78/541, Barnett — Aberdeen, Cairo, Jan. 14, 1843, No 1.

(3) F. O. 78/582, Barnett — Aberdeen, Alex., March 19, 1844, No 11.



الا أن أقول ان وفاة ابراهيم باشا وريث محمد على فى عرشه ستكون كارثة كبيرة لهذا البلد» (٤) • معنى هذا أن الأمل يراود المسئولين البريطانيين فى أن يحقق ابراهيم المصلحة لبلدهم • ويتدهور صحة محمد على يزداد القلق ، فيذكر بارنت أن الباشا استقبل العديد من الشخصيات من بينهم سعيد وعباس ، وأصدر أوامره الى ابراهيم لاعادة اصلاح القاهرة ، ثم يتحدث عن ذلك المجلس الذى رأى تشكيكه لمعاقبة الخائنين (٥) •

ويعود القنصل البريطانى العام ليركز على ابراهيم مؤكدا أنه منذ انسحابه من الشام لا تلح عليه الرغبة فى أى عمل حربى ، وإنما وجه عنايته للثروة الزراعية ، وأظهر فى ذلك كفاءة بالغة ، ورغم شدته فانه معروف بعدالته ، وأخيرا يسجل « وانى آمل أنه حينما يدعى لحكم هذا البلد ، فسيكون أكثر صلاحية لرفع الغبن عن الشعب وتحسين حالته من أبيه ، وأنه يكره الانجليز لأنهم طعنوه أكثر من مرة كقائد حربى ، ومع ذلك فهو مفعم بأهمية العلاقة بين بريطانيا ومصر ، وبأن باب وصالنا بالهند يجب بقاءه مفتوحا عبر مصر بازالة العقبات من طريق مواصلتنا مع الشرق ، وانى سمعت من جميع الجهات عن السلوك العظيم له فى الفترة الأخيرة حينما كلفه أبوه بالعمل حيث أثبت المقدرة التى يستحق الثناء عليها » (٦) • اذن أصبح الاتجاه شبه واضح بالنسبة لولى العهد •

ومع هذا فان الادلاء برأى قاطع شابه بعض الحذر ، تبين ذلك عندما بعث كيانى Ciani الوكيل البريطانى فى العطف — تقع على فرع رشيد — الى بارنت لينقل له أن بدويا ملثما مسلحا طرق بابه فى الثالثة صباحا من يوم ٢١ سبتمبر ١٨٤٤ ثم كشف عن وجهه وألقى

(4) Ibid.

(5) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., Aug. 6, 1844, No 14.

(6) Ibid.



بسلحه وطلب منه الانصات اليه واعطاءه المساعدة بصفته ممثلاً  
لبريطانيا ، وحدثه عن الخلافات بين محمد على وأسرته ، وأن الحزن  
يسود القبائل — فى البحيرة — التى يقاسى أفرادها الأمرين وستزداد  
حالتهم سوءاً عندما يتولى ابراهيم الحكم عقب وفاة أبيه حيث سيوقعهم  
تحت نظامه الصارم ، وأنه جاء مندوباً من قبل هؤلاء ليتعرف على موقف  
بريطانيا فى هذه الظروف ، وأنهم على استعداد لتجهيز من عشرة آلاف  
الى اثنى عشرة ألف فارس بخيولهم لمقاومة تخطيط ابراهيم ، فأجابته  
الوكيل البريطانى بأنه سيرفع الأمر للقنصل البريطانى العام للإفادة  
بالرأى (٧) .

وقام بارنت بالرد مصرحاً بأن بريطانيا لها علاقات طيبة بالبدو ،  
لكنها فى نفس الوقت لا تتدخل فى الشؤون الداخلية لمصر ، وكتب الى  
لندن مستعرضاً الحدث موضحاً استعداد البدو للقيام بثورة عارمة مع  
أنهم أحسن حالا من الفلاحين وسكان المدن ، اذ يتمتعون بحرية أكثر  
ويعدون أقل تعرضاً للظلم منهما ، ويحدد موقفه « وانى أجهل طبيعة  
قيامهم بالشكوى جهراً ولا أشجعهم على القيام بالثورة » ويتابع القول  
« ومن الصعب تكوين فكرة عن الخط الذى سيتبعه ابراهيم باشا عندما  
يتولى حكم مصر ، وسألت هذا السؤال لسليمان باشا الذى ربما يكون  
على دراية بسلوكه أكثر من أى شخص آخر ، فكانت اجابته : قد يكون  
أحسن بكثير ، وقد يكون أسوأ بكثير » (٨) . ومن ثم يبدو أن هناك  
بعضاً من الغموض يكتنف شخصية ابراهيم .

ومع القلاقل التى حدثت نتيجة تسحب الفلاحين واحضارهم  
بالقوة ، والاحتكاك الذى حدث بين المسلمين والمسيحيين فى دمياط ،  
زاد السخط البريطانى على محمد على ، وانتقد بارنت فقدان الأمن وكتب

---

(7) Ibid, Ciani — Barnett, Atefe, Sept. 26, 1844.

(8) Ibid, Barnett — Aberdeen, Cairo, Oct. 6, 1844.



الى حكومته « اعتقد أنه لا يوجد شخص فى مصر من ابراهيم باشا الى أفقر فلاح الا ويصلى من أجل موت محمد على ، لأن تلك النهاية هى المخرج الوحيد لانقاذ الدولة من العبودية »<sup>(٩)</sup> • وفى ذلك ما يتبين أن ابراهيم يتوق للامساك بزمام الحكم ، وأنه مرتبط بالأمن والاستقرار • ويخشى القنصل البريطانى العام من عدم تحقق الأمنية نظرا لمعاودة المرض للحاكم المنتظر ، فيذكر للندن أن صحته تتدهور ، ومن غير المحتمل امتداد العمر به طويلا حتى ولو تولى دفعة الحكم ، وأنه — أى بارنت — التقى مع كلوت الطبيب المعالج ، فأعطاه فكرة عن مرضه الذى قد ينتهى بناسور فى المثانة<sup>(١٠)</sup> •

ومحاولة لزيد من التقرب لابراهيم ، وعندما قرر السفر لأوروبا لاجراء استشارات طبية بعد حصوله على الاذن من أبيه ، يكتب بارنت الى أبردين يعلمه بأن ابراهيم سيغادر الاسكندرية ، وينوى قضاء مدة الحجر الصحى بمالطة ، وعليه فقد حرر الى ستيورات Stewart حاكمها ليتخذ الاجراءات المناسبة لاستقباله مع مرافقه سليمان باشا<sup>(١١)</sup> • وكانت مسألة استقطابه تهم الخارجية البريطانية ، فبعثت لقنصلها العام فى القاهرة مؤيدة اتصاله بحاكم مالطة ، مؤكدة ضرورة الاهتمام به أثناء وجوده فيها ، مرحبة بزيارته لانجلترا اذا كانت حالته الصحية تمكنه من ذلك « فان حكومة جلالته ستكون فى كامل سعادتها للعناية به وستعمل ما فى وسعها لراحته ليس فقط لما له من صفات حميدة ، ولكن لاثبات حسن العلاقات التى تربطها بمحمد على نفسه »<sup>(١٢)</sup> •

---

(9) F. O. 78/623, Barnett — Aberdeen, Alex., April 16, 1845.

(10) Ibid.

(11) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., Aug. 7, 1845, No 30.

(12) Ibid, F. O. — Barnett, F. O., Sept. 23, 1845, No 15.



وأنت المجهودات أكلها ، ووجد ابراهيم الترحاب ، ويصف  
ستودارت Stoddart القنصل البريطاني بالاسكندرية لمارستون  
Palmerston وزير الخارجية البريطانية وقائع وصول ابراهيم الى  
الاسكندرية حيث كانت نقله احدى البواخر البريطانية ، ويسجل لقاءه  
به ، ويبين أنه أصبح بصحة جيدة ويتمتع بروح عالية ، وقد وضح عليه  
أثر الاستقبال الفائق الذى قوبل به (١٣) . ويعود القنصل مرة أخرى  
ليشير الى أنه رغم الفترة القصيرة التى قضاها ابراهيم فى الاسكندرية،  
ولكنه يمكنه الحكم عليه — من خلال مقابلاته له وحديثه معه حيث  
دار حول اهتمامه بالتطور الذى تعيشه أوروبا فى كافة المجالات مع  
التركيز على الزراعة — بأنه ذو عقل متفتح (١٤) .

ويستلم مرى Murray القنصل البريطانى العام رسالتين من  
المرستون ليقوم بتوصيلها الى ولى العهد ، وينفذ المطلوب (١٥) .  
ولا يعرف محتوياتهما ، وربما اشتملتا على بعض المجاملات وفقاً  
للسياسة البريطانية فى هذه المرحلة والتى دخلت تحتها شخصية محمد  
على اذ أبدت لندن ترحيبها بزيارته لها مستعرضة ما يمكن أن يقام له  
من استقبال عظيم (١٦) . وردا على تلك المجاملات فقد رحبت الحكومة  
المصرية بالضباط الانجليز من أصحاب المراكز وذوى الرتب الكبيرة أثناء  
مرورهم بمصر ، وأعرب ابراهيم للقنصل البريطانى العام عن امتنانه  
للقيام بهذا العمل ، ويبلغ مرى وزير الخارجية البريطانية أن ذلك جاء

---

(13) F. O. 78/661 B, Stoddart — Palmerston, Alex., Aug. 8, 1846, No 4.

(14) Ibid, Stoddart — Palmerston, Alex., Aug. 23, 1846, No 5.

(15) F.O. 78/662, F. O. — Murray, F. O., Sept. 24, Oct. 21, 1846, Murray — Palmerston, Alex., Oct. 22, 1846, No 1.

(16) F. O. 78/708, Palmerston — Murray, F. O., Nov. 17, 1847.



بناء على ما قدمه ممثلا حكومة جلالته في نابولي ومالطة له ولأبيه (١٧) .

وتسيطر الحالة المتدهورة لصحة محمد على على مراسلات المسؤولين البريطانيين في مصر ، خاصة بعد عودته من الخارج في ١٢ فبراير ١٨٤٨ (١٨) . ريصح مري بسوء حالته سواء العقلية أو الجسمانية ، وأن الاحتمال أصبح ضئيلا لامكانية استعادته لذهنه الخاد والنشط بعد فقدانه الادراك تماما ، وأنه يعيش منعزلا ، ويرفض الأطباء اعطاء أى شهادة رسمية تثبت عدم مقدرته على مباشرة مهام الحكومة ، وأن ابراهيم منذ عودته من رحلة نابولي (١٩) ، والأمر يزداد حيرة خاصة فيما يتعلق بالمحافظة على النظام العام والهدوء ، وأنه يأبى أخذ المسؤولية على عاتقه خوفا من مزاولة أبيه للعمل بعودة مؤقتة قد تكون عودة غضب بدافع الغيرة التي يعتبر أنها كانت دائما وراء التدخل في سلطته لأتفه الأسباب . ويصف مري سوء الحالة التي تجتازها مصر وتأثرها تجاريا من ناحية ، وبالهزة السياسية في أوروبا من ناحية أخرى ، ويبين أن مثل تلك الظروف تحتاج الى نشاط وثبات من حكامها بعكس الواقع الذي يثبت أنها بدون حكومة (٢٠) .

واتصل قنصل بريطانيا العام بباقي قناصل الدول للوقوف على الحال من المسؤولين المصريين بعد أن أصبحت الضرورة ملحة في اتخاذ بعض الاجراءات لضمان المحافظة على الأمن العام بعد تلك الاثاعات

---

(17) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, April 15, 1848, No 14.

(18) F. O. 78/765, Jegrier Chasseaud (Vice Consul) — lecutis (Malta), Alex., Feb. 14, 1848.

(١٩) مما يذكر أن عودته كانت على باخرة بريطانية ، وطلبت الخارجية البريطانية محاسبة الحكومة المصرية على التكاليف .  
F. O. 78/766, F. O., June 14, 1848.

(20) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Alex., April 9, 1848.



التي دارت حول وفاة « الباشا العجوز » • ويتقل مري مخاوغه مما  
قد يحدث لوزير الخارجية البريطانية ويخبره بأن مجلسا عقد من جميع  
الباشوات ومديرى الدواوين فى ٨ أبريل ١٨٤٨ واستدعى اليه الأطباء  
حيث تمت مناقشة الحالة المتدهورة للقوى العقلية للوالى ، وكيف أنها  
تمثل حائلا أمام تصرفه كحاكم ، وأن المجتمعين قرروا أنه أصبح غير  
لائق لمباشرة شئون البلاد ، وعليه تشكل مجلس من الباشوات البارزين  
ومديرى الدواوين وتقرر تولى ابراهيم ادارة دفة الحكم باسم أبيه ،  
وأن يوقع بدلا منه على الأوراق الرسمية العامة (٢١) •

وتفد القرار فى اليوم التالى للاجتماع ، وسعد به مري وصرح  
للمرستون بأنه سيحول دون حدوث ما يعكر صفو السلام العام ، وفى  
الوقت نفسه يسر اليه بأن عناصر القوضى — كما أشارت  
التقارير الدورية — تقوم بالسلب والفهب فى مناطق عديدة  
بالوجه القبلى ، اذ رفض البعض دفع الضرائب ، وأن  
الاجراءات تتخذ بشأن سحب الأسلحة فى كثير من الأحياء ، ويشير  
الى الحالة المضطربة فى اليونان وولايات البلقان وامكانية انعكاسها  
على الاسكندرية التى تضم وحدها من أربعة الى خمسة آلاف يونانى  
يعيشون فى قلق بالغ ، وأنه تحت هذه الظروف من المتوقع أن يلتهب  
الموقف ويصبح الأمر خطرا على الأوربيين (٢٢) •

وبناء على ذلك رأى مري أن من واجبه استعراض الأوضاع لربان  
البارجة البريطانية أودين Odin ، وأن يطلب منه — فى حالة  
استطاعته وعدم مخالفته للتعليمات — البقاء بالاسكندرية لحين زوال  
العاصفة وحتى يتلقى تعليمات أخرى من القائد العام فى مالطة ، ويبين  
القنصل البريطانى العام أنه سيكتب الى حاكمها يشرح له تفاصيل الحالة  
ويوصيه بارسال بارجة أخرى — ان لم يسبب هذا ازعاجا له — لحماية

---

(21) Ibid.

(22) Ibid.



المصالح البريطانية • ولما كان مري شغوفا لتوصيل تلك الأخبار وانقضت ثلاثة أيام ولم تمر ياخرة بريطانية ، بعث بها مع ياخرة فرنسية (٢٣) • وعليه تتجلى المخاوف التي انتابت الممثل البريطاني ورد فعلها •

ومما لا شك فيه أنه كان لتولى ابراهيم الحكم — بطريقة غير رسمية — أثره على الرؤية البريطانية ، وعقب شهر من ممارسته للسلطة يكتب مري لوزير الخارجية البريطانية مشيرا الى قوة شخصيته ، ومهارته فى التقاط جميع الخيوط، وانطواء أعضاء المجلس المعاون له تحت التبعية الكاملة لارادته ، وانه — أى مري — التقى به وطرح عليه عدة موضوعات للمناقشة حتى يجس نبضه ويسبر غوره تجاهها ، فخرج بنتيجة أكد فيها أنه رجل عملى وصاحب أفكار مستتيرة عن أبيه (٢٤) • ويرجع القنصل البريطاني العام تلك التغييرات التي قام بها الحاكم فى الادارة الداخلية سواء فى القاهرة أو الأقاليم الى باعث شخصى قصد من ورائه تقوية مركزه بشغل هذه المناصب بأصحاب النفوذ من الضباط الذين يثق فيهم ويدينون له بالولاء (٢٥) • وهكذا ظهر ابراهيم فى صورة طيبة أمام الأعين البريطانية ، ولكنها لم تستمر طويلا اذ سرعان ما تغير الانطباع عنه لمعاكسته للمصالح البريطانية •

### ● مراقبة القوة العسكرية :

مثلت مسألة التحركات المصرية فى المجال الحربى ضجرا لبريطانيا ، فيعكس بارنت اضطرابه بشأن التحصينات التي تجرى بالاسكندرية فى عام ١٨٤٥ ، وينقل لوزير الخارجية البريطانية تفصيل ذلك النشاط

---

(23) Ibid.

(24) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, May 5, 1848, No 17.

(25) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 1 st, 1848, No 20.



الذى يقوم به ما بين ستة وسبعة آلاف عامل يوميا على طول الساحل الشرقى فى الجزء القديم من المدينة حيث يجرى بناء استحكامات للثكنات العسكرية والعديد من الحصون فى المراكز الرئيسية ، ويصل لببيت القصيد مشيرا الى أن هذه التحصينات جاءت ترجمة لنصيحة الحكومة الفرنسية التى بعثت بالمشروعات من باريس ، كما أنه يشرف عليها جاليس Gallice وهو مهندس فرنسى يعمل فى خدمة الحكومة المصرية<sup>(٢٦)</sup> . ويعود ويذكر أن النية متجهة أيضا الى تحصين السويس<sup>(٢٧)</sup> .

وراح مرى يسجل لحكومته التنظيمات الخاصة بالقوات وتوزيعها<sup>(٢٨)</sup> ، وكم ضايقه ارتفاع العدد الى ٥٠ ألف مقاتل دون الرجوع للبواب العالى ، وعد ذلك تعارضا مع فرمان ١٨٤١ — حدد عدد القوات بـ ١٨ ألف — وكتب الى السفير البريطانى فى استنبول ، كما أبلغ وزير الخارجية فى لندن<sup>(٢٩)</sup> . ومعروف أن تنظيمات الحربية مرتبطة بأبراهيم ، وبعد أن كان القنصل البريطانى العام يتصور أن اهتماماته ركزت على أرضه الزراعية ، انقشع هذا تدريجيا ، وعاد الجيش واحتل مكانا عليا لديه خاصة بعد تسلمه مسئولية الحكم فى ابريل ١٨٤٨ ويقينه من ضرورة استناده على الجيش فى تثبيت حقه فى الوراثة ومواجهة أعدائه .

ويعبر القنصل البريطانى العام عن أسفه لبامرستون لما يبذله

---

(26) F. O. 78/623, Barnett — Aberdeen, Alex., June 3, 1845, No 21.

(27) F. O. 78 / 707, Murray — Palmerston, Cairo, April 20, 1847, No 22.

(28) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, Jan. 1 st, 1847.

(29) Ibid, Murray — Palmerston, Alex., May 23, 1847, No 30, Alex. June 18. 1847.



الحاكم فى إعادة بناء الجيش بعد أن كان فى حالة يرثى لها ، وأنه —  
أى ابراهيم — أجل ما يتطلبه الانتاج الصناعى لصالح الناحية الحربية ،  
وأصدر أوامره لبناء الحصون المدفعية بالاسكندرية ، وأن تحصينات  
دمياط ورشيد تحت الإصلاح والتوسع ، وأنه سحب القوات من القناطر  
لتتضم لفرقها بالمعسكرات بعد احوال أنفار الزراعة المجندين الزاميا  
مكانهم ، ويعلق مرى على ذلك الاجراء ويصفه بعدم التبصر ، لأن معنى  
سحب هؤلاء العمال يؤثر على الأرض الزراعية مما ينتج عنه عجز فى  
الأيدى العاملة فى وقت تعد فيه خزانة الدولة خاوية<sup>(٣٠)</sup> .

وينتقل مرى ليشرح للندن احدى الطرق التى يتم بها إعادة تنظيم  
وبناء الجيش ، وهى التجنيد الالزامى ، فيذكر أنه لم يأت أول يونيو  
١٨٤٨ الا وكان يجرى على قدم وساق ، وقد استعملت فيه الوسائل  
الوحشية ، فيقوم مديرو المديريات بتقديم الكشوف الخاصة بعدد  
السكان ، ثم تصدر اليهم تعليمات الحكومة باستدعاء نسبة معينة منهم ،  
وتنقل الى مشايخ القرى لاجراء اللازم ، وعادة يكونون أشد قسوة  
وضراوة فى طغيانهم ، ويجمعون عشرة أمثال العدد المطلوب ، ومعظمهم  
أرباب أسر يقادون بسرعة فائقة بعد أن يستحوذ الرعب على قلوبهم  
ويصبحوا على استعداد لشراء الاعفاء بأى ثمن حتى لو أدى ذلك الى  
فقدانهم لكل قرش يمتلكونه ، ومن ثم يستغل المشايخ الظروف ويمتصون  
دم من يقع تحت أيديهم ويخلون سبيله ، ويقدمون العدد المطلوب من  
الذين عجزوا عن الدفع ، ويقيدون مثنى مثنى كالمجرمين ويسحبون  
جمعا كقطعان الغنم مصحوبين بحراسة حتى يصلوا الى العاصمة أو  
المعسكر<sup>(٣١)</sup> .

---

(30) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, May 5, 1848,  
No 17.

(31) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 1 st, 1848, No 20.



ويواصل القنصل البريطاني العام قوله ، فيذكر أنه بمجرد انتشار  
اشاعة بأن التجنيد على وشك الحدوث ، يقوم العاملون بالزراعة بمغلدة  
منازلهم الى كل اتجاه ، فالبعض يختفي في الأرض القاحلة أو بين  
الأشجار الكثيفة ، والغالبية العظمى يتخذون الصحراء ملجأ ، وتتلف  
آلاف بل ربما ملايين الأفدنة من أجود المحاصيل بفقدان الأيدي العاملة  
التي تحصدتها وتحملها • ويستكمل مري الصورة بمجموعات الجنود التي  
ترسل الى جميع الاتجاهات لتقبض على العمال الهاربين وتقيدهم ، ثم  
يبين « أنه لا يمكن افهام هؤلاء الأتراك المستعيرين أنه عسلاوة على  
البؤس والدمار اللذين يتمكنان من الفلاحين ، فان صرف منحة مالية  
للمجندين بما يضمن امداد كاف من المتطوعين ، لمن تصل الى ربع الانفاق  
والخسارة التي ابتليت بها موارد البلاد بطريقة غير مباشرة » • ويستفسر  
بعد ذلك عن امكانية الاعتماد على جيش نصف منظم كون على هذا  
النحو ، ويعطى الاجابة بأن أفرادهم ينتظرون أول فرصة مناسبة للهروب  
والعودة الى منازلهم (٣٢) •

ويسوق القنصل البريطاني العام لبارستون مثالا ، فيسجل أن  
التجنيد الاجباري أصاب ابن زوجة أحد الشيوخ ، وعندما علم الشاب  
أن اسمه في القائمة السوداء هرب ، ولما لم يعثر عليه الجنود تم  
القبض على الشيخ ، ووضع بناء على أوامر الضابط في السجن حيث  
قضى عدة أيام ثم استدعى للتحقيق تحت حراسة الجنود وسئل عن  
الشاب الهارب ، وهدد بضرورة احضاره ، فأبدي استعداداه في الاحلال  
مكانه أو تقديم جميع ما يمتلكه لأنه لا يستطيع العثور عليه ، وسيطر  
على الضابط الاعتقاد بأن الشيخ يعرف مخبأ الهارب ، فأمر بطرحه أرضا  
وضربه ليحصل منه على الاعتراف ، واستمر الضرب حتى فارق الشيخ  
الحياة • ويعلق مري على ذلك الحدث مصورا كيف تطبق العدالة وتصدر



الأحكام ، مبينا أن هذه الواقعة كان يحضرها من يسمى خطأ وزير العدل ( رئيس جمعية الحقانية ) ، وأخيرا يشير الى أن مثل تلك الطرق السيئة والمحنة يخرج منها بانطباع غير طيب عن ابراهيم وتنوع ادارته وسوء تخطيطه (٣٣) .

ويتحدث مري عن استعدادات الحاكم للدفاع عن السواحل في الوجه البحرى ، فيصرح أنها تتقدم بسرعة ، والعمل فيها مستمر بنشاط ، وأنه يجرى التحصينات وتنصيب المدافع فى رشيد والبرلس ودمياط ، أيضا أنشأ معسكرا يضم ما بين ثمانية وتسعة آلاف رجل — على بعد أميال من القاهرة — يتدرب أفرادهم على المدفعية التى ازدادت قوتها (٣٤) . ويذهب القنصل البريطانى العام الى هذا المعسكر ليتفقده على الطبيعة ، ويبحث بتقرير عنه للندن ، فيذكر أن المدفعية على درجة عالية من الكفاءة ، ويتناول فرقها ، ويركز على مدفعية السواحل ، وأن كل آلاى يتكون من أربع بطاريات ، وتضم البطارية ٨٠٠ رجل وثمانين مدفع ميدان معظمها صناعة فرنسية وبعضها بحالة جيدة ومعدلة ، وملحق بكل آلاى حوالى

---

(33) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, July 5, 1848, No 28.

أثار حضور رئيس جمعية الحقانية حفيزة مري بشأن ممارسة القضاء على البريطانيين بواسطة السلطات المحلية ، فيعرض لاحدى القضايا اتهم فيها ستة من البحارة الانجليز وينتظرهم حكم الاعدام وفقا للشريعة الاسلامية ، وأن القنصلية البريطانية لن تتمكن من التدخل رغم أن القانون الانجليزى يعدهم أبرياء ، ويبين أن الاحتجاجات والشكاوى لرفض الأحكام لم تأت بالنتيجة ، ويكتب للسفير البريطانى فى استنبول للوقوف على نظام القضاء المختلط لمحاكمة المجرمين مستعرضا الخطورة التى يتعرض لها رعايا دولته وفقدانهم الحصول على العدالة .

F. O. 78/708, Murray — Palmerston, Alex., July 18, 1847, No 46, Cairo, Dec. 17, 1847, No 67.

(34) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, June 1st, 1848, No 20.



الآلف من الخيول والبغال لتولى مهمة هذه المدفعية ، ثم يتعرض لباقي  
المعسكرات واستقبالها الجنود الجدد لاستيفاء الأعداد المطلوبة<sup>(٣٥)</sup> .

وفى أول يوليو ١٨٤٨ يسجل مرى أن التجنيد الالزامى قد  
استكمل ، والنتيجة أن عدد قوات الجيش وصلت الى ٥٢ ألف جندى ،  
تضم ٤٠ ألف مشاة ، ٦ آلاف سوارى ، ٦ آلاف مدفعية ، بخلاف القوات  
غير النظامية الموزعة فى المديرىات والتى تبلغ ٥ آلاف ، وأيضا هناك  
المدارس الحربىة والمهندسين ، بالإضافة الى القوات البحرىة وتصل الى  
١١٥٠٠ رجل نصفهم يعمل فى الترسانة والقناطر الخبرىة ، ويشير  
القنصل البريطانى العام الى تحركات ابراهيم وانشغاله بالتفتيش على  
تحصينات السواحل فى الاسكندرية ورشيد ودمياط وغيرها ، وتركيزه  
على اصلاحها وزيادتها ، ويصف كيف ثبتت المدافع فى الموانى ، وأعدت  
قوة من السفن الحربىة استكمالا لاستعدادات الدفاع الساحلى ، ثم  
يذكر أنه حتى تلك اللحظة لم يقدم هو أو أحد من زملائه بتوجيه  
الأسئلة الى ابراهيم بشأن الغرض من اتساع التجهيزات الحربىة<sup>(٣٦)</sup> .

ويلق مرى على هذا النشاط العسكرى ، فيبرره بأنه جاء بناء على  
ترايد قطع الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط ، وتلك الاشاعة  
التى انتشرت على نطاق واسع داخل مصر بأن بريطانيا تضع مصر نصب  
أعينها ، ولو أنه يبين أن ابراهيم سخر منها وعدّها اشاعة كاذبة ، لكنه  
— أى القنصل — يرى أن لها دورا فى مسألة الدفاع وأنه فى حالة  
مواجهة ابراهيم وسؤاله عنها فسيدهضها<sup>(٣٧)</sup> . بمعنى أنه يظهر غير  
ما يبطن . أما فى لندن ، فقد بعثت الخارجية البريطانية الى سفيرها فى  
استنبول كتابا — أرفقت به رسالة مرى — لفتت فيه النظر الى ما تقوم

---

(35) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 17, 1848, No 23.

(36) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, July 1 st, 1848, Nb 26.

(37) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 6, 1848, No 21.



يه الحكومة المصرية فيما يتعلق بالاستعدادات العسكرية الجارية بدرجة غير عادية ، وطلبت تصوير ذلك الوضع للعلاب العلى (٣٨) • وعادت وأرسلت الى قنصلها العام فى مصر بتعليمات تختص بسؤال الحكومة المصرية عن تفسير زيادة القوة الحربية عن العدد المتفق عليه فى فرمان ١٨٤١ (٣٩) •

وبذلك تتضح قدرة ابراهيم على التصدى بالرغم من ظروفه النفسية والمرضية ، لكن شعور الخطر الذى أحاط به حتم عليه اتخاذ هذا الموقف الذى ارتابت منه بريطانيا ، ولم تتمكن من وقفه ، وإنما انحصرت مجهوداتها فى مراقبته وما استتبع هذا من بعض التحركات الخفيفة الى لم تثمر •

### • الاحتكار والتراتيت :

شغلت بريطانيا بالسياسة الاقتصادية الخاصة بالاحتكار التى طبقها محمد على ، وجاهدت من أجل الغائها لما فيها من ضرر باقتصادها من ناحية ، ولأدراكها أنها الركيزة التى يعتمد عليها باشا مصر فى تقوية مركزه داخل ممتلكاته من ناحية أخرى • وأفرزت مساعيها عن عقد معاهدة بلطة لييمان عام ١٨٣٨ مع السلطان بالغاء احتكار التجارة فى ولايات الدولة العثمانية ، ولكن والى مصر كان على درجة كبيرة من الذكاء اذ تباطأ تارة وتحايل تارة أخرى بحيث لم تضاف السهولة أو اليسر على تطبيق المعاهدة تماما ، ومضت كلمات بارنت تضح بالشكوى من استمرار الاحتكار فى جميع العمليات (٤٠) •

---

(38) F. O. 78/731, F. O. — Canning, F. O., July 14, 1848, No 71.

(39) F. O. 78/756, F. O. — Murray, F. O., July 31, 1848.

(40) F. O. 78/451, Barnett — Canning, Cairo, Dec. 1st, 1841.



وطبقت سياسة الاحتكار على منتجات سنار خاصة الصمغ والعاج رغم ما أعلنته الحكومة المصرية في مارس ١٨٤٢ بشأن حرية هذه التجارة ، ويثور القنصل البريطاني العام ويكتب لحكومته ليدحض ادعاء الاحتكار ويبين أن الهدف منه تقوية الحاكم وتحقيق مصلحته الشخصية<sup>(٤١)</sup> . ويلتقى بأرتين مدير ديوان التجارة والأمور الأفرنجية ويتحدث معه بشأن المصالح التجارية البريطانية ، ويتعرض للرسوم المفروض تحصيلها على بضائع الترايزيت ، وأنه وفقا للمعاهدات التجارية مع الباب العالي ، فإن تلك البضائع لا تستحق عليها الا رسوم ٣٪ بينما تنخفض الى ١٪/٢ في حالة قيام شركة الترايزيت بنقلها<sup>(٤٢)</sup> .

واعتقد مري أن التعامل مع ابراهيم في هذا الشأن بعد قبضته على زمام الأمور سيكون في الصالح البريطاني ، ففي البداية يصف لبارستون عقليته الواعية خاصة في المسائل التجارية والمالية ، وأن ادارته ستكون حكيمة<sup>(٤٣)</sup> . ولم يلبث الأمر أن عاود ونقل سوء الحالة التجارية الداخلية والخارجية في يونيو ١٨٤٨ وأن محصولي القمح القطن راكدان في مخازن الحكومة نظرا لعدم رواج السوق وانخفاض السعر ٦٠٪ عن المعدل المقابل للشهر المماثل في العام السابق<sup>(٤٤)</sup> .

وفي لقاء جمع القنصل البريطاني العام بابراهيم في ٥ يونيو ١٨٤٨ استشف منه الأول مدى تمسك الأخير وحرصه على اتباع منهج

---

(41) F. O. 78/708, Barnett — F. O., Cairo, Feb. 21, 1844, No 6, Murray — Palmerston, Alex., Aug. 10, 1847, No 49.

(42) Ibid, Murray — Cowley, Alex., July 15, 1847, No 14.

كانت ميول أرتين لفرنسا واضحة نظرا لتلقى تعليمه فيها وتأثره بها ، وقد سبب ذلك قبرا للقنصل البريطاني العام .

(43) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, May 5, 1848, No 17.

(44) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 17, 1848, No 23.



أبيه ، اذ أخبره أنه استلم مؤخرا تقريراً من ضابط روسى خاص بالتنقيب عن الثروة المعدنية فى المديرية الجنوبية لسنار ، ويوضح أن الرمال التى وجدت حديثاً فى أحد روافد النيل احتوت على نسبة من الذهب ضعف المعدل الذى تنتجه سيبيريا ، ويعكس خطاب مري للندن الفرحة والأمل اللذين انتابا حاكم مصر بهذا الاكتشاف ، ثم يذكر « ولكنى بكل صراحة قلت لسموه أن لديه مناجم ذهب أفضل بكثير مما يتحدث عنه وتقع قريبة منه وتتمثل فى القطن والسكر والحبوب من انتاج مصر ، وبإمكانها افادة خزانته أكثر من رمال سنار » (٤٥) • وبذلك يترجم موقف مري عدم الرضا عن مثل هذا الاتجاه •

ونتيجة للمساعي البريطانية لدى الباب العالى ، بيعت مصطفى رشيد الصدر الأعظم الى ابراهيم يبلغه شكاوى المسئولين البريطانيين بشأن السياسة الاحتكارية لمنتجات سنار وضرورة اقصائها، ويكتب كاننج Canning السفير البريطانى فى استنبول الى بالمرستون يعلمه باستلام خطاب من الصدر الأعظم يفيد اجباره للحكومة المصرية على قبول — دون أى تأجيل — تصدير تلك المنتجات بنفس الشروط المنصوص عليها فى معاهدة بالطة ليمان (٤٦) • ولم يتحقق المطلوب ، ولعل اجراء الباب العالى كان شكلياً حيث يبين مري للندن أنه أثناء زيارة ابراهيم لاستنبول ساوم لمساندة سرية للإبقاء على احتكار منتجات سنار مقابل تقديم المساعدة لتحقيق مطامع تركيا فى الحبشة (٤٧) •

وواصلت الخارجية البريطانية محاولاتها ، وبعثت لقنصلها العام

---

(45) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, June 6, 1848, No 21.

(46) F. O. 78/735, Canning — Palmerston, Therapia, Sept. 13, 1848, No 108.

(47) F. O. 78/757, Murray — Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No 43.



فى مصر برسالة لاعادة الكرة مرة أخرى والضغط على ابراهيم فى هذه المسألة ، ولكن مرى أرجأ الأمر بعض الوقت اذ لم تكن الظروف مواتية نظرا لقراءة فرمان تولية ابراهيم الحكم وسوء حالة محمد على الذى عزله فى الحرملك ومنعت عنه الزيارة ما عدا أطبائوه وقلة من مستخدمييه<sup>(٤٨)</sup> .

وبهدوء الحالة ، التقى مرى بأرتين وتناقش معه ، فصرح له الأخير بأن ابراهيم يرفض تنفيذ الغاء هذا الاحتكار مثله فى ذلك مثل أبيه ، وأعرب عن أمله فى انتزاع الموافقة على الالغاء دون ضغط مقابل موافقة القنصل البريطانى العام على التأجيل لفترة قصيرة ، بمعنى اعطاء فرصة نظرا لوجود احتياضى كبير من منتجات سفار فى المخازن لحساب الحكومة ولحساب الحاكم نفسه ، فأجابه مرى أنه طالما ذهبت تعليماته غيبا ، فلم تعد له سلطة ليسمح بأى تأجيل فى الغاء اجراء غير قانونى يعرض التجارة البريطانية للخطر<sup>(٤٩)</sup> . ومرة أخرى يكتب الصدر الأعظم لابراهيم مسجلا أن السفارة البريطانية ما زالت تشكو ومبينا ضرورة اسقاط الاحتكار وأنه سبق أن طلب منه انهاء هذا الموضوع مع القنصل البريطانى العام بطريقة طيبة تطبيقا للمعاهدة المعقودة بين الحكومتين العثمانية والبريطانية<sup>(٥٠)</sup> . ولكن لم تمض الا أيام وتوافق ابراهيم المنية ويتحول الميزان للمصالح البريطانى .

أما عن مسألة التراخيص فقد شكلت أهمية بالغة لبريطانيا ، اذ حرصت كل الحرص على تأمين الطريق البرى حيث تمر عبره رسائلها وبضائعها ومسافروها الى الهند وباقى مستعمراتها ، والعمل على تيسير

---

قرىء فرمان فى ٢٢ سبتمبر ١٨٤٨ . (48) Ibid.

(49) Ibid, Murray — Palmerston, Cairo, Nov. 4, 1848, No 48.

(50) Ibid .



أجراءاته ، ومصر هي ملتقى هذا الطريق الذى يربط أوروبا وآسيا (٥١) .  
ومن ثم أصبح لابد من بذل الجهود لتحقيق الغرض ، وكتبت الخارجية  
البريطانية الى بارنت حول ذلك مصرحة بوضع المصالح البريطانية فى  
الاعتبار ، مشيرة الى ابلاغ مصر بالألا تنظر الى مصالحها وتغفل مصالح  
الدول (٥٢) . وبطبيعة الحال لم يكن هدفها خدمة الدول ولكنها تستخدم  
أسلوب التورية لتدراً عنها الشبهات .

وطلبت لندن من بارنت اجراء المفاوضات مع حاكم مصر بخصوص  
جريد الهند ، وضرورة قيامه بعمل ايجابى تجاه تسهيل وسرعة نقله (٥٣) .  
وبالفعل قام باتصالاته ، وكتب لوزير الخارجية البريطانية يبين أن  
حديثه مع محمد على فى حضور ابراهيم لم يأت بالنتيجة المرجوة ، وأنه  
سيعاود فتح الموضوع مرة أخرى (٥٤) . ولم يحدث تقدم اذ التصق  
التأخير بالبريد ، وتفقد الخارجية البريطانية أعصابها وتبعث الى ممثلها  
فى مصر تخبره بأنه — أى البريد — لم يصل بعد ، أيضا ترفض اقتراح  
محمد على الخاص بوجود مؤسسة حكومية تتولى الاشراف على المحطات  
مما يسفر عنه التحكم فى المسافرين العابرين الذين تطأ أقدامهم أرض  
مصر ، وتعدده اقتراحا غيبيا (٥٥) .

---

(٥١) منذ عام ١٨٣٠ كانت السفن البخارية البريطانية التابعة لشركة  
الهند الشرقية تواصل رحلاتها من الهند الى السويس ، وفى نفس الوقت  
فهنالك رحلات من انجلترا — عن طريق جبل طارق ومالطة — لالاسكندرية ،  
وبالتالى أصبح الطريق من السويس الى الاسكندرية له الأهمية القصوى ،  
وقد ظهر المشروع الانجليزى للسكة الحديد فى الأفق ، كما بزغ المشروع  
الفرنسى للقناة ، ولكن لم تتخذ بشأنهما خطوات ايجابية لاعتبارات معينة .

(52) F. O. 78/582, F. O. — Barnett, F. O. Aug. 13, 1844, No 7.

(53) Ibid, F. O. — Barnett, F. O., July 31, 1844.

(54) Ibid, Barnett — Aberdeen, Cairo, Oct. 21, 1844.

(55) F. O. 78/623, F. O. — Barnett, F. O., Feb. 7, 1845, No 4.



والواقع أنه كان هناك عدد كبير من الرعايا البريطانيين يقضون  
فى مصر بعض الوقت حتى تغلبهم البواخر اما الى الطريق الهند  
وما وراءها أو لأوروبا ، ومما يذكر أن هذا الأمر خلق رغبة بريطانية فى  
المحافظة على الاستقرار والنظام فى مصر لما فى ذلك من انعكاس على  
هؤلاء الرعايا<sup>(٥٦)</sup> . وكان قد سبق أن صرح محمد على فى عام ١٨٣٨  
ببناء استراحات فى الصحراء بين القاهرة والسويس لخدمة الترانزيت،  
أى لراحة المسافرين هادفا الى تحسين الطريق البرى ، واضعا نصب  
عينيه امكانية التحكم فيه وقتما يشاء ، وعليه حصلت « لجنة بومباى  
الخاصة بتمويل طاقة البخار »<sup>(٥٧)</sup> Bombay Steam Fund Committee  
على حق الامتياز لمدة عشر سنوات مع حق التجديد عند انتهاء  
المدة بمعرفة الباشا بناء على طلب من القنصل البريطانى العام . وتم  
تأجيرها الى ثربورن Thurburn — تاجر انجليزى وله علاقة بمحمد  
على وكان يستورد له البضائع من بريطانيا — وقدمت له الحكومة  
المصرية المساعدة ، ومن ثم تأسست شركة الترانزيت بعقد خضع لشروط  
معينة ، أهمها منع التأجير من الباطن ، وبتنحى المستأجر نتيجة لضغط  
الوالى عليه ، أجبر على نقل الخدمة بمعدات ومخازنها للحكومة المصرية،  
وأصبحت فى حوزة محمد على<sup>(٥٨)</sup> ، وبالتالى غدت الاستراحات فى  
يده ، وتدرجيا سيطر كلية على النقل عبر الطريق البرى واحتكره .  
وساء القنصل البريطانى العام هذا الوضع وحذر أرتين منه موضحا

---

(56) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., April 16, 1854.

(٥٧) شكل المستوطنون البريطانيون فى الهند عدة لجان بشأن العمل  
على تقدم الخدمات الخاصة بالسفن البخارية على طول الطريق الموصل  
بين الهند وانجلترا ، وكانت تلك اللجنة احداها .

(58) F. O. 78/661 B, Barnett — Aberdeen, Alex., March 17,  
1846, No 6, F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Alex., June 6,  
1847, No 32.



الصعوبة التى تنشأ عنه<sup>(٥٩)</sup> . وكانت الخارجية البريطانية ترفض بشدة البيع أو التنازل عن تلك الاستراحات لحاكم مصر ، وعدت هذا أمرا خطيرا سواء من ناحية السياسية أو من وجهة النظر الدولية<sup>(٦٠)</sup> . ولكن ذلك ذهب أدراج الرياح .

واستمر الاصرار المصرى على التمسك بالاشراف المباشر على الترانزيت ، ويسجل بارنت للمدن قوله « انه بالرغم من ذلك فان الخدمة لم يشملها أى تنظيم جديد مما سبق اقتراحه »<sup>(٦١)</sup> ، ويشكو من ضرورة حصول الرعايا البريطانيين على حقهم فى وسائل النقل الى السويس ، وكان أرتين قد تسلم تعليمات من حاكمه بأن يصدر الأوامر الى البوليس المحلى بعدم تدخله مع الأهالى وترك المسافرين يأخذون طريقهم الى السويس بالوسيلة التى تروقهم ، وعاد باشا مصر وتراجع ورفض اعطاء الحرية للمسافرين ، ومن ثم يبلغ القنصل البريطانى العام حكومته بأنه سيعاود الاتصال بأرتين ويجرى المحاولات للحصول على هذه الحرية ، وذلك حتى لا يكون هناك تقييد بخدمات الترانزيت المصرية<sup>(٦٢)</sup> . أيضا كان القنصل البريطانى العام قد أثير لاحتكار المراكب فى النيل وترعة الحمودية ، وشكا الأمر لكاننج<sup>(٦٣)</sup> ، والسبب بين اذ أضر بالتجار الانجليز الذين واجهتهم العقبات فى شحن بضائعهم الى الاسكندرية .

---

(59) F. O. 78/661 B ,Barnett — Aberdeen, Alex., Mach 17, 1846, No 6.

(60) F. O. 78/623, F. O. — Barnett, F. O., April 5, 1845, No 5.

(61) Ibid, Barnett — Aberdeen, Alex., June 5, 1845, No 22.

(62) F. O. 78/661 B, Barnett — Aberdeen, Cairo, Jan. 19, 1846, No 1.

(63) F.O. 78/451, Barnett — Canning, Cairo, Dec. 1 st, 1841

فى عام ١٨٣٧ تم حفر ترعة الحمودية بين الاسكندرية والعطف ، وأصبحت طريقا للاتصال بين الاسكندرية والقاهرة بدلا من الطريق البرى .



ولم تتجاوب السلطات المصرية ، واحتج الرعايا البريطانيون مطالبين بعدم الخضوع لشركة الترانزيت ، ويذكر مري أنه وفقا لذلك خضع النقل للاحتكار ولكن بطريقة ملتوية فتقول الحكومة للمسافر « اختر وسيلة النقل التي تلائمك » وفى الوقت نفسه توقع العقاب على الذين يقومون بتأجير دوابهم من الخيول والحمير والابل ، كما ينتقدها القنصل البريطانى العام بشأن تحريمها لبيع المسكرات ، وأخيرا يبين أن الاحتجاجات القوية لم تؤد الى أى تغيير<sup>(٦٤)</sup> .

وكانت المفاوضات قد تعثرت بين ممثل بريطانيا فى مصر ومحمد على حتى لقد هددت أكثر من مرة بقطع العلاقات بين البلدين ، وينعكس تبرم مري على كلماته الى بالمرستون ، خاصة عندما أحال الباشا الأمر على مستشاريه من الفرنسيين<sup>(٦٥)</sup> ، وكان ذلك يكدر المسئولين البريطانيين للغاية • ومضت مضايقة بريطانيا فى طريقها ، فعلى سبيل المثال أعلنت شركة الترانزيت عن مناقصة توريد أغذية ، فتقدم تاجر

---

(64) F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Cairo, Feb. 18, 1874, No 10.

تحددت تعريف الترانزيت كالآتى :

● من الاسكندرية الى السويس والعكس :

الدرجة الأولى ١١٧٠ قرشا ، والدرجة الثانية ٩٧٥ قرشا ، والدرجة الثالثة ٥٨٥ قرشا .

● من القاهرة الى السويس والعكس :

الدرجة الأولى ٨٧٧٢٠ قرشا ، والدرجة الثانية ٧٣١٠٠ قرشا ، والدرجة الثالثة ٤٣٨٣٠ قرشا .

● من الاسكندرية الى بولاق — عن طريق المحمودية — والعكس :

الدرجة الأولى ٢٩٢٢٠ قرشا ، والدرجة الثانية ٢٤٣٣٠ قرشا ، والدرجة الثالثة ١٤٦٠٠ قرشا .

F. O. 78/661 B, Barnett — Aberdeen, Alex., June 8, 1846, No 15.

(65) F. O. 78/662, Murray — Palmerston, Cairo, Nov. 4, 1846, No 1.



انجليزى بعطائه ، ولكن الحكومة المصرية رفضت ارساء العطاء عليه ،  
كذلك اعترضت الشركة على أن يقوم بتمويل السفن البريطانية ، ويشكو  
التاجر لقنصله الذى يتأفف من تلك المعاملة ويصورها لوزير الخارجية  
البريطانية ، ويرد الأخير ويطلب من مري الاتصال بالوالى ، وبيان  
أن ذلك لا يتفق مع حسن العلاقة والصداقة بين بريطانيا ومصر والتى قد  
تتأثر اذا استمرت مثل هذه المعاملة (٦٦) .

وكان وزير الخارجية البريطانية سبق أن بعث بكتاب الى محمد  
على يشرح له الصعوبات التى تتعرض لها الرسائل والمسافرون داخل  
مصر من تعاملهم مع شركة الترانزيت ، وأن ضمان راحتهم وحريتهم  
يتمثل فى تعاونهم مع من يفهمونهم من الانجليز ، ويطلب بالمرستون  
من مري اللقاء بحاكم مصر والتفاهم معه فى هذا الشأن ، والاشارة  
الى الود القائم بين الحكومة البريطانية وبينه ، كما يرفق له خطابا  
من مصلحة البريد البريطانية مدرجا فيه العقبات التى تواجهها الرسائل  
المرسلة للهند عن طريق مصر ، ثم يرى ضرورة الاتفاق على وسيلة  
لوصولها بانتظام وفى مواعيدها (٦٧) . ونفذ القنصل البريطانى العام  
المطلوب منه ، وقابل محمد على واستعجله فى رد نهائى يعينه من عناده  
على احتكار الترانزيت ، ولكن الأخير أظهر الملاينة ، وفهم مري من  
ترجمانه أنه — أى الباشا — لن يعاقب أصحاب الدواب اذا نقلوا

---

(66) F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Cairo, March 6,  
1847, No 12, F. O. 78/706, Palmerston — Murray, F. O., March 25,  
1847, No 9.

(67) F. O. 78/706, Palmerston — Murray, F. O., March 8,  
13, 1847, No 7, 8.



المسافرين من القاهرة للسويس (٦٨) •

وما لبث الأمر أن أثار القنصل البريطانى العام مع حكومته مسألة استراحات الصحراء عندما قارب امتيازها على الانتهاء ، واستعلم عن النية تجاه تجديده ، وعرج على أهمية هذه الاستراحات لاتصالها باحتكار الترانزيت ولترسيخ القدم البريطانى فى الصحراء ، وأوضح أنه قد وصلت القنصلية البريطانية مكاتبات متعددة بشأن الاختفاظ بها ، وأنها لها الضرورة القصوى لبريطانيا من الناحيتين السياسية والتجارية ، وعليه فلا يجب التسليم بسلطة حاكم مصر عليها (٦٩) • وبذلك تنطق الرغبة البريطانية فى الاستحواذ عليها ، ومما يذكر أنه بالتحكم المصرى فى الاستراحات والبواخر وجميع الآلات الخاصة بالترانزيت استبعدت مسألة دفع ١/٢٪ الخاصة بالرسوم على بضائع الترانزيت ، وعممت نسبة ٣/١٠٠ (٧٠) • ولم تجد مساعى مرى فى هذا الصدد •

---

(68) F. O. 78/707, Murray — Palmerston, Cairo, April 30, 1847, No 24.

مما يلاحظ أن عدد المسافرين ارتفع فى السنوات من ١٨٣٩ الى ١٨٤٧ كما يلى :

٢٧٥	=	١٨٤٠/١٨٣٩	مسافرا •
٥٨٠	=	١٨٤١/١٨٤٠	مسافرا •
١١١١	=	١٨٤٢/١٨٤١	مسافرا •
١٤٥٠	=	١٨٤٣/١٨٤٢	مسافرا •
١٩٤٠	=	١٨٤٤/١٨٤٣	مسافرا •
٢٢١٠٠	=	١٨٤٥/١٨٤٤	مسافر •
٢٢٣٠٠	=	١٨٤٦/١٨٤٥	مسافر •
٣٠٠٠	=	١٨٤٧/١٨٤٦	مسافر •

Ibid, Murray — Palmerston, Alex., June 6, 1847, No 32.

هذا بالاضافة الى الجمال المحملة بالبضائع •

(69) Ibid, Murray — Palmerston, Alex., June 6, 1847.

(70) Ibid.



وانتهز القنصل البريطانى العام فرصة تملك ابراهيم زمام ادارة الحكم ، والتقى به وتحدث معه فى مسألة الترانزيت شارحا له الحالة السيئة التى يدار بها ، وأن جميع أجهزته غير صالحة للعمل ، فتلقى منه ردا بأنه ناقش الأمر مع المجلس بكل عناية ، وتقرر اجراء تغييرات وادخال تحسينات عليه ، وتنطوى على « استبعاد عدد من المستخدمين المالمطيين واحلال عرب مكانهم من الذين تلقوا تعليمهم فى باريس » وينقل مرى انطباعه لبالمرستون « واذا تم ذلك فستصبح ادارة الترانزيت رديئة للغاية ، وتتكرر الشكاوى مما يدعونى استعجالك لاستصدار أمرى بانابتنى رسميا لتولى هذا الموضوع » (٧١) •

ويعود ليبين بعد لقاءات أخرى له مع ابراهيم بأن الأخير يبدى اهتماما بالنقص والثغرات فى نظام الترانزيت ، وأنه طلب منه عرض ما يراه من الوسائل العلاجية مما أعطاه الاحساس أنه يعتزم القيام باصلاح شامل ، ولكن عادت ومثلت مسألة التخلص من الأجانب — ليس المالمطيون فقط وانما دخل تحت لوائهم باقى الأوروبيين — وشغل أماكنهم بأتراك ومصريين قلقا بالغا لمرى ، وصرح لابراهيم بأنه لا يوجد أحسن من الأوروبيين مشيرا الى أن خطته ستنتهى بالفشل ، فأجابه « حسنا سوف نرى ، دعنى أجرب خطتى لبعض الوقت ، وان لم تنجح فيمكن أن نجرب خطتك » (٧٢) •

وارتاح القنصل البريطانى العام لهذه الاجابة ، واعتبرها مخرصة ومرضية للغاية اذ انحصرت رؤيته فى أنها تؤكد استخدام خطته خلال ثلاثة أشهر (٧٣) • ولكن الحاكم كان يذر رمادا فى العيون ، فلم يحاول

---

(71) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, May 5, 1848, No. 17.

(72) Ibid, Murray - Palmerston. Cairo, July 28, 1848, No. 36.

(73) Ibid.



اطلاقا الحيد عن سياسته ، فيذكر مري أنه فصل المدير المالى رغم أنه لم يكن عديم الأمانة أو الكفاءة ، بل ويتميز بمهارة معرفة اللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية والتركية والعربية ، وشغلت وظيفته بتركى ، ومع أنه مطيع وملتزم وذكى لكنه لا يمكنه النطق بجملة واحدة أوروبية ، ومن ثم فلن يفهم أى شكوى مقدمة من المسافرين ، وبخلاف ذلك فلم يسبق له التعامل مع الآلات البخارية والمركبات والخيول وعدتها<sup>(٧٤)</sup> . وبذلك يتضح أن المسألة تتعقد أمام السياسة البريطانية .

وكان مري قد بعث بكتاب الى أرتين بشأن الاستراحات ، ولما لم يستلم الرد كتب اليه مرة أخرى لايجاد حل مرضى فى حالة التفسير بطريقة معقولة ومقبولة ، مبينا أنه تلقى من حكومته برقية بالتعجيل آملا فى ألا تؤجل الحكومة المصرية البت فى المسألة أكثر من ذلك خاصة بعد أن اتسعت تلك الاستراحات ، وأن اللجنة التى أسستها لها حق تجديد الامتياز عند نهاية مدته ، وفى حالة منحه لجهة أخرى ، فمن حق الأولى رفع دعوى واحتفاظها بالامتياز<sup>(٧٥)</sup> . ومما يلاحظ أن المسؤولين المصريين آثروا السكوت ، ويشكو القنصل البريطانى العام من هذا الموقف السلبي<sup>(٧٦)</sup> . وتحرك أرتين وقام بالرد على أحد الخطابات الخاص بالرغبة البريطانية فى أن تتواجد ثلاث محطات رئيسية وتتوافر فيها المواد التموينية من أسماك ولحوم وجبن وبسكويت وفاكهة ، واكتفى بالقول بأنه عرض الأمر على سيده<sup>(٧٧)</sup> .

وحاول ابراهيم أن يتظاهر بالتعاون ، فكتب الى أرتين بخصوص التسهيلات التى طلبها مري للترانزيت مصرحا بأنه فكر فى الأمر

---

(74) Ibid.

(75) Ibid, Murray - Artin Bey, Le Cairo, Le 12 Mai 1848, No. 22.

(76) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, May 19, 1848, No. 19.

(77) Ibid, Artin Bey - Murray, Alex., le 12 Juin 1848, No. 22.



ووجد أن المسألة تحتاج الى توزيع عدد كبير من العاملين للقيام بالخدمة، وأن يعتمد اختيارهم على الصلاح والاستقامة حتى يتمكنوا من تيسير وتغطية المتطلبات الضرورية، متبعين في ذلك الطرق الشريفة، وأنه يأمل أن تكون طريقته موضع اعجاب اذ سيتمكن المسافرون من الاستمتاع بكافة وسائل الراحة أثناء رحلتهم، كما أوضح أنه تقرر أن يتم توزيع تذاكر عليهم، وأن الأوامر صدرت الى الادارة للعمل على تسهيل سبل الإقامة في الاستراحات، ويختتم كلماته مبيّناً أنه يعمل على رضا الحكومة البريطانية بحيث تجد الأمة الانجليزية جميع الامكانيات الميسرة للمسافرين، ويطلب من أرتين نقل هذه التصريحات للقنصل البريطاني العام (٧٨) • وفي ذلك ما يدل على سياسة التهذئة التي اتبعها حاكم مصر.

ويكتب مري لحكومته يبلغها أن هناك بعض تغييرات تجرى بالترانزيت ولكنها ليست من الأهمية بمكان، وأن تفسيرات ابراهيم للمطلوب مقبولة ولكنها غير محددة، ثم يبين أنه لا يعتبر نفسه محققاً في سحب ادعاءات « لجنة بومباي الخاصة بتمويل طاقة البخار » تجاه استراحاتها، وقيل أن يقوم بذلك سيصر على أمر حكومي واضح بأن جميع المسافرين من القاهرة الى السويس والعكس — مستخدمين الدواب من أي مكان — لهم الحق في الحصول على تذاكر تبيح لهم دخول الاستراحات لتناول المشروبات أو للراحة، مع سعر محدد ومناسب، وفي حالة التنفيذ، فانه سيرجىء سحب ادعاءات اللجنة (٧٩) •

وتواصل شكاوى المسافرين البريطانيين والهنود طريقها لعدم العناية بهم عبر مرورهم (٨٠)، ويبحث مري لبالمرستون ليرجع أهم سبب

---

(78) Ibid, Traduction d'une lettre a S.A. Ibrahim Pacha a S.E. Artin Bey, le 27 May 1848.

(79) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, June 1st, 15, 1848, No. 20, 22.

(80) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 28, 1848, No. 36.



الى أن المنوط لهم الخدمة غير أكفاء ، ورغم اعتراضه بما جرى من تحسينات كبيرة فى نظافة واعداد وسائل الراحة خاصة فى البواخر النيلية ، لكنه يسطر « يجب أن يوضع فى الاعتبار أن الترانزيت فى مصر لن تتم ادارته بطريقة مرضية للحكومة البريطانية وللشعب البريطانى حتى تعاد الادارة والجهاز التنفيذى للايدى البريطانية ، وطالما بقيت فى ايدى الأتراك والعرب ، فانه لا ينتظر منها الا السيئ والأسوأ » (٨١) .

ويتناول القنصل البريطانى العام انعكاسات النظام القائم ، ويصور كيف أن الحكومة المصرية مخدوعة وسيهوى بها سوء ادارتها ، وأنه فى خلال ستة أشهر سيتأثر الحاكم بالحالة ، وعليه سيصغى للعلاج ، وعندئذ سيتوغل الحماس الفرنسى ، وينقل توقعاته للندن ، فيذكر أنه ليس من المستبعد أن يحصل ممول بريطانى على عقد ايجار للترانزيت مقابل ثمانية أو عشرة آلاف جنيه استرلينى سنويا ، فاذا أضيف الى ذلك الادارة الرشيدة ، تصبح العملية رابحة ، ولكنه فى الوقت نفسه يبين أنه لا يغفل أن الحكومة المصرية ستعمل ما فى وسعها لاستبعاد الرأسمالين البريطانيين من المنافسة فى حالة عزمها على التأجير لتجار يونانيين أو ايطاليين حتى لو كان عطاؤهم أقل ، وذلك لأنهم لا يمتلكون التأثير السياسى كغيرهم (٨٢) . وواضح أنه يقصد الانجليز ، ومن ثم ينبغى أن كل طرف أصبح يفهم الآخر جيدا ، وبدا تحقيق التخطيط البريطانى صعبا .

وأمام العقبات راح مرى يبحث عن من يخدم الأغراض البريطانية ، فاهتم ببندو سيناء — كانت شركة الهند الشرقية وادارة الترانزيت تستخدمهم ، اذ يوردون الجمال التى تنقل أمتعة المسافرين من والى السويس — وأشاد بهم لبالمرستون ، فيعتبرهم أصدقاء نافعين ، ويصرح

---

(81) Ibid.

(82) Ibid.



بأنه سينمى معرفته برؤسائهم حيث من المفيد وجود علاقة طيبة معهم ،  
وفى حالة غيابه عن القاهرة يقوم القنصل البريطانى فى الاسكندرية  
بأعماله ، وعند ضرورة حضوره ، فان الرسالة تصله فى سيناء مع  
هجان فى ظرف ثمانية وأربعين ساعة<sup>(٨٣)</sup> . وبالفعل انتقل الى سيناء  
فى أواخر سبتمبر ١٨٤٨ وأدى المهمة<sup>(٨٤)</sup> .

ووجدت الخارجية البريطانية أن الالتجاء للباب العالى ربما يأتى  
بالمرغوب ، وعليه بعثت الى سفيرها فى استنبول ، وأرفقت مع كتابها  
صورة من خطاب مرى لها تحمل رؤيته تجاه الشكاوى من العمال الذين  
يقومون بخدمة الترانزيت ، وعرضت وجهة نظر الحكومة البريطانية  
بخصوص أهمية وسرعة وصول البريد للهند وأمان راحة المسافرين  
الذين يعبرن أرض مصر ، وأن ذلك لا يمكن الحصول عليه الا باستخدام  
أشخاص ذوى المام تام وخبرة كافية بالخدمة ، اذ يقومون بترتيب  
الاجراءات بنظام وهمة ، بالإضافة الى ضرورة أن يكونوا موضع ثقة ،  
والأوروبيون لديهم استعداد جيد وخاصة الذين لهم دراية بالعادات  
والطباع الانجليزية ، ثم تعرج الخارجية البريطانية الى أن ابراهيم يعد  
صاحب فكرة استخدام العمال المصريين ، وبما أنه قبض على زمام  
الحكم رسميا ، فسيكون أكثر تمسكا بما يراه بعد أن أصبح مطلق  
التصرف ، وأن الوقت حان لتتحرك الحكومة التركية وتمارس نفوذها على  
الحاكم الجديد وتتدخل لارغامه على أن يولى عناية للاقتراحات والرغبات  
البريطانية المقدمة له الخاصة بنظام الترانزيت لىفى بالغرض المطلوب  
وهو زيادة كفاءته مع تقليل نفقاته ، وفى نهاية التعليمات تعطى لـندن  
سفيرها حرية التصرف وفقا لموقف الباب العالى<sup>(٨٥)</sup> .

---

(83) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Aug. 14, 1848, No 40.

(84) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No. 43.

(85) F.O. 78/732, F.O. ( Palmerston ) - Canning, F.O., Sept.  
6, 1848, No. 108.



ويقوم كاننج بمجهوداته ويبلغ بالمرستون بأن السلطان عقد النية على العمل لتنفيذ الاقتراح الذى عرضه — الخاص بخدمة الترايزيت — وذلك بارسال مظلوم بك كمبعوث الى القاهرة ، مزودا بنصيحة للحصول على ترتيب مرض من السلطات المصرية ، وأنه لو اتبع هذا المبعوث الطريق المستقيم ، فيمكن بمساعدة مرى الحصول على نتائج تكون فى الصالح البريطانى<sup>(٨٦)</sup> . ولكن لم يمهل العمر ابراهيم حتى يستمر عقبة فى طريق بريطانيا اذ ما لبث الأمر أن تمكنت من الموقف تدريجيا ونفذت سياستها فى عهد عباس التى تمثلت فى ترسيخ أقدامها على الطريق بتنفيذ مشروع السكة الحديد .

### • ولاية الحكم :

احتلت العلاقة بين الباب العالى و ابراهيم موقعا فى السياسة البريطانية ، فيذكر مرى لبالمرستون أنه استقى معلومات من مصادر متعددة لقياس أبعاد نزعة الوزراء والباشوات العثمانيين تجاه والى مصر المنتظر ، فوجد منها ما يفيد أنهم سيكونون سعداء لانتهاز الفرصة التى يردوا بها له الالهانات التى ألحقها بهم فى الحملة السورية ، ويشير القنصل البريطانى العام الى أنه لو كان لدى استنبول هذه النية ، فلا خوف على مصر ، لأن الدول العظمى ستتفق وتتعاون لتضمن ل ابراهيم خلافتة لحكم أبيه بهدوء<sup>(٨٧)</sup> . ثم يسجل انطباعه « وعندما يستقر الأمر للوالى الجديد ، فلن يكون له نفس الثقل الذى كان يتمتع به محمد على لدى الباب العالى ، حيث يمتلك الأخير الفطنة الكاملة فى استخدامه للرشوة ، وهذا ما يفتقده الابن ، فالخزانة خاوية ، وجميع مصالح

---

(86) F.O. 78/736, Canning - Palmerston, Therapia, Nov. 17, 1848, No. 180.

مظلوم بك هو الوكيل الرسمى ل ابراهيم لدى الباب العالى .

(87) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, June 17, 1848, No. 23.



الخدمة العامة عاجزة عن الدفع حتى أنه سيكون من الصعوبة بمكان زيادة الجزية» (٨٨) .

وبزغت مسألة الوراثة واستحوذت على الاهتمام ، وأدخلت فى حسابان التخطيط البريطانى ، وكان الحرص جليا على ضمان الهدوء والاستقرار لمصر لانعكاس ذلك على الطريق للهند ، وراحت المخاوف البريطانية تنمو بشأن أسرة محمد على ، فيعتبر مرى أن أساسها أقيم على رمال مما يحول بينها وبين الشعب ، وأن اقليما تسيطر عليه الفوضى أو يتعرض لاحتلال أجنبى يكون خطرا على الامبراطورية البريطانية فى الهند ، ويصرح بثقته فى أن نظام الوراثة فى الأسرة الحاكمة وهم أو ضلال ، وأن أخوة ابراهيم وأولاد أخوته ممقوتون بدون استثناء وغير أكفاء ، وكلهم على خلاف ، وبالتالي فعند وفاته سيعم الاضطراب والحرب الأهلية التى لن يخمدوها الا التدخل الحربى الخارجى ، كما يبين أنه حتى أثناء حياته لن يتمكن من المحافظة على ملكه (٨٩) .

والواقع أن القلق انتاب القنصل البريطانى العام بشأن تصرفات الحاكم الجديد ، فيكتب للندن الكلمات التى تعبر عن التخوف « لا يمكننى تجنب الاعتقاد الذى ينمو تدريجيا فى ذهنى أنه تحت ادارة ابراهيم باشا فان علاقات الصداقة مع الحكومة ستكون أكثر صعوبة للابقاء عليها عما كانت عليه تحت حكم محمد على » (٩٠) . وبطبيعة الحال السبب واضح وأرجع لشخصية ابراهيم التى أدخلت الريية على قلب المسئول البريطانى .

---

(88) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 3, 1848, No. 27,

(89) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo July 6, 1848, No. 30.

(90) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 30, 1848, No. 37.



ويواصل مري تصور أيعطى الموقف أنه إذا كان السلطان رجلاً ذا صفات سديدة ، ولو كانت حالة مناطق نفوذه الأوربية تسمح له بزيادة سلطته فيها ، يصبح من السهل عليه إيجاد الحل بتوجيه ضربته الشديدة لأبراهيم وانتهاك بنود الوراثة وعدم السماح له بزيادة قوته الحربية ، وأنه — وفقاً لما يراه الكثيرون — لو أرسل إلى مصر باشا أو وزير لديه الذكاء ومعه بعض الأموال للقيام بتنفيذ تعليماته ، فلن يجد إلا صعوبة قليلة لجذب معظم كبار الأتراك إلى جانبه وطرد الأسرة الحاكمة من البلاد (٩١) .

ويبين القنصل البريطاني العام أنه إذا ترك ذلك جانباً وتمكن إبراهيم من التمتع باستمرار نظام الوراثة وبالحكم حتى وفاته ، فلن يستمر له الحال إلى الأبد ، إذ لا يوجد طبيب في مصر يضمن استمرار حياته أكثر من ثلاث سنوات ، نظراً لانحلال جسمه بسبب افراطه في تناول الكحول مع تقدم العمر به مما يعرضه لمخاطر وأزمات . ويصل مري إلى الهدف من هذا العرض الشامل لتلك الملاحظات التي دونها لوزير الخارجية البريطانية ، وهو أن تعد الحكومة البريطانية وتستكمل الخطط التي ترى أنها ضرورية لاتخاذها في حالة ما لو كان حكم إبراهيم جاء مبكراً أو حتمته طبيعة الظروف ، وأخيراً يركز مرة أخرى على مسألة الوراثة والخوف من أن تكون مصر مسرحاً لحرب أهلية يقوم فيها البدو بالسلب والنهب ، مما يترتب عليه أن تتضمن مباشرة إلى الباب العالي ، أو تتدخل فرنسا التي تحيك لذلك عن طريق ارتباطها بتحسينات الاسكندرية ، أو يحتل الجيش البريطاني مصر « وهو شيء متوقع ليقضى على كل المخاطر ويؤمن المواصلات الأنجلوهندية » (٩٢) .

ويفهم من رد الخارجية البريطانية على مري أنها مؤيدة لموقفه ،

---

(91) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, July 6, 1848, No. 30.

(92) Ibid.



مشيدة باستعدادها للطوارئ ، معلنة وضع ملاحظاته محل العناية ، ولكنها حملت وجهة نظر اختلفت فيها معه واعتبرتها الخط الذي يلزم اتباعه ، فرغم ايمانها أن نظام الوراثة وامكانية التنازع بين أفراد الأسرة المالكة — عقب وفاة محمد على — لم يعد نظاما عمليا نظرا لما يعكسه من سوء على الأوضاع الداخلية ، الا أنها تذكر أن التسوية الدولية أقرت وضع مصر كولاية من ولايات الدولة العثمانية وجزءا من أملاك السلطان ، ومن ثم لا يمكن أن تقوم فرنسا أو بريطانيا بالاستحواذ عليها الا في حالة قيام أى منهما بالحرب مع تركيا ، وبعد التحقق من أن غزو أملاك السلطان اجراء حربى ، وأنه عند وقوع الأحداث المتوقعة واستدعاء الأمر تدخل القوة لاستتباب النظام فى مصر ، فالتدخل الوحيد الذى يعد قانونيا وفقا للحقوق والارتباطات القائمة ، هو تدخل السلطان باعتباره حاكما للبلاد ، وفى النهاية تصدر الخارجية البريطانية تعليماتها الى مرى ليستعلم عن السبب الذى جعل الحكومة المصرية تتخلى عن احترام الشروط الخاصة بوراثة باشوية مصر المنوحة لأسرة محمد على<sup>(٩٣)</sup> . وكان القصد من ذلك أن محمد على لم ينته به العمر حتى يورث ، وأن المفروض استمراره فى الحكم ، ويكون بجواره مجلس يدير الأعمال<sup>(٩٤)</sup> .

وأرسل بالمرستون هذه الاجابة مرفقا بها كتاب مرى الى السفير البريطانى فى استنبول حتى يصبح لديه تصورا كاملا لوجهتى النظر<sup>(٩٥)</sup> . وعليه يقوم كاتنج بدوره ويبيعث الى وزير الخارجية البريطانية بما استقاه من معلومات ، فيذكر أن رشيد باشا الصدر الأعظم أبلغه أن

---

(93) Ibid.

(94) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F. O., Aug. 2, 1848, No. 134.

(95) F.O. 78/731, Palmerston - Canning, F. O., Aug. 2, 1848, No. 85.



سلفه صارم باشا — قبل احالته للمعاش بأيام — كتب باسم السلطان الى ابراهيم فى رودس يدعو الحضور الى استنبول لتوليته مهام الحكم الكلى — وفقا لما جاء به فرمان ١٨٤١ من ضرورة أن يقلد الباب العالى الوالى الجديد منصب الولاية عند خلوه — واحلاله مكان محمد على الذى أصبح فى حالة ميئوس منها ، وينقل السفير البريطانى ما دار فى مقابلته مع رشيد باشا وكيف أن الأخير لا يوافق على هذا الاجراء ، ولكنه يجد صعوبة فى نصيح السلطان ليتراجع عن ذلك<sup>(٩٦)</sup> ، وأنه — أى السفير — أجابه بأنه لا يرى مغبة من الزيارة حيث ستقضى على أى شك فى مسألة الوراثة ، كما ستجعل الوالى الجديد يكف عن موالاة التجهيزات الحربية التى أنهكت مصر<sup>(٩٧)</sup> .

وفى نفس الوقت يبين كاننج أنه بتملك ابراهيم ولاية الحكم واستثنائه الشرعى بالسلطة العليا بينما لا يزال أبوه على قيد الحياة ، يخلق مناخا معيبا ، ويعرضه هو والباب العالى لنقد لاذع ، وأن أقل الوسائل ضررا جعله وصيا أو نائبا لمصر مع اعطائه السلطة الكاملة لإدارة الأعمال — كما عقد أبوه النية على خلافته له — ولكن يكون التقليد بصفة اعتبارية أى اسمية ودون أن يترك « الباشا العجوز » جانبا ، وينتهى الى أنه من الأوفق للسلطان ألا يقحم نفسه فى مسائل أو يحتضنها قبل أن يزن الأمور ، ويختم قوله « وحتى الآن لم أسمع ما هو القرار الذى اتخذ ، ولكن ابراهيم باشا فى طريقه الى الوصول هنا فى أية لحظة ، فهو سيغادر رودس بمجرد الانتهاء من مدة الحجر الصحى »<sup>(٩٨)</sup> . وتوافق الخارجية البريطانية على النصيحة التى قدمها

---

(٩٦) من المعروف أن السلطان عبد المجيد تولى عرش السلطنة عقب وفاة أبيه السلطان محمود الثانى فى ٣٠ يونيو ١٨٣٩ ، وكان فى مقتبل عمر الشباب مما أثر على سلوكه .

(97) F. O. 78/734, Canning - Palmerston, Therapia, Aug. 18

1848, No. 74.

(98) Ibid.



ممثلاً للصدر الأعظم<sup>(٩٩)</sup> ، وبذلك يتأكد أن الرأي البريطانى لم يكن ليؤيد استيلاء ابراهيم على الحكم تماماً فى حياة أبيه •

وصدرت تعليمات كاننج الى بسانى Pisanni للقاء ابراهيم عقب وصوله ، وتمت المقابلة ، وقدم له فيها المسئول البريطانى مذكرة برغبات لندن ، فقرأها وأبدى عدم استعداداه لاعطاء الاجابة الا بعد عودته لمصر عندما يناقشها مع مستشاريه ، وأدار دقة الحديث حول غبطة السلطان وسعادته لتخويله اياه حكم مصر ، وأنه — أى السلطان — أهداه صورته فى اطار مرصع بالماس<sup>(١٠٠)</sup> • وحرص السفير البريطانى على اجراء حوار مع حاكم مصر الجديد ، ونقله الى بالمرستون الذى قام بالرد عليه معلقاً على شخصية ابراهيم ، ذاكراً أنه يبدى اعجابه بانجلترا ويتكلم عن الصداقة الحقيقية بينه وبينها والرغبة الأكيدة فى توثيق العلاقات معها ، ولكن الواقع أنه يظهر غير ما يبطن حيث يترسب فى أعماقه الدور الذى قامت به تجاه طموحه فى اليونان وسوريا ، ثم يتحول وزير الخارجية البريطانية للحديث عن فرنسا مشيراً الى أن علاقتها التجارية بمصر ليس لها الوزن بعكس الوضع البريطانى ، مبيناً أنه لابد من التجلى بالصبر ، مسجلاً القول « ان السياسة الحكيمة الوحيدة للحكومة المصرية هى اتخاذ الطريق المستقيم لضمان المصالح البريطانية فى مصر ، وللثقة فى قوة بريطانيا وعدالة مطالبها »<sup>(١٠١)</sup> • ومن ثم ينجلى التخطيط الهادى الذى اتسمت به السياسة البريطانية •

---

(99) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Sept. 20, 1848, No. 120.

(100) F.O. 78/735, Pisanni - Canning, Pera, Sept. 2, 1844, No. 92.

(101) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Sept. 29, 1848, No. 137.



وانتهت زيارة ابراهيم لاستنبول وغادرها في ٣ سبتمبر ١٨٤٨ بعد تقلده باشوية مصر رسميا ، ويذكر كاننج لبالمرستون — في اليوم التالي — أن المجلس العثماني توصل الى هذا القرار بامتناع وبعدم الكثير من التردد ، وأن ابراهيم كان قد قرر اما أن يحصل على كل شيء أو لا يحصل على شيء ، وأعرب عن أن يمنح له فرمانا يجعله نائبا مع الاعتراف بأحقية في الوراثة ، ولم يقبل حتى فرمانا يعطيه الحق المباشر فيها ويكون مصحوبا بملحق أو مرسوم ينص على التنازل عن السلطة العليا في حالة شفاء محمد علي واستعادته لصحته وقواه العقلية ، ويحلل السفير البريطاني الموقف بأن السلطان التزم بكلمته لابراهيم ولم يكن راغبا في اظهار استيائه ، ثم يعرض رأيه بشأن تدخل الدول لتوضيح مسألة الوراثة (١٠٢) .

وفي نفس اليوم يبعث السفير البريطاني في استنبول للندن يبلغها أنه لم يكن له اتصال رسمي مع الباب العالي فيما يتعلق بتولية ابراهيم ، الا أن الصدر الأعظم أجرى معه مشاورات — على طول الخط — بصفة سرية ، ثم ما لبث الأمر أن اتخذت شكلا علنيا بناء على أمر السلطان بقصد الحصول على رأي مناسب منه ، ويتوقف كاننج ليبين أن السلطان يفكر في اتخاذ خطوة يراعى فيها الدول التي وقعت على معاهدة يوليو ١٨٤٠ ، وأن وزراءه يريدون العمل على راحة تفكيره ويخلقون المناخ الذي يدعم استمرار ثقته فيهم (١٠٣) .

ويتابع السفير البريطاني القول بأنه من المهم أن يوضع في الاعتبار أن الصدر الأعظم يجارى السلطان ، وأن للسفارة البريطانية فضلا على كليهما ، أيضا يوضح أنه لم يكن راغبا في التصديق على تصرف ليست

---

(102) F.O. 78/735, Canning - Palmerston, Therapia, Sept. 4, 1848, No. 93.

(103) Ibid, Canning - Palmerston, Therapia, Sept. 4, 1848, No. 94.



هناك حاجة ضرورية ملحة له لتجنب الاعتراضات التي فرضت نفسها ، تلك التي فندها رشيد باشا للسلطان ، وأنه — أى السفير — قدم بعض الاقتراحات أهمها « وجوب ضمان مبدأ الوراثة بقبول وعد الباشا ( ابراهيم ) بأن يعتزل فى حالة استعادة أبيه لصحته واعطاء الدول هذا التفسير مع التأكيدات المماثلة اذا ما طلبت » • ويذكر أن اقتراحاته وضعت فى الاعتبار عند مناقشة الأمر فى القصر مع المجلس ، ويختم كلماته « وانى سعيد لأنها ( الاقتراحات ) لقيت الترحيب من السلطان والوزراء دون أن يشركونى فى المسئولية » (١٠٤) • ولا يعنى ذلك أن الباب العالى قد استسلم تماما ونفذ التوجيهات البريطانية ، حقيقة أنه طلب النصيحة وطرحها على بساط البحث ، لكنه استقى منها بقدر وبما لا يصطدم مع رغبة ابراهيم •

ولم تعارض الخارجية البريطانية فى اسناد باشوية مصر للوالى الجديد ، وصرح بالمرستون أنه طالما أن ذلك يعبر عن وجهة نظر السلطان فقد وجد فيه ما يناسبه ، وأن اعترافه بابراهيم بمباشرة حكم مصر هو اعتراف عملى وقوى وكامل ، كما أنه تخطى المعارضة، كذلك فالتسوية المتفق عليها عام ١٨٤١ تعطيه هذا الحق • ويتعرض الوزير البريطانى للسلطة التى يتمتع بها ابراهيم ، وكيف استعجل السلطان لانتزاع الملك من أبيه ، وأن ما تم هو أيضا فى صالح السلطان ، حيث يقر نفوذه فى اقضاء محمد على لعدم صلاحيته للحكم رغم بقاءه على قيد الحياة وتعيين خلف له ، وأنه لو اتبع نظام الوراثة لخلقت صعوبات كبيرة ، ولترك « الباشا العجوز » كما هو بينما تسلم ادارة الحكم لمجلس ، وأن الباب العالى وضع فى اعتباره أن بعض الباشوات قد يكونون طغاة وسيئى التصرف ، وذلك مما أسهم فى تنصيب ابراهيم (١٠٥) •

---

(104) Ibid.

(105) F.O. 78/732, Palmerstos - Canning, F. O., Sept. 29, 1848, No. 134.



وبعث الباب العالى صورة فرمان الذى صدر فى أول سبتمبر ١٨٤٨ بإحالة ولاية مصر وملحقاتها لإبراهيم الى كاننج ، وكان له شكله المتميز ، اذ سجل فى بدايته مرض محمد على الذى ابتلى به وأضناه وأعياه وأعجزه عن ادارة شئون البلاد ، وطلب إبراهيم تولى هذه المهمة ، ثم عرج فرمان على أهمية مصر فى الولايات العثمانية ، وأنه من غير اللائق خلوها من وال ، وعليه أسندت لإبراهيم ، ويعدد مناقبه من كمال خبرة ودراية ، ويطلب منه افراغ ما فى الوسع من الاقدام والغيرة وبذل قصارى الجهد لحسن ادارة مصر ، واتخاذ التدابير اللازمة لضمان رفاهية سكانها وأسباب راحتها وحماية أهلها وصيانتها مما يخل باستتباب الأمن وطمأنينتها ، وينتهى فرمان الى أنه باتباع هذا الطريق تزداد ثقة السلطان بالوالى الجديد ويعتمد عليه فى جميع الوجوه (١٠٦) . وبذلك يتبين أن فرمان استبعد مسألة استعادة محمد على للحكم ، ولم تتحقق وجهة النظر البريطانية فى هذا الشأن .

وانعكس الضيق على كتابات مرى لبالمستون بسبب تلك المكاسب التى حصل عليها إبراهيم من زيارته لاستتبول ، فيذكر أنه قد حسن مركزه مع الباب العالى وتمتع بكثير من رضا السلطان أكثر مما كان ينتظر أن يحصل عليه ، وأن ذلك تحقق دون تبذير فى تقديم المال والهدايا مثلما قدم محمد على أثناء زيارته الأخيرة لتركيا (١٠٧) . ومضى رصد تحركات إبراهيم ، فعقب وصوله الى الاسكندرية فى ٩ سبتمبر

---

(106) F.O. 78/735. Traduction de la Copie remise par Aali Pacha à son excellence Sir H. Canning, 5 Sept. 1848, No. 107.

وقام السفير البريطانى بارسال ترجمة فرمان للندن ،

Ibid, Canning - Palmerston, Therapia, Sept, 13, 1848, No. 107.

(107) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No. 34.

قام محمد على بالزيارة عام ١٨٤٦ ونال الحظوة من السلطان الذى منحه الرتب .



كتب القنصل البريطاني بها لحكومته يخبرها بذلك النبأ ، وبأنه — أى  
أنوالى الجديد — أنتقل للقاهرة فى اليوم التالى وحالته الصحية تزداد  
سوءاً (١٠٨) .

والواقع أن مسألة مرض إبراهيم أثارت القلق البريطانى من  
جديد ، فبين مرى لبارستون مدى انعكاس النتائج على حالة الاستقرار  
والأمن فى مصر ، وتأثير ذلك على حياة البريطانيين وممتلكاتهم من  
ناحية ، وعلى التجارة البريطانية والمواصلات مع الهند من ناحية أخرى ،  
ويعدد الأخطار المحدقة والتي تتلخص فى حدوث حرب أهلية وما يتبعها  
من أحداث شغب ، وعليه فانه يرى من الضرورى قيام الدول الأوربية  
بالتفاهم مع الباب العالى بخصوص موضوع الوراثة فى حالة وفاة  
إبراهيم ، ويعرض مسألة اصدار تعليمات للقائد العام فى البحر  
المتوسط بارسال بعض السفن مباشرة الى الاسكندرية لحماية الرعايا  
البريطانيين والمصالح ، وفى نفس المكاتبه يتعرض لأسماء المرشحين  
لقولى الحكم — أحمد ، عباس ، سعيد — ودرجة قرابة كل منهم لأحمد  
على (١٠٩) .

وكان السفير البريطانى باستنبول قد بعث لبارستون بما استقاه  
من مصدر مسئول موثوق به — يتمثل فى مظلوم بك — عن طريق رجال  
مخابراته ، أن إبراهيم وضع فى ذهنه استبعاد عباس وسعيد من  
الوراثة ، واعطاء الصدارة لابنه أحمد المتواجد فى باريس • ولم يكن  
كاننج ليؤيد هذا الاتجاه ، وسجل رأيه مشيراً الى أن مستقبل رفاهية

---

(108) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Alex., Sept. 13, 1848,  
No. 23.

(109) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848,  
No. 43.

أحمد رفعت هو الابن البكر لإبراهيم ، وعباس هو ابن طوسون بن  
محمد على وأكبر أفراد العائلة سنا ، وسعيد هو ابن محمد على .



مصر مرتبط بعباس وسعيد (١١٠) . وكان فرمان ١٨٤١ قد حدد أن تنتقل ولاية مصر بالارث لـ محمد على وأولاده وأولاد أولاده الذكور بصورة أن يتولى الأكبر فالأكبر ، وذلك مما سبب الصراعات .

ويأتى جواب الخارجية البريطانية الى قنصلها العام فى مصر ليحمل تصورهما ازاء تدهور صحة ابراهيم وامكانية قيام منازعات بشأن وراثة ولاية مصر ، فتصرح بأنه من الأفضل ترك الفصل فى المسألة للسلطان ليقرر خليفة ابراهيم عقب وفاته ، واستعرضت تفسير مرى فى أن أحمد أحق المطالبين بالولاية « وفقا لنوايا ومفهوم من وقعوا المعاهدة (معاهدة لندن ١٨٤٠) ، لأنه من المؤكد أن المقصود فى الوريث أن يكون الأقرب من الذكور من نسل آخر باشا توفى وليس لأقرب الذكور لورثة محمد على » (١١١) . كما يبعث بالمرستون الى كاتنج بالملاحظات فى هذا الصدد (١١٢) .

ومما تجدر الاشارة اليه أنه لم تكن هناك خلفية طيبة توثق العلاقة بين الجانب البريطانى وعباس ، فقد كتب عنه بارنت فى خريف عام ١٨٤١ أثناء شغله منصب حاكم القاهرة أنه يأتى بتصرفات فاضحة ومنتظر عزله من وظيفته (١١٣) ، ويعود فى ربيع عام ١٨٤٥ ليصفه بعدم

---

(110) F.O. 78/735, Canning - Palmerston, Therapia, Sept. 14, 1848, No. 109.

(111) F.O. 78/756, F.O. - Murray, F.O., Oct. 28, 1848, No. 24.

ولكن يجب أن يوضع فى الاعتبار أن أحمد بن ابراهيم كان فرنسى المشرّب ، وفى ذلك ما ينفر بريطانيا منه .

(112) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Nov. 3, 1848, No. 162.

(113) F.O. 78/451, Barnett - Aberdeen, Cairo, Oct. 18. 1841, No. 23.

معروف عن عباس أنه كان يتبع طريق الهوى ، وفى الوقت نفسه اتسمت شخصيته بالقسوة والجفاء والعبوس .



الكفاءة<sup>(١١٤)</sup> • ولكن مع الصلابة التي وجدتها بريطانيا في ابراهيم أيقنت أن تحقيق مصالحها يكمن وراء عباس ، خاصة بعد ادراكها لموقفه السلبي من فرنسا بعكس محمد علي و ابراهيم وابنه ، هذا بالاضافة الى ذكاء مري الذي مسك بمفتاح الطريق الموصل اليه ، وبالتالي خضعت تحركاته للرقابة البريطانية ، وكان يتولى في ذلك الوقت رئاسة كل من ديوان القاهرة وادارة الترانزيت<sup>(١١٥)</sup> •

ويبعث مري لوزير الخارجية البريطانية يعلمه أن عباسا غادر مصر الى مكة بعد حصوله على تصريح من الوالى ، ثم يتكلم عن تدهور صحة الأخير ، ويبلغه ألا يتعجب اذا سسمع نبأ وفاته قبل « الباشا العجوز »<sup>(١١٦)</sup> • وأقلت عباس في رحلته باخرة بريطانية ، وقد أتيحت الفرصة للتقرب اليه ، وتولت المهمة شركة الهند الشرقية ، حيث رتبته الأمور لتلبية كافة طلباته من السويس الى جدة<sup>(١١٧)</sup> • ومضى القنصل البريطاني العام يعد الأمور لمواجهة الموقف في حالة وفاة ابراهيم ، فيكتب لحكومته مفيدا بأن قناصل الدول — رغم عزوفهم عن التدخل في شئون مصر الداخلية — سيدعون لعقد مجلس لاتخاذ الاحتياطات لضمان أمن الأوروبيين المقيمين ، وتطبيق مواد الخط الشريف الصادر عام ١٨٤١ فيما يختص بالوراثة في أسرة محمد علي ، ووضع حكم مصر في أيدي عباس مؤقتا • وتقوم الخارجية البريطانية بالرد على مري بشأن ذلك الاقتراح معربة أنه — كما بدا لها — الأفضل في هذه الظروف ، ثم تصرح بأن السلطان صاحب القرار فيمن يتولى حكم باشوية مصر وفقا لفرمان ١٨٤١<sup>(١١٨)</sup> •

---

(114) F.O. 78/623, Barnett - Aberdeen, Alex., April 16, 1845.

(115) F. O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Oct. 4, 1848, No. 44.

(116) Ibid.

(117) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 5, 1848, No. 49.

(118) F.O. 78/756, F.O. - Murray, F.O., Nov. 28, 1848, No. 27.



وبذلك يتضح أن بريطانيا عقدت العزم على تثبيت حق عباس فى الولاية ، فى الوقت الذى تمسكت فيه بالوضع الذى أقره السلطان فى نظام الوراثة حتى لا تعطيه الفرصة للتغيير ، وقد واصل السفير البريطانى فى استنبول اتصالاته بالعديد من رجالات الحكومة العثمانية بهذا الخصوص ، كما نقل له بالمرستون وجهة نظر مري السابقة ورد لندن عليه<sup>(١١٩)</sup> ، حتى تنصب المجهودات فى تيار واحد • وراحت الخارجية البريطانية تتلقى بعض المراسلات ممن وجلت قلوبهم من توقع الاضطرابات فى مصر وتدخل الباب العالى<sup>(١٢٠)</sup> • ويبين هذا مدى الحرص على أبعاد أية تأثيرات مضادة للمصالح البريطانية •

ويوالى مري النشرات الصحية لابراهيم ، ويبحث بمحتوياتها الى بالمرستون معلقا على أن حالته ميئوس منها<sup>(١٢١)</sup> • وفى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ حدث ما كان متوقعا ، فقد فاضت روحه على أثر تسمم معوى ( غنقرة الأمعاء ) بعد عمر بلغ التاسعة والخمسين سنة ، وعلى الفور اجتمع المجلس ونصب عباسا ، وبلغ ليعود بدون تأخير ، وتولى سعيد الحكم مؤقتا لحين عودته ، والتقى مري بأرتين بشأن المحافظة على هدوء البلاد ، وكتب الى وزير الخارجية البريطانية يسجل الأحداث المتوالية ونطقت كلماته بالسعادة<sup>(١٢٢)</sup> •

واستمر فى التعبير عن مشاعره وغبطته من جراء اختفاء ابراهيم

---

(119) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Nov. 28, 1848, No. 184.

(120) F.O. 78/767, Briggs - Palmerston, East Sheen, Nov. 23, 1848, F.O. - Briggs, F.O., Nov. 25, 1848.

ينتمى بريجز الى التجار البريطانيين ، وقد تولى مهمة البضائع المصدرة من مصر لبريطانيا ، ومن ثم أصبحت له علاقات وطيدة ومصالح داخل مصر ، واعتبر كوكيل للوالى فى لندن حيث قام بمهام شراء احتياجاته منها •

(121) F.O. 78/757, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 6, 1848, No. 50.

(122) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 15, 1848, No 51,



من الساحة ، وفى النهاية أعطى تقييما لتلك الشخصية ، فذكر أنه حكم مصر بقوة ، ومن صفاته العناد والقسوة المريعة حيث يظهرهما فى كثير من الأحيان لتأصلهما فى طباعه منذ صباه ، وان كان يخفيهما أحيانا خشية أبيه ، ثم يصف يوم وفاته بأن كل الوجوه — كما رآها — من أكبر باشا الى الفلاح الذليل كانت راضية مطمئنة ، فالجميع أحس بأن عبئا قد انزاح عن كاهله ، ويحل السبب أن ابراهيم استتبط الوسائل التى نفرت جميع الطبقات منه بطمعه ، وبينما استتزف موارد انتاج البلاد لتنمية اجبارية للجيش ، فانه خسر محبة الجنود بخفض مرتباتهم الزهيدة التى يتقاضونها ، ويختتم بقوله انه لو قدر أن يكتب على شاهد قبره « لم يمت أحد مستحقا للدمع » لأفصح ذلك عن الواقع (١٢٣) .

حقيقة أن ذلك الانطباع يحدد الموقف البريطانى فى التعامل على ابراهيم ، لكنه يحمل بين طياته أمرا ملموسا عانت منه مصر . وهكذا تتجلى الرؤية البريطانية تجاه هذه الشخصية ، فبعد أن لمست — فى البداية — أنها السند الذى يعتمد عليه ، تحول الميزان وانقلبت عليها عندما أيقنت محاربتها لمصالحها . وكان نبأ وفاة ابراهيم قد بلغ للنندن عن طريق نائب الأميرال البريطانى من نابولى قبل أن يصلها من الاسكندرية (١٢٤) . وقام كاتنج بمساعيه لدى الباب العالى ، وبعث بنتائجها الى بالمرستون (١٢٥) ، تلك التى أسفرت عن صدور فرمان تولى عباس ولاية مصر قبل انقضاء شهر على وفاة ابراهيم ، وتحققت السياسة البريطانية المرسومة فى هذا المضمار لتواصل مسيرتها وتحقق غايتها مع الحاكم الجديد ، الذى وجد فيها هو الآخر أداة لتنفيذ مآربه، وان كان ذلك قد واجهته بعض الصعوبات لكنها ذلت تدريجيا .

---

Palmerston - Canning, F.O., Dec. 6, 1848, No. 188.

(123) Ibid, Murray - Palmerston, Cairo, Nov. 15, 1848, No. 52.

(124) F.O. 78/732, Palmerston - Canning, F.O., Nov. 28, 1848, No. 184.

(125) Ibid, Palmerston - Canning, F.O., Dec. 6, 1848, No. 188.

شاركه فى تلك المساعى باقى السفراء لدى الباب العالى .



## خاتمة :

مثلت فترة الدراسة مرحلة مفصلية بين ما قبل عام ١٨٤١ وما بعد عام ١٨٤٨ ، ووضحت فيها اتجاهات بريطانيا نحو مصر ، وكيف سعت فى ألا تكون لتلك الباشوية قائمة من ناحية ، وأن تواصل الزحف والتغلغل من أجل الاستحواذ على النقاط لصالحها والاجتهاد فى إبعاد المؤثرات الفرنسية من ناحية أخرى • ولكن رغم التفانى من أجل تحقيق الغرض ، إلا أنها وجدت العقبات ، إذ استمر محمد على فى تعنته ، وسار إبراهيم على دربه وزاد عنه ، وبالتالي فشلت فى النفاذ إليه أو الوقوف أمامه • ولم تثمر هذه المرحلة للصالح البريطانى ، ومع ذلك بدا فيها شغف بريطانيا ورغبتها الملحة فى الاستئثار بمصر ، كما أنها مهدت الطريق للمرحلة التى أعقبتها بعد أن وقع الاختيار على خلافة عباس الأول للحكم وتسلمه الولاية ، وقد استغلت نفوره من فرنسا وضغطت عليه ، ومع أنه لم يستسلم لها فى البداية ، لكنه سرعان ما احتاج إليها لتقف بجواره أثناء أزمة التنظيمات العثمانية ، وبالتالي أيقن أن مصلحته مرتبطة بها للمحافظة على حقوقه لدى استتبول ، وللحصول على المزيد منها • هذا وقام قنصلها العام فى مصر بدوره الايجابى فى التقرب منه ، وأسفرت النتيجة عن تحقيق توغلها من خلال مشروع السكة الحديد ، أيضا أمكنها استبعاد المشروع الفرنسى الخاص بقناة السويس •

وأصبح لبريطانيا سند تتكىء عليه ، ومع هذا فشلت فى الوقوف أمام المشروع الفرنسى إذ وافق عليه سعيد الذى التجأ للقروض الفرنسية ، ومن ثم سعت لدى الباب العالى لعرقلة التقدم الفرنسى ، مما ألجأ والى مصر الى امتصاص غضبها وتليين سياستها ، وذلك بالحصول منها على قرض مالى وإنشاء بنك مصر « الانجليزى » ومنحها امتياز شركة سكة حديد الرمل بالاسكندرية مقابل تغاضيها عن مشروع



القناة • ولم تكن تسعد بهذا التعويض ، حيث اعتبرت الوجود الفرنسي هو المعرقل لمصالحها ، وعليه قررت توطيد نفوذها في مصر توطئة لخلاصها لها ، واعتمدت على الامتيازات الأجنبية من ناحية ، وقضية الديون من ناحية أخرى ، هذا بالإضافة الى الأدوات التي استغلتها وتمثلت في ضخامة رؤوس أموالها المستخدمة في مصر اذ كثرت شركاتها التي تخدم استراتيجيتها على المدى الطويل ، وتعددت بنوكها ، وارتفع عدد رعاياها والتحق الكثير منهم بأهم الوظائف •

وواتت بريطانيا الفرصة مع اسماعيل بعد تحوله عن فرنسا عقب هزيمتها في الحرب السبعينية ، فأعقدت عليه القروض ، وباع لها أسهم مصر في قناة السويس — ارتبطت مصالحها ارتباطا وثيقا بها — والتجأ اليها لتعينه على تخطي الصعوبات المالية ، فأرسلت بعثة كيف Cave لتسجل التطبيق العملي للتدخل البريطاني في شئون مصر ، وشاركت في صندوق الدين • ولما لم تكن لترضى بالمساواة في النفوذ مع الدول الأوروبية ، مارست ضغطها ، ونتج عنه تشكيل لجنة مثل فيها جوشن Goshen الدائنين الانجليز وجوبير Joubert الدائنين الفرنسيين ، تمخض عنها انشاء المراقبة الثنائية ، وما لبث الأمر أن تحول الاشراف المالي الى تدخل سياسى سافر بتشكيل الوزارة التي دخلها وزير انجليزى وآخر فرنسى •

ومما يلفت النظر هذه المشاركة الفرنسية التي سلمت بها بريطانيا ، وكيف أنها لم تقصها وفقا لمنهجها • الواقع أن ظروف مصر تحولت سريعا للمصالح الأجنبية ، وأخضعها حكامها للمؤثرات الأوروبية قاطبة ، تلك التي أصبحت مرتعا لها ، مما سبب تبرا لبريطانيا ووجدت أنها بائتلافها مع فرنسا يمكنها الحد من الدولية بل وربما التخلص منها ، وفى الوقت المناسب تستبعد حليفها ، وخاصة أنه فى هذه الفترة ، بالإضافة الى الثقل الذى تمتعت به فى مصر وما امتلكته من قوة بفضل الرقابة التي أمسكت بها ، فان مكانتها خارج مصر قد ارتفعت بتنازل الدولة العثمانية



لها عن قبرص ، وبنتائج مؤتمر برلين الذى أوجد الوفاق بينها وبين فرنسا • ومن هذا المنطلق كان التعاون بينهما لتحقيق المصلحة المتبادلة — شملت تونس ومصر — بعد أن وضحت معالمها وتحددت ، ومضت الجهود لخراجها الى حيز الوجود •

وواصلت الدولتان طريقهما ، وعندما أراد اسماعيل أن يلعب لعبته باستغلال الحركة الوطنية ضد نفوذهما ، سعتا لدى الباب العالى فعزله ، وولى مكانه توفيق الذى خضع لسيطرة ممثليهما حتى قامت الثورة العرابية ، فوجدت فيها بريطانيا الفرصة المواتية التى تنتظرها منذ أكثر من تسعين عاما ، فاستخدمت أساليبها سواء فى باريس أو استنبول أو القاهرة ، ونجحت فى هزيمتها وحققت مرادها واحتلت مصر عام ١٨٨٢ لتبدأ مرحلة جديدة لها قواعدها المرسومة •



## مصادر الدراسة

- Public Record Office, Kew, Surrey, England. F. O. 78, Turkey.
- Vol. 451 (1841), Consuls Colonel G. Lloyd Hedges, Lieut — Col. C. J. Barnett, Diplomatic & Consular.
- Vol. 541 (1843), Egypt : Lieut — Col. Barnett, Diplomatic.
- Vol. 582 (1844), Egypt : Consul general, Diplomatic, Colonel Barnett, Stoddart.
- Vol. 623 (1845), Egypt : Lieut — Col. Barnett, Diplomatic.
- Vol. 661 B (1846), Egypt : Consuls at Alex. Barnett, Stoddart, Diplomatic.
- Vol. 662 (1846), Egypt : Consuls at Alex. Mr Murray Diplomatic.
- Vol. 706 (1847), Egypt : To Mr. Murray Diplomatic.
- Vol. 707 (1847), Jan. — June, Egypt : From Mr. Murray Diplomatic.
- Vol. 708 (1847), July — Dec., Egypt : From Mr. Murray Diplomatic.
- Vol. 731 (1848), Feb. — Aug., Sir S. Canning, Drafts.
- Vol. 732 (1848), Sept. — Dec., Sir S. Canning, Drafts.
- Vol. 734 (1848), Aug., Sir S. Canning.
- Vol. 735 (1848), Sept., Sir S. Canning.
- Vol. 736 (1848), Oct., Nov., Sir S. Canning.
- Vol. 756 (1843), Egypt : Consul general Murray, Diplomatic.
- Vol. 757 ( 1848 ), Egypt : Consul general Murray Diplomatic Drafts.
- Vol. 759 ( 1848 ), Consuls Chasseaud Gibbert, walne, Surer, Maltass, Egypt, Dr. Farquhar, Reverend E winder, Foreigns Various Consular Demostic.
- Vol. 765 (1848), Jan. — March, Damestic Various.
- Vol. 766 (1848), April — Aug., Domestic Various.
- Vol. 767 (1848), Sept. — Dec., Domestic Various.



## قاعدة الظهران الجوية الأمريكية

١٩٤٢ — ١٩٤٥

د. نجاة عبد القادر الجاسم

نظرا لأهمية العلاقات السعودية الأمريكية المعاصرة فاننا نجد لزاما علينا أن نقوم بمحاولة تسليط الضوء على جانب من هذه العلاقات الا وهو الجانب العسكرى خلال الفترة ١٩٤٢ — ١٩٤٥ وبالتحديد التركيز على دراسة ملابسات اتفاقية انشاء قاعدة جوية عسكرية أمريكية فى الظهران فى المملكة العربية السعودية ، وذلك من خلال ما تطرحه الوثائق الأمريكية ، أن دراسة الوثائق السعودية تجعل تسليط الضوء على البحث بشكل متوازن ، الا أنه لتعذر الحصول على هذه الوثائق حاليا فقد اعتمدنا على الوثائق الأمريكية التى لا تقل أهمية عن الوثائق السعودية (١) .

كانت الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الحالى من أصعب فترات حكم ابن سعود ، فقد كان يتطلع الى بناء وتطوير دولته وتوفير الأمن

---

(١) أنظر دراستنا بعنوان « التمثيل الدبلوماسى والقنصلى الأمريكى فى المملكة العربية السعودية ١٩٣٦ — ١٩٤٤ » — مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية — جامعة الكويت ، العدد التاسع والثلاثون — السنة العاشرة شوال ١٤٠٤ — يوليو ١٩٨٤ . والدراسة الثانية — القضايا التى ناقشها الأمير فيصل آل سعود مع المسؤولين فى الحكومة الأمريكية أثناء زيارته للولايات المتحدة أواخر سبتمبر ١٩٤٣ — مجلة الخليج العربى — مركز دراسات الخليج العربى — جامعة البصرة المجلد السادس عشر العدد ٣ — ٤ ، ١٩٨٤ .



الداخلي والخارجي لها • هذا من جهة وإذا التفتنا من جهة أخرى الى موقفه المالى فسنجد أنه يعاني من أزمة مالية ، فقد كان لاندلاع الحرب العالمية الثانية أثر سىء على الأوضاع الاقتصادية فى السعودية فقد انقطع مورد الدخل الذى كان يحصل عليه من موسم الحج ، كما أن عمليات التنقيب عن البترول فى بلاده قد توقفت ، فكانت السعودية بحاجة الى مساعدات خارجية فنية واقتصادية ومالية وعسكرية ، ومن الثابت أن الملك ابن سعود لم يكن يرغب فى الاعتماد على — بريطانيا — حليفة الهاشميين الذين لم تكن علاقتهم به على ما يرام فى ذلك الوقت •

أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية فقد شكل النفط العامل الأساسى الذى ضاعف من أهمية السعودية بالنسبة للمصالح الأمريكية ، فإذا أضفنا الى ذلك الأهمية الاستراتيجية التى تحظى بها المملكة العربية السعودية بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية خصوصاً بعد دخولها الحرب العالمية الثانية رسمياً فى ديسمبر ١٩٤١ ، وإذا اقتربنا من الخمسينات فسنجد ثمة اعتبار حيوى أسبق على هذه العلاقات أهمية أكبر الا وهو العداء المشترك للشيوعية •

اذن نستطيع اجمالاً أن نقول أن العلاقات بين الدولتين قد تأثرت الى حد بعيد بكثير من العوامل والظروف الخاصة بكل منهما ، وانطلاقاً من جميع تلك الاعتبارات احتضنت الولايات المتحدة الأمريكية فكرة توفير المساعدات للسعودية وكان ذلك — منذ تصريح الرئيس الأمريكى « روزفلت »<sup>(٢)</sup> فى فبراير ١٩٤٣ — الذى اعتبر الدفاع عن السعودية

---

(٢) كان الرئيس روزفلت قد أعلن أنه ينوى مضاعفة الاهتمام بالعالم عامة والقارة الأمريكية خاصة ولا يعنى ذلك تقديم المساعدات لصالح هذه الدول ولكن الهدف هو نشر الوجود الأمريكى هناك •

د. صلاح العقاد • الحرب العالمية الثانية ١٩٦٣ — القاهرة ، ص



حيوى للدفاع عن الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد أصبح من السهل اعتبار السعودية ضمن قائمة الدول التى يحق لها الحصول على المساعدات الأمريكية بموجب برنامج الاعارة والتأجير مباشرة • وقد كان هذا البرنامج يقدم المساعدات الى الحلفاء •

وفى ضوء هذه المعلومات نتعرف على أسباب نمو العلاقات السعودية الأمريكية ، فهذه الظروف والعوامل هى بالتأكيد الأكثر أهمية من غيرها فى التأثير على هذه العلاقات ، كما كان لها دورها فى تطلع الولايات المتحدة الأمريكية الى الحصول على موافقة المملكة العربية السعودية على منحها حق اقامة قاعدة جوية فى أراضيها ونعنى بها قاعدة الظهران •

### قاعدة الظهران (٣) :

عندما نشبت الحرب العالمية الثانية كان الوطن العربى يخضع لنفوذ الحلفاء ، وكانت السعودية بالطبع متأثرة بالوجود والنفوذ البريطانى فى منطقة الخليج العربى وان لم تكن خاضعة للاحتلال البريطانى ولكنها تسلم بالتفوق البريطانى فى المنطقة وكانت تربطها ببريطانيا علاقات صداقة بموجب عدة اتفاقيات كما كانت بريطانيا تقدم المساعدات الى السعودية منذ ١٩١٧ ثم توقفت وعادت بعد ذلك خاصة فى الأربعينات على شكل قروض كانت بريطانيا تحصل عليها من الولايات المتحدة الأمريكية وبتشجيع منها ، خاصة وان امتياز التنقيب عن البترول فى السعودية حصلت عليه شركة أمريكية منذ مايو ١٩٣٣ كما أن السعودية كانت قد منحت الولايات المتحدة بعض التسهيلات الجوية فى الطيران فوق بعض الأماكن غير المأهولة من الأراضى السعودية ، ولكن كان رأى وزارة الخارجية الامريكية فى سنة ١٩٤٣ أن

---

(٣) تتناول الوثائق الأمريكية هذا الموضوع تارة باسم مطار حربى فى الظهران ، وتارة أخرى باسم قاعدة الظهران •



الجيش الأمريكى سيجتاح فى أى وقت الى تسهيلات جوية أكبر من تلك التى حصل عليها بالفعل ، ولذلك فانه ينبغى على الولايات المتحدة أن تقدم للسعودية مساعدات مباشرة لتدعيم العلاقات معها من أجل الحصول على تسهيلات جوية فى المستقبل ، ثم ان ابن سعود يتمتع بمكانة كبيرة فى العالم الاسلامى<sup>(٤)</sup> فهو حامى الأماكن المقدسة ، ومن هنا تأتى أيضا أهمية توثيق العلاقات به •

اذن ظهر أن هناك اتجاها قويا فى الادارة الأمريكية يرى ضرورة التوسع فى تقديم المساعدات لسعودية ، من خلال ميزانية تكفى لتغطية احتياجاتها ، وقد ازداد هذا الاتجاه قوة منذ عام ١٩٤٢ حين أصبحت الحاجة ماسة الى اقامة قاعدة جوية فى السعودية وذلك لتأمين أفضل وسيلة فى حالة الحاجة الى التسهيلات الجوية ، وكذلك لتأمين السيطرة على نفط المنطقة وللحصول على الموارد النفطية الهائلة التى تتوافر فى المملكة العربية السعودية • فضلا عما اكتسبه الخليج العربى من أهمية كبيرة أثناء الحرب العالمية الثانية لتسهيله ارسال الامدادات العسكرية الأمريكية الى الاتحاد السوفيتى<sup>(٥)</sup> ولكى يحصل الأمريكيون على القاعدة المذكورة كان من رأى وزير الخارجية الأمريكية التفاوض مع السعودية بشأنها عن طرق بريطانيا طالما أن السعودية تقع ضمن دائرة النفوذ البريطانى العسكرى •

---

(4) U. S. Department of State Foreign Relations of the States-Diplomatic papers 1943-vol. IV.

The Assistant sec. of State to the lend lease Administrator 9-Jan-1943.

(٥) د. مصطفى عبد القادر النجار . تاريخ الخليج العربى المعاصر . القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٨٨ •



وفى ضوء ما تقدم طلب وزير الخارجية الأمريكية من الوزير المفوض فى القاهرة Kirk « كيرك » سرعة التوجه الى السعودية لتقديم أوراق اعتماده كوزير مفوض غير مقيم<sup>(٦)</sup> ، وطلب منه دراسة مدى امكانية انشاء قواعد عسكرية فى السعودية ، وترك له حرية عرض الموضوع على ابن سعود أو غيره فى هذه المرحلة ، ولكنه أوضح له أنه بسبب حساسية الموضوع من الممكن استشارة رئيس البعثة الزراعية وغيره من الأمريكيين الذين لديهم معرفة وخبرة طويلة بالسعودية والمسئولين هناك<sup>(٧)</sup> . ثم جرت عدة مراسلات بين وزير الخارجية الأمريكية والوزير المفوض بالقاهرة حول هذا الخصوص ، وفى ابريل ١٩٤٢ طلب من الوزير المفوض التعاون مع السلطات المختصة فى الجيش الأمريكى ، ومع الأشخاص من ذوى الكفاءة حسب تقدير « كيرك » وكما أنه وبسبب تقاسم جهود الحرب مع بريطانيا فعليه الاستعانة برؤساء الأركان البريطانيين تمهيدا لاجراء المفاوضات مع الحكومة السعودية ، وأبدى وزير الخارجية اقتناعه بأهمية ربط موضوع القاعدة بالمساعدات المالية والاقتصادية التى كان من المزمع أن تقدمها الحكومة الأمريكية للسعودية<sup>(٨)</sup> .

ومن الواضح أن الدخول فى مباحثات مع الملك ابن سعود بشأن

---

(٦) تم افتتاح المفوضية الأمريكية فى جدة فى أول مايو ١٩٤٢ ، وكان جيمس موسى هو أول ممثل دبلوماسى أمريكى مقيم فى السعودية بدرجة قائم بالأعمال .

حول العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين أنظر دراستنا سبق الإشارة إليها .

(7) U.S. Department of State - papers Relating to the Foreign Relations of the United States 1942-vol IV.

The Sec. of state to the Minister in Arabia Kirk 26-Feb. 1942.

(8) U. S. Department Foreign Relations 1942-vol. IV.

The Sec of State welles to Kirk - Wash - April - 1942.



القاعدة لم يكن من الأمور البسيطة ، وقد تمثلت أولى المبادرات الأمريكية بهذا الشأن عندما بدأ الوزير المفوض مناقشة موضوع الحصول على تسهيلات جوية أمريكية مع وزير المالية السعودي بطريق غير مباشر ولمعرفة ما اذا كان لديه ميل أو استعداد لمناقشة هذا الموضوع أم لا . ولكن الطريف أن الوزير المفوض فوجيء بموقف وزير المالية الذى قال : « ليس هناك أى اعتراض لطيران أمريكى فى الأجواء السعودية أو حتى انشاء قواعد جوية على الساحل فى الجنوب على خط مباشر من الخرطوم الى البحرين والشمال حيث تختصر الطريق الى العراق وايران والهند » ولكن فضل الوزير الأمريكى كيرك عدم الدخول فى مناقشات تفصيلية حول هذا الموضوع بسبب عدم تسلمه التعليمات الخاصة بهذا الأمر بعد ، ولكنه أكد على أن سرعة النقل بالطائرات ستمكن من ضرب قوات المحور ، هذا وقد كانت شركة البترول الأمريكية قد طلبت من ابن سعود السماح لها بالقيام بطيران تجريبى فى الأجواء السعودية<sup>(٩)</sup> ، كما أن الوزير البريطانى فى جدة كان قد ناقش هو الآخر هذا الموضوع وأيضا موضوع القواعد الجوية مع وزير المالية السعودى . اذن نلاحظ أن استجابات زير المالية السعودى كانت قوية ، وعلى هذا الأساس كان لابد من المضى فى هذه المشاورات والمفاتحات وذلك بالتنسيق بين السلطات الأمريكية والسلطات البريطانية ، فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية حتى ذلك الوقت تسلم بالتفوق البريطانى فى هذه المنطقة ، استمرت المساعي الرامية الى الحصول على التسهيلات الجوية المطلوبة ،

---

(٩) فى ابريل ١٩٤٢ طلبت شركة البترول الأمريكية من الحكومة الأمريكية حماية المنشآت النفطية فى الظهران ، وبعد الحصول على موافقة ابن سعود والحكومة البريطانية اتفق على ارسال « وحدة عسكرية تتكون من ١٠٠ شخص مع معداتهم » الى الظهران .

د. خليل مراد : تطور السياسة الأمريكية فى منطقة الخليج العربى ( ١٩٤١ — ١٩٤٧ ) . بغداد ١٩٧٩ — ١٩٨٠ . ص ٨٤ — ٨٥ .



فقد ناقش الوزير الأمريكى « كيرك » الموضوع مع الوزير البريطانى المفوض فى جدة (Bird) بيرد الذى كان رأيه أن موقف الوزير السعودى فاق كل الملاحظات والمواقف السابقة بهذا الصدد والتى جاءت بناء على مباحثات سابقة معه أجراها الوزير البريطانى ، وان ذلك دلالة قوية على التقدم الذى طرأ على وجهة النظر السعودية ، ولذلك فان الأمر يستدعى عقد اجتماع مع الملك ابن سعود ، ومن واقع هذا التطور اقترح « كيرك » الخطوة التالية والتى تتلخص فى أن تحدد الحكومة الأمريكية وكذلك الحكومة البريطانية مواقفهما ووجهات نظرهما بالنسبة للخدمات الجوية فى السعودية وبعد ذلك يحدد ما اذا كان الأمر يحتاج الى مزيد من المفاوضات مع الحكومة السعودية للتأكد من موقفها الايجابى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد طلب الوزير المفوض من الخارجية الأمريكية أن تبين موقفها من المفاوضات فهل تتم مفاوضات مشتركة — بريطانية — أمريكية أم تتفاوض الحكومة الأمريكية مع السلطات السعودية على أساس أن المشروع أمريكى فقط<sup>(١٠)</sup> .

فى أعقاب هذه المذكرة أرسل وزير الخارجية الامريكية هل (Hull) رسالة الى الوزير كيرك أوضح فيها أن وزارة الحربية تريد الحصول على طرق جوية مفتوحة فى السعودية من الخرطوم الى البحرين ومن الخرطوم الى البصرة بدون قيود ، بالإضافة الى أراضى للمهبوط الاضطرارى ، وأذله لا مانع من مفاتحة ابن سعود بهذا الموضوع طالما أنه سيقدم له عرض على شكل مساعدة مالية أو اقتصادية وما دام مقتنعا بأن بلده ستكون بذلك بعيدة عن هجوم دول المحور<sup>(١١)</sup> . غارسل كيرك الى وزير الخارجية الأمريكية فى ١٤ يوليو ١٩٤٢ الملاحظات التى أرسلها القائم بالأعمال فى جدة « جيمس موسى » James S. Moosa

---

(10) U.S. Department - Foreign Relations 1942 - Vol. IV  
The Minister in Egypt « Kirk » to the sec. of State - Cairo 19 - May - 1942.

(11) The Sec. of State to the Minister in Egypt ( Kirk ).



الذى كان يرى أنه لابد من الحصول على موافقة السلطات السعودية لإنشاء الطرق الجوية المباشرة أما تأمين المطارات فسيكون أكثر صعوبة ولكنه يأمل فى أن يحصل على الموافقة كما أوضح أنه من المحتمل أن يفرض الملك ابن سعود شروطه والتي قد تكون طلب حماية • وأضاف أن الحكومة البريطانية تعطى السعودية اعانة مالية قدرها ثلاثة ملايين جنيه استرلينى ، فى الوقت نفسه فان شركة البترول العربية الكاليفورنية قالت انها لن تقدم مساعدات للسعودية ومن رأيه أن يكون أساس بدء المفاوضات تقديم اعانة مالية لأنه اذا استمرت المساعدة البريطانية على هذا المستوى فسيظهر عجز حوالى ٧٥٠ ألف جنيه فى ميزانية السعودية • وبذلك تستطيع الحكومة البريطانية أن تعوض كل هذا العجز أو جزء منه اذا طلب منها • ويكون فى شكل سلع مطلوبة أو قطع فضية وستكون محاولة أخيرة ، واقترح موسى أن تكون المفاوضات حول هذا الموضوع مع وزير المالية عبد الله السليمان • ولكن كان رأى كيرك أن ترتبط المطالب السعودية بالقواعد الجوية وليس بالسماح بإنشاء الطرق المباشرة فى الأراضي السعودية (١٢) •

وفى ١٨ يوليو ١٩٤٢ طلب وزير الخارجية الأمريكية من الوزير المفوض الأمريكى فى مصر « كيرك » والذي هو فى نفس الوقت وزير غير مقيم فى السعودية ، وطلب منه ابلاغ القائم بأعمال السفارة الأمريكية فى جدة أن يفتح الحكومة السعودية فى الأمر (١٣) • اذن قوة الاستجابات التى بدرت من وزير المالية السعودى مهدت الطريق للبدء بمناقشة الموضوع مع الحكومة السعودية وخاصة مع ابن سعود نفسه ، فقد حدثت بعض التطورات المشجعة من جانب ابن سعود نفسه بشأن

---

(21) U.S. Department. Foreign Relations 1942 Vol. Iv. The Minister in Egypt to the sec. of State. 14 July 1942.

(13) The sec. of State to The Minister in Egypt. 8 July 1942.



التسهيلات الجوية ، فمن خلال حوال دار بينه وبين الوزير البريطاني فى جدة ظهر أنه لا يمانع فى منح بريطانيا تسهيلات بالطرق المباشرة من الخرطوم الى البحرين ومن الخرطوم الى البصرة مروراً بالأراضى السعودية • وأنه لن يعارض رغبة الولايات المتحدة فى الاستفادة من هذه التسهيلات ، وهكذا تأكدت الدلائل التى تشير الى احتمال موافقة السعودية على التسهيلات الجوية ، مما دفع القائم بالأعمال الأمريكى والسفير البريطانى فى جدة الى اجراء مشاورات بينهما ، وكان رأى السفير البريطانى أنه أصبح من الممكن الحصول على موافقة السعودية على تسهيلات الطرق الجوية أولاً ، وبالإضافة الى ما سبق أن وزير المالية السعودى كان قد أكد موقف الملك ، وطلب منهما التقدم بطلب شفوى مشترك بخصوص الطرق الجوية ، ونصحهما بتأجيل أى طلبات أخرى لمدة أسبوع لكى يتمكن من الوصول الى الرياض ومناقشة الملك ابن سعود بذلك ، واقترح أيضاً عدم الإشارة الى موضوع مطارات الهبوط والقواعد الجوية فى الطلب الأول الذى سيقدم للملك<sup>(١٤)</sup> • ومن واقع هذه التطورات الجديدة فقد تقدم السفير البريطانى والقائم بالأعمال الأمريكى شفويا بطلب مشترك فى أوائل شهر أغسطس ١٩٤٢ (١٥) •

وعند نهاية أغسطس تم استلام موافقة الملك ابن سعود بواسطة القائم بأعمال وزير الخارجية يوسف ياسين ، على الطرق الجوية عبر

---

(14) The Minister in Egypt « Kirk » to the sec. of State 31 - July. 1942.

(15) U.S. Department. Foreign Relations 1942 vol. IV. The Charge in Saudi Arabia (Moose) to the sec. of state 12 - Aug - 1942.



السعودية • هذا ومما يجدر ذكره ان ابن سعود أوضح للسلطات البريطانية والأمريكية انه يعاملهم بنفس المعاملة (١٦) •

بيد أن هذه التسهيلات لم تكن تغنى عن الحاجة الى انشاء القاعدة العسكرية فى الأراضى السعودية من وجهة نظر السلطات الامريكية التى استقر رأيها فى يوليو ١٩٤٤ على اختيار الظهران وذلك فى أعقاب زيارة الى السعودية قام بها القائد العام للقوات الأمريكية فى الشرق الأوسط مع عدد من العسكريين فكان اختيار الظهران على الساحل الغربى من الخليج العربى لقربها من آبار النفط وبالتالى يتوفر لها الوقود وتوفر الحماية لهذه الآبار (١٧) بالإضافة الى اعتبارات أخرى سبقت الإشارة اليها والتى دعمت بناء قاعدة فى الأراضى السعودية •

وفى تطور آخر ومن أجل اعطاء العلاقات السعودية الامريكية بعدا آخر فقد وجدت الادارة الامريكية أنه من الضرورى ارسال بعثة عسكرية الى السعودية مهمتها القيام باصلاح الطرق والعمل فى بعض مشاريع التدريب • كما أنها أنشأت لها قنصلية فى الظهران فى ١٩٤٤ ، وأمدت السعودية بأسلحة بناء على طلبها فى نفس العام ، فالحقيقة أن ضرورات دعم الأمن القومى الأمريكى كانت تتطلب توثيق العلاقات مع السعودية وذلك بالاستمرار فى تقديم المساعدات المتنوعة لها •

ومن هنا فان وجود بعثات عسكرية أمريكية فى السعودية يعد أحد دعائم نمو وتطور هذه العلاقات ، وانطلاقا من هذا الاعتبار فقد أبلغت وزارة الخارجية الأمريكية الوزير الأمريكى المفوض فى السعودية « ايدى » Eddy فى ٦ مارس ١٩٤٥ أن الكولونيل نورس أوكونور سيصل الى جده للتداول معه بشأن خطط ارسال بعثة عسكرية الى

---

(16) The Charge in Saudi Arabia (Moose) to the sec. of state  
29 - Aug - 1942.

(١٧) د. خليل مراد . المرجع السابق ص ١٦٩ — ١٧٠ •



السعودية تقوم بمهمة اصلاح الطرق ومشروعات تدريب المرشدين وفي أعقاب هذه المشاورات عليه أن يرسل توصياته وبعد ذلك ستصله تعليمات وزارة الخارجية الأمريكية بهذا الصدد لكي يبدأ المباحثات مع الحكومة السعودية بمساعدة الكولونيل أوكونور . ولكن طلبت منه عدم ذكر موضوع خطة البعثة العسكرية لابن سعود (١٨) .

هذا فيما يختص بالبعثات العسكرية ، أما فيما يتعلق بمشروع القاعدة العسكرية فقد جرى بحثه في واشنطن ، ولكن تجدر الإشارة هنا أن هذه التطورات خاصة تلك المتعلقة بإنشاء القاعدة لم تحدث جميعها من غير معارضة بريطانية فقد جرت عدة اتصالات كما ذكرنا في الصفحات السابقة بين السلطات البريطانية والسلطات الأمريكية وعلى الرغم من محاولات التنسيق بينهما فقد عارضت بريطانيا إنشاء القاعدة الجوية العسكرية الأمريكية في السعودية ، ولكن في أثناء ذلك الوقت وبينما تجرى المباحثات بين الحكومتين البريطانية والأمريكية حرصت الأخيرة على العمل بجدية نحو وضع خطط المساعدة المالية للسعودية ، وكانت قد أشارت إلى السلطات السعودية بواسطة وزيرها المفوض بأنها تأمل أن لا يلتزم ابن سعود بأي تعهدات لا تتماشى مع مد المساعدة الأمريكية (١٩) ، ونقصد هنا تعهدات مع بريطانيا (٢٠) فقد كانت المنافسة البريطانية الأمريكية في

---

(18) U.S. Department of State Foreign. Relations of the united States - Diplomatic papers 1945. vol. VIII.

The Acting secretary of State to the Minister in S. Arabia ( Eddy ) Wash. 6 - March - 1945.

(19) Ibid.

(٢٠) جاء ضمن بحث للدكتور نوري السامرائي بعنوان « الأهداف الخفية للولايات المتحدة من وراء دخولها الحرب العالمية الثانية » - ان صحيفة آسيا الأمريكية كتبت في سنة ١٩٤٣ تقول « هبطت سمعة بريطانيا لدى شعوب الشرق الأوسط بصورة لم يسبق لها مثيل ولم يعد في وسع الولايات المتحدة ان تسمح ببقاء السيطرة على شئون هذا الشرق في أيدي البريطانيين وعلينا ان لا ننسى ان الشرق هو خير جسر لوصول الى أوربا » . مجلة كلية الآداب - جامعة البصرة - العدد ٩ - السنة السابعة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .



ذلك الوقت ملموسة فالحكومة البريطانية كانت حريصة على امداد السعودية باحتياجاتها لكي تحول بينهما وبين اللجوء الى الولايات المتحدة الامريكية التي تمكنت من التأثير في النفوذ البريطاني ليس في السعودية فقط بل في منطقة الخليج العربي بشكل عام ، فقد كانت بريطانيا كما ذكرنا في مقدمة البحث تحصل على قروض أمريكية ، ولذلك نجد الرئيس الأمريكي ترومان في عام ١٩٤٧ يعلن أن الولايات المتحدة ترى أنه ليس بإمكان بريطانيا الاستمرار في تحمل التكاليف العسكرية الباهظة في الشرق الأوسط ولذلك لابد أن تحل أمريكا محلها (٢١) •

والحقيقة أن هذه السياسة الأمريكية بدأت منذ الثلاثينات حين حصلت شركات أمريكية على تراخيص البترول في السعودية وغيرها من بلدان الخليج العربي • وهكذا فإن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد تقبل الاعتراف بأن السعودية بل منطقة الخليج العربي عموما منطقة نفوذ بريطانية وعملت على تعزيز مركزها وتأكيد نفوذها هناك • وظهرت في الأربعينات بعض دلائل التوتر بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ، ومن الواضح أنه لكي يتم تنفيذ مشروع اقامة القاعدة الجوية لابد من التغلب على المعارضة البريطانية أولا • خصوصا وان الادارة الأمريكية كانت تميل الى الاستمرار في الاجراءات المطلوبة لاقامة القاعدة ، وفي فبراير ١٩٤٥ وأثناء اللقاء الذي تم بين الملك ابن سعود والرئيس روزفلت على ظهر الطراد الأمريكي « كودينسي » عبر الرئيس الأمريكي عن رغبة القيادة الأمريكية العليا في الخليج العربي في استخدام ساحل الاحساء وموانئه لايواء القوافل البحرية الأمريكية وتموينها بالوقود ، ورغبتها في اقامة قاعدة جوية كبيرة في تلك الجهات ، ويبدو أن ابن سعود الذي ناقش الرئيس روزفلت في عدة قضايا من بينها قضية فلسطين ، قد أبدى استعدادا للتفاهم حول هذا الموضوع

---

(٢١) الدكتور محمد العيدروسي — العلاقات العربية الايرانية ١٩٢١ —  
١٩٧١ ذات السلاسل ، الكويت ١٩٨٥ ص ٤٩٤ •



وأظهر موافقة مبدئية (٢٢) • وهكذا نلاحظ أن ابن سعود فى هذه المرحلة من علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية لم يتردد عن اعلان صداقته ولم يحد عنها •

على أى حال فإن المشاورات بشأن القاعدة الجوية كانت قد بدأت قبل لقاء الرئيس الأمريكى والملك السعودى كما أشرنا من قبل ودخلت مرحلة جديدة فى مارس ١٩٤٥ حين أرسل الوزير الأمريكى المفوض توصياته بعد التشاور مع الكولونيل أوكونور ، والتي جاءت على النحو التالى :

١ - يجب على رؤساء الأركان المشتركين أن يضمنوا موافقة بريطانيا على اقامة مطار أمريكى فى الظهران قبل بدء المفاوضات مع الحكومة السعودية بشأن مشروعات البعثة العسكرية • فالمطار هو الاهتمام الأساسى لجيش الولايات المتحدة • وبالنسبة له تعتبر كل مشروعات البعثة فروع • وأن الحكومة السعودية قد أبلغته ويعتقد أنها أيضا أبلغت بريطانيا أنهم ينتظرون موافقة الحلفاء الرئيسيين لهذا الاجراء الحربى •

٢ - مع أن أى التزام أمريكى بتقديم المساعدة الاقتصادية والمالية سيقوى من مركز الولايات المتحدة فان المفاوضات بشأن البعثة العسكرية يجب أن تتم فى الرياض بعد موافقة بريطانيا على المطار مباشرة • أما الجزء الثانى من توصيات الوزير الأمريكى فى جدة فهو المتعلقة بالمفاوضات مع الحكومة السعودية والتي تنص على أن تقدم الولايات المتحدة للسعودية العروض التالية :

١ - تحسين الطريق بين الظهران والرياض على أن يتم حالا

---

(٢٢) بنو ميثان - عبد العزيز آل سعود • سيرة بطل ومولد مملكة ، نقله الى العربية عبد الفتاح ياسين ، دار الكاتب العربى - بيروت ١٩٦٥ ص ٢٥٣ - ٢٦١ •



وبعد اتمامه تقوم الولايات المتحدة بتحسين الطريق من الرياض الى جدة • فالملك ابن سعود يريد اصلاح كل الطرق ليصل الرياض فهو يعتبر هذا المشروع يدخل ضمن التصريح بأعمال المسح الفوتوغرافى الفسيح الذى قام به جيش الولايات المتحدة • خاصة وان البريطانيين لم يقوموا بعمل تحسينات للطرق وانهم لا يفكرون فى ذلك •

٢ — تدريب المرشدين والبحارة السعوديين مع عرض بتسليم الحكومة السعودية طائرات ومعدات ومطار للتدريب بعد الانتهاء من نشاط البعثة فى التدريب الجوى •

٣ — تمد البعثة الطبية العسكرية الأمريكية المسئولة عن الأفراد الأمريكيين خدماتها الصحية فى الأماكن المجاورة وستساعد فى اقامة خدمات طبية للجيش السعودى •

٣ — وأوصى كذلك بتدريب الضابط المشرف على أجهزة الملاحة واعطاء الاشارات والتموين والامدادات فى الجيش السعودى وكتيبة المدفعية والاشارة والمساعدة فى اقامة خدمة امداد وصيانة معدات وخدمات فنية ، وبين أن عروض المساعدة هذه ستقوم بها بعثة عسكرية أمريكية واحدة مقرها المنطقة العسكرية لجيش الولايات المتحدة الأمريكية فى الظهران ، أما عدد أفراد البعثة فستحدده الادارة الحربية ويعتمد هذا التحديد على مجال المشروعات المتفق عليها •

### الشروط الأمريكية :

ومقابل هذه العروض تطلب الولايات المتحدة الأمريكية من السعودية ما يلى :

١ — عقد اتفاقية لاقامة مطار حربي من الدرجة الأولى للولايات المتحدة الأمريكية فى الظهران بكل التسهيلات بما فى ذلك حق استئجار طويل المدى وحقوق تجارية لما بعد الحرب •



٢ - أبرام اتفاقية لاقامة بعثة عسكرية أمريكية لتنسيق مشروعات المطار والمشروعات الحربية الأخرى • وهذه البعثة فقط من أجل المشورة والمساعدة العسكرية وسيطلب وجود البعثة الحصول على تصريح لاقامة تسهيلات سكنية في الظهران لأفرادها ولعمال البناء •

كما اقترح الوزير « ايدى » أن تشتمل الطلبات على طلب لاقامة محطة تلغراف لاسلكى فى السعودية للاتصالات العاجلة والمباشرة مع السلاح الجوى الأمريكى (٢٣) •

فى تلك الفترة كانت المفوضية البريطانية فى جدة قد اقترحت على الحكومة السعودية أن ترسل بعثة طبية عسكرية بريطانية للجيش السعودى مزودة بمستشفيات وعيادات متنقلة ، وقد أثار هذا الاقتراح قلق الوزير المفوض الأمريكى فى جدة لذلك طلب من وزارة الخارجية الأمريكية الاسراع فى التقدم باقتراح رسمى الى ابن سعود بخصوص البعثات خاصة وأن لبعثة العسكرية فى الطائف قد أوثك عملها على الانتهاء (٢٤) • وهكذا نلاحظ أن الوزير المفوض قد غير رأيه السابق الذى يشترط أولاً الحصول على موافقة بريطانيا على انشاء القاعدة قبل بدء المفاوضات مع ابن سعود بشأن البعثات •

وانذى يجدر بحثه فى هذا المقام هو تطور موقف بريطانيا من انشاء القاعدة فقد كان رأيها كما عبر عنه مجلس الاركاب البريطانى كما يلى :

١ - « أنهم يوافقون على الاقتراح الأمريكى باقامة قاعدة »

---

(23). Diplomatic papers 1945 vol. VIII.

The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the Sec. of state. Jeddah.  
24 - March - 1945.

(24) The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the Sec. of State.  
Jeddah. 12 - April - 1945.



هطار حربى فى الظهران ، بل ان الحكومة البريطانية مستعدة لمساندة الاقتراح اذا تقدمت به الحكومة الأمريكية الى ابن سعود •

٢ — ان الكومنولث يطلب حقوقا متساوية مع الولايات المتحدة بشأن حقوق الطيران المنخفض والهبوط فى هذا المطار ولكن بريطانيا تتوى استخدام المطار فقط فى حالة الطوارئ •

٣ — يفترض رؤساء الأركان البريطانيين أن العمل والخدمات مسئولية تتحملها الحكومة الأمريكية •

وممها كانت طبيعة الأسباب المحركة للموقف البريطانى فقد اعتبر مجلس الأركان المشترك الأمريكى أن هذا الرد يشوبه الغموض نوعا ما فما هو المقصود « بحقوق متساوية » ، لتوضيح هذا الغموض كان لابد من اجراء مباحثات بين المجلسين •

ولكن الى أن ينجلى الموقف ولكسب الوقت فقد طلبت الادارة الأمريكية من الوزير الأمريكى المفوض فى السعودية أن يطلب من السفارة البريطانية هناك الحصول على تعليمات من الوزارة البريطانية بشأن سحب الاعتراض البريطانى لى يقوم — الوزير البريطانى — بإبلاغها الى ابن سعود ، حيث أنه بعد اتمام هذه الخطوة تبدأ المفاوضات معه (٢٥) •

وعلى أية حال فان المصالح المشتركة بين الدولتين طغت على خلافاتهما وبعد عدة مشاورات فقد وافق مجلس الأركان البريطانى على إنشاء القاعدة فى أواخر ابريل ١٩٤٥ وطلبت السلطات الأمريكية من وزارة الخارجية البريطانية إبلاغ السفير البريطانى فى جدة بهذا

---

(25) Diplomatic papers - 1945 - vol. VIII.

The Sec. of state to the Minister in S. Arabia ( Eddy ) Wash.  
17 - April - 1945.



القرار لكى يقوم بدوره بابلاغ ابن سعود بالموافقة البريطانية<sup>(٢٦)</sup> •  
وسرعان ما أخبر وزير البريطانى المفوض فى جدة الوزير الأمريكى أن  
حكومته وافقت على اقتراح انشاء القاعدة وسيقوم بابلاغ الحكومة  
السعودية بالقرار البريطانى<sup>(٢٧)</sup> •

وإذا انتقلنا الى الاجراءات التى تلت الموافقة البريطانية فاننا نبدأ  
بالتعليمات التى وصلت الى الوزير المفوض الأمريكى فى جدة فى ٣  
مايو ١٩٤٥ بأن يبدأ « المفاوضات مع حكومة السعودية بمجرد علم  
الملك ابن سعود بالموافقة البريطانية وبدون تأخير • وأن يحرص على  
مناقشة ضمان حقوق لما بعد الحرب • وأن تمنح الخطوط الجوية  
الأمريكية المسموح بها حقوق العبور فى السعودية وحق الدخول  
التجارى فى الظهران • وفى حالة انتهاء حقوق الطيران الحربى بعد  
انتهاء الحرب الحالية بعام فان خطوط الطيران الأمريكية المدنية ستستمر  
فى حقوق العبور فى السعودية والحق فى الدخول التجارى فى الظهران  
وأىضا استخدام مطار الظهران وتسهيلاته على أساس عدم التفرقة طالما  
أن أى خدمات جوية تجارية مسموح لها أن تعمل فى أو عبر السعودية » •  
وتم تخويل المفوضية أيضا أن تبلغ الحكومة السعودية أن حكومة الولايات  
المتحدة مستعدة لاقامة طريق فى السعودية • ولكنها لا تستطيع —  
الحكومة الأمريكية — أن تضمن منح السعودية عند انتهاء أعمال بعثة  
تدريب الطيران طيارات التدريب ومطار ومنشآت التدريب •

فى الوقت نفسه أوضحت أن الادارة الحربية أيضا مستعدة لارسال  
البعثة المقترحة وأن تبدأ فى اقامة طريق الرياض — الظهران ومطار

---

(26) The Acting Sec. of state to the Minister in S. Arabia  
Wash. 26 - April - 1945.

(27) The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the Sec. of state.  
Jeddah. 5 - May - 1945.



الظهران عند تلقي المذكرة الرسمية من الادارة بأن المفاوضات تمت مع السعودية بطريقة مرضية بشأن هذه المشروعات<sup>(٢٨)</sup> . وطلبت من الوزير المفوض التأكد من أن الحكومة السعودية ستسمح للخدمات الجوية الأمريكية الاستمرار في استخدام مطار الظهران بعد أن يتحول إلى الحكومة السعودية<sup>(٢٩)</sup> وبالفعل تمت المفاوضات بشأن كل هذه الأمور وقد ظهر أن حكومة السعودية غير مستعدة للتفاوض في البنود التي بمقتضاها تعمل الخدمات الجوية التجارية في مطار الظهران فقد أشارت السلطات السعودية إلى أنها تحتاج إلى وقت لدراسة الاتفاقيات مسارية في البدد المجاورة ، ولكنها تعد فقط ببنود غير تمييزية للولايات المتحدة .

وكان رأى الوزير الأمريكى فى رسالته الى الخارجية الأمريكية المؤرخة مايو ١٩٤٥ أنه ليس من الحكمة طلب امتيازات محددة للخدمة الجوية التجارية قبل وصول المساعدة الاقتصادية للسعودية ، واذا كانت الادارة تريد التفاوض الآن فان الحقوق التجارية يجب شراؤها ويجب أن يحضر الملحق الجوى كارمن من القاهرة ومعه معلومات بشأن المفاوضات وأضاف أن الملك يرغب فى أن يقوم الوزير ايدى بزيارة الرياض مرة أخرى لمناقشة تفاصيل الخدمات المقدمة من الجيش الأمريكى ، ويرى ايدى أن الحكومة السعودية تتوقع أن تفتح المطار للطيران التجارى الأمريكى فى نهاية الحرب . وقد أنهى الوزير رسالته بأن الوقت « غير مناسب وسيىء جدا لمثل هذا الاقتراح »<sup>(٣٠)</sup> .

---

(28) Diplomatic papers. 1945 - vol. VIII.

The Acting Sec of State to the Minister in S. Arabia ( Eddy ) Wash 3 May 1945.

(29) The Acting Sec of State to the Minister in S. Arabia ( Eddy ) Wash 26 - May - 1945.

(30) Diplomatic papers 1945 vol VIII.

The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the Sec. of state Jeddah 1 - May - 1945.



من جانب آخر كانت الخارجية الأمريكية قد أرسلت الى وزير  
الحربية الأمريكية John Stimsos ( ستمسون ) فى ٢٥ ابريل عام  
١٩٤٥ بأنه عند اعداد التعليمات لارشاد مفوضية جدة فى مفاوضاتها  
مع السعودية بشأن حقوق الطيران يجب اعطاء الاهتمام الى رغبة  
الحكومة السعودية فى الفترة الأخيرة فى تحسين مطار جدة<sup>(٣١)</sup> بما فى  
ذلك تركيبات خاصة بانارة ليلية وممرات الطائرات والصيانة والاصلاح ،  
وأنة عندما تبدأ المفاوضات<sup>(٣٢)</sup> بشأن مطار الظهران والطريق الجوى فانه  
من المتوقع أن السلطات السعودية ستثير نقطة التركيبات فى جدة  
وبهدف التعجيل فى المفاوضات يجب على الادارة الحربية أن تتخذ  
القرار فى هذا الشأن مقدما ، وعلى هذا فقد اقترحت الخارجية على  
الحربية وجوب اعطاء المفوضية فى جدة سلطة الموافقة على أن يقوم  
الجيش بالاصلاحات المطلوبة فى جدة وذلك اذا كانت هذه الموافقة  
فى نظر المفوضية ضرورية لضمان مطار الظهران وحقوق المرور  
المطلوبة<sup>(٣٣)</sup> .

(٣١) كان القائم بأعمال وزير الخارجية السعودية قد عبر عن رغبة  
حكومته فى ١٧ ابريل ١٩٤٥ الوزير المفوض الأمريكى فى التعاقد بشأن  
اجراء تحسينات فى مطار جدة بما فى ذلك الاضاءة الليلية وممر اقلاع وهبوط  
الطائرات والتركيبات وصيانة واصلاح الطائرات . واستفسر هل ستقوم  
بهذه الاصلاحات الولايات المتحدة اذا طلبت الحكومة السعودية أم أنه من  
الأنسب أن تتقدم السعودية بطلب مشترك للولايات المتحدة وبريطانيا ، فكان  
رد الوزير الأمريكى أن هذا الامر متروك لتقدير الحكومة السعودية ، وكان  
رأى الوزير الذى عبر عنه فى رسالته للخارجية الأمريكية حول هذا الموضوع  
أنه لا يشك فى أن مفاتحة كهذه تجرى فى نفس الوقت مع الوزير البريطانى  
فى جدة وأنه ليس من المدهش اذا وجد الجيش البريطانى مشترك بلقائمة  
تسهيلات جوية وعسكرية فى السعودية .

(32) Diplomatic paprs. 1945 vol. VIII.

The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the sec. of state - Jeddah.  
17 - April - 1945.

(33) The Acting Sec. of state to the Sec. of War (STIMSON)  
Wash 25 - April - 1945.



غير أن موقف وزير لحرية كان يختلف عن وزارة الخارجية فهو يرى ان ادارته لا تستطيع أن تبرر استخدام الموارد الحربية لأجراء اصلاحات فى مطار جدة والذي ليس له دوى أو احتياجات عسكرية ، وأوصى بأن لا تخول المفوضية الأمريكية فى جدة سلطة الموافقة على قيام الجيش الأمريكى بالتحسينات المطلوبة فى المطار اذا كان من رأى المفوضية أن هذه الموافقة ضرورية لضمان المطار فى الظهران وأيضا لضمان حقوق العبور (٣٤) .

وفى وسط هذا الخضم المتدافع من التطورات كانت الادارة الأمريكية مهتمة أيضا بموضوع تقديم المساعدات المالية والفنية الى السعودية نظرا لما لذلك الأمر من ارتباط بموضوع القاعدة الجوية . وفى ١٧ مايو أطلع مساعد وزير الخارجية Achison ( انشيسون ) ثلاثة من أعضاء مجلس الشيوخ على خريطة للولايات المتحدة وذلك فى اجتماع حضره وكيل وزارة البحرية ومركب على الخريطة مناطق بترول الشرق الأوسط وتم اعطاءهم فكرة موجزة عن كميات البترول فى المناطق المختلفة والاهتمامات القومية لهذا البترول . وقد وافق أعضاء المجلس على أن الاهتمامات الأمريكية فى البترول السعودى عظيمة لمنع الاضطرابات الداخلية والتدخل الأجنبى لحماية المصالح القومية الأمريكية فى احتياطى البترول السعودى ثم بين مركز الملك المسالى واطلعهم على خريطة موضح عليها النفقات الأخيرة وتقدير العجز ، وقد أشار الى النتائج التى يمكن أن تتبع الفشل فى الاهتمام بهذا العجز ، وقد أيد ممثلوا الجيش والحربية هذا الموقف بشدة ووافق أعضاء الشيوخ الذين اشتركوا فى الاجتماع على أن الأمر يتطلب عمل شىء . ويعد ذلك بين تشيسون الخطوط العريضة للطرق

---

(34) Diplomatic papers. 1945 Vol. VIII.

The Sec if War ( STIMSON ) to the Acting Sec of State. Wash.

9 - May - 1945.



الأربعة المقترحة وهى كما يلى : قرض مضمون — قرض غير مضمون —  
منحة — شراء البترول فى الأرض<sup>(٣٥)</sup> ثم عقد اجتماع مع الرئيس  
ترومان فى أواخر مايو وبعد مناقشة الأهمية الاستراتيجية للسعودية  
وافق على السير فى نفس خطة الرئيس السابق روزفلت ، والاستمرار  
بتقديم المساعدات للسعودية •

وفى ٣١ مايو أرسل الوزير الأمريكى فى جدة رسالة الى وزارة  
الخارجية أكد فيها على رغبة الملك ابن سعود السابقة فى أن يقوم  
الوزير الأمريكى « ايدى » بزيارة الرياض فى حوالى ٩ يونيو لمناقشة  
مشروعات الجيش ومشروعات التعاون الأخرى وطلب منه الحصول على  
معلومات تامة بشأن المساعدة الاقتصادية والمالية التى تعتزم الولايات  
المتحدة تقديمها لأنه يرغب فى مناقشة كل الأمور سواء كانت عسكرية  
أو اقتصادية<sup>(٣٦)</sup> ولذلك طلب الوزير المفوض من الخارجية الامريكية  
امداده بالتعليمات والمعلومات قبل موعد الزيارة أى قبل ٩ يونية  
ولكن وزارة الخارجية الأمريكية اعتذرت عن تقديم المعلومات الخاصة  
بالمعونة الأمريكية الاقتصادية والمالية المقترحة للسعودية ففى ذلك  
الوقت كانت قد حدثت بعض التطورات الجديدة بشأن مطار الظهران  
ولذلك طلبت من الوزير المفوض تأجيل الزيارة والاعتذار لابن سعود  
بأنه نظرا لأن بعض الأمور تتطلب البحث فى واشنطن<sup>(٣٧)</sup> فانه مضطر  
الى تأجيل الزيارة وبالتالي لا يستطيع أن يعطيه التزاما نهائيا بشأن  
حجم مساعدة ١٩٤٥ •

---

(35) Memorandum of Conversations by the Assistant Sec. of State ( ACHISON ) 17 - May - 1945.

(36) The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the Sec of State - Jeddah - 13 - May - 1945.

(37) Diplomatic papers. 1945. vol. VIII.

The Acting Secretary of State to the Minister in Egypt Wash 5 - June - 1945.



ويلاحظ أن الوزير المفوض كانت لديه بعض المخاوف فقد أوضح للخارجية الأمريكية أن لجوء ابن سعود الى ارامكو للحصول على قروض ليثبت اقتصاده ستكون له نتائج أقل اضرارا للسعودية منها لأمريكا حيث سيتأكد عندئذ ابن سعود أن أرامكو هي الأصل والمفوضية هي الظل وان استمرار الملك في الحصول على القروض منهم سيساهم في تدهور مركز الحكومة الأمريكية نسبيا (٣٨) .

وهذا الموقف يجيء كاستطراد طبيعي لتطور ونمو العلاقات الأمريكية ، أما بالنسبة للقاعدة فرغم تغيير خطط النقل وتناقص الحاجة الى القاعدة فان ثمة أسباب حيوية ترتبط بالمصالح الأمريكية تكمن وراء اصرار الولايات المتحدة على انشاء القاعدة الجوية ، وقد رأت الادارة الأمريكية أهمية اعطاء المشروع قوة دفع أكبر ولذلك يجب عرضه على الرئيس الأمريكي على أساس أن اقامة القاعدة ضرورة قومية ، فاذا تم الحصول على موافقته يبدأ العمل في المشروع (٣٩) .

وكانت وزارة الحربية الأمريكية ترى أن الحصول على المطار ستكون له فائدة في زيادة كفاءة تشغيل خط القاهرة - كراتشي وأن

---

(٣٨) كانت السلطات السعودية تريد القيام بكثير من المشاريع مثل امداد المياه والكهرباء ولذلك ارادت التأكد من أنها ستحصل على المساعدات الأمريكية ويذكر الوزير الأمريكي المفوض في رسالة الى وزير الخارجية الأمريكية في ٢٤ يونيو ١٩٤٥ أن القائم بأعمال وزير الخارجية السعودية سألته عن مدى قيام الحكومة الأمريكية بمساعدة السعودية في القيام بهذه الاصلاحات ، وأخبره أن المهندسين البريطانيين في الفترة الأخيرة قدموا مقترحات ولكن السلطات السعودية تفضل أولا العمل بمعاونة الولايات المتحدة .

Diplomatic papers 1945 vol. VIII.

The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the Sec of State Jeddah  
24 - June - 1945.

(39) The Acting Sec. of state to the Minister in S. Arabia  
( Eddy ) 15 - June - 1945.



مدى الفائدة يتناسب تناسباً طردياً مع سرعة اكماله ، وأن التطورات  
فى حرب الباسيفيك قد يزيد كثيراً القيمة الحربية للمشروع ومع حقيقة  
أن التخطيط العسكرى الأمريكى فى ذلك الوقت يشير الى أن الحاجة  
العسكرة للمطار فى الظهران متناقصة ، إلا أن الإدارة الحربية كانت  
مستعدة أن تتقدم ببناء المطار طالما أن هذا العمل فى الصالح القومى  
الامريكى ، وكان رأى الخارجية أيضاً أنه لصالح القومية الامريكية بناء  
المطار مع تسهيلات أخرى وموجز القول هذا أن هناك اتجاهها قويا نحو  
ضرورة انشاء القاعدة الجوية • وربما يكفى هنا لتبيان جانب من مواقف  
الإدارات الا وهو المتعلق بموقف وزارة الخارجية والدوافع التى جعلتها  
تترى أهمية لاستمرار فى انشاء القاعدة والتى جاءت على النحو  
التالى :

١ — حقول البترول والتى كانت تبشر بأنها أحسن حقول العالم ،  
كانت فى ذلك الوقت فى أيدي شركة أمريكية واستمرار الترخيص فى  
أيدي أمريكية يعطى أحسن الآمال بأن بترول السعودية سيكتشف تجارياً  
بأعظم سرعة وعلى أوسع نطاق معطياً دخلاً سيساهم فى تحسين الحالة  
الاقتصادية السعودية واستقرارها ، وأن المصالح الامريكية فى السعودية  
بالإضافة الى البترول ستؤدى الى تقوية التكامل السياسى فى السعودية  
خارجياً وأن بناء مطار فى الظهران بسرعة يستخدم أولاً للأغراض  
الحربية ولكن بعد ذلك للاستخدام المدنى سيكون مظهراً قوياً للمصالحة  
الأمريكية •

٢ — يعد استخدام هذا المطار للأغراض الحربية مصدر قوة  
عظيمة للطيران المدنى الأمريكى بعد الحرب كمرحلة ممكنة متوسطة على  
الطريق للهند وكوسيلة للنقل الجوى من وإلى حقول البترول المملوكة أو  
الواقعة تحت سيطرة أمريكا فى السعودية والبحرين ويسهل جداً تطوير  
وتنمية العلاقات الوثيقة بين الحكومة الأمريكية والحكومة السعودية •



٣ - أما فما يتعلق بآخر التطورات المتعلقة بتناقص أهمية المطار فإنه بعد أن تمت المباحثات مع ابن سعود فإن إبلاغه أن الحكومة

الأمريكية قررت أن لا تقيم المطار فإنه من المحتمل أن ذلك سيجعله يشعر أن السياسة الأمريكية بشأن السعودية متذبذبة كما سيزيد عدم ثقة الحكومة السعودية بشأن المدى الذي يمكنه الاعتماد على أمريكا<sup>(٤٠)</sup> .

على أنه أيا كانت طبيعة الأسباب المحركة لموقف إدارات الدولة فإن الرئيس ترومان وافق على إنشاء القاعدة في الظهران . وقد أبلغت الخارجية الأمريكية وزيرها المفوض في جدة بهذا القرار وكان ذلك بتاريخ ٢٨ يونيو ١٩٤٥<sup>(٤١)</sup> وفي ذلك الوقت كانت وزارة الخارجية الأمريكية تحاول دفع قرض التنمية للسعودية بدون انتظار تخطيط برنامج معونة مالية طويلة المدى كما جاء في رسالة وجهها ممثل وزير الخارجية إلى الوزير الأمريكي المفوض في السعودية ، وقد طلب منه أن يبلغ الملك أن بنك الاستيراد والتصدير وافق من حيث المبدأ على قرض تنمية مشروعات مثل إمداد المياه والطاقة الكهربائية والطرق شرط عمل ترتيب لضمان رد المبلغ ، كما طلب منه أن يؤكد للملك ابن سعود أن هذه الأموال ليست هدايا بل قروض سترد<sup>(٤٢)</sup> . ومن الواضح إذن أن ضرورات دعم المصلحة والأمن القومي الأمريكي كانت تتطلب عدم التأخير في موضوع القروض .

---

(40) Diplomatic papers - 1945 vol. VIII.

The Acting S. of state. Wash. 26 1945 .

(41) The Acting Sec. of state to the Minister in S. Arabia ( Eddy ) Wash 28 - June - 1945.

(42) The Acting Sec. of state to the Minister in S. Arabia 27 - June - 1945.



## موقف ابن سعود من البعثة العسكرية :

ثم يجيء التطور الآخر المفاجيء حين رفض الملك ابن سعود فى ٥ يوليو ١٩٤٥ خدمات البعثة العسكرية الأمريكية مفضلاً — كما جاء فى رسالة القائم بأعمال القنصل الأمريكى فى الظهران أن يكون التعاون الخارجى لتنمية السعودية عن طريق وكالات مدنية ولكن لا يؤثر هذا الاتجاه على اتفاقية السعودية للسماح باقامة مطار فى الظهران • وكان قرار الملك رفض المساعدة العسكرية الأجنبية فى اقتصاده الداخلى يقوم على ثلاثة أسباب كما جاءت ضمن رسالة القائم بأعمال القنصل الأمريكى فى الظهران وهى :

- ( أ ) الانتقادات التى توجه من جانب المعارضين المتعصبين •
- (ب) المضايقة التى يسببها أعداء الهاشميين •
- (ج) اعتراض الانجليز على بعثة عسكرية لا يشتركون على الأقل بنصفها (٤٣) •

وأيا كان وجه الحقيقة فى هذه الأسباب أو التحليلات فالحقيقة أنه قد يعتبر هذا الموقف اخفاقاً مؤقتاً للسياسة الأمريكية فى السعودية ومن جهة أخرى نرى كيف أن الشكوك ساورت السلطات الأمريكية بشأن دور بريطانيا فى التأثير على ابن سعود فى اتخاذ هذا الموقف ولا شك أن دوافع موضوعية ملحة كانت وراء قرار ابن سعود ، وفى محاولة التنفيذ الى صميم الموقف شرح الوزير المفوض الأمريكى فى جدة الملاحظات التى أحاطت بالموضوع فى تقريره المؤرخ فى ٨ يوليو ١٩٤٥ فكان يرى أن جوهر رد الملك بشأن موقفه من خدمات البعثة العسكرية

---

(43) The Vice Conasul at Dahrn ( Sands ) to the Sec of state Dahrn 5 - July - 1945.



الأمريكية كان قرارا غير بات لرفض الخدمات ، وكان قرارا استعرضه شفويا لكي ينطبق على أى بعثة عسكرية أجنبية سواء كانت أمريكية أم لا . وان ابن سعود أوضح احتياجات السعودية وظروفها الخاصة فى محاولة منه — كما يرى الوزير المفوض الأمريكى لاحاطة رفضه خدمات البعثة باطار ايجابى ، ويضيف الوزير المفوض فى تقريره أنى مقتنع أن الملك مخلص وعلى صواب فى توقعه للنقد العنيف من المعارضين والمتعصبين اذا قامت بعثة عسكرية أجنبية كبرى بخدمات كبيرة داخل البلاد فهو ما زال موضع نقد فى الوقت الحاضر بسبب الامتيازات التى منحها للأجانب المقيمين فى بلاده وأن الأحداث الأخيرة فى سوريا ولبنان<sup>(٤٤)</sup> تنبئ بمطالبة عربية عامة لاجلاء كل الجنود الأجانب من البلاد العربية وتجعل الوقت الحاضر أكثر صعوبة بالنسبة له ، أما المطار فهو كما أوضح — ابن سعود مسألة مختلفة تماما ، فهو للجهد الحربى لحلفائه العسكريين ويمكن بهذا تبريره ثم ان الأفراد العسكريين الأجانب سيكونون محصورين فى منطقة الظهران — رأس تنورة وهى أبعد مكان عن المدن المقدسة ومن الشيوخ المعارضين اللذين يعتبرون أن الجندى الأجنبى ما هو الا عدو معتدى . وقد أوضح ابن سعود فى البيان الذى أصدره بهذا الشأن أن بريطانيا ستعترض على البعثة وقد اعتبر الوزير المفوض الأمريكى أنه ليس من الحكمة أن يسأل الملك عن هذه النقطة التى لم يفصلها وهل استشار بريطانيا فاعترضت أم أنه — الملك — يتنبأ فقط باعتراضهم ويضيف الوزير أنه يميل نحو رأى الأول « المحزن » ففى « الشقاء الماضى كانت هناك عدة دلائل على أن الملك

(٤٤) شهدت سوريا ولبنان الكثير من الاضطرابات والنزاعات سواء بين بريطانيا وفرنسا أم بين الاحتلال الفرنسى والوطنيين ففى دمشق انتهى أمر الصراع الى قيام فرنسا بقصف دمشق جوا فى ٢٩ مايو ١٩٤٥ ، كما شهدت لبنان اضطرابات كثيرة بسبب التدخل الفرنسى مما دفع بريطانيا الى التدخل بتوجيه انذار الى فرنسا فقد كانت تتطلع الى أن تحل محل فرنسا فى لبنان وسوريا .

حول هذا الموضوع انظر : د. صلاح العقاد ، المشرق العربى المعاصر ، الانجلو المصرية ١٩٧٠ ، ص ٩٤ — ٩٧ .



مستعد لأن يحرر نفسه من الرقابة البريطانية والتعامل معنا باستقلال شرط أن يتأكد بالطبع من استمرار الاستقرار الاقتصادى والامداد باحتياجاته الأولية ولكن فى الأونة الأخيرة يبدو أن الملك أصبح يعتقد بأنه مهما كانت الولايات المتحدة قوية وصديقة فإن بريطانيا ما زالت تحكم وتسود فى الشرق الأوسط وتتصرف حيث يوافق فقط الآخرون «، ثم ينتقل الوزير المفوض الأمريكى الى أنه علم من مصدر موثوق منه أن القائم بأعمال زير الخارجية السعودية قال للمقربين منه فى لجنة الجامعة العربية فى القاهرة « أن الأمريكيين أصدقائنا ونحن نحبهم ولكن بريطانيا هى القوة التى نتعامل معها » ويعلق ايدى فى رسالته بما يلى « وسواء تحت النفوذ البريطانى أم لا فإنه يبدو أن الحكومة السعودية مقتنعة بالعودة الى الاقليمية والى مجال نفوذ بريطانى مقبل فى الشرق الأوسط ، وأن تدخل بريطانيا فى سوريا ولبنان احتل ذروة الجدل وأن فشلنا فى ضمان مرافقة بريطانيا على الاتصال اللاسلكى البرقى المباشر بين السعودية والولايات المتحدة وعدم مقدرتنا على الامداد بدولارات أو أن نبيع مقابل عملة محلية ، وقرارنا بأنه يجب أن يكون هناك عناية كبيرة ووقت طويل لضمان تأييد الكونجرس للتعاون الاقتصادى الطويل المدى مع السعودية ، قد رجح الكفة مرة ثانية لصالح بريطانيا كقوة عسكرية وسياسية يمكن الاعتماد عليها بالنسبة لسعودية ، ويكمل الوزير المفوض « انى لا أعتقد اننى أبالغ فى الانتعاش المفاجئ فى المكانة البريطانية وفى الحقيقة قال لى الملك صراحة أن بريطانيا ستفلس وتتهزم بدون الولايات المتحدة ويستطرد الوزير • ولكن يبدو أنه — ابن سعود — مقتنع أن بريطانيا التى تتصرف مباشرة على حدوده والتى تتحكم فى مداخل ملكته وموارد معيشته يجب استرضاؤها حتى بالرغم من أنه يضحى بفوائد بعثة عسكرية من الولايات المتحدة الأمريكية وأن بريطانيا تحمى أمن السعودية السياسى والقومى من العدوان ومن ناحية أخرى أتوقع أن الملك يعترف بأنه ليس من المعقول أن يطلب من امريكا أن تمده باحتياجات معيشة بلاده وأن تتعاون فى



تنمية موارده القومية اذا كانت بريطانيا ستستخدم حق الفيتو عندما تريد واذا وجدنا طريقة لكى نتساوى مع بريطانيا كضامن فعال لاقتصاد السعودية حينئذ نتوقع أن نبعد نهائيا هذا الفيتو البريطانى على مقترحات أمريكا فى السعودية ، ومن ناحية أخرى بالرغم من كل استثماراتنا فى البلاد فان بريطانيا على ما أعتقد تتمتع بمزايا سياسية أكثر من أمريكا » (٤٥) .

وهكذا فقد اعتبرت السلطات الامريكية موقف ابن سعود نكسة فى العلاقات الامريكية السعودية وعودة للنفوذ البريطانى وهذا الاعتقاد يكفى لتبيان التغيير الذى طرأ على العلاقات لسعودية الامريكية ولكن كما سنرى فقد كان مؤشرا مؤقتا .

لم يكن من الغريب اذن أن يثير موقف ابن سعود من خدمات البعثة العسكرية الامريكية وزارة الخارجية الامريكية التى جاء ردها المرسل الى الوزير الامريكى فى جدة شديد اللهجة ويشير الى مخاوفها ، فقد جاء فيه « ان قرار الملك ابن سعود بشأن المقترحات المتعلقة بالبعثة العسكرية يثير الدهشة وذلك نظرا لأنه سبق وطلب مرات عديدة أن يقوم الجيش الامريكى ببناء الطرق وتدريب الطيارين السعوديين ، وأن خوف الملك من رد الفعل المعاكس داخل بلاده موضع تقدير ولكن غير مقنع ، نظرا لأن الملك يضغط على حكومته منذ مدة تزيد على عامين للموافقة على جعل الجيش الامريكى يقدم خدمات يرفضها هو الآن ، اذ لدى الولايات المتحدة والجيش الامريكى امكانيات تقديم هذه الخدمات مجانا ومن ثم يصبح رفض الملك هذه المساعدات بمثابة انتكاسة للسياسة الامريكية والتى يمكن ارجاعها فيما يبدو الى الضغط البريطانى » . ثم طرحت وزارة الخارجية عدة تساؤلات منها ما هو تأثير الغاء هذه

---

(45) Diplomatic papers 1945. vol VIII.

The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the Sec of state Jeddah.  
8 - July - 1945.



المساعدة على استقرار الحكومة السعودية وعلى تأمين المصالح الأمريكية ؟ ومن الذى شيشغل مطار الظهران عندما تأخذه السعودية بعد انتهاء الحرب مع اليابان ؟ ان الغاء البعثة يعنى عدم تدريب الطيارين والفنيين لاستلام المطار ، فالحكومة السعودية عليها أن تعتمد على الفنيين الأجانب وأن ذلك يعنى أن الحكومة الأمريكية تبني مطارا فى وسط احتياطى بترول « امريكى » كبير لتجد أنه يعمل تحت سيطرة دولة أخرى غير السعودية ، وأيضا ما هى الضمانات التى لدى الحكومة الأمريكية والتى تؤكد أن الحكومة السعودية الحالية أو المستقبلية تستطيع أن تحافظ على النظام اذا لم تبني طرق ولم تحسن القوة الجوية والجيش « ؟ كانت هذه هى تساؤلات وزارة الخارجية الأمريكية التى طلبت من وزيرها فى جدة ارسال تقرير مفصل يغطى النقط والتساؤلات التى أثارها الرد ويعطى أدلة على المناورات البريطانية<sup>(٤٦)</sup> .

وموجز القول بأن هذا الموضوع يعطى الدليل والصورة الواضحة عن المنافسة البريطانية الأمريكية فى الحصول على مزيد من الامتيازات فى السعودية ، هذا وقد أكد رد الوزير المفوض الأمريكى على رسالة وزارة الخارجية أن رفض الملك ابن سعود لبعثة التدريب الجوى الحربى الأمريكية كانت بتأثير الضغط البريطانى ، بالاضافة الى الشعور الوطنى العربى « القومية العربية » عند الملك وموقف المتعصبين داخل المملكة العربية السعودية فقد أثر ذلك كله على موقف الملك الذى يرغب فى الابقاء على الأراضى المقدسة محررة من أى صبغة أجنبية . هذا ويشير الوزير المفوض الأمريكى أن طلب الملك ابن سعود كان دائما لتدريب الطيارين فى الولايات المتحدة ، ولم يقبل أبدا اقتراح بعثة طيران أمريكية فى السعودية كما أنه ليس لديه ما يؤكد بشكل مطلق أن الحكومة

---

(46) Diplomatic papers. 1945 vol. VIII.

The Acting Sec. of State to the Minister in S. Arabia ( Eddy )  
Wash 13. - July - 1945.



السعودية ستحافظ على النظام فى المستقبل سواء بواسطة شق الطرق أو بغير ذلك ، ويدخل فى هذه القضية عامل آخر يتعلق بموقف بريطانيا التى لا تريد أن تبنى الولايات المتحدة الجيش السعودى أو القوات الجوية السعودية وأنها — بريطانيا — تفضل أن تقوم فى المستقبل « بانقاذ البلاد » اذا انتشرت الفوضى وعدم النظام فيها » كما انقذوا سوريا ولبنان • وكان رأى الوزير المفوض ايدى أنه لا فائدة من اظهار عدم الرضى للملك على موقف فهو — الملك — « يتوقع أن يكون للولايات المتحدة تأثير أكبر على بريطانيا كضامن وحليف رئيسى ، ولكنه لا يرى الدليل على النفوذ الأمريكى وحالما تعلن المساعدة التكميلية للسعودية لعام ١٩٤٥ وتحرير المساعدة الأمريكية لأول مرة من القيود البريطانية المشتركة فعلى الولايات المتحدة أن تؤكد تأمين المطار وذلك بأن تشترط فى المفاوضات أنه عند رجوع المطار الى الحكومة السعودية فان جميع الفنيين الأجانب الذين يعملون فيه يجب أن يكونوا أمريكيين لأن أمريكا هى التى بنت المطار بأموالها وأفرادها » •

أما فيما يتعلق بموضوع المناورات البريطانية فقد « أوضح الوزير أنه لا يوجد لديه الدليل على مناورات بريطانية أبعد من بيان الملك الذى سبق شرحه ولكن السخط البريطانى للمفاتيح الأمريكية مع السعودية بشأن خطوط جوية مدنية والمعارضة بشأن الاتصالات اللاسلكية ومظاهر الغيرة من مساعدات الاعارة والتأجير الحربية والمالية كل هذا يحكى قصة واحدة أن بريطانيا تعارض وستعارض أى نشاط أمريكى فى السعودية والذى يعطى للولايات المتحدة مظهر أسبقية سياسية أو عسكرية وأضاف أن بريطانيا تسمح لنا بأن نخفف عنهم عبء الامداد ولكنها لن تتخلى عن أن يكون لها صورة حاسمة وموقف وقوة الفيتو ، وانى آمل أن لا تشترك فى اعانة أو امداد مشترك مرة ثانية ولكن بدلا من ذلك نربط مساعداتنا الاقتصادية المستقلة بخيوطنا نحن بدلا من خيوط بريطانيا » ، ولذلك ولكى نمثل نفوذ بريطانيا السياسى فى السعودية نحتاج الى ما يلى :



١ - خطة مالية للأموال التي لا تقبل الرد مثل شراء البحرية  
لاحتياطى البترول فاذا كان اهتمامنا القومى حقيقة استراتيجى فأننا  
بالتأكيد نستطيع أن ندفع ثمننا أعلى من بريطانيا ونفعل ذلك بدولارات  
تصرف فقط لسلع وخدمات أمريكية •

٢ - اتفاقية مع بريطانيا وعلى أعلى مستوى تعترف بالمصالح  
الأولية الأمريكية فى الاقتصاد السعودى ، وبيان صريح من الحكومة  
البريطانية يعبر عن ترحيبهم بكل أعمال التشييد التى تقوم بها الولايات  
المتحدة للمساعدة فى تنمية السعودية (٤٧) •

وهكذا نلاحظ أن المظهر الغالب على موقف بريطانيا كان الرفض  
الصريح المباشر أحيانا ، وغير المباشر أحيانا أخرى • والحقيقة حينما  
نبحث العناصر التى أثرت على العلاقات السعودية الأمريكية يجب أن  
نركز الانظار على عنصر حاجة ابن سعود للمساعدات المالية التى حتى  
ذلك الوقت لم تكن قد أرسلت ، خاصة وأن ابن سعود كان قد أرسل  
خطابا الى الرئيس الأمريكى ترومان أشاد فيه بموقف الرئيس السابق  
روزفلت من تقديم المساعدات للسعودية وطلب ابن سعود فى رسالته  
أن تساعد الحكومة الأمريكية بلده لاجتياز الأزمة المالية التى لا تزال  
تعانى منها بسبب ظروف الحرب وانتشار الجراد كذلك ومن الملاحظ  
أيضا أن ابن سعود ذكر فى رسالته أنه يعلم أن السبب فى تأخير  
إرسال المعونة هو عدم موافقة الكونجرس عليها لتأخر عرض الأمر  
عليه (٤٨) •

---

(47) Diplomatic papers 1945 vol VIII.

The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the Sec of State - Jeddah -  
15 - July - 1945.

(48) King Abdul - Aziz libn Saud of S. Arabia to president  
Truman - July - 1945.



وعلى أى حال فقد بدأت تتضح معالم المتغير فى برنامج المساعدات المالية الأمريكية للسعودية ، فقد وافق الرئيس الأمريكى ترومان على قانون تخصيص مساعدة بموجب الاعارة والتأجير بمبلغ خمسة ملايين دولار فى برنامج المعونة المشتركة للسعودية بالاضافة الى برنامج مساعدة تكميلى بعشرة ملايين ريال وبلغ قيمتها ثلاثة ملايين دولار<sup>(٤٩)</sup> ولقد تم تسليم مذكرة بشأن برنامج المساعدة التكميلية الى المسئولين السعوديين فى أواخر يوليو ١٩٤٥<sup>(٥٠)</sup> .

وترتيا على ذلك فقد نشطت وزارة الخارجية الأمريكية فى الاسراع بارسال تعليماتها الى وزيرها فى جدة لكى يقابل الموظفين السعوديين لانهاء المحادثات التفصيلية بشأن مطار الظهران وعقد الاتفاق<sup>(٥١)</sup> خصوصا وأن الرسالة المشتركة البريطانية الامريكية بشأن مساعدات السعودية قد تم الاتفاق عليها وتم تسليمها الى الحكومة السعودية<sup>(٥٢)</sup> . ومن واقع هذه التطورات فقد حرصت وزارة الخارجية الامريكية أيضا على أن تتأكد من أن السعودية لن تترك أمر تشغيل المطار بعد انتهاء الحرب بيد قوة ثالثة لا توافق عليها الحكومة الامريكية ولهذا السبب فقد جاء اقتراح الخارجية الامريكية حول أهمية معرفة ما مدى امكانية قيام منظمة الطيران الغربى وعبر القارات بابرارام عقد مستقل مع ابن سعود ، يشترط أن تقوم المنظمة بتشغيل المطار عندما يعود الى السعودية

---

(49) The Acting Sec of State to the Minister in S. Arabia. Wash 16 - July - 1945.

(50) The Minister in S. Arabia (Eddy) to the Sec of State- Jeddah 30. July. 1945.

(51) Diplomatic papers 1945 vol. VIII.

The Acting Sec of State to the Minister in S. Arabia ( Eddy ) Wash 12 - July - 1945.

(52) The Acting Sec of state to the Minister in S. Arabia ( Eddy ) 16 - July - 1945.



أو أن يتضمن العقد توصية ملزمة بأنه عندما يعود المطار الى السعودية فان كل الفنيين الأجانب الذين يعملون فى المطار يجب أن يكونوا أمريكيين ، ولكن سرعان ما نبه القائم بأعمال وزير الخارجية الأمريكية الى أن الادارة الامريكية لا ترغب فى هذا الشرط الملزم لأنه كما يقول — كسياسة عامة — « نحن ضد الترتيبات الخاصة بالمرشد الوحيد مثل التى توجد فى العراق لصالح بريطانيا » (٥٣) •

كان رأى الوزير الامريكى المفوض فى جدة بأنه لا يعتقد أنه فى الامكان الاسراع فى العقد بشأن العمليات المدنية فى المطار فى الوقت الحاضر لأن الحكومة السعودية ليس لديها أى خبرة فى الطيران التجارى ولذلك فسترغب فى دراسة أى اقتراح يقدم لها وتقارن بالعقود فى بلاد المجاورة كما أشار القائم بأعمال وزير الخارجية السعودية الى أنه أيا كانت الأسباب المحركة للموقف السعودى فان الوزير المفوض يعتقد بأن ثقة السعودية فى الكفاءة العالية للولايات المتحدة وأمن طيرانها يضمن للولايات المتحدة تشغيل المطار بعد الحرب ، وسيكون هذا الأمر أول مشروع كبير تعاونى بين الحكومتين وسيؤدى أكثر من هذا الى اقامة مصالح خطيرة فى المستقبل فى السعودية ، كما ذكر الوزير المفوض بأنه لا يعتقد أن الملك ابن سعود سيفضل قوة ثالثة لتشغيل المطار • ولذلكفانه يعرض أن يبلغ الملك أثناء المفاوضات أن الادارة الامريكية تفهم أن الولايات المتحدة قامت ببناء المطار للسعودية لكى يؤول اليها وليس لكى تحصل عليه قوة ثالثة لتشغيله (٥٤) •

وفى أواخر يوليو أرسل الوزير المفوض فى جدة الى وزارة

---

(53) The Acting Sec of State to the Minister in S. Arabia ( Eddy ) Wash 21 1945.

(54) Diplomatic papers 1945 vol VIII.

The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the Sec of state. Jeddah. 23 July 1945.



الخارجية الامريكية رسالة مفادها أن الملك وإدارته يفضلون تأجيل مناقشة حقوق الطيران المدني ، وكما أوضح الوزير بأنه لا يعترض على إرسال اتفاقية نقل جوى ثنائية وعقد ادارة مطار جوى فى نفس الوقت شرط أن العقد العسكرى لا يكون معتمد عليها أى على الاتفاقية الثنائية وعقد الادارة ، لأن هذا الربط يؤدى الى أخير انتهاء المفاوضات بل قد يؤدى الى فشلها •

فالعقد العسكرى ممكن تقديمه وله فرصة طيبة للقبول السريع ولكن العقود المدنية ستدرس دراسة مطولة قبل الرد عليها ، ولا شك أن بريطانيا قد حصلت على وعد من الملك باستشارتها قبل منح الولايات المتحدة أى حقوق طيران مدنى •

وقد أوصى الوزير المفوض بوجوب توقيع العقد العسكرى قبل عيد الفطر المبارك وقبل الاستعدادات لموسم الحج كما أن أى تأخير سيلقى الشك على حقيقة الحاجة للمطار الجوى لظروف الحرب وهذا السبب هو الذى من أجله وافقت بريطانيا والملك على انشاء القاعدة (٥٥) • وفى هذا المجال يجدر بنا أن نشير الى أن الادارة الامريكية كانت تريد عمل عقد منفصل مع الملك بشأن تشغيل وصيانة مطار الظهران عندما تنتهى سيطرة الجيش الامريكى عليه بعد انتهاء الحرب •

### اتفاقية القاعدة :

وأيا كان وجه الحقيقة فى الأسباب الداعية الى اقامة القاعدة حتى بعد انتهاء الحرب ، فقد ظلت هناك اعتبارات حيوية جعل أمر اقامتها ضرورة أمنية للولايات المتحدة فالسعودية تمتلك احتياطيا نفطيا ضخما وهى إحدى بلدان الخليج العربى الذى يشكل أهمية كبيرة

---

(55) The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the Secretary of state Jeddah 26 - July - 1945.



للاسطول الأمريكى والخليج العربى أيضا له أهمية كبيرة بالنسبة لأى مواجهة مع الاتحاد السوفيتى<sup>(٥٦)</sup> وبالتالي فإن للقاعدة فوائد عظيمة بالنسبة للولايات المتحدة فى وقت وجدت فيه المملكة العربية السعودية أن مصلحتها هى الأخرى تكون فى توطيد الصداقة مع الولايات المتحدة التى تتمتع بمركز قوى فى ذلك الوقت سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية ، خاصة انها — السعودية — كانت غير مطمئنة لطبيعة العلاقات البريطانية الهاشمية فى الاردن والعراق ، ولا يمكن أن نتجاهل أن ميل بريطانيا فى تلك الفترة الى الحكومات الهاشمية كان أيضا بسبب طبيعة العلاقات السعودية الأمريكية ، ولكن وعلى أى حال فإن السعودية تعلم أن استقرارها أمر مهم للمصالح الأمريكية •

وهكذا فى الخامس من أغسطس ١٩٤٥ وقع القائم بأعمال وزير الخارجية السعودية « يوسف ياسين » على نص مشروع الاتفاقية ، وبموجبه يتم اقامة وتشغيل القاعدة بواسطة الجيش الأمريكى أثناء فترة الحرب ضد اليابان وان تستمر القوات المسلحة الأمريكية فى استخدام القاعدة مدة ثلاث سنوات بعد توقف الحرب • وأما فيما يتعلق بالتفاصيل فإنه وبناء على اقتراح أمريكى لا تزيد مساحة القاعدة عن ٥ × ٥ أميال وموقعها تقريبا عند خط الطول ٢٠° — ٢٠° شمالا وخط العرض ١٠° — ٥° شرقا داخل منطقة الدمام وسيقيم فى القاعدة (٥٠٠) شخصا ولكن يتم بناؤها لكى تسع (٢٠٠٠) شخصا • وستقيم الحكومة الأمريكية مطارا للطوارىء على أرض سعودية عبر خط الطول ٥٦° — ٢٩° تقريبا شمالا وخط العرض ١/٢ — ٤٥° شرقا أما الطريق الجوى الذى من أجله تنقام هذه المنشآت فيمتد من القاهرة الى الظهران عن طريق معان فى الاردن وحفر الباطن فى السعودية •

وعند انقضاء فترة الثلاث سنوات التالية لانتهاء الحرب ضد اليابان

---

(٥٦) د. خليل مراد ، المرجع السابق ص ١٦٧ — ١٦٨ •



فان الولايات المتحدة ستحول هذه المنشآت فى حالة جيدة الى الحكومة السعودية لتشغيلها وصيانتها والتحكم فيها ولكن لا تحول الحكومة السعودية هذه المسئولية الى قوة ثالثة •

وخلال الفترة التى تكون فيها القاعدة فى ايدى القوات الامريكية المسلحة ستكون كل المواد التى فى فواتير الشحن الامريكية من والى السعودية معفاة من الضرائب والعوائد والجمارك والقيود وهذا الاعفاء يسرى على الامدادات والمواد الغذائية لكل أفراد الجيش الامريكى والعمليات المرتبطة بالقاعدة ولا تخضع للضرائب أو التعويض عنها أو سدادهما للحكومة السعودية (٥٧) •

ويجب أن نلاحظ أن المحور الذى تركزت حوله تحفظات الملك ابن سعود تتعلق بسيادته وسلطته فقد أصر على أن يرتفع العلم السعودى على المواقع الداخلية وعلى مطار الهبوط الاضطرارى وفى حالة الطوارئ وكان رأى الوزير الامريكى المفوض أن هذا لاصر سيقوى من أمن وكفاءة هذه لمواقع لأن رجال القبائل الذين يقيمون بالقرب من هذه المواقع سيحترمون مركزا للملك ولن يعتبروا وجود أفراد الجيش الأمريكى بمثابة احتلال للبلاد •

ووافق الملك على أن تكون سيادة الجيش الامريكى على الأفراد غير السعوديين داخل حدود القاعدة الجوية فقط • بينما أصر على وضع مذكرة اضافية تبين أنه اذا دعت الحاجة الى انتهاء اتفاقية القاعدة الجوية قبل نهاية الثلاث سنوات التالية للحرب فان تشغيل وصيانة القاعدة تتحول الى الحكومة السعودية •

واذا انتقلنا الى بحث الاجراءات الأخرى مثلا تلك المتعلقة

---

(57) Diplomatic papers - 1945 vol VIII - Enclosur 1

The American Minister in S. Arabia (Eddy) to the S. Arabian Asting Minister foreign affairs (Yassin) 5. 1945.



بالتسهيلات العادية للتسليحة والمتعة الشخصية فقد كان رأى الحكومة الأمريكية أنه يجب أن يقدمها الجيش الأمريكى لأفراده وللعاملين فى القاعدة كما يحدث بالنسبة لكل القواعد الأمريكية • لم تعترض الحكومة السعودية على البند الخاص بشراء الطاقة الكهربائية والذي يمنح الحكومة الأمريكية حق شراء الطاقة الكهربائية والغاز الطبيعى أثناء شغلها للقاعدة الجوية من شركة البترول الأمريكية العربية بأسعار يتفق عليها بين المشتري والبائع ، وفى حالة ما اذا كانت الحكومة السعودية لا تستطيع فى الوقت الذى تؤول اليها مسئولية القاعدة أن تضمن الاتفاق مع شركة البترول العربية الأمريكية بإمداد الطاقة الكهربائية فان حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تمدها بمولدات كافية لضمان التشغيل المستمر للقاعدة كما أوضحت الادارة الأمريكية للسلطات السعودية أن اتفاقيات أخرى مفصلة بشأن اجراءات اقرار العدلة التى تتضمن رعايا أكثر من دولة ، والجمارك وتنظيمات جوازات السفر كل ذلك سيخضع لمذكرات اضافية • اما فيما يتعلق بالاستخدام المدنى للمطار والموارد التى بمقتضاها قد تحصل الحكومة السعودية على معدات وتركيبات غير ثابتة والمتبقية فى القاعدة الجوية عندما يتركها الجيش الأمريكى فستتم مناقشتها مستقبلا •

هذا ، وقد عينت الحكومة الأمريكية القائد العام للقوات المسلحة الأمريكية فى منطقة أفريقيا والشرق الأوسط مسئولا عن عملية اقامة القاعدة والمنشآت وتركيبات اللازمة لذلك (٥٨) •

هذا وقد أوضح الوزير المفوض الأمريكى « ايدى » أنه حسب الاتفاق فان القوات الأمريكية ستستخدم القاعدة حتى بعد انقضاء فترة الحرب مع اليابان بثلاث سنوات ولكن اذا اكتشفت الحكومة الأمريكية

---

(58) Diplomatic papers - 1945 vol VIII. Enclosure 1 - The American Minister is S. Arabia ( Eddy ) to the S. Arabian Acting Minister for foreign affairs ( Yassin ) 5 - 1945.



فى تاريخ مبكر قبل نهاية الثلاث سنوات أنها ليست فى حاجة الى القاعدة عندئذ ستترك القوات المسلحة الامريكية للحكومة السعودية أمر تشغيل وصيانة القاعدة<sup>(٥٩)</sup> وفى السادس من أغسطس بعث يوسف ياسين القائم بأعمال وزير الخارجية السعودية بموافقة حكومته على هذه البنود<sup>(٦٠)</sup> وقد علق الوزير المفوض الامريكى على الاتفاقية « بأنها تحفظ كل الحقوق الامريكية ، وتشمل كل الامتيازات التى استطعنا أن نحصل عليها وهى أكثر مما كنا نتوقع الفوز به »<sup>(٦١)</sup> .

وهكذا وعلى الرغم من أنه لم تعد هناك حاجة ماسة الى القاعدة ولم يعد لها علاقة بالمجهود الحربى ضد اليابان ، كما تشير الوثائق الامريكية الا أن الولايات المتحدة استمرت فى اقامتها وانتهى العمل بها فى سنة ١٩٤٦ ، وكلف انشاؤها ٤٥ مليون دولارا<sup>(٦٢)</sup> . وقد تضاعفت أهميتها بعد انتهاء الحرب منذ ابتداء الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتى كذلك ازدادت أهميتها لاعتبار آخر يربط ببريطانيا التى لم تعد قادرة على تحمل مسئولية النفقات العسكرية فى الشرق الأوسط<sup>(٦٣)</sup>

---

(59) The American Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the S. Arabia Acting Minister for foreign Affairs.

(60) Enclosur 2 - The S. Arabian Acting Minister for Foreign Affairs Yassin to the American Minister in S. Arabia Eddy Ria - 6 - - Aug - 1945 .

(61) The Minister in S. Arabia ( Eddy ) to the Sec. of state- Jeddah. 8. Aug. 1945.

(٦٢) د. خليل مراد ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٦٣) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، الانجلو ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣١٨ .

عبد العاطى محمد أحمد : الدبلوماسية السعودية فى الخليج والجزيرة العربية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، ابريل ١٩٧٩ ، العدد ٣٥ ، القاهرة ، ص ٣٨ .

انظر تفاصيل هذه الاتفاقية فى : أمين سعيد ، تاريخ الدولة السعودية الثانية ، المجلد الثانى ، بيروت ، ص ٢١٧ — ٢٢٧ .



لقد عقدت اتفاقية « تعديل اتفاقية مطار الظهران » فى ٢ فبراير ١٩٤٦ ثم اتفاقية لتنظيم استعمال العسكرية الامريكية للمطار فى ٢٣ يونيو ١٩٤٩ ثم اتفاقية مطار الظهران الأخيرة فى ١٨ يونيو ١٩٥١ (٦٤) وهذه الاتفاقية تنظم عملية استخدام « القاعدة » مقابل تقديم معونات للجيش السعودى .

### الخاتمة :

وعلى الرغم من أن المملكة العربية السعودية قد أصبحت من أغنى دول العالم ولم تعد بحاجة الى المعونات المالية الامريكية ، فإنه ليس من العسير الوقوف على أسباب نمو وتطور العلاقات السعودية الامريكية المستمر منذ الخمسينات فموقع السعودية الاستراتيجية تزايدت أهميته والنفط السعودى الذى أصبح من أهم عوامل حرص الولايات المتحدة على تنمية وتطوير علاقاتها مع المملكة العربية السعودية . وهناك بالإضافة الى هذا الكثير والكثير من المصالح المشتركة ، فالحكومة السعودية حريصة على ارساء الامن والحكم وتحقيق التنمية فى مختلف لمجالات وبالنسبة لها فإن استمرارية علاقاتها مع الولايات المتحدة من أهم عوامل تحقيق هذه الأهداف .

---

(٦٤) خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة العربية فى عهد الملك عبد العزيز ، ص ٦٨٦ ، الجزء الثانى ، بيروت ١٩٧٠ .



## المصادر

### أولا - وثائق منشورة

#### وثائق وزارة الخارجية الأمريكية

1. U.S. Department of State Relating to the Foreign Relations - The British commonwealth, The Near East and Africa 1941 vol III.

Washington U.S.G.P.O. 1959.

2. U.S. Department of State - papers Relating to the Foreign Relations.

The Near East and Africa, 1942 vol. IV.

Washington U.S.G.P.O. 1963.

3. U.S. Department of State - papers Relating to the Foreign Relations of the United States - Diplomatic Papers 1943.

The Near East and Africa. Volume IV.

Washington U.S.G.P.O. 1964.

4. U.S. Department of State - Foreign Relations of the United States Diplomatic papers.

The Near East and Africa. 1945 vol. VIII.

Washington U.S.G.P.O. 1969.

### ثانيا - المراجع

- ١ - أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية الثانية - المجلد الثاني - بيروت ١٩٦٤ •

- ٢ - بنوميستان : عبد العزيز آل سعود سيرة بطل ومولد مملكة ، نقله الى العربية عبد الفتاح ياسين ، بيروت دار الكاتب العربي ، ١٩٦٥ •



٣ — د. خليل على مراد : تطور السياسة الامريكية فى منطقة الخليج العربى ١٩٤١ — ١٩٤٧ ، مطبعة جامعة البصرة ، ساعدت جامعة بغداد فى النشر — رسالة دكتوراه — ١٩٧٩ — ١٩٨٠ .

٤ — خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة العربية فى عهد الملك عبد العزيز ، بيروت ، مطابع دار القلم ١٩٧٠ .

٥ — د. صلاح العقاد : الحرب العالمية الثانية ، الانجلو ، القاهرة ١٩٦٥ .

٦ — ————— : المشرق العربى المعاصر ، الانجلو — القاهرة ١٩٧٠ .

٧ — عبد العاطى محمد أحمد : الدبلوماسية السعودية فى الخليج والجزيرة العربية ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، الاهرام ، القاهرة ابريل ١٩٧٩ .

٨ — محمد العيدروسى : العلاقات العربية الايرانية ١٩٢١ — ١٩٧١ ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ١٩٨٥ .

٩ — د. مصطفى عبد القادر النجار : تاريخ الخليج العربى المعاصر ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم — معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧ .

### ثالثا — الدوريات

١ — الأهداف الخفية للولايات المتحدة الامريكية من وراء دخولها الحرب العالمية الثانية ، د. نورى السامرائى ، مجلة كلية الآداب جامعة البصرة ، العدد ٩ ، السنة السابعة ، ١٣٩٤ — ١٩٧٤ .

٢ — التمثيل الدبلوماسى والقنصرى الامريكى فى المملكة العربية السعودية ، د. نجاته عبد القادر الجاسم ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، العدد التاسع والثلاثون ، السنة العاشرة ، شوال ١٤٠٤ — يوليو ١٩٨٤ .



1. The first part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

2. The second part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

3. The third part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

4. The fourth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

5. The fifth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

6. The sixth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

7. The seventh part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

8. The eighth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

9. The ninth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

10. The tenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

11. The eleventh part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

12. The twelfth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

13. The thirteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

14. The fourteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

15. The fifteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

16. The sixteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

17. The seventeenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

18. The eighteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

19. The nineteenth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

20. The twentieth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

21. The twenty-first part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

22. The twenty-second part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

23. The twenty-third part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

24. The twenty-fourth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.

25. The twenty-fifth part of the document is a list of names and addresses of the members of the committee.



## التطور التاريخى للسياسة الفرنسية فى أعالى النيجر

دكتور/ نصر الدين رشوان حسن

واجهت فرنسا فى خلال السبعينات من القرن التاسع عشر بعض الضغط لأن تدفع بوزارة البحرية ، المسؤولة عن شئون المستعمرات ، الى تبنى سياسة توسعية فى غرب أفريقيا ، فى حين أن الاتجاه الغالب فى فرنسا كان نحو اعطاء أسبقية أولى فى سياستها الخارجية الى استعادة قوتها ونفوذها فى أوروبا بعد هزيمة ٧٠ - ١٨٧١ ، كما أن كثيرين من الفرنسيين أظهروا اتجاهها معاديا تماما لأى سياسة توسعية . وكانت وزارة الخارجية تتبنى الاتجاه الأخير وتصر على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع بريطانيا كنقطة بداية نحو استعادة مكانة فرنسا على المستوى الدولى<sup>(١)</sup> .

وقد شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر اتجاهها نحو اقامة المشروعات الكبيرة عبر القارات لخدمة التجارة والتوسع الاستعمارى ، وبالنسبة لفرنسا فقد كانت تسعى الى اقامة خط سكة حديد بين سان لوى والنيجر يمكنها من التوغل بفاعلية فى أسواق غرب أفريقيا ، لكن اقامة مثل هذا الخط تتطلب تأمينه باخضاع المناطق التى يمر بها واقامة الحصون فيها . وكان هناك اعتقاد فى فرنسا بضرورة أن تسبق بريطانيا

---

(1) HARGREAVES : Prelude to the Partition of West Africa  
pp. 198, 9.



الى هذه المنطقة فى حين أن البريطانيين فى سيراليون كان اهتمامهم بأعلى النيجر متواضعا ، وهذا يعنى من جهة أخرى أن فرنسا ستعفى نفسها من حرج مواجهة مشكلات دولية حادة • كذلك فلن تكون هناك معارضة داخلية كبيرة حيث أن التقدم فى هذه المناطق لا يتطلب ارسال قوات كبيرة من فرنسا نفسها على عكس الحال بالنسبة لغزو مصر أو تونس • ومما أغرى الداعين للاستعمار للاستمرار فى هذا الاتجاه أن كليمنصو المشهور بمعارضته للاستعمار لم يتعرض لدعاة الاستعمار الذين كانوا دائمى الاشادة بما أسموه الأعمال البطولية لعدد محدود من الفرنسيين الذين يعملون وسط شعوب « بربرية ومتعصبة » • وكان من حسن حظ هؤلاء أن تولى وزارة البحرية الفرنسية فى عام ١٨٧٩ الاميرال جويجييرى ( Jauréigiberry ) حاكم السنغال السابق (٢) •

وقد مهد الجو لتقبل الاتجاه نحو الاستعمار بعض الجغرافيين والناشرين الفرنسيين الذين كانوا يواصلون الحديث عن مزايا الحصول على المستعمرات وكان من أشهر هؤلاء لوروى بوليو Leroy - Beaulieu ولكن مع ذلك ظل الاتجاه العام لدى الفرنسيين غير عابىء بهذه الدعوة واستمر الحال على ذلك حتى عصر بداية التكالب والمنافسة بين الدول الأوروبية للحصول على المستعمرات (٣) •

وقد تميزت السياسة الخارجية الفرنسية خلال الثمانينات بالتضارب بين وزارة الخارجية ووزارة البحرية التى كانت تضم ادارة خاصة بشئون المستعمرات ، وازداد هذا الصراع حدة بانشاء سكرتارية دائمة ومسئولة عن ادارة وتوسيع المصالح الاستعمارية الفرنسية ، وتزايد نفوذ هذه السكرتارية حتى أصبحت فيما بعد نواة لقيام وزارة للمستعمرات • وعلى أى حال فان وزارة البحرية بالتضافر مع السكرتارية

---

(2) HALLET : Africa since 1873, pp. 267 - 8.

(3) HARGREAVES : op. cit., p. 200.



المذكورة عملت على تدعيم مطالب فرنسا ازاء النيجر أكثر مما فعلته وزارة الخارجية الفرنسية التي كانت على دراية أكثر والمأم أعمق بحقيقة العلاقات المعقدة مع بريطانيا في الكثير من المسائل المتعلقة بمشكلات الساحل<sup>(٤)</sup> .

وكان من العوامل المؤثرة في سياسة فرنسا قلة الاعتمادات المالية المخصصة من قبل الجمعية الوطنية الفرنسية في الثمانينات للتوسع الاستعماري ، وقد أدى هذا الى اعتماد المسؤولين الفرنسيين في تقرير سياستهم على خبرة عدد من المسؤولين في ادارة المستعمرات أو على المعلومات التي يحصل عليها مكتب

( Bureau du Haut - Fleuve et du Niger )

الذي أنشئ في عام ١٨٨١ . وكان لفرنسا قنصل نشيط في براس ( Brass ) على نهر النيجر يدعى انطوان ماتى Antoine Matei عمل على الحصول على معاهدات من زعماء هذه المنطقة ولما علم بذلك المسيو ( Duclerc ) وزير الخارجية الفرنسية عام ١٨٨٣ وكان حديث عهد بالوزارة ، أحال الأمر برمته الى جوريجيرى وزير البحرية الذي أقر ماتى على خطته وزوده بعدد من التعليمات والمبادئ لمراعاتها في المعاهدات التجارية التي يوقعها مع الزعماء الافريقيين في نهري النيجر وبنوى ( Benue )<sup>(٥)</sup> .

كانت سياسة فيديرب ( Faidherbe ) حاكم السنغال السابق في الستينات تهدف الى أبعاد أسواق السودان الغربى عن أيدي بريطانيا واتبع في ذلك سياسة تهدف الى أبعاد التכולور عن أعالي السنغال واحتلال وادى السنغال - النيجر والاستيلاء على باماكو . كذلك فان بريير دى ليل ( Brière de L'isle ) حاكم السنغال اللاحق كان يهدف

---

(4) NEWBURY : The map of Africa by treaty, vol. 11, p. 16.

(5) NEWBURY : Ibid, pp. 18 - 20.



أيضا الى اقامة امبراطورية رسمية فى السودان الغربى باقامة خط من الحصون يصل الى النيجر اعتمادا على العمل العسكرى وحاول اخراج فرنسا عن السياسة التى التزمت بها حتى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهى سياسة التدعيم والاقتصاد والسلام ( Consolidation, economy and peace ) وذلك بسبب ما نتج عن الحروب السبعينية ورغبة فرنسا فى عدم الدخول فى أية ارتباطات مالية خارج حدود فرنسا يمكن أن تؤثر على استعداداتها العسكرية وأمنها فى أوروبا ذاتها<sup>(٦)</sup> .

وفى عهد فرسينيه ( Freycinet ) الذى تولى رئاسة الوزارة الفرنسية فى ديسمبر ١٨٧٩ ظهر التحول واضحا نحو الرغبة فى التوسع واعتبر أن من مهام وزارته أن تحول أنظارها الى خارج الحدود وأن تبحث أية فتوحات سلمية يمكن أن تقوم بها<sup>(٧)</sup> .

وبالفعل أقام جوريجيرى قيادة عسكرية خاصة فى سنة ١٨٨٠ تولاها بورنى ديسبورد ( Borgnis Desbordes ) وهو ضابط مدفعية مشهور بعنفه ، لم يلتزم دييورد بالسياسة السلمية السابقة بل أعلن أن الغزو السلمى للنيجر ليس الا خرافة ، ولا بد من غزوه عسكريا ، وفى فبراير ١٨٨٣ وصل الى باماكو وأقام فيها حامية عسكرية . وكان الوضع حول باماكو يتمثل فى وجود دولة أحمدو التكلورية فى الشمال ، ودولة سامورى فى الجنوب والشرق ، وفى الغرب فى المنطقة الواقعة بين السنغال وجامبيا كان هناك زعيم دينى جديد هو محمدولامين الذى بدأ عهدا من الفتوحات وبدأ يهاجم المواقع الفرنسية فى باكل ( Bakel ) وكان الأمر يتطلب من فرنسا اتباع سياسة تستطيع مواجهة هذا الموقف

---

(6) NEWBURY : The development of French Policy in the Lower and Upper Niger, p. 259.

(7) NEWBURY : op. cit., p. 262.



لكن الجمعية الوطنية الفرنسية رفضت تخصيص مزيد من الأموال للحملات العسكرية وعاد دييورد الى فرنسا وتبعه خلفاء أقل منه اندفاعاً<sup>(٨)</sup> .

كان من الواضح أن جوريجيرى لم يلتزم بالسياسة السلمية لرئيس الوزراء وصديقه فرسينيه وكان يهدف فى الحقيقة الى السيطرة السياسية لا التوسع التجارى أو الاقتصادى ومع ذلك فقد التزم أمامه من الناحية الرسمية بأنه يرغب فى الاشتراك فى الحركة العامة التى تحمل الدول الأوروبية الى قلب أفريقيا لتفتح فيها أسواقا جديدة لتجارتها<sup>(٩)</sup> .

جاء جايينى ( Callieeni ) خلفا لدييورد ، وكان بريردى ليل قد سبق أن أرسله فى ١٨٨٠ فى مهمة الى احمدو لتوقيع معاهدة صداقة وتجارة معه وكان الهدف من هذه المهمة هو اعطاء التكولوربين شعورا زائفا بالأمن مما سهل احتلال وادى السنغال — النيجر .

ومن ثم فان جايينى عندما تولى قيادة منطقة السنغال — النيجر لم يكن جديدا على المنطقة . كان جايينى يتميز بثقافته الواسعة ويختلف كنية عن زملائه من الضباط الفرنسيين فى نظرتهم للمشكلات المتعلقة بالادارة الاستعمارية ، وكان لا يخالجه أدنى شك فى مسئولية بلاده التى ألزمت بها نفسها فيما أسمته بالمهمة الحضارية ( Mission Civilisatrice ) وكان لا يؤمن بالاندفاع فى الغزو بل يرى ضرورة أن تؤكد فرنسا وجودها فى أى منطقة اذا ما غزتها . ولهذا اعتبر الحصول على المعلومات مسألة حتمية . وكان يقول ان الضابط الذى يستطيع أن يضع خريطة بشرية ( Ethnographic map ) للمنطقة التى يتولاها انما يسير بخطى ثابتة نحو اقامة السلام الكامل فيها .

---

(8) HAUET : cit., p. 269.

(9) NEWBURY : French Policy, p. 262.

« Prendre part au mouvement généralement général qui de L'Afrique pour y ouvrir de nouveaux débouchés à leur commerce ».



وقد أوصى جاييني خليفته أرشينار ( Archinard ) بقوله علينا أن ننظر إلى هؤلاء الزعماء ويقصد أحمدو زعيم التكلور وساموري — على أنهم قوم يجب أن يختفوا من مسرح الأحداث في أقرب وقت • وهذا الهدف يتحقق بالخدعة وبالتسلل وليس بالصراع المباشر • وقد نجحت السفرات الدبلوماسية التي أرسلتها إلى هذين الزعيمين في إقامة تعايش وفي قبول الحماية الفرنسية • وبينما كان جاييني يتنادى بالسلام كان يساعد أعداء أحمد وساموري بتقديم الهدايا من السلاح • واعتبرت سياسته سياسة ثورية لأنه لم يعمل على إقامة العلاقات مع الحكام بل اهتم بإقامة الاتصال بالجمهير التي كان يرى أن مصالحها تتفق مع مصالحهم ، والتي هي على استعداد لتفهم هذه النظرة فيما لو أخذت فرنسا على عاقبها أن توضح هذا الأمر لهم •

وعندما غادر جاييني السودان في عام ١٨٨٨ سلم إلى من يخلفه مساحة من الأراضي وقد تدعم عليها نفوذ فرنسا • ورغم أنها لم تتضمن غنوجات جديدة كبيرة إلا أن الضباط الفرنسيين استطاعوا القيام برحلات كشفية ، ومن أهمها رحلة الكابتن بنجيه ( Binger ) عام ٨٨ — ١٨٨٩ حيث اكتشف المنطقة الواقعة بين أعالي النيجر ونهر الفولتا •

لكن أرشينار خليفته لم يتبع سياسته بل سار على سياسة دييورد وكان ضابطا طموحا ، وكان حسن الحظ إذ أن فرنسا في ذلك الوقت ، ١٨٨١ ، اتخذت سياسة ايجابية نشطة بخلاف تلك التي كانت سائدة في منتصف الخمسينات • استبعد أرشينار سياسة جاييني التي كانت تقضي بالانتظار حتى تنهار مملكة التكلور بعد موت أحمدو ، وحصل على إذن من باريس في عام ١٨٩٠ بمهاجمة سيجو ( Segu ) عاصمة التكلور ثم نيورو ( Niore ) المدينة الثانية في ١٨٩١ • وفي عام ١٨٩٨ هرب أحمدو شرقا مع بعض من أتباعه وتوفي وهو في طريقه إلى سوكتو Sokoto • اتجه أرشينار بعد ذلك — مخالفا التعليمات الرسمية —



الى مهاجمة سامورى ، الذى كان فى وضع أفضل من أحمدو وكانت لديه قدرة أكبر على الصمود فى وجه الهجوم الفرنسى (١٠) .

وكانت السياسة الفرنسية فى غرب أفريقيا قد أخذت قدرا كبيرا من التدعيم ، فى عام ١٨٨١ عندما قام جامبتا Gambetta بإنشاء وزارة جديدة للتجارة والمستعمرات (١١) كما أن احتلال بريطانيا لمصر فى عام ١٨٨٢ كان له أثر عميق على الاتجاه العام للعلاقات البريطانية - الفرنسية كما أنه سهل اتخاذ سياسات معادية لبريطانيا بصورة أكثر سفورا ، ولكن هذه السياسات كانت تهدف الى تدعيم مركز فرنسا فى غرب أفريقيا وليس طرد بريطانيا من مصر (١٢) .

تميز غزو فرنسا لغرب أفريقيا بالطابع العسكرى أكثر مما تميزت به بريطانيا ، وفى أعالي النيجر بصفة خاصة تميز العسكريون الفرنسيون بحرية العمل كما لاحظنا ذلك فى العرض السابق • واهتم الفرنسيون بمساحة الأرض أكثر من اهتمامهم بنوعيتها • وكما قال ( Brunschwig ) فان غزو غرب أفريقيا أتاح فرصا كبيرة للترقية والنياشين للعسكريين ، لكن هؤلاء العسكريين بحكم تكوينهم غير صالحين لمفاوضات السلام (١٣) • كانت فرنسا مقيدة باستراتيجية شاملة تقضى بربط نقاطها الساحلية بالأراضى التى حصلت عليها فى السودان وأن تحتل من النيجر القدر الذى يوصلها الى ميناء يتصل بالمنطقة الصالحة للملاحة من نهر النيجر حتى المحيط •

اما بريطانيا فقد كانت زاهدة فى الحصول على مستعمرات وذلك

---

(10) HALLET : op. cit., pp. 268 - 270.

(11) NEWBURY : Fresh Policy, p. 268.

(12) NEWBURY : Ibid, pp. 268 - - 271.

(13) BRUNSCHWIC, Henri : Mythes et réalités de l'imperialism colonial Français, 1871 - ( Paris, 1960 ), pp. 163 - 170.



طوال السنوات العشر التالية لمؤتمر برلين ( ٨٤ - ١٨٨٥ ) ولم تتبع بريطانيا سياسة ايجابية في أفريقيا الا في عهد جوزيف تشمبرلين في عام ١٨٩٥ عندما كان وزيرا للدولة لشئون المستعمرات ، واعتبر الغزو العسكري بديلا عن الحصول على معاهدات . والى ما قبل ذلك الوقت كانت طلبات التدخل المسلح من جانب الاداريين أو التجار البريطانيين تقابل بالرفض . ومع أن تشمبرلين كان على استعداد للموافقة على استخدام القوة الا أنه كان حريصا على أن تكون له اليد العليا على القادة العسكريين ، في حين كان العسكريون الفرنسيون عادة يملكون سياساتهم على حكوماتهم . وبذلك فإن المناطق التي طالبت بها بريطانيا هي المناطق التي كان يعمل فيها تجارها بصورة نشطة أو تلك المناطق التي رأوا فيها ربحا في المستقبل . وبينما كان العلم يسبق التجارة بالنسبة لفرنسا ، فإن التجارة كانت تسبق العلم بالنسبة لبريطانيا أو أن العلم كان يوجه الى حيث ينبغي له ، ونتج عن ذلك أن استولت بريطانيا في غرب أفريقيا على مساحة أقل ولكنها أكثر غنى (١٤) .

وفيما يتعلق بما أشيع في الدوائر الفرنسية عن التهديد البريطاني لأعلى النيجر فإن المسؤولين البريطانيين لم يبدوا اهتماما كبيرا به بل أنهم أبدوا دهشة لما قرأوه في الجريدة الرسمية الفرنسية ( Journal Officiel ) عن السياسات الفرنسية ونظروا اليه بحسد من أن الحكومة تستطيع أن تحصل على موافقة برلمانية على هذه المشروعات الطائلة التكاليف . ولكن عندما تحدثت إحدى الصحف الفرنسية عن السعي الى أسواق بلاد الهوسا عن طريق السنغال ، رد صمويل رو ( Samuel Rowe ) حاكم سيراليون بأنهم سيصلون الى بلاد الهوسا عن طريق لاجوس قبل أن يصل اليها الفرنسيون بأمد بعيد ، الا أنه رأى الخطر الحقيقي في احتمال أن يعوق استيلاء فرنسا على بعض المناطق

---

(14) CROWDER : West Africa under Colonial Rule, pp. 69 - 70.



القريبة ، قوافل تجارة سيراليون من الوصول الى النيجر أو أن يحد من اتساعها في المستقبل •

وفي منتصف الثمانينات شهدت منطقة أعالي النيجر سكوناً من جانب كل من بريطانيا وفرنسا على السواء ، ففي مارس ١٨٨٥ ترك جول فيري ( Jules Ferry ) رئاسة الوزارة الفرنسية عقب هزيمة فرنسا في الهند الصينية • ولم يكن هناك أحد في فرنسا يستطيع أن يطلب تخصيص نفقات حملات عسكرية لهذه المنطقة ، هذا في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تواجه مقاومة شديدة من الزعماء الوطنيين الافريقيين ، حيث أن استيلائهم على ياماكو في ١٨٨٣ قد جعلهم وجهاً لوجه أمام مناضل عنيد في أعالي النيجر هو ساموري ، زيادة على ذلك فإن لجوء القوات الفرنسية الى استخدام السخرة والعمل الاجباري دون أجر قد أثار عليهم مشاكل داخلية في فرنسا<sup>(١٥)</sup> •

لقد سبب ساموري للفرنسيين الكثير من القلق بسبب اتجاهه الى الحاكم البريطاني في سيراليون عارضا عليه قبول الحماية البريطانية في مقابل ضمان امداده بالأسلحة النارية • ولما خشى الفرنسيون أن تقع منابع نهر النيجر تحت سيطرة البريطانيين بعثوا بالرسائل الى ساموري في عامي ٨٦ ، ١٨٨٧ وزعموا في كل مرة أنهم حصلوا على توقيعهم على معاهدات بقبول حمايتهم • ويصرف النظر عما دار في هذه المحادثات فان ساموري بالتأكيد لم يكن ينتوي التفريط في استقلاله وسيادته ، لكن الحكومة البريطانية أقرت بهذه الاتفاقيات بهذا المفهوم ولم تتدخل عندما قررت فرنسا في النهاية أن تكسر شوكة هذا الزعيم العنيد •

---

(15) HARGREAVES : op. cit., p. 339.



كان اهتمام بريطانيا فى الحقيقة منصبا على الجزء الأدنى من نهر النيجر ابتداء من بوسا ( Boussa ) حتى المصب وهى المنطقة الصالحة للملاحة ، والعمل على ابعاد الفرنسيين عن هذا الجزء الهام وبالتالي ابعادهم عن الوصول الى قلب بلاد الهوسا •

ولم يقلل من اهتمام الدولتين بالملاحة فى نهر النيجر النصوص التى أقرتها الدول الأوروبية فى مؤتمر برلين ، والتى تقضى فى المادة ٢٦ من الفصل السابع من اتفاق مؤتمر برلين الموقع فى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ بحرية الملاحة فى نهر النيجر بكل فروعه ومخارجه للسفن التجارية لجميع الدول على قدم المساواة فيما يتعلق بنقل البضائع والأشخاص (١٦) • ولا شك أن مرد اهتمام هذه الدول أن النصوص القانونية ليست أكثر من حبر على ورق فى حالة قيام المنازعات الدولية وأن أوضاع القوة الحقيقية والواقعية هى التى تفرض نفسها فى النهاية فى تسوية المنازعات ، كما أن بريطانيا وفرنسا كان كل منهما حريصا على أن يكون الجزء الأدنى من نهر النيجر طريقا للوصول الى الداخل والسيطرة على هذه المناطق الهامة التى تتميز بكثافة سكانية تفوق فى تعدادها مجموع عدد السكان فى غرب أفريقيا كلها وبالتالي أهميتها كسوق تجارية لبضائع هذه الدول •

وبالنسبة للنزاع فى أعالي النيجر وأواسطه فلقد بدا لبعض الوقت فى عام ١٨٩٢ احتمال حل النزاع بين إنجلترا وفرنسا على الحدود بين مناطق النفوذ غرب وجنوب أعالي النيجر وأواسطه • واقتрحت اللجنة المشكلة لهذا الغرض حلا وسطا بتقسيم المنطقة المتنازع عليها وفقا لخط يبدأ من ساي ( Say ) على نهر النيجر متجها جنوبا بغرب الى بندوكو ( Bonduku ) على نهر الفولتا ، فما يقع شمال هذا الخط وغربه يكون لفرنسا وما يقع جنوبا بشرق يكون من نصيب بريطانيا • لكن فرنسا

---

(16) HERTSLET : The map of Africa by treaty, p. 481.



رفضت الاتفاق وكان لتجدد الخلافات بين الدولتين حول النيل أثره فى  
اعاقة الاتفاق على النيجر •

وكعادة البريطانيين فى تحقيق أهدافهم من خلال طرف ثالث ،  
طلبت بريطانيا من ألمانيا فى سنة ١٨٩٣ أن توقف أية محاولات جديدة  
للفرنسيين بمد مطالبهم شرق بحيرة تشاد ، وقد وافقت بريطانيا فى  
المعاهدة التى وقعتها مع ألمانيا فى تلك السنة على أن يمتد ظهير الكميرون  
الألماني شمالا الى بحيرة تشاد ، كما يتضمن أن تشمل منطقة النفوذ  
الألمانية كل حوض نهر شارى الممتد من بحيرة تشاد شرقا حتى الحدود  
الغربية للسودان المصري • وكان هدف البريطانيين من اطلاق يد الألمان  
فى هذه المناطق الشاسعة من وسط غرب أفريقيا منع الفرنسيين من  
الوصول الى أعالي النيل من أعالي النيجر والكنغو • وقد احتج  
الفرنسيون بأن هذا الاتفاق يقضى بقيام مناطق نفوذ بريطانية وألمانية  
شاسعة تحول بين القواعد الفرنسية فى الجزائر والسنغال وأعالي  
النيجر وقواعدها فى الكنگو • كما أن هذا الاتفاق سيقضى على آمال  
الفرنسيين فى ربط محمياتهم فى غرب أفريقيا بمحمياتهم على ساحل  
البحر الأحمر •

أصبحت المناوشات على الحدود الشمالية من منطقة النفوذ  
البريطانية على النيجر جزءا من النزاع الأكبر حول أعالي النيل • ومن  
ثم فإن المطالب التجارية لشركة النيجر ( Niger Company ) البريطانية  
خدمت بصورة غير مباشرة المصالح العليا لبريطانيا والمتعلقة بأمن مصر •  
لكن فرنسا قلبت سريعا خطط بريطانيا باتفاقها ( فرنسا ) مع ألمانيا فى  
مارس ١٨٩٤ عندما قبل الألمان تسليم منطقة نفوذهم فى الكميرون بالتالى  
الى فرنسا ، وبذلك فتحوا الطريق مرة أخرى الى أعالي النيل • ولقد  
كان من العلامات على ضعف اهتمام بريطانيا نسبيا بغرب أفريقيا أن  
وزارة الخارجية البريطانية كان عليها فى سنة ١٨٩٣ أن تعتمد على



اثارة ألمانيا للتحرك ، تماما كما اعتمدت على تحريك البرتغال فى مسألة الكونغو قبل ذلك بعشرة أعوام (١٧) .

أخذت الصراعات بين انجلترا وفرنسا فى غرب أفريقيا تزداد حدة فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ولم تفلح الاتفاقيتان المعقودتان بين الدولتين فى ١٠ أغسطس ١٨٨٩ ، ٢٦ يونية ١٨٩٢ فى استعمار الوفاق بين الدولتين ، ويقول الفرنسيون أنه بالرغم من الاتفاق بينهما على تخطيط الحدود على الورق إلا أن المندوبين البريطانيين كانوا يثيرون فى مجال التنفيذ الواقعى الكثير من العقبات • وأصبحت الخلافات بين قوات الدولتين فى أفريقيا متوقعة والمصادمات محتملة ، وقد وقعت إحدى هذه المصادمات بالفعل بين قوات الدولتين قرب وائىما ( Waima ) فى ٢٣ ديسمبر ١٨٩٣ عندما أطلقت قوة فرنسية بقيادة الملازم مارتيز ( Maritz ) النار على قوة انجليزية كانت تظن أنها تابعة لسامورى ، وعندما تدارك الطرفان الخطأ كان اثنى عشر فردا من كلا الجانبين قد لقي حتفه وكان من بينهم الملازم الفرنسى مارتيز والكابتن الانجليزى لندى ( Lendy ) • وبعد ذلك بثلاثة شهور تكرر وقوع حادث مماثل فى المنطقة نفسها فى سامو ( Samoh ) • ولم تؤثر مثل هذه الحوادث على العلاقات بين البلدين ، واعتبرت من الأمور التى لا يمكن تفادى وقوعها فى مثل هذه المناطق المجهولة (١٨) •

وحتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر حققت الحملات العسكرية والمفاوضات والبعثات الفرنسية الى السودان الغربى — بصرف النظر عن الصراع بينها وبين انجلترا — عدة نتائج من وجهة نظر فرنسا ، تتمثل فى تمكنها من القضاء على دولة التكلور ودولة سامورى ، والاتصال المباشر بالشعوب التى كانت خاضعة لهاتين الدولتين ، وزيادة

---

(17) RCBINSON : Africa and the Victorians, pp. 391 - 392.

(18) DARCY : France et Angleterre, p. 276.



مساحة السودان الفرنسي بحوالى ٦٥٪ من مساحه فى خلال السنوات  
الثلاث من ٩٠ - ١٨٩٣ ، وفرض الحماية الفرنسية على دولة تيبيا  
( Tieba ) وفوتا جالون وكونج والموسى ، وربط السنغال والانهار  
الجنوبية والسودان بساحل غينيا ، وتقليص حجم مستعمرتى جامبيا  
وسيراليون الانجليزيتين وغينيا البرتغالية وتوجو الالمانية وجمهورية  
ليبيريا بحيث أصبحت هذه جميعا دولا ساحلية دون أن تكون لها مطالب  
متعلقة بالظهير القارى ( Hinterland ) (١٩) .

والواقع أن كلا من فرنسا وبريطانيا كان يجمعها اعتقاد مشترك  
فى شرعية الغزو العسكرى تحت دعاوى مختلفة ، لكن الواقع يؤكد أنهم  
فرضوا نظم حكم أشد قسوة من نظم الحكم الوطنية وأدى الغزو الى  
ازهاق الكثير من الأرواح . وقد قوبل الغزو بمقاومة من القوى الوطنية  
والدويلات القائمة فى ذلك الوقت خاصة تلك التى يحكمها زعماء مسلمون  
والذين اعتبروا فرصة حكم البعض فى نظرهم معناه الخضوع لغير  
المؤمن وهو أمر غير مقبول ، وهذا يفسر شراسة المقاومة التى واجهت  
فرنسا فى تلك المنطقة (٢٠) . وهى مقاومة لها وزنها واعتبارها فى مواجهة  
الأسلحة الحديثة وعدم التكافؤ بين الطرفين وان كان القواد الفرنسيون  
يميلون دائما الى المبالغة فى حجم القوات الافريقية التى يواجهونها حتى  
يكون لهم التقدير لدى السلطات فى باريس وليكون ذلك طريقا لهم الى  
الترقى (٢١) .

كان فى مقدور الدويلات الافريقية أن تكون أكثر فاعلية فى مواجهة  
الغزو الفرنسى ، ولكن عوامل الخوف والشك والمنافسة كانت تسيطر على

---

(19) ARCHINARD : Le Sénégal et le Soudan Français, p. 233.

(20) CROWDER : op. cit., pp. 71 - 72.

(21) UKPABI : West Africa and Europe in military confrontation, p. 106.



العلاقات بين هذه الدويلات بعضها والبعض الآخر وتداركت في وقت متأخر الخطر المشترك الذي يهددها وسعت الى تجميع قواها لمواجهة الغزو الأجنبي •

ومن الأمثلة على ذلك العلاقات بين ساموري ثوري وتيبا ، وكانت علاقات سيئة بسبب اختلاف أطماع كل منهما وقد أدى هذا الاختلاف الى مواجهات عسكرية ، اذ قام ساموري بحملة ضد سيكاسو عاصمة دولة تيبا استمرت عدة شهور وخسر فيها الطرفان خسائر ضخمة في الأرواح وفشل الحصار وعاد ساموري أدراجه •

وعمل حكام التكلور على ازالة الخلافات بين ساموري وتيبا وأدخلوهما في تحالف معهم وكان هذا التحالف قائما على أساس الاعتراف المتبادل باستقلال كل منهم وسيادته على أرضه ، واقتصر التحالف على التضامن في وجه الغزو الفرنسي لبلادهم • وتعد سياسة حسن الجوار التي قامت بينهم بعد التحالف دليلا على امكان التعاون بين هذه الممالك الاسلامية برغم اختلاف انتماءات هذه الدويلات من حيث الطوائف الدينية •

وقد ساهم المغاربة بتقديم خدماتهم الى هذه الدويلات ، وكانت خدمات كبيرة تتناسب مع مهنة التجارة التي يحترفونها في مختلف أنحاء غرب أفريقيا ، وكان الفرنسيون يخشون نفوذهم كمندوبين سياسيين لكل من التكلور وساموري • وقد ذكر أرشيفر أحد القواد الفرنسيين أسمى اثنين منهم ممن كانت لهم مكانة عند كل من أحمدو زعيم التكلور وساموري وكان كلاهما من كبار التجار في السودان الغربي وقد أتاح لها ذلك معرفة واسعة بأحوال المنطقة • وقد تظاهروا بالود للفرنسيين وأبدوا عدم اهتمام أو اكراه بشئون السياسة مما جعل بعض الفرنسيين يعتبرونهم أصدقاء لهم ولم يكتشفوا حقيقتهم الا مؤخرا •



فوجيء الفرنسيون كذلك بتحول زعيم كان من أصدقائهم هو تيبا حاكم كندوجو ( KénéDougou ) وكان معروفا بعدائه لكل من ساموري وأحمدو . كما أن حركات المعارضة لامبراطورية التكلور التي كانت تغذيها فرنسا اكتشفت أنهم وامبراطورية التكلور نفسها كلنوا ضحية لغدر فرنسا وهذا ما أدى الى خلق نوع من المصالح المشتركة بين التكلور والعناصر المناوئة لهم ، وكان دافعهم للتعاون دافعا مشتركا وهو المحافظة على كيانهم الخاص وشخصيتهم الثقافية وهو ما كان يحركهم في الماضي ضد التكلور .

من جهة أخرى فإن تعاون هذه العناصر مع التكلور لم يكن يعنى قبولهم للإسلام أو الاعتراف بشرعية سلطة التكلور عليهم ، والتغيير بالنسبة لهم في الاستراتيجية لكن الهدف لم يتغير (٢٢) .

وبالنسبة للتكلور فإن أهدافهم مختلفة عن أهداف هذه العناصر ، وبالتالي فإن التعاون بينهما لم يتوقع له أن يستمر الا كما يستمر التهديد الفرنسي لكل منهما .

انضم تيبا للتحالف عندما اكتشف أن الفرنسيين يستخدمونه كأداة لتدعيم نفوذهم الاستعماري في السودان الغربي ، ولانقاذ دولته سارع الى الاستجابة لجهود التكلور للتوفيق بينه وبين ساموري وكان ساموري أيضا راغبا في الوصول الى تسوية حتى يتفرغ لمواجهة التهديد الفرنسي لدولته . وهكذا تدعمت المصالحة بينهما بفضل التهديد الفرنسي والديبلوماسية الذكية التي استخدمها أحمدو حاكم التكلور . وقام التحالف أيضا بين ساموري ودولة فوتاجالون ضد فرنسا كرد فعل للتوسع الاستعماري الفرنسي . فممنذ عام ١٨٧٩ تعرض ساموري لضغط شديد من الفرنسيين كما أن اقامة المواقع الفرنسية في الأنهار

---

(22) OLORUNTIMEHIN : Anti - French coalition of African states and groups in the bestern Sudan, p. 8.



الجنوبية — شمال دولة غينيا حاليا — ونشاطهم على حدود فوتاجالون نفسها جعلها تحس بعدم الأمان • وكان سامورى قد وسع حدود دولته فى ذلك الوقت لتصل الى حدود فوتاجالون وقد تبين له هو وامام فوتاجالون أن لهما قضية مشتركة ضد الفرنسيين ومن ثم فإن الزعيمين أقاما منذ ٧٩ — ١٨٩٣ علاقات ودية بينهما وتعاوناً ضد الفرنسيين •

فى الفترة السابقة لعام ١٨٨٩ كانت العلاقات بين التكلور وسامورى وتيبيا قائمة على أساس حسن الجوار ، وأدى التفاهم القائم بينهم الى أن يكونوا حلفاء أقوياء بالرغم من مكائد المسئولين الفرنسيين وقد نجح الفرنسيون فى الماضى فى تقديم أنفسهم على أنهم حماة تيبيا ضد سامورى بل وحاولوا تدبير العداوات بين تيبيا والتكلور حتى يتمكنوا من استغلال الموقف لمصلحتهم • ولم تفلح الجهود التى بذلها الفرنسيون فى ٨٨ ، ١٨٨٩ للوقاية بين التكلور وتيبيا • وهذه النقطة جديرة بالملاحظة إذ أن التكلور استطاعوا أن يفوتوا على الفرنسيين تدبيرهم ومكائدهم واستطاعوا أن يحافظوا على النوايا الطيبة بينهم وبين تيبيا وهذا ما جعلهم فى موقف يسمح لهم باستخدام مساعيهم الحميدة فى التوفيق بين تيبيا وسامورى وأن يدخلوا كليهما فى التحالف ضد فرنسا (٢٣) •

واصل الفرنسيون محاولاتهم لتدمير دولة التكلور بوقف امدادات السلاح عنها وتدمير نظامها الدفاعى ، وفى عام ١٨٨٩ دمروا كونديان وكان الهدف من وراء ذلك افساد العلاقات بين سامورى والتكلور • أملى هذا على التكلور أن يدركوا أكثر من أى وقت مضى الحاجة الملحة لضرورة التعاون مع التحالفات القائمة ضد الفرنسيين • ولتحقيق هذا الهدف أرسل أحمدو الرسل الى سامورى وامام فوتاجالون وعدد آخر من زعماء المنطقة (٢٤) •

(23) OLORUNTMHIN : op. cit., p. 13.

(24) OLORUNTIMEHIN : op. cit., p. 14.



وأدى تجدد الهجوم الفرنسى ضد سامورى والدول الواقعة شى  
سنجامبيا الى التعجيل بمحاولة اقامة جماعة متآلفة من بين العناصر  
العديدة المعادية لفرنسا • وجاء الهجوم الفرنسى عقب فشل المناورات  
الديبلوماسية التى قامت بها فرنسا فى فبراير ومارس ١٨٨٩ بهدف  
تحييده حتى تطلق يدهم فى تدمير دولة التكلور •

وتعاونت كل الجماعات فى تنفيذ مخطط محاربة الفرنسيين • ومع  
بداية عام ١٨٩٠ كانت الجماعة المعادية لفرنسا تضم التكلور وفوتاجالون  
وفوتاتورو وريب والـجـولوف وسامورى • جمعت كل هذه  
القوى حشدا كبيرا من القوات يقدر بعشرة آلاف رجل ، لكن التأييد الذى  
كانت فرنسا تجده بين حلفائها الافريقيين جعل المهمة صعبة وهذا  
ما حدا بأحمدو أن يحاول عزل هؤلاء الافريقيين عن فرنسا • ولهذا  
أرسل أحمدو رسلا الى تيبا حاكم كندوجو للتوفيق بينه وبين سامورى ،  
وفى نفس الوقت بعث أحمدو برسلا آخرين الى كانكان لمصالحة العناصر  
المناوئة لسامورى معه •

ولكن رغم نجاح التآلف فى كسب المزيد من الأنصار نقضيته ظل  
الموقف دقيقا وخطيرا اذ أن تيبا والبميرة والعناصر المعادية للتكلور  
استمروا فى تعاونهم مع الفرنسيين الذين يعتبرونهم أصحاب الفضل  
فى الحفاظ على استقلالهم ضد سامورى والتكلور • واستمر هؤلاء فى  
التعاون مع الفرنسيين حتى عام ١٨٩١ ، وفى نفس الوقت وسع الفرنسيون  
حملاتهم ضد التكلور فى كارتا وضد سامورى وتعاملوا بوحشية مع  
قوات الاتحاد ومؤيديه وأعدموا كل من ثبت لديهم قيامه بأعمال لصالح  
هذا الاتحاد • وكانوا يشكون فى كل مسلم ويعتبرونه مملوءا بالتعصب  
وهم يسلم من هذا الاتهام مترجمهم ذاته ، وكان هذا الموقف المتطرف  
يهدف الى التخويف واجبار الجميع على الخضوع والاستسلام •

كان الفرنسيون يخشون كذلك — كما سبقت الإشارة — المغاربة



الذين انضم بعضهم « لأجهزة المخابرات » التابعة للزعماء الافريقيين  
فى حين اشترك البعض الآخر فى الحملات العسكرية ضد الفرنسيين •  
ومنذ تبين للفرنسيين حقيقة موقف المغاربة فى قيامهم بهذا الدور المزدوج  
أصبح القواد الفرنسيون يعاملونهم بوحشية وقسوة على أنهم جواسيس •  
وقد أبدى أرشينار أسفه لعدم القيام بحملات عسكرية انتقامية ضد  
المغاربة لأنه يصعب تتبعهم فى الصحراء ولكن يمكن ضربهم عن طريق  
وقف تجارة الرقيق فى السودان الغربى والتى تعتبر مادة أساسية فى  
معاملاتهم التجارية • وهو سلاح مشهور يستخدمونه فقط ضد أعدائهم  
لأنه يضر بالطرفين على سواء • لذلك اعتبر الفرنسيون أن أفضل سلاح  
ضد المغاربة هو تجريد الحملات العسكرية ضد قوى الاتحاد التى  
يحاربون معها (٢٥) •

وبالرغم من جهود قوى التحالف الا أن الفرنسيين وحلفاءهم كانوا  
يحرزون انتصارات عليهم • وعندما استولى الفرنسيون على كارتا  
وسيجو توقع البمبرة أن يعيدوا اليهم هذه الأرض بعد تحريرها ، وكان  
البمبرة يتعاونون مع الفرنسيين على هذا الأمل لكن الفرنسيين صدوهم  
بطريقة جافة مما جعلهم يتبينون أن الفرنسيين قد استخدموهم لمصلحتهم  
الخاصة — وبذا أدركوا أن الفرنسيين أسوأ من أعدائهم من الافريقيين  
لذلك انضموا الى قوى الاتحاد ضد فرنسا وظلوا يحاربونها حتى سقوط  
دولة النكولور •

وقد مر بالتجربة نفسها تيبا حاكم كندوجو الذى كان قد تعاون مع  
الفرنسيين من أجل تدعيم مركزه فى مواجهة سامورى ، وفى تعاونه  
هذا كان يدعم عن غير قصد المشروعات الاستعمارية الفرنسية فى  
السودان الغربى • لذلك استجاب تيبا للمحاولات الدبلوماسية للنكولور  
التي بدأت فى ١٨٩٠ وانتهت بالمصالحة مع سامورى الذى أوقف بالتالى

---

(25) OLORUNTIMEHIN : op. cit., p. 17.



حملاته ضد كندوجو • وقد جمع الزعيمان قواهما فى محاربة الفرنسيين واستمر تيبا على ذلك حتى توفى عام ١٨٩٣ — وبانضمامه للتحالف كانت كل القوى الافريقية داخلية فى الاتحاد •

واجه الاتحاد محنة قاسية بسقوط امبراطورية التكلور ووشاة تيبا فى ١٨٩٣ ، واستمر سامورى فى حروبه ضد الفرنسيين حتى عام ١٨٩٨ وكان يساعده بابمبا ( Babemba ) شقيق تيبا واستمر التعاون بينهما الى النهاية التى كانت فى عام ١٨٩٨ وبسقوط سامورى التهمت فرنسا كل العناصر الباقية سواء داخل الاتحاد أو خارجه (٢٦) •

كان بين الصعوبات التى واجهها الاتحاد عدم الانسجام السياسى والاقتصادى الذى يفرق بين شعوب السودان الغربى وعدم تناسق الأهداف الخاصة بكل جماعة • كان الاتحاد قائما على أساس خليط من الرغبة فى الاستقلال ومعاداة الاستعمار والمحافظة على المصالح التجارية والتضامن القبلى والدينى • وليس من السهل ايجاد الوفاق بين هذه الفئات المختلفة فى الاتحاد • وبالنسبة لمعظم المنظمين للاتحاد كان الاعتبار الأول ، الحاجة للمحافظة على استقلالهم ليس ضد العدو المشترك فحسب بل ضد كل منهم الآخر • وحتى هذا الهدف لم يمكن تحقيقه بسبب تساقط الأقاليم المختلفة فى مواجهة الغزو الفرنسى • ويرجع الفضل فى نجاح الفرنسيين الى استغلالهم الماهر للخلافات بين عناصر لاتحاد ، ولكن يأتى فى مقدمة الأسباب بطبيعة الحال تفوق السلاح الفرنسى •

---

(26) OLORUNTIMEHIN : op. cit., p. 26.



## المراجع

1. ARCHINARD, Colonel L. : Le sénégat et le Soudan Français ( Alfred Rambaud ( ed. ) : La France Coloniale ), Armand Colin ( Paris, 1893 ).
2. Crowder, Michael : West Africa under colonial rule, Hutchinson ( London, 1968 ).
3. Darcy, Jean : France et Angleterre, cent années de Rivalité colonial, Perrin ( Paris, 1904 ).
4. HALLET, Robin : Africa since 1873, Vol. II, Heinemann Educational Books, ( Ibadan, 1975 ).
5. HARGREAVES, John D. : Prelude to the partition of West Africa, Macmillan ( London, 1966 ).
6. HERTSIET, E. : The map of Africa by treaty, Vol. 11, Frank Cass. ( London, 1969 ).
7. NEWBURY, C. W. : The developement of French Policy on the Lower and Upper Niger, 1880 - 1898, The Journal of Modern History ( Chicago ), Vol. XXXI, March - December 1959.
8. NEWBURY, C.W. & KANYA - FORSTNER, A.S. : French Policy and the origins of the scramble for West Africa, Journal of African History ( London ), X, 2 ( 1969 ).
9. OLORUNTIMEHIN, Olatunji : Anti - French coalition of African states and groups in the Western Sudan, Journal of West African Studies, University of Ife ( Nigeria ) New Series, No. 3, April 1970.
10. ROBINSON, R. & Others : Africa and the Victorians, the official mind of imperialism, Papermac ( London, 1970 ).
11. UKPABI, S.C. : West Africa and Europe in military confrontation, Journal of the Historical Society of Nigeria ( Ibadan ). Vol. VI, No. 1, December 1971.











# **الدلالات التاريخية لأسماء المحلات العمرانية مع التطبيق على محافظة القليوبية**

**الدكتور أحمد محمد عبد الله حميد**  
كلية الآداب ببها

## **مقدمة :**

موضوع أسماء المحلات العمرانية ( Toponymy ) من الموضوعات الجغرافية البكر ، التي تحتاج الى توجيه الجهود لدراستها • ومن ثم ، فالبحث الحالى مجرد لقاء الضوء على دلالات أسماء بعض المحلات العمرانية المصرية ، بغية اعطاء صورة اجمالية عن الهيكل العام لدلالات تلك الأسماء • أما الدراسة التفصيلية فمن الصعب الالمام بها هنا ، لأن احدى غايات هذا العمل هى : تقديم وتوضيح بعض النقاط التى يمكن أن تكون عناصر لموضوعات يتناولها الباحثون فيما بعد فى دراساتهم بصورة أعمق •

لذا ستقتصر الدراسة فى البحث الحالى على :

## **دلالات أسماء المحلات العمرانية فى محافظة القليوبية :**

ودراسة أسماء الأماكن فى مصر — وهى أساسا مسئولية الجغرافى بالتعاون مع المؤرخ ، فضلا عن اللغويين — لم تتقدم بعد كثيرا ، على نحو ما فعلت مثيلاتها فى غرب أوروبا ، خاصة بريطانيا وفرنسا ، حيث طفرت الى علم كامل قائم بذاته ، يالغ النشاط والحيوية • وما زلنا نفتقد



خريطة كاملة تفصيلية لجميع أسماء الأماكن محققة في مصر ، توزع مصنفة بحسب أصولها التاريخية سواء فرعونية أو كلاسيكية أو قبطية ، أو عربية • ( ٣٣ : ٢١٧ - ٢١٩ ) •

وأسماء المحلات العمرانية ذات أهمية خاصة في دراسة أصول التوزيع وانتشاره ، وكذلك في دراسة ملامح المحلات العمرانية القديمة ، والصفات المميزة لها • ولكن يجب الحذر ، لكثرة اختلاط الأسماء ومسحها ( ٢٢ : ٣٥٨ ) • وفي أسماء الأماكن مثلاً ، من القواعد العامة انها محافظة بطبيعتها ، غائرة الجذور في التاريخ القديم ، ولا تقتلع بسهولة وان تحولت بالتحريف ( ١٩ : ٤٧٥ ) •

ولا تكاد توجد في العالم محلات عمرانية ، ظفرت بتعاقب جملة من الأسماء عليها قديماً وحديثاً — كما يرى في المحلات العمرانية المصرية • وذلك بسبب ظاهر ، وهو توالى الفتوح والاستعمار على مصر ، ومحاولة كل مستعمر ، وخصوصاً : اليونان والرومان ، اطفاء الجذور الوطنية ، والنصرة القومية ، في مصر ، التي كانت تفاخرهم : بآثارها ، وحكمتها ، وتاريخها • فحاول اليونان والرومان طمس المعالم المصرية ، وتضييع معالم أسماء المحلات العمرانية المصرية ، وخلق أسماء جديدة ، شيها رطانة يونانية ورومانية ، لعل مصر تنسى على مر الزمن : أسماء مدنها ومجد تاريخها •

ومن أسباب التحريف في أسماء المحلات المصرية ، ذلك الخطأ الظاهر بسبب سوء النقل وعدم العناية في كتابة النبرات ، وتحويلها في الأسماء العربية الى حروف ، ثم وضع النقط الفوقية أو التحتية بدل بعضها ، كما يتبين عند مقارنة أسماء القرية الواحدة بعضها على بعض • ويكتب العرب أسماء الاعلام المعروفة لهم دون نقط ، أو لعلمهم ينسون كتابتها ، أو يغيرون مواضعها ( ٢٣ : ١٥٣ ) •



ولكن على الرغم من هذا ، فان الأسماء المصرية عادت الى الظهور ، وان كان قد أصابها بعض التحريف أو المسخ أو التحويل أو الترجمة ، ولكن هناك وسائل لتصحيحها واعادتها الى أصولها ، لأن هذه الأسماء بالغة العراقة فى القدم •

وتعد معاجم البلدان لكى تمد القارئ بما يمكن أن يسمى : المفاتيح العملية للبلدان ، واستعمال أسمائها للتعرف على مواقع البلدان ، ومعالمها ، وأنشطتها وآثارها • والمعاجم مفيدة بيد أنها غالبا ما تتباين فى طريقة التنظيم أو الترتيب أو تكون قاصرة عن تقديم المعلومات المطلوبة •

وللوصول الى حقائق دلالات أسماء المحلات وأدق التفاصيل ، فقد رجع الباحث الى العديد من المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، على نحو ما هو مبين فى نهاية البحث •

وسيقصر البحث على :

### **الدلالات التاريخية لأسماء المحلات العمرانية :**

بدراسة ترتيب ظهور المحلات العمرانية بمحافظة القليوبية ، حسب ورودها فى المراجع العلمية يمكن تفسير الدلالات التاريخية لأسماء المحلات العمرانية ، وفقا للمراحل التاريخية الأربع التالية :

\* المحلات العمرانية القديمة : أى التى ترجع الى العهد الفرعونى وما قبل الفتح الاسلامى •

\* المحلات العربية : ويقصد بها المحلات التى ترجع الى عصر الولاة العرب وحتى نهاية الدولة الفاطمية •

\* المحلات من عهد الايوبيين الى الحملة الفرنسية : وهى المحلات التى ترجع الى عهد الدول : الايوبية — المملوكية — العثمانية — وحتى الحملة الفرنسية •







\* المحلات العمرانية الحديثة : وهى المستجدة منذ عصر محمد  
على وحتى الوقت الحاضر .

### ( ١ ) المحلات العمرانية القديمة :

بالرجوع الى الشكل رقم (٢) واستعراض أسماء المحلات العمرانية  
فى محافظة القليوبية : منذ بدء ظهورها فى العصر الفرعونى ، وعلى  
العهدين اليونانى والرومانى حتى بداية الفتح العربى لمصر ، يشاهد أن  
كثيرا من تلك المحلات القديمة لا تزال تحتفظ : بمواقعها ، وأسمائها ،  
ومنها :

١ - أتريب : يقول جوتيه ( ٣١ ، ج ٦ : ٥٨ ) ان اسمها المصرى  
المدنى : ( Hat - hir - Abt ) ومعناها ( قصر اقليم الوسط ) ، واسمها  
الدينى ( Ka-Kim ) ، أى ( مدينة الثور الأسود ) وهو معبود أهلها ،  
واسمها اليونانى ( Athribis ) والاشورى ( Hatterib ) والقبطى  
( Atrebi ) ومنه اسمها العربى ( أتريب ) .

ويصف متن مصرى مدينة أتريب بأنها : « أهم المدن فى وسط  
الدلتا ، على الفرع الأوسط للنيل ، وهى المركز الرئيسى الذى يؤدى  
الى البلاد الأجنبية ( ١٨ : ٣١ ) . وكان لأتريب شأن عظيم فى الاسرة  
الثامنة عشرة ( ١٩ ، ج ١ : ٤٦٤ ) .

وكغيرها من المحلات العمرانية المصرية ، تعرضت ( أتريب ) خلال  
بعض فترات الاحتلال الأجنبى الى تغيير اسمها ، فقد أصبح ( ليمير  
اشاك آشور ) عندما عين عليها ( نابو شزيانى ) بن « نخاو » من قبل  
« آشور بنيبال » ، ( ١٩ ، ج ٦ : ٥٥٦ ) ولكن عندما تخلصت مصر من  
الاستعمار الاشورى كان قد عاد الى أتريب اسمها المصرى .

وكانت أتريب قاعدة للقسم العاشر من الوجه البحرى فى عهد  
الفراعنة ( ١٨ : ٣١ ) ، وكانت قاعدة ابرشية حتى القرن الثامن الميلادى .







وقد بدأ خراب مساكنها من القرن السابع ، ويعرف محلها اليوم باسم ( تل اتريب ) ، وأحواض : ( اتريب الشرقى رقم ١٥ ، واليحرى رقم ١٦ ، والغربى رقم ١٧ ) بشمالى زمام مدينة بنها ( ٢٧ : ١٨ ) واستترفت مكونات تل اتريب ، وقامت على أرضه المساكن والمنشآت الحديثة •

ولاحياء اسم اتريب أطلق اسمها على موضعين : نصف اتريب ، وكانت عزبة من توابع ريف مدينة بنها ، وهى اليوم ضمن زمام شياخة بنها الجديدة ، اما نصف اتريب الآخر فهو عزبة أخرى هى اليوم جزء من مبانى قرية ( كفر موسى ) •

وأتريب هذه ، غير اتريب المدرسة ، من الأخميمية ( ٢٦ : ١١ ) ، وكانت تسمى باليونانية أيضا ( Athribis ) ومحلها اليوم آثار ( أدريية ) ، بمحاجر الجبل الغربى ، بأراضى ناحية ونينة ، جنوب غربى سوهاج بنحو ستة كيلو مترات •

٢ - **بنها** : بنها وأتريب اسمان لمحتين قديمتين متجاورتين فى الموضع • فبنها من القرى القديمة ، ذكرها جوتيه فى قاموسه ، فقال ان اسمها المصرى ( Per - Neha ) والقبطى ( Banaho ) ومنها اسمها العربى ( بنها ) •

واسم بنها المصرى ( بنها ) بالكسر ، ويتكون من مقطعين : ( بنى ) ومعناها : بيت أو حظيرة ، و ( نها ) ، ومعناها شجر الجميز ، وكان له شأن يذكر عند قدماء المصريين ، فكانوا يصنعون منه التوابيت والأثاث والتماثيل • ويحتمل أن تكون ( بنى ) أداة التعريف ، و ( نها ) جميزة ، فيكون معنى بنها : الجميزة ولها مثل وهى الجميزة التى بمركز السنطة ( ٢٧ : ٢٠ - ٢٣ ) من محافظة الغربية •

وقد تضمنت هدية المقوقس الى النبى محمد ( صلى الله عليه وسلم ) عسلا من عسل بنها ، وأعجب به الرسول صلى الله عليه وسلم فدعا فى



عسل بنها بالبركة ( ٥ : ٤٨ — ٥٢ ) ، ويقول ياقوت ان اسمها ( بنها العسل ) ، ( ١٢ : ٥٠١ ) • ويقول صاحب مراصد الاطالع ( ٢٢٦ : ٦ ) ، بنها : من قرى مصر ، والناس اليوم ( على عهد صاحب المراصد المتوفى سنة ٥٧٣٩ هـ — ١٣٣٨ م ) يفتتحون أولها ، منها أجسود عسل مصر • ولا يزال العامة لليوم ينطقونها بالفتح •

وعندما ترجم العرب أسماء بعض المحلات العمرانية المصرية الى اللغة العربية ، كانوا يضيفون الى الاسم المصرى القديم ترجمته العربية ، ومدينة بنها ترجمتها بالعربية : العسل ، فعرفت باسم بنها العسل ( ٢٨ : ٣٤٠ ) ، ويذكر على مبارك ( ١٠ ، ج ٩ : ٨٨ ) أن بنها بلدة عامرة من قبل الاسلام •

٣ — شبرا الخيمة : اسمها الأصلى وهو المصرى القديم ( شبرو ) • ويرى محمد رمزى أن ( شبرو ) محرفة عن ( جبرو ) وهى كلمة قبطية معناها : الكوم أو التل ( ٢٧ : ١٣ ) ذكرها اميلينو فى جغرافيته باسم ( Shoubra Rahimeh ) وقال ان اسمها العربى هو : شبرا رحمة ، والقبطى ( Prohibo ) •

ذكرها ابن حوقل ( ٣ : ١٣٣ ) باسم ( شبروألأو ) ، قال : كثيرة الأهل ، غزيرة السكان ، بها : حمام ، وجامع ، وقاوس ، وعامل ، ولها كورة جلييلة • وفى باب ( شبرا ) يذكر ياقوت فى مشتركه ( ١١ : ٣٦٧ — ٢٦٨ ) أن شبرا ٥٣ موضعا ، جميعها من قرى مصر ، وأنه لا يعلم أن هناك قرى سميت بهذا الاسم خارج مصر ، مما يوحى بأن الكلمة ذات أصل مصرى قديم ، يقال انها تعنى المزرعة ( ٢١ : ١٥ ) •

٤ — طوخ : من القرى القديمة ، وردت فى قوانين ابن ممتى ، وفى مشترك ياقوت وفى التحفة ( ١ : ١٢ ) طوخ مجول ، لقربها من قرية مجول ولتتميزها من مسمياتها المتعددة • ويشير ياقوت فى المشترك ( ١١ : ٢٩٦ ) الى أن طوخ أربعة عشر موضعا ، وجميعها من أعمان مصر •



وطوخ ، اسمها المصري القديم ومعناه : الملققة ( الملققة والملق ما  
المتسع من الأرض ) وكان يطلق عليها ( طوخ الملق ) أي بإضافة الترجمة  
العربية للناسم ( ٢٧ : ٣٤٠ ) . ولما اختيرت حاضرة لمركز طوخ سنة  
( ١٨٩٦ ) اشتهرت وانفردت باسم طوخ بين سمياتها بغير مميز .

٥ - شبين القناطر : قرية قديمة ، ذكرها اميلينو في جغرافيته  
باسم ( Schebenti ) مع أسماء : أثريب ونائها تي ( ناي الحالية ) وناوى  
( نوى الحالية ) وابليل ( تل بليم بحيرة المتسلسلة ) أوردها ياقوت في  
مشاركه باسم : شيبين : من قرى الحوف بمصر ( ١١ : ٢٧٩ ) ولاجل  
تمييزها من شيبين التي في المنوفية وردت في قوانين ابن ممتى وفي  
تحفة الارشاد باسم شيبين القصر من أعمال الشرقية ( ٢٧ : ٣٥ ) ووردت  
في التحفة السنية ( ١ : ١١ ) باسم شبين القصر ( باسقاط الياء التي بعد  
الشين ) ولكنها في الانتصار شيبين ( بيائين ) ( ٤ ، ج ٥ : ٤٩ ) .

ويذكر ابن ايام ( ٢٥ : ١٥٣ ) أنها عرفت باسم شبين القناطر  
لأنها اشتهرت بالقناطر التي أنشأها الخديعة ( على بحر ابي المنجاء ) الملك  
الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٣٥ هـ ( ١٣٣٥ م ) ولكنها بقيت سنة  
١٨٩٣ ظلت مسجلة في الخفائر باسم شيبين القصر ، ولأنها كانت معروفة  
على لسان العامة باسم شيبين القناطر فقد قيد زمامها منذ ذلك التاريخ  
باسمها الحالي ، وقد تكون ( القصر ) هي الترجمة العربية لكلمة ( شيبين ) .  
ومن المرجح أن شبين القصر اسمها من أطلال حصن تل اليهودية  
القريب منها ( ٣٠٢ : ٥٠٧ ) .

٦ - سرياقوس : ذكرها أميلينو في جغرافيته فقال : كان اسمها  
القبلي ( Siriaqous ) ويرجح معمد رمزي أنها كانت في بدء تكوينها  
عزبة أنشأها Ciryaqous الذي كان واليا على قسم أثريب فسميت باسمه  
( ٣٧ : ٣٥ ) .

٧ - باسوس : ورد الاسم ( باسوس ) ( Pasos ) في الأوراق  
الديموطيقية في عهد ( بطليموس الثاني ) و ( باسوس ) ( الاسم شمس )



ورد في عقد نقل ملكية حقل ، على انه المزارع خادم ( حور ) المسمى  
( حاربانتريس ) بن ( باسوس ) و ( تابكيس ) • فباسوس هو الأب  
وتابكيس هي الأم ، ( ١٩ ، ج ٥ : ١٠٥ - ١١٤ ) وربما كان باسيوس  
صاحب أملاك ، وقد يكون اسمه قد أطلق على قرية ( باسوس ) •

وفي العصر الإغريقي الروماني فتحت مصر أبوابها على وجه  
خاص لشعوب الأغريق والرومان وشعوب البحر المتوسط العديدة •  
ولقد اندمج الإغريق في الحياة المصرية بسرعة ، وبمرور الزمن تمصر  
الكثير منهم وإقبل المصريون في العصر الهلنستي ( الإغريقي المتأخر )  
على اللغة الإغريقية ، وعلى كتابة لغتهم المصرية القديمة بالحروف  
الإغريقية ، وتسمى اللغة المصرية المتأثرة بالإغريقية باللغة القبطية  
( ٢٥ : ٢٨٧ ) •

وفي تلك الفترة تبنى المصريون الأسماء الإغريقية للأشخاص  
والمحلات • وتبدو معظم هذه الأسماء وقد اتخذت الشكل اليوناني  
المنتهى عادة بالمقطع ( OS ) • غير أن هذا لا يعني انها جميعا يونانية  
الأصل ، بل كان بعضها — على العكس — مصري الأصل ، استعاره  
اليونان بالمقابل وحرفوه الى قالبهم ذلك • وعلى أي الأحوال فان تلك  
الفترة هي التي تفسر تلك الأسماء التي انحدرت الى مصر بعد ذلك  
محرقة • كما تشاهد اليوم بين أشخاص الأقباط وفي أسماء المحلات  
وتبدو غير مفهومة الأصل والمعنى بغير ذلك ( ١٦ : ٢٨٤ ) • فمثلا من  
أسماء الأشخاص : استيفانوس ، باسيلوس ، منقريوس ، مرقص ،  
ارمانيوس ، فلثاؤوس ، وساويرس ، ومن أسماء المحلات العمرانية  
( في نطاق محافظة القليوبية ) : اتريبيس ( اتريب ) — سندبيس —  
سرياقوس وباسوس •

ثم بالعودة الى الشكل رقم (٢) واستعراض أسماء المحلات  
العمرانية فانه يبقى بشأن المحلات القديمة نقطتان :



✳ **النقطة الأولى :** وردت بعض القرى ذات الدلالة التاريخية للعهد الفرعوني وحتى الفتح العربى ، وورد ذكر بعضها فى المراجع التاريخية دونما شرح لدلالات أسمائها ، ومن تلك القرى :

✳ **قها :** عندما زار ( بيغزى ) ( ٧٥١ ق م - ٧١٦ ق م ) اتريب ، ضرب جلالته خيمته فى الجنوب من ( كاهنى ) ( قها الحالية ) ، الواقعة شرق مقاطعة اتريب ( ١٩ ، ج ١١ : ٢٩ ، ٥٣ ) .

وذكر جوتيه قرية فى قاموسه باسم ( Kahani ) من قرى القسم الشرقى من قسم اتريب . كما ذكر جوتيه قرية أخرى باسم Qah - Hor وقال انها مدينة مصرية تقدر عبادة الاله هوريس ، ومن المرجح أن يكون هو الاسم القديم لمدينة قها .

✳ **بهتيم :** وجد بها تمثال ( بدون رأس للملكة نفرثارى ) زوج ( رمسيس الثانى ) ( ١٩ ، ج ٦ : ٤١١ ) ، ومكتوب على ظهره ثلاثة سطور رأسية ، مذكور فى أولها : المحترم لدى حاتحور صاحبة ( حتب حيم ) ، وقد تكرر هذا الاسم مما يدل على أنه اسم قرية ، ويحتمل أن يكون هو الاسم المصرى القديم لقرية بهتيم .

وورد فى الانتصار ( ٤ ، ج ٥ : ٤٥ ) أن بهتيت ( بهتيم ) من المدن القديمة وبها كيما و آثار قديمة .

✳ **نوب طحا :** وجد فى هذه القرية محراب صغير ( غير كامل ) باسم الملك ( بسمتيك الأول ) ( ١٩ ج ١٢ : ٧٧ ) . اسمها الأصلى نوب ، وردت فى الانتصار ( ٤ ، ج ٥ : ٥٠ ) باسم نوب طحا ، لتمييزها عن نوب طريف ( ٤ ، ج ٥ : ٦٨ ) التى بمركز السنبلأوين .

✳ **سندبيس :** وردت فى كتاب فتوح مصر ( ٥ : ١٤١ ) ضمن قرى الحوف الشرقى باسم ( دسبندس ) وفى القرن السادس الهجرى ( الثانى عشر الميلادى ) حرف اسمها الى ( سندبيس ) لسهولة النطق .



وغير تلك القرى ، هناك : أسنيت ، اكباد دجوى ، المشيموت ،  
الشوبك ، الناصرية ، ( الفؤادية سابقا وقبلها باسم الخراولة ) ، طفلن ،  
ناى ( نانهاى ) سندهور ، سندیون ، شبلجة • وجميع تلك القرى  
لم يرد بالمراجع تفسير لدلالات أسمائها •

✽ **النقطة الثانية :** وردت أسماء بعض المحلات التالية تاريخيا  
للقرى السابق ذكرها هنا — حسب ورود ذكرها فى المراجع الطلمية —  
ولكن صيغ أسمائها تشير الى أنها فرعونية النشأة • ومن هذه القرى :  
يطا ، جمجرة ، دجوى ، شبرا شهاب ، شلقان ، طنط الجزيرة ، أجهور ،  
مجل والقلزم •

ولعل تلك المجموعة الأخيرة من القرى لم تكن ذات شأن يجعلها  
ترد فى المتون المصرية القديمة ، أو لعلها كانت عزبا أو توابع لقرى أخرى  
أعظم شأننا منها ، بحيث تحجب شهرة القرى الأعظم ذكر القرى الأقل  
شأننا •

## (ب) المحلات العربية :

ويقصد بها المحلات العمرانية التى ترجع الى العصر العربى الأول  
( عصر الولاة ) وحتى نهاية الدولة الفاطمية ( ٦٤١ م — ١١٧١ م ) •

فعندها فتح العرب مصر ، تركوا مظاهر الحضارة الملاحية كما هى ،  
بل إن اللغة القبطية ظلت لغة المولوين الرسمية أمدا طويلا ، حتى القرن  
الثانى عشر الميلادى • ولم تصبح اللغة العربية / اللغة الرسمية للبلاد ،  
أو لغة الغالبية العظمى للمصريين ، إلا بعد خمسة قرون من بدء الفتح  
العربى ( ٢٥ : ٢٨٨ ) •

وكان الحكم الملاحى لمصر على العهد العربى — على وجه الأجمال —  
على عهده الأول ، لم يغير فيه شىء • إذ كان العرب رجال حرب وسيف ،



ولم يتعودوا حكم البلاد ، ولم يحذقوا فنونه ، ولم يكن بينهم نظام معروف قد يتخذونه في مصر ، أو يدخلون منه شيئا في ادارة أمورها • ومصر عريقة في الحضارة ، ذات نظام مقرر مشعب • بيد أن العرب أهل ذكاء وفهم سريع ، فكان في استطاعتهم أن يتناولوا أعنة الحكم التي وجعوها دونهم ، ويديروا بها الأمور على ما كانت سائرة عليه قبلهم ( ١٤ : ٣٣٠ ) •

ولما استولى العرب على مصر ، أطلقوا على الوجه البحرى اسم ( أسفل الأرض ) وعلى شرق الدلتا : ( الحوف الشرقى ) شكل رقم ( ٣ ) • وكانت مصر — منذ عهد الفتح العربى إلى أوائل الدولة الفاطمية — مقسمة من الوجهة الادارية إلى ثمانين كورة صغيرة ، وكانت الكورة في مساحتها تعادل المركز في المحافظة في الوقت الحاضر ( ٢٦ : ٣١ ) •

وعلى العهد الفاطمى أدمجت الكور الصغرى — فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر ( ٤٨٣ هـ — ١٠٨٩ م ) — فجعلت ٣٢ كورة كبيرة ، واستمر هذا التقسيم على وجه التقريب — تدور فى فلكه التقسيمات الادارية ، مع حذف قليل ، أو زيادة طفيفة ، حتى الوقت الحاضر •

وقد حشد العرب عددا كبيرا من التراجمة : القبط واليونان ، لحصر أسماء القرى المصرية • وقد أبقي هؤلاء التراجمة على أسماء القرى المصرية بحالها أو أضافوا إليها ترجمتها العربية ، أو حرفوه قليلا ليصل إلى مسمع العربى ، وغيروا أسماء بعض القرى •

وقد بدأت الموجة العربية الاسلامية غزوا لا هجرة ، وقد بدأت بأعداد محدودة كعملية فتح عسكرى بحت ، وكغزوة جنودها ذكور مطلقة ، أقامت كحاميات مدن حربية أساسا • وكانت سياسة ( عمر ) هى الحفاظ على التقليد العسكرى للجند ، بعيدا عن الزراعة والأرض ، بينما







كان ( عمرو ) هو واضح تقليد ( الارتباع ) (\*) كنوع من الرحلة البشرية ، ينتقل به العرب كل ربيع الى الصحراء ومراعيها ، حفاظا على تقاليد البدو والبلاد .

وقد نزل العرب منذ الفتح العربي بشرق الدلتا ، ومنه الجزء الذي تشغله محافظة القليوبية الحالية . فمنذ أن دخل الجيش العربي الفاتح مصر ، أخذت بعض القبائل العربية تنزح اليها لاستيطانها . وقد قدم بعضهم مع عمرو بن العاص ، وجاء البعض بعد ذلك . وتكاثر القبائل العربية ، وكان لأهلها شوكة ، وراحوا يختلطون بالأهلين . وقد نزل العرب في أول الأمر في الثغور والفسطاط لا يترحونها الا بأذن القائد . وكان الناس يجتمعون بالفسطاط فإذا حضر الربيع ، خطب عمرو بن العاص الناس ، فقال « قد حضر الربيع ، فأنصرفوا ، فإذا حمض اللبن ، واشتد العود ، وكثر الذباب فحى على فسطاطكم . ولا أعلم ، ما جاء أحدكم قد أسمن نفسه ، وأهزل جواده » ( ٥ : ١٤٢ ) .

وكان إذا جاء وقت الربيع واللبن ، كتب لكل بريعهم ولبنهم الى حيث أحبوا . وكانت القرى التي يأخذ فيها عظمهم : منوف ، ودسبندس ( سندبيس ) وأهناس ، وطحا ( \*\* ) وكان أهل الرأية متفرقين . وكانت عدوان تأخذ في بوصير ، وقرى عك التي يأخذ فيها عظمهم وبوصير ، ومنوف ، ودسبندس ، وأتريب . وكانت فهم تأخذ في : أتريب ، وعين شمس ، ومنوف . وكانت حزموت تأخذ في : ببا ، وعين شمس ، وأتريب ، وآل يسار بن لينة في أتريب . وكانت المعافر تأخذ في : أتريب وسخا ، ومنوف ، وكان لغفار أيضا مرتبع بأتريب ( ٥ : ١٤١ ) .

(\*) الارتباع هو ما يسمى الآن بالهجرة الفصلية ( Trance humance ) وهو شيء معروف عند كل الرعاة من عرب واسبان وصقالبة ، ويعرف في صعيد مصر بالتصيف أو التريبع .

(\*\*) طحا المقصودة هنا هي ( طحا الاعمدة ) من مركز سيمالوط بمحافظة المنيا وليست ( طحانوب ) من محافظة القليوبية .



وقد توالى استيطان العرب بالهجرة من الجزيرة العربية الى مصر .  
ويذكر المقرئ أن ( عبيد الله بن الحبحاب ) — عامل هشام بن عبد الملك  
على خراج مصر ( ١٠٥ — ١٢٥ هـ — ٧٢٤ — ٧٤٣ م ) استأذنه في الجاق  
نفر من قبيلة ( قيس ) بمصر ، فوافق هشام ، على الا ينزلوا بالفسطاط  
فأتواهم ابن الحبحاب في الجوف الشرقي ، وفرقهم فيه ( ٢٦ : ٢٣ ) .

وفي ولاية ( الحر بن يوسف ) على مصر ، كتب عبيد الله بن الحبحاب ،  
صاحب خراجها الى هشام ابن عبد الملك ، بأن أرض مصر تحتل الزيادة ،  
فزاد على كل دينار قيراطا ، فانقضت علامة الجوف الشرقي ، فبعث  
اليهم ( الحر ) بأهل الديوان فحاربوهم ، فقتل منهم بشر كثير . وكان  
ذلك سنة سبع ومائة هجرية ( ٧ : ٧٣ ) .

وقد ظلت تلك السياسة متارية ونافذة قرن كامل تقب للفتح ، وبعد  
فقط بدأ التحول الى الزراعة والاستقرار بالتدريج . غير أن ، عملية التوحيد  
قد تحولت الى هجرة : واسلحة المطلق مختلفة للنوع . فقد أخذت  
مجموعات وبطون من القبائل العربية تنزح الى مصر أولا في موجات  
محدودة ، ثم أصبحت موجات زاحقة . فقدم مصر في العهد الأموي  
اثنتا عشرة قبيلة من : قريش ، وقيس ، وجهينة ، والأزد ، وحمير ، ولخم .

وعلى العملة ، فمنذ الفتح والى نهاية الدولة الفاطمية ، كان عقد  
تبرأكم بمصر عدد كبير من القبائل العربية ، يعمده المقرئ في قوله :  
« ولما قدم الغز صاحب أسد الدين شيركوه الى مصر سكن بأرض مصر  
من العرب : غلحة ، وجعفر ، وطلح ، وجهينة ، ولخم ، وسيدنام ، وشيخان ،  
وعذرة ، وطلح ، وبنيس ، وجهينة ، ومغروم » ( ٢٤ : ٢٣ ) .  
وكان لجذام اقطاعات في : هريبط ، وتل بسطة ، ونوب ، وأم رمادة  
( كفر رمادة ) .

والعصر العربي الأول في مصر — الذي امتد زهاء قرنين ونصف  
قرن — كان العصر البطولي في تاريخ تروح القبائل العربية وتدفقها .



فكل حاكم عربى كان يستحضر معه أو يستدعى أهله وعشيرته • وكانت كل قبيلة تقطع أقطاعات من الأراضى البور أو الزراعية لاستغلالها ، خاصة على أطراف الدلتا ، فى الحواف الشرقى والغربى ، وأيضاً فى قلب الدلتا أو بطن الريف • ولقد كان هذا كله عاملاً جوهرياً فى الاتجاه نحو الاستقرار والتحول من الرعى إلى الزراعة ( ١٦ : ٢٩٩ - ٣٠٠ )

وشرق الدلتا بخاصة - وبمحافظة القليوبية على الأخص - على أطراف الصحراء وحواف المدن ، يغصن اليوم بأسماء الأماكن المستعملة من تلك القبائل • وكان ياقوت يذكر القبائل العربية فى بعض القرى والمواقع ، والتي قد تشعب إليها •

والقليوبية بالذات ، معروف عنها من قديم كثرة العائلات الانقطاعية الكبيرة ذات القفود والثروة من ذوات الأصول العربية ، والتي هى فى الواقع سلاله القبائل البدوية التى أقطعتها الدولة فى الماضى أراضى زراعية شاسعة لى تستقر ، وتكف عن الترحل وإثارة المتاعب لها •

وتعكس نطاقات الهوامش الدلتاوية أسماء الأماكن • وفى الهامش الصحراوى للقليوبية يشير العنصر العربى إلى الاستقرار ، وكثير من المحلات يلتصق بحد الصحراء مباشرة •

وإذا كان حصر الأماكن الأكثر أهمية أو شهرة ، وإرجاع أسمائها إلى أصولها فالبحر صعب ، أما فى حالة القري وسائر المواقع الصغيرة فإنه مستحيل • ولقد كتب كل من اميلينو ومحمد رمزى فى هذا وخدم قاموساً جغرافياً كاملاً • فكثير جداً من أسماء القري المصرية قد لا نجد له معنى مفهوماً بسهولة ومهما امتد الخيال يتعذر تصور أصول عربية له ، وفى الوقت نفسه لن نخطئ رنينه الفرعونى ومقاطعه الهيروغليفية • ( ١٧ : ٥٧٣ )



ويمكن تصنيف أسماء المحلات بحسب المقاطع الدالة فيها على التأثير العربى ، الى فئات كما يوضحها الشكل رقم (٤) وفيما يلى : عرض دلالات أسماء بعض تلك المحلات العربية .

#### ١ - محلات تحمل أسماء قبائل عربية : ومنها :

\* عرب العليقات : يشير عقيل ( ٣٨ : ١١٩ - ١٢٠ ) الى أن عرب العليقات هاجروا من سيناء فى أنحاء متفرقة من مصر فى أوائل القرن الثامن عشر . وبينما يؤكد عرب عليقات سيناء صحة هذه القرابة ، تذهب روايات عليقات النوبة انفسهم الى أن العليقات الأول هاجروا الى مصر أيام الحجاج ، ثم انقسموا الى سبع شعب ( رايات ) : واحدة بجبل الطور ، وأخرى بأبو زعل بالقليوبية ، واثنان بوادى العرب بالنوبة ، وخامسة فى بلانة ، وسادسة فى أدندان ، والسابعة فى السودان . ويؤكد نعوم شقير ( ٢٩ : ١١٢ ) هذه القرابة بقوله : والمشهور أن عليقات سيناء ، والعليقات القاطنين فى مديرتى القليوبية وأسوان ، من اصل واحد .

\* عرب جهينة : جهينة من أول العرب الذين دخلوا مصر ، أرسلهم عمر فى وادى النيل ، غير أن بعضهم أقام فى الصحراء . وهناك قبائل من جهينة سكنت الشرقية والقليوبية - كما يشير عبد المجيد عابدين ( ٨ : هامش ٦٨ : ٣٢ ، ٣٣ ) .

\* العمار الكبرى : من القبائل التى نزلت بمصر : فزارة . نزل جماعة منهم بالصعيد وجماعة أخرى بضواحي القاهرة ، فى قليوب وما حولها ، وبهم عرفت البلدة المسماة بخراب فزارة ، كما جاء فى البيان والاعراب ( ٨ : ٤٩ ) . واليوم تعرف خراب فزارة باسم العمار الكبرى (\*) .

(\*) سىلى حديث أكثر تفصيلا عن العمار ، ص ٣٦٠ .







وجاء فى قاموس محمد رمزى ( ٢٦ : ٤٣٥ ) ذكر قرية باسم :  
منية الفزاريين مع ميت العطار باسم منيتى العطار والفزاريين • ويقول  
رمزى : والظاهر ان سكان هذه القرية كانوا من عرب فزارة فعرفت بهم ،  
وكانت مشتركة مع منية العطار فى السكن والزمام فادمجت معها فى  
الروك الناصرى •

كذلك ، فان شبرا هارس كانت قديما تسمى : منية الفزاريين ، نسبة الى  
جماعة من عرب قبيلة فزارة ، نزلوا شبرا هارس هذه ، فنسبت اليهم  
( ٢٧ : ٤٥ ) وأعيد لشبرا هارس اسمها المصرى على عهد صلاح الدين  
الايوبى •

وغير تلك المحلات ، هناك مواضع ومحلات اخرى ذات الدلالة  
التاريخية للفترة العربية الاولى ، يشاهد أن بعض القرى التى نزلها  
العرب — كما سبق الذكر ومنها : نوب — أتريب — سندبيس ، ولم  
تتأثر اسمائها بأسماء القبائل العربية ، إلا أن هناك بعض المحلات الحالية  
القرية من : أتريب ، سندبيس ، نوب ، قد ترجع فى منشئها الى أصول  
تلك القبائل العربية •

فقريبا من أتريب هناك : بتمدة (كانت تعرف بعرب بتمدة) ، وجزيرة  
بلى (نسبة الى قبيلة بلى) • وقريبا من سندبيس ، هناك اللخمين ،  
التى استمدت اسمها من بنى لخم ، وقريبا من نوب ، هناك : منطى ،  
من قبيلة طى ، وغير ذلك هناك الجعافرة ، والسليمانية ، وميت كناية ،  
ونل بنى تميم ، وجميعها تشير الى أسماء قبائل وبطون عربية •

## ٢ — محلات اسمائها تحمل لفظة عرب : منها :

كفر العرب (مركز بنها) ، وعرب العليقات (مركز الخانكة  
والتي مر ذكرها منذ قليل) وعرب الصوالحة ، وعرب الشعارة (بمركز  
شبين القناطر) • غير تلك القرى ، هناك عدد من العزب التى تحمل فى



اسمها لمحلة غريباء، (كما يتلوه من الشكل رقم ٤) ويلاحظ ان مواقع تلك العزب قريبة من المحلات التي سبق ذكرها في مواطن ارتباع القبائل .

### ٣ - محلات تحمل اسمائها الفاظ : أبو ، بنى ، اولاد ، وهى :

\* أبو زعل : كانت فى منشئها تسمى : القصير . ثم سميت باسم : بنى صبرة نسبة الى بنى صبرة بن نضرة بن غطفان بن سعد بن عساس بن حرام بن جذام ( ٢٨ : ٢٢ ) . وعرفت باسم : ( أبو زعل ) فى تاريخ ١٨٠٩ ، وربما كان بنو صبرة قد سكنوها فسحيت باسمهم ( ٢٦ : ٩٧ ) .

ويذكر صاحب مراصد الاطلاع ( ٦ : ٦٦٦ ) ناحية باسم زعل ، فيقول « موضع قرب المدينة » وقد يرجع بنو صبرة الى هذا الموضع ، فاستعاروا اسمه لمحلتهن المصرية .

\* تل بنى تميم : يتناقل الاخباريون من أهالى تل بنى تميم أنه أثناء قدوم الجيش الغربى لفتح مصر ، حدثت معركة بين أهالى المحلة التى كانت قائمة فى الموضع الذى اتخذته قريتهم ، سقط فيها عدد من الشهداء المسلمين ، وهدمت مبائى القرية وصارت قلا من القواب . وكلن من بين المصابين صحابى هو « تميم الدارى الأنصارى » وكلنت إصابته فى المعركة شديدة لم تمكنه من الاستمرار مع الجيش الإسلامى الزاحف الى بابلون ، فأقام فى خيمة على التل المتخلف ومعه بعض بنيه ، « عثمان » وطاب لهم المقام وأنشئوا مساكن لهم ونمت قريتهم وصارت تعرف باسم « تل بنى تميم » .

وعثمان ابنه ، اختلى للتعبد فى الموضع الذى دفن فيه فيما بعد ونمت حول ضريحه محلة صغيرة قريبة من تل بنى تميم ومن توابعها وهى المسماة « خلوة سيدى عثمان » .



## جـ - دلالات أسماء المحلات العمرانية على الفترة من الدولة الأيوبية إلى الحملة الفرنسية ١١٧٣/١٨٠١م :

قدم صلاح الدين مصر في ١٢ ألف فارس من الأكراد والأتراك في وقت ضعف فيه شأن العرب • ويقول المقرئ في إشارة موحية : « اعلم أن العرب الذين شهدوا فتح مصر ، قد أبادهم الدهر ، وجهلت أحوالهم أكثر أعقابهم » ( ٨ : ٣ )

ويذكر ابن أبيس ، نقلاً عن ابن وصف شاه - أنه لما تولى الأمير أحمد بن طولون على مصر أخذ في أسباب عمارة قرى مصر وعمارة جسورها وقناطرها وحفر خلجانها وسد ترعها ، فاستقامت أحوال الديار المصرية أيامه ، بعد ما تلاشى أمرها إلى التراب ( ٢ : ٢٦ ) •

وعلى عهد الدولة الأيوبية أجريت عدة مساحات: ففي عهد الملك الناصر صلاح الدين أجريت مساحة عامة سنة ١١٧٧م فيما سُمي بالروك الصلحي ، أخرجها ابن مماتي في كتابه « قوانين الدواوين » • ثم أجريت مساحة أخرى في عهد حسام الدين لاجين سنة ١٢٩٨م فيما عرف بالروك الحسامي ( ١٩ ، ج ١ : ٨٧ ) • ثم عملية مساحة عامة سميت بالروك الناصري سنة ١٣١٢م • الذي تجددت كتابة نسخته الأصلية مرة ثانية ١٣٧٥ م في أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين ابن قلاوون ، ثم تجددت مرة ثالثة وهي الأخيرة - في عهد الملك الأشرف قايتباي سنة ١٤٧٧ في صورة كتاب : « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » لابن الجيعان •

وتم تقسيم البلاد واسعة الزمام إلى نواح جديدة كان يطلق عليها : كفر كذا • • • فكفر كذا • • • موجود من عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون قبل سنة ١٣١٢ •

وعلى العهد العثماني أجريت مساحة فيما عرف بالترايع ( ٩٣٠ - ٩٣٣ هـ / ١٥٢٣ - ١٥٢٦م ) • وحيث كان الغرض الأسمى من الحياء



القرى والمساحات الزراعية هو جباية الخراج ، كان عمال المساحة والخراج لا يهتمهم تصحيح أسماء البلاد التي درست ، بل كانوا يطلقون اسم القرية الدارسة على أحد توابعها من الكفور أو العزب ، فاذا خلت من ذلك كله كانوا يطلقون على زمامها - أى ، أرضها الزراعية - عبارة : « غيط من غير حيط » ، أى أرض زراعية من غير سكن ( ٢٦ : ٧٤ ) .

ومن دراسة أسماء قرى محافظة القليوبية فى الفترة من الدولة الايوبية الى الحملة الفرنسية ( ١١٧٣ - ١٨٠١ م ) يلحظ على أسماء محلات تلك الفترة أن :

\* بعض المحلات التى غير العرب أسماءها أعيدت لها أسماؤها المصرية القديمة .

\* ظهرت محلات جديدة : مستجدة أو حادثة بدل المندرسة ، تحمل أسماء جديدة مثل كفر كذا ، منشأة ...

\* محلات حرفت أسماؤها .

١ - المحلات العمرانية التى أعيدت اليها أسماؤها المصرية القديمة : تستقطب أسماء المحلات العمرانية المصرية الحية حالياً فى قطبين اثنين أساسا : قطب سالب متتح فرعونى ، وقطب موجب سائد عربى . ولقد يتم تحريف الأسماء الفرعونية الى العربية من خلال الأشكال الاغريقية ، ولكن هذه قلة محدودة . والأكثر شيوعا هو أن يتم ذلك من خلال الأشكال القبطية التى ليست الا صورة معدلة من الأصل الفرعونى ، وبهذا تعد القبطية وحدها حلقة الوصل الحقيقية بين القطبين الأساسيين : الفرعونى والعربى . ويبقى أن من خلف الواجهة العربية السائدة بين أسماء المحلات العمرانية المصرية تبرز القاعدة أو الأرضية الفرعونية المتتحية .



والواقع أيضاً أن بعضاً من الأسماء التي تبدو لنا لأقوى وهلة عونية  
بحة ، ليست الا تعريباً لجذور فرعونية ( ٤٧ : ٥١٧ ) •

وسبقت الإشارة الى أن العرب في أول أمرهم كانوا قد عربوا  
أسماء القوي المصرية فقالوا : بينها العسل ، طوح الملق ، أو حرفوا بعض  
الأسماء لتصل الى سمع العربي ، أو غيروا أسماء بعض المحلات •  
ولكن صلاح الدين الأيوبي أمر بإعادة الأسماء المصرية القديمة  
لقراها ، مثل :

\* أكباد دجوى : وردت في نزهة المشتاق للأدريسي باسم : منية  
الشاميين على أنها على الضفة الشرقية لفرع النيل ، يقابلها على الضفة  
الغربية ( طنت ) ، ( طنط الجزيرة ) ، وفي الروك الصلاحى أعيد إليها  
اسمها المصرى القديم ، وهو كباد ، ولقربها من دجوى ، ولتمييزها من  
شريكاتها فى الاسم عرفت باسم : لكباد دجوى •

\* شبرا شهاب : ذكرها الادريسي تحت اسم : قشيرة الأبراج ،  
وفى التحفة وردت (شبرا الأبراج) أى أعيد إليها اسمها المصرى القديم :  
شبرا ، وفى العهد العثمانى عرفت باسم : شبرا شهاب ، نسبة الى  
الشيخ شهاب صاحب المقام الذى كان بها فى ذاك الوقت ( ٣٧ : ٥٦ ) •

\* شبرا هارس : عرفت فى العهد العربى الأول باسم : منية  
الفراريين ، نسبة الى جماعة من بنى قزارة سكنوها فعرفت بهم ، وقد  
أعيد إليها اسمها المصرى القديم ، شبرا هارس ( ٣٧ : ٤٥ ) •

٢ - المحلات العمرانية التى نشأت تحت مسميات جديدة :  
بمراجعة الشكل رقم (٥) يشاهد بين أسماء المحلات العمرانية عدد منها  
يحمل اسم : كفر كذا ، متبوعاً باسم علم ، (شخص أو قرية) •

ومعنى الكفر ، ما بعد من الأرض عن الناس فلا يمر به أحد • أو



هي القرى النائية عن الأمصار ، وفي هذا دلالة على تسمية الكفور بالقرى ،  
وانما تمثل أطراف الزمام الزراعي ، حيث تقوم محلات مؤقتة ، ثم تتحول  
بعد فترة إلى قرى مستقلة ( ٢٠ : ٣٧٢ ) .

والكفر أقدم المصطلحات التي استخدمت للدلالة على مستوى سكن  
أصغر من القرية . وكان المصطلح في بداية استخدامه يدل على القرية  
كما يشير يلقوت إلى ذلك ( ١١ : ٢٥٢ ) إذ يقول : « وأكثروا يتكلم بهذه  
الحكمة ( كفر ) أهل الشام ، فانهم يسمون القرية بالكفر » وقد أضيف  
كل كفر إلى رجل ، ويراد بالكفر « القرى النائية عن الأمصار »  
( ٢١ : ١٨ ) .

وفي اللغة : الكفر : الأرض البعيدة عن الناس ، القرية ، وهي من  
كفرا بالسريانية ، ومعناها قرية أو مزرعة أو حقل ، أو هي عربية  
« التراب يغطي ما تحته » أي بقعة من الأرض عالية نوعاً ( ٣٤ : ج ٦ :  
٤٦١ ) وكلمة كفار عبرية .

ولكن الكلمة تطورت عندما انفصلت بعض الأوسى عن القري  
الأصلية ، وأسست لها سكا غير بعيد عنها ، وأطلق على هذه المحلات  
الصغيرة الجديدة اسم القرية الأصلية مصدراً بكلمة كفر .  
ومن الكفور التي ترجع إلى تلك الفترة ( ١١٧٢ - ١٨٠١ م ) في  
نطاق محافظة القليوبية شاهد :

\* كفر الحارث : نشأ في زمن خلافة عمر بن عبد العزيز ( ٦٣ -  
١٠٢ هـ - ٦٨٢ - ٧٣٠ م ) وإذا فيكون هذا هو أقدم محلة مصنوعة  
بكلمة كفر في محافظة القليوبية .

\* كفر الثوبك : فمسل عن الثوبك في قريبع سنة ١٥٤٥  
( ٢٧ : ٤٤ )



\* كفر شيبين : هو من الكفور ، ورد في التحفة ( ١ : ١١ ) مع شيبين القصر ( القناطر ) وفصل عنها سنة ١٨١٣ ( ٢٧ : ٤١ ) .  
وبالعودة الى الشكل رقم ( ٤ ) يُشاهد عدد من المحلات الناشئة تحت اسم جديد مصدره بكلمة : منشأة أو منشية وزاوية وخلوة وحصة ، ومنها :

\* المنشأة الكبرى : والمنشأة الصغرى : الكبرى منهما اسمها الأصلي منشية عز الملك وتعرف من قديم على السنة للجمهور باسم المنشية الكبرى ، وأما الصغرى فاسمها القديم تروط طسفة ( ١ : ٢٧ ) وكانت تعرف بالمنشية الصغرى لتمييزها من طاروط التي بمركز الزقازيق .

\* منشية بنها : اسمها الأصلي المنشأة ، ويقال لها منشية بنها لأنها كانت من توابع بنها ، وفصلت عنها سنة ١٩١١ ( ٢٦ : ٢٧ ) .  
\* زاوية بلتان : أصلها من توابع بلتان ، وفصلت عنها سنة ١٨٤٢ ( ٢٧ : ٥٠ ) .

\* خلوة سنهرة : وأصلها من توابع سنهرة ، وفصلت عنها سنة ١٩٣٧ ( ٢٧ : ٥٠ ) .

\* الحصة : كانت من توابع نجهطر ( مشتهر ) ، وردت في التحفة ( ١ : ١٠ ) باسم حصة المعنى وعرفت من سنة ١٨٤٢ باسمها الحالي ( الحصة ) ( ٢٧ : ٤٢ ) .

والمشاهد أن : منشأة كذا أو منشية كذا حديثة وتدل على محلة فصلت من محلة أكبر أو بدأها أو أنشأها أحد الأعيان أو الوجهاء ( ١٦ : ٢١٩ ) .

٣ - المحلات التي حُرِفَتْ أو غُيِّرَتْ أَسْمَاؤُهَا : من دراسة أسماء المصالحات العمرانية بمحافظة القليوبية ، شوهد أن القرى المدرسة جميعها كان بينها كفور وعزب يسكن بها القائمون بأعمال الزراعة في



أراضيها ، فأصبحت تلك الكفور والعزب علما على القرى المدرسة تحمل اسمها القديم ولهذا السبب حذفت أسماء كثيرة من سجل التحفة ، وظهر بدلا منها قرى مستحدثة ، قد يظن انها مستجدة ، في حين أن وحدتها المالية قائمة • وفي كثير من الأحيان يذكر الاسم القديم مع الحديث لسهولة الارشاد ، فيقال :

• \* تروط طسفة المعروفة بالمنشية الصغرى ( ١ : ٢٧ ) •

• \* بلقس ومجيحة كفرها وهى كوم الهوى ( ١ : ٦ ) •

وإذا تداخل زمام القريتين معا ، فيقال :

• \* الحراز مع القلزم ( ١ : ٨ ) •

• \* زفيته شطنوف وبهادة كفرها ( ١ : ١٠ ) •

وعلى العهد العثماني حرفت أسماء بعض المحلات ، وخاصة تلك التى كانت تحمل اسم : منية كذا ، فعرفت باسم : ميت كذا ، كما سيرد ذكره •

#### ( د ) دلالات أسماء المحلات العمرانية الحديثة :

ويقصد بها المحلات التى نشأت منذ عصر محمد على الى اليوم • وكان لتحرير الكتب المخطوطة أثر كبير فى تحرير أسماء القرى ، خاصة وأن أسماء القرى فى الواقع أسماء من لغات وأجناس عديدة ، تولت حكم مصر فى عصور مختلفة من التاريخ ، وخليط من أسماء معبودات وكلمات قبطية وفارسية ويونانية ورومانية وأسماء قبائل عربية وغير عربية •

وقد انتهت كل هذه الأسماء بما فيها من : تحريف وتضخيف ، وتغيير وابدال واغفال الى كتاب دواوين محمد على سنة ١٨١٣ فنقلوا هذه الأسماء من مصادرهما القديمة محرفة ومصحفة ومشوهة ، الى



سجلات تاريخ محمد علي، ثم بشرتها الحكومة بحالتها التي وصلت اليها، ومنها أسماء قبائل عربية، كانت غير مستهجنة في عصرها، منذ تكوين القرية الأولى، لكنها أصبحت لا تتماشى مع روح العصر، بل أصبحت على النقيض أداة للتشهير، مثل: طسفة بنى حرام (المنشبة الصغرى حالياً)، حى الخنافس (النايل حالياً) •

وقد وافقت الحكومة أهل هذه القرى على تغيير اسمها بما يطابق روح العصر في حالتين علميتين: أثناء عملية فك الزمام، وأثناء التعداد وحصر السكان (٢٦ : ١٦) •

وبنظرة على الشكل رقم (٥) ودراسة أسماء المحلات في الفترة منذ عهد محمد علي إلى اليوم (١٨٠٥ إلى ١٩٨٥) تلاحظ عدة أمور منها:

١ - كثرة المحلات المستحدثة وتسمية بعضها مصدراً بكلمة كفر: ففي تاريخ سنة ١٨١٣ وحده فصل ٢٧ قرية جديدة، سمي ٢٥ منها مصدرة بكلمة كفر والقريتان المستحدثتان المنفصلتان الأخرتان هما: (البقاشين - العسانية) • بل إن قرى محافظة القليوبية التي ترجع إلى الفترة من عهد محمد علي إلى اليوم وعددها ٦٣ قرية يلاحظ أن ٥٤ قرية تحمل اسم (كفر كذا) •

وبتزايد عدد السكان نمت تلك الكفور العمرانية، وتضخم بعضها • ومن الدراسة الميدانية ومراجعة السجلات والمصادر العلمية فقد تبين أن هناك أربعة مستويات من المحلات العمرانية التي تحمل في أصلها (كفر - كفور) في نطاق محافظة القليوبية (شكل رقم ٥) •

\* فقد يكون الكفر مجاوراً للناحية، ومع النمو العمراني يصبح الكفر: حياً أو شياخة ضمن المحلة، كما يشاهد في: كفر منافر، الذي أصبح أحد أحياء مدينة بنها، أو قد ينضم كفوران في محلة واحدة، مثل







كفر رمادة وكفر الترجمان ، وكفور عامر ورضوان ( كفر الشيخ عامر  
وكفر رضوان اسماعيل ) أو قد يضم الكفر الى محلة لا تحمل اسم كفر ،  
مثل : مرصفا وكفر أحمد حشيش ، وميت كنانة وكفر شومان •

\* لا تزال بعض الكفور من مستوى العزب ( توابع للقرى ) ،  
مثل : كفر شومان ( من توابع ميت كنانة ) ، وكفر الشرفا ( من توابع  
دجوى ) وكفر سليمان الور ( من توابع تل بنى تميم ) ، وكفر السبيل  
( من توابع حلاية ) •

\* هناك ستون كفرا أو كفورا من مستوى القرية ( الشكل رقم ١ ) •  
\* بعض الكفور وصلت الى مستوى المدينة ، ويمثلها هنا : كفر شكر •  
فقد تكون كفر شكر سنة ١٨١٣ بفصله بزمام من أراضي نواحي :  
أسنيت وطسفا وميت الدريج وينسب الى منشئه الحاج شكر ابراهيم ،  
من أعيان قرية أسنيت ، حيث نشأ هذا الكفر فى أرضها ( ٢٨ : ٢٦٧ )  
وبالقرار الوزارى رقم ٣٣ لسنة ١٩٦٤ انشئ فى محافظة القليوبية مركز  
جديد باسم مركز كفر شكر بفصل مجموعة من القرى من مراكز : بنها —  
ميت غمر — منيا القمح • وتحولت قرية كفر شكر الى مدينة باسم :  
مدينة كفر شكر ، بالقرار الجمهورى رقم ٨٣٦ لسنة ١٩٧٠ ( ٣٤ : — ) •

وبالقليوبية بعض الكفور وهى أقدم فى النشأة من المحلات والكفور  
الحديثة ، ومنها كفر أبو زهرة ، كفر الولجا ، كفر طحلة ، كفر منصور  
( بمركز طوخ ) ، كفر جمعة ، كفر شبين ، كفر شرف الدين ، وجميعها لها  
أصول تمتد الى ما قبل العهد العثمانى ولكنها كانت تحمل أسماء مغايرة  
لأسمائها الحالية ، فعلى سبيل المثال :

\* كفر الولجا : ورد فى قوانين ابن مماتى ضمن ناحية : الولجتين  
من أعمال الشرقية • وفى الروك للناصرى فصلت كل ولجة منهما عن  
الأخرى فوردت فى التحفة ( ١ : ٢٣ ) باسم : ولجة على وهى هذه ،  
والثانية باسم : ولجة عمران من أعمال الشرقية • وفى تاريخ ١٨١٣



وردت كل منهما باسمها الحالى : الولجا وكفر الولجا ، وكانتا تابعتين  
لمركز منيا القمح . وقد فصلت منه كفر الولجا وضمت لمركز كفر شكر  
عند أنشائه فى سنة ١٩٦٤ .

\* كفر جمعة : ورد فى وقف السلطان الاشرف برسباي ( ٨٤١ هـ  
— ١٤٣٧ م ) ، باسم : منيل أبو جمعة ، وفصلت باسمها الحالى فى تاريخ  
سنة ١٨١٣ ( ٢٧ : ٥٨ ) .

والعادة فى الكفر أن يكون بجوار بلدته الأصلية مثل : كفر شبين ،  
وكفر طحلة ، وكفر العمار ، وكفر بطا ، وكفر السموت . وقد يفصل  
تقسيم المراكز بين القرى وكفورها ، فالمصافة بمركز شبين القناطر  
وكفورها بمركز طوخ ، والدير بمركز طوخ وكفورها بمركز شبين القناطر .  
والحصة بمركز طوخ وكفورها بمركز بنها ، وسندوة بمركز الخانكة وكفورها  
بمركز شبين القناطر . بل : الولجا بمركز منيا القمح ( محافظة الشرقية )  
وكفورها بمركز كفر شكر ( محافظة القليوبية ) .

ومن تنويعات الكفر الأقل حدوثا ( كفور ) يوجد بالقليوبية :

\* كفور عابد : أصلها من توابع طوخ باسم : كفر عابد صبيح ،  
فصل عن طوخ سنة ١٨٤٣ ، وكان يشترك مع فى الزمام الزراعى قرية  
أخرى باسم : خلوة عبد النبى فتمت القرىتان معا ( كفر عابد صبيح  
وخلوة عبد النبى ) وسميتا معا ( كفور عابد ) ( ٢٧ : ٥٢ ) .

\* كفور عامر ورضوان : كفر الشيخ عامر ينسب الى الشيخ عامر  
ساكن الضريح الذى بهذا الكفر — وكان هذا الكفر من توابع كفر على  
شرف الدين . كذلك كان كفر رضوان اسماعيل من توابع كفر على  
شرف الدين وفصل عنه سنة ١٨٥٣ ، ونظرا لتداخل أراضى تلك الكفور  
الثلاثة فقد ادمجت كلها فى وحدة ادارة واحدة باسم كفور أسنيت  
لجاورتها لناحية أسنيت ، وذلك سنة ١٩٠٣ ، وعندها فصل كفر



شرف الدين ، فصل بعده كفر الشيخ عامر وكفر رضوان اسماعيل سنة ١٩٢٥ وكونا معا ناحية واحدة باسم كفر عامر ورضوان ( ٢٧ : ٢٥ ) •

## ٢ - محلات استبدلت أسماؤها للاستهجان أو للتيمن :

عندما كانت تزيد سطوة الحكام ، أو يثقل الشعب بالضرائب كانت تحدث انتفاضات من الأهالي للمقاومة فتضطر الحكومة الى قمع الثورات ، أحيانا بالعنف لدرجة قد تلجأ فيها الى هدم القرى وإطلاق اسمها على مكانها الذي يصبح طوعاً أو راعياً ، وأخف العقوبات التي توقعها الحكومة ، وخاصة على العهد العثماني - هي إطلاق اسم مستهجن على المحلة ، وعندما تتبدل الأحوال ، وتزول الأمتاب يطالب الأهالي باستعادة الاسم الأصلي أو استبدال اسم جديد بالاسم المستهجن •

وقد تكون أسماء المحلات في وقت ما مألوفة ولكنها في وقت آخر تصبح مستهجنة ، فيطالب الأهالي باستبدالها • وقد تكون الأسماء الجديدة على سبيل التيمن •

✽ العمار الكبرى : سبقت الإشارة إليها ( ص ٣٤٦ ) على أنها نسبت الى جماعة من فزارة سكنوها فعرفت بها • ولما خربت عرغت باسم : خراب فزارة • وردت به في التحفة ( ١ : ١٠ ) • وللتخلص من اسم : خراب فزارة أطلق عليها أهلها اسم العمار ، للتيمن ، فوردت به في خريطة الحملة في تاريخ ١٨١٣ ، ولما فصل منها كفرها ومنشيتها عرفت من سنة ١٨٥٨ باسم العمار الكبرى ( ٢٧ : ٤٣ ) لتمييز من توابعها •

✽ الجعاقرة : وردت في الانصار وفي التحفة مع بلقش ، فيقول ابن دقماق ( ٤ : ٥ : ٤٥ ) بلقش وكوم الهوى كفرها ، ويقول ابن الجيعان ( ١ : ٤ ) بلقش ومجيخة كفرها وهي كوم الهوى • وفي تجميع ١٥٢٦ كوم الهوى وهي كفر بلقش • كذلك وردت في دليل ١٨٤٩ • ولما كان سكان هذه القرية من عرب الجعاقرة - كما سبقت الإشارة - الذين



استوطنوا تلك الجهة ، فقد انتهزوا فرصة تاريع سنة ١٨١٣ وسموها الجعافرة ، للتخلص من كوم الهوى ( ٣٧ : ٣٢ ) •

✽ الخاصة : هذه القرية استبدل اسمها عدة مرات : فهي قديما كانت تسمى (الخرالولة) وفصلت به عن شبرا هارس في تاريع ١٨١٣ • ولاستهجان اسم الخرالولة ، طلب أهلها تغيير اسمها وتسميتها الفؤادية تيمنا باسم الملك فؤاد الأول ، وتم ذلك بقرار من وزارة الداخلية سنة ١٩٣٤ ( ٢٧ : ٤٩ ) وبعد قيام الثورة سميت منشأة شبرا هارس ، وأخيرا تغير اسمها الى الناصرية تيمنا باسم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وذلك بالقرار الجمهوري رقم ١٦٧٤ بتاريخ ٢٦/٨/١٩٦٤ ( ١٣ : ٤ ) •

✽ منشأة بنفسها : اسمها الأصلي المنشية ويقال لها منشية بنها ، لأنها كانت من توابع بنها ، وفصلت عنها سنة ١٩١٢ وتيمنا باسم الملك فاروق غير اسمها الى الفاروقية سنة ١٩٤٠ ، ( ٢٧ : ٢٧ ) وبعد الثورة أعيد اليها اسمها القديم محرقا الى منشأة ومسندا الى بنها فوردت باسم : منشأة بنها •

✽ المنيرة ومنشأة الكرام : كانت كل منهما تسمى : زفتا أو زفيتة ، منسوبة الى قرية مجاورة لتمييز كل منهما عن الأخرى وعن وفتى التى بالعربية ، فالمنيرة كانت تسمى زفيتا شطونوف ( ١٢ : ٢٣٤ ) ، وفى تربيعة ١٢٥٨ عرفت باسم زفيتة شلقان المجاورة لها ولتمييزها عن زفيتة مشتول المجاورة لمشتول السوق • ولاستهجان اسم زفتا وزفيتة ، طلب سكان كل من القريتين استبدال اسمها ، فأخذت زفيتة شلقان اسم المنيرة من سنة ١٩٣٤ ( ٢٧ : ٥٤ ، ٥٥ ) أما زفيتة مشتول فقد استبدل اسمها الى منشأة الكرام سنة ١٩٤٧ ، على أن زفتا مشتول كان اسمها السابق « منا مشتول » كما وردت فى قائمة ابن الجيعان •

✽ كفر طحلة : كانت قديما تسمى ( باخة ) ونسبت اليها طحلة المجاورة لها ، كما ورد التحفة ( ١ : ٣٥ ) ، ولاستهجان كلمة ( باخة ) قيد زمامها فى تاريع سنة ١٨١٣ باسم كفر طحلة ( ٢٦ : ٢٤ ) •



\* حلاية : من القرى القديمة ، كانت تسمى قتلانة ، وردت به فى الانتصار ( ٤ ، ج ٥ : ٥٠ ) محرفا باسم : قلاية وكفورها ، ثم وردت فى التحفة ( ١ : ١٣ ) ضمن كفور قلما ، قال : قلما وكفورها بما فيها قتلانة . وفى العهد العثمانى غير اسمها لاستهجانها — الى حلاية وهو اسمها الحالى ، الذى وردت به فى تاريخ سنة ١٨١٣ ( ٢٧ : ٥٥ ) .

\* منية السباع : فى أيام الدولة الفاطمية غضب عامل الخراج على أهل منية السباع ، فأمر بتسميتها منية الخنازير ، تحقيرا لهم .

لذلك وردت بهذا الاسم فى السجلات فى التحفة مثلا ( ١ : ٤٣ ) قال ابن الجيعان : منية السباع وهى منية الخنازير ، وحرف اسمها الى ميت خنازير فوردت به فى تاريخ سنة ١٨١٣ .

وقد أعيد اليها اسمها الأصلى وهو منية السباع بدلا من اسمها المستهجن وذلك فى سنة ١٩٣٠ ( ٢٧ : ٢٦ ) ، الا أنه لوحظ أثناء الدراسة الميدانية أن بعض كبار السن بالقرية لا يزالون يقولون انهم من ( ميت الحلايف ) .

ومن الجدير بالملاحظة أن فصل القرى من اقليم والحاقيها بآخر ، أو فصل قرى مستجدة كانت توابع لقرى أخرى ، كان يتم بمرسوم ، واستمر ذلك حتى ١٩٠٦ عندما أجريت مساحة عامة لأكثر جهات مصر . ومن ذلك التاريخ صار ذلك بقرار من وزارة الداخلية . الا أنه ابتداء من سنة ١٩٦٠ وبدء تطبيق نظام الادارة المحلية أصبح فصل القرى وتعديل الأسماء يتم بقرار جمهورى .



## قائمة المصادر والمراجع

### أولا - المصادر:

- ١ - ابن الجيعان ( شرف الدين يحيى بن المقر ) ، ١٨٩٨ ، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، القاهرة ، الكتبخانة الخديوية .
- ٢ - ابن اياس ( محمد بن أحمد ) ، ١٩٦٠ ، يدائع الزهور فى وقائع الدهور ، القاهرة ، دار الشعب .
- ٣ - ابن حوقل ( أبو القاسم محمد ) ، ١٩٧٩ ، كتاب صورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .
- ٤ - ابن دقماق ( ابراهيم بن محمد ) ، ( د . ت . ) ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج ٤ ، ج ٥ ، بيروت ، دار الافاق الجديدة .
- ٥ - ابن عبد الحكم ( عبد الرحمن بن عبد الله ) ، ١٩٢٠ ، فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ، مطبعة بريل .
- ٦ - البغدادى ( صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ) ، ١٩٥٤ - ١٩٥٥ ، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، الطبعة الأولى ، تحقيق على محمد البجاوى ، بيروت ، دار المعرفة .
- ٧ - الكندى ( أبو عمر محمد ) ، ١٩٤٨ ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت .
- ٨ - المقرئى ( تقى الدين أحمد بن على ) ، ١٩٦٢ ، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، الطبعة الأولى ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، عالم الكتب .
- ٩ - المقرئى ( تقى الدين أحمد بن على ) ، ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، الخطط المقرئية ، القاهرة دار الشعب .



١٠ - على مبارك ( ١٨٨٧ ، ١٨٨٨ ) ، الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءا ، القاهرة ، مطبعة بولاق الأميرية •

١١ - ياقوت الحموى ، ١٩٤٦ ، المشترك وضعاً والمفترق صقاً ، تحقيق وستفلد ، لينزج •

١٢ - ياقوت الحموى ، ١٩٥٧ ، معجم البلدان ، خمس مجلدات ، بيروت ، دار صادر •

### ثانياً - المراجع :

١٣ - الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ، ١٩٧٨ ، النتائج النهائية لتعداد سكان الريف لسنة ١٩٧٦ ، تعداد سكان الريف ، محافظة القليوبية ، مرجع رقم ٩٣ - ٢٥١١١ - ١٩٧٨ ، القاهرة •

١٤ - الفريد ج. ( بتلر ) ، ١٩٤٦ ، فتح العرب لمصر ، الطبعة الثانية ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر •

١٥ - جمال حمدان ، ١٩٧٠ ، شخصية مصر ( الكتاب الوسيط ) ، القاهرة ، عالم الكتب •

١٦ - جمال حمدان ، ١٩٨١ ، شخصية مصر ، المجلد الثانى ، مصر البشرية ، القاهرة ، عالم الكتب •

١٧ - جمال حمدان ، ١٩٨٤ ، شخصية مصر ، المجلد الرابع ، القاهرة ، عالم الكتب •

١٨ - سليم حسن ، ١٩٤٤ ، أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر •

١٩ - سليم حسن ، ١٩٥٩ - ١٩٥١ ، مصر القديمة ، ٢١ جزء ، القاهرة ، دار الكتب المصرية •



٣٠ — عبد العال عبد المنعم الشامي ، ١٩٧٣ ، مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجري ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة •

٣١ — عبد العال عبد المنعم الشامي ، ١٩٨٢ ، مدن مصر وقرارها عند ياقوت الحموي ، الطبعة الأولى ، الكويت ، الجمعية الجغرافية الكويتية •

٣٢ — عبد الفتاح محمد وهبة ، ( د . ت . ) ، جغرافية العمران ، الاسكندرية ، منشأة المعارف •

٣٣ — كارستن تيبور ، ١٩٧٧ ، رحلة إلى مصر ، ترجمة مصطفى ماهر ، القاهرة ، المطبعة العالمية •

٣٤ — مديرية أمن القليوبية ، ملف التغيرات الادارية ، بيانات غير منشورة •

٣٥ — محمد السيد غلاب ، ١٩٧٤ ، تطور الجنس البشرى ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، مكتبة الانجلو •

٣٦ — محمد رمزي ، ١٩٥٣ ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الأول ، البلاد المدرسة ، القاهرة ، دار الكتب المصرية •

٣٧ — محمد رمزي ، ١٩٥٤ ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الثانى ، الجزء الأول ، مديريات شرق الدلتا ، القاهرة ، دار الكتب المصرية •

٣٨ — محمد فاتح عقيل ، ١٩٥٩ ، بعض الظاهرات الجغرافية فى بلاد النوبة المصرية ، فى ( المحاضرات العامة ) ، القاهرة ، الجمعية الجغرافية المصرية •

٣٩ — نعوم شقير ، ١٩١٦ ، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، القاهرة ، مطبعة المعارف •



- ٣٠ — نوال محمد عبد الله ، ١٩٧١ ، العمران فى الحافة الشرقية للدلتا ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس .
- ٣١ — ابن فارس ( أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ) ، ١٩٧٧ ، الصحبى ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ( عيسى البابى الحلبي ) .

(32) Boinet A., ( 1899 ) : Dictionnaire Geographique de L' Egypte, Le Caire.

(33) Gauthier. H., ( 1924 ) : Dictionnaire des Noms Geographique contenus Textes Hieroglyphiques. 6 Vols. Le Caire.

(34) Lozach, J. & Hug, G., ( 1930 ) : L'Habitat Rural En Egypte, Le Caire, La Société de Geographie d'Egypte.